

مختصر

# القول المفيد على كتاب التوحيد

لفضيلة الشيخ  
محمد بن صالح العثيمين  
رحمه الله

اختصره  
عبدالله بن فهد القاضي

## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد:

فهذا اختصار لشرح فضيلة شيخنا العلامة الشيخ محمد بن صالح العثيمين، رحمه الله تعالى رحمة واسعة، ورفع درجته في المهديين، شرحه لكتاب التوحيد للإمام المجدد الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى، قصدت به تقريب الكتاب لمن أراد مطالعته واستذكار مسأله، وذلك بإزالة بعض المسائل الخارجة عن مقصود الكتاب، واختصار ما يقتضيه أسلوب الدرس -الذي هو أصل الكتاب- من الإطناب، مع حفظ عبارات الشيخ، وحذف المسائل (من أصل كتاب التوحيد).

سائلا الله تعالى أن يجزي مؤلف الكتاب وشارحه خير الجزاء.

١٤٣٧/١٠/٥ هـ

## كتاب التوحيد

لم يذكر في النسخ التي بأيدينا خطبة للكتاب من المؤلف، فإما أن تكون سقطت من النسخ، وإما أن يكون المؤلف اكتفى بالترجمة؛ لأنها عنوان على موضوع الكتاب وهو التوحيد.

والكتاب بمعنى مكتوب، أي مكتوب بالقلم، أو بمعنى مجموع، من قولهم كتيبة، وهي المجموعة من الخيل.

أما التوحيد فهو في اللغة: مصدر وحَّد الشيء إذا جعله واحدا.

وفي الشرع: أفراد الله تعالى بما يختص به من الربوبية والألوهية والأسماء والصفات.

وينقسم التوحيد إلى ثلاثة أقسام: توحيد الربوبية، وتوحيد الألوهية، وتوحيد الأسماء والصفات.

وقد اجتمعت في قوله تعالى ﴿رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾.

القسم الأول: توحيد الربوبية، وهو أفراد الله ﷻ بالخلق والملك والتدبير.

فإفراده بالخلق: أن يعتقد الإنسان أنه لا خالق إلا الله، قال تعالى ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾، فهذه الجملة تفيد الحصر لتقديم الخبر، إذ إن تقديم ما حقه التأخير يفيد الحصر.

أما ما ورد من إثبات خالق غير الله كقوله تعالى ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾، وكقوله ﷻ في المصورين يقال لهم: «أحيوا ما خلقتم»، فهذا ليس خلقا حقيقة، وليس إيجادا بعد عدم، بل هو تحويل للشيء من حال إلى حال، وأيضا ليس شاملا، بل محصور بما يتمكن الإنسان منه؛ فلا ينافي قولنا: أفراد الله بالخلق.

وأما أفراد الله بالملك: فأن نعتقد أنه لا يملك الخلق إلا خالقهم، كما قال تعالى ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، وقال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾.

وأما ما ورد من إثبات الملكية لغير الله كقوله تعالى ﴿إِلَّا عَلَىٰ أَرْوَاحِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾، وقال تعالى ﴿أَوْ مَا مَلَكَتُمْ مَفَاتِحَهُ﴾ فهو ملك محدود لا يشمل إلا شيئا يسيرا من هذه المخلوقات فالإنسان يملك ما تحت يده، ولا يملك ما تحت يد غيره، وكذا هو ملك قاصر من حيث الوصف، فالإنسان لا يملك ما عنده تمام الملك، ولهذا لا يتصرف فيه إلا على حسب ما أذن له فيه شرعا.

وأما أفراد الله بالتدبير: فهو أن يعتقد الإنسان أنه لا مدبر إلا الله وحده، كما قال تعالى ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمْ مَنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ\* فَذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعَدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنْتِ تُضِرُّونَ﴾.

وأما تدبير الإنسان فمحصور بما تحت يده، ومحصور بما أذن له فيه شرعا.

وهذا القسم من التوحيد لم يعارض فيه المشركون الذين بعث فيهم الرسول ﷺ بل كانوا مقرين به، قال تعالى: ﴿وَلَعِنَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾، ولم ينكره أحد معلوم من بني آدم، فلم يقل أحد من المخلوقين إن للعالم خالقين متساويين، فلم يجحد أحد توحيد الربوبية، لا على سبيل التعطيل ولا على سبيل التشريك، إلا ما حصل من فرعون، فإنه أنكره على سبيل التعطيل مكابرة، فإنه عطل الله من ربوبيته وأنكر وجوده، قال تعالى حكاية عنه: ﴿فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى﴾، ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾، وهذا مكابرة منه لأنه يعلم أن الرب غيره، كما قال تعالى: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾، وقال تعالى حكاية عن موسى وهو يناظره: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَمَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، فهو في نفسه مقر بأن الرب هو الله ﷻ، وأنكر توحيد الربوبية على سبيل التشريك المجوس، حيث قالوا: إن للعالم خالقين هما الظلمة والنور، ومع ذلك لم يجعلوا هذين الخالقين متساويين، فهم يقولون: إن النور خير من الظلمة؛ لأنه يخلق الخير والظلمة تخلق الشر، والذي يخلق الخير خير من الذي يخلق الشر.

دلالة العقل على أن الخالق للعالم واحد: قال الله تعالى: ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾، إذ لو أثبتنا للعالم خالقين لكان كل خالق يريد أن ينفرد بما خلق، ويستقل به كعادة الملوك، إذ لا يرضى أن يشاركه أحد، وإذا استقل به فإنه يريد أيضا أمرا آخر، وهو أن يكون السلطان له لا يشاركه فيه أحد، وحينئذ فيما أن يعجز كل واحد منهما عن الآخر، أو يسيطر أحدهما على الآخر فإن سيطر أحدهما على الآخر ثبتت الربوبية له، وإن عجز كل منهما عن الآخر زالت الربوبية منهما جميعا؛ لأن العاجز لا يصلح أن يكون ربا.

القسم الثاني: توحيد الألوهية، ويقال له توحيد العبادة، وهو أفراد الله عز وجل بالعبادة.

فالمستحق للعبادة هو الله تعالى، قال تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَاطِلُ﴾.

والعبادة تطلق على شيئين:

الأول: التعبد بمعنى التذلل لله ﷻ بفعل أوامره واجتناب نواهيه محبة وتعظيما.

الثاني: المتعبد به، فمعناها كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه

من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة.

مثال ذلك: الصلاة ففعلها عبادة، وهو التعبد، ونفس الصلاة عبادة، وهو المتعبد به.  
فإفراد الله بهذا التوحيد: أن تكون عبداً لله وحده تفرد بالتذلل محبة وتعظيماً، وتعبده بما شرع. قال تعالى  
﴿لَا يَجْعَلُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْدُومًا﴾.

وهذا القسم كفر به وجحده أكثر الخلق، ومن أجل ذلك أرسل الله الرسل، وأنزل عليهم الكتب، قال الله  
تعالى ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾.  
القسم الثالث: توحيد الأسماء والصفات، وهو إفراد الله وَعَلَيْكَ بما له من الأسماء والصفات.  
وهذا يتضمن شيئين:

الأول: الإثبات، وذلك بأن نثبت لله عز وجل جميع أسمائه وصفاته التي أثبتها لنفسه في كتابه أو سنة نبيه  
صلى الله عليه وعلى آله وسلم.

الثاني: نفي المماثلة، وذلك بأن لا نجعل لله مثيلاً في أسمائه وصفاته، كما قال تعالى ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ  
السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾.

### وقول الله تعالى ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ الآية.

قوله: ﴿إلا ليعبدون﴾ استثناء مفرغ من أعم الأحوال، أي: ما خلقت الجن والإنس لأي شيء إلا للعبادة.  
واللام في قوله: ﴿إلا ليعبدون﴾ للتعليل، وهذا التعليل لبيان الحكمة من الخلق، وليس التعليل الملازم للمعلول  
إذ لو كان كذلك للزم أن يكون الخلق كلهم عباداً لله يتعبدون له، وليس الأمر كذلك.  
قوله: ﴿خلقت﴾ أي: أوجدت، وهذا الإيجاد مسبوق بتقدير، وأصل الخلق التقدير، قال الشاعر:  
ولأنت تفري ما خلقت وبع — ض القوم يخلق ثم لا يفري

قوله: ﴿الجن﴾ هم عالم غيبي مخفى عنا، ولهذا جاءت المادة من الجيم والنون، وهما يدلان على الخفاء  
والاستتار ومنه: الجنة، والجنة، والجنة.

قوله: ﴿الإنس﴾ سموا بذلك، لأنهم لا يعيشون بدون إنسان، فهم يأنس بعضهم ببعض، ويتحرك بعضهم  
إلى بعض.

قوله: ﴿إلا ليعبدون﴾ فسر: إلا ليوحدون، وهذا حق، وفسر: بمعنى يتذللون لي بالطاعة فعلاً للمأمور، وتركوا  
للمحذور، ومن طاعته أن يوحد سبحانه وتعالى، فهذه هي الحكمة من خلق الجن والإنس.

وليست الحكمة من خلقهم نفع الله، ولهذا قال تعالى ﴿مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُونَ﴾، وأما قوله تعالى ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ﴾ فهذا ليس إقراضاً لله سبحانه، بل هو غني عنه، لكنه سبحانه شبه معاملة عبده له بالقرض؛ لأنه لا بد من وفائه، فكأنه التزام من الله سبحانه أن يوفي العامل أجر عمله، كما يوفي المقرض من أقرضه.

## وقوله تعالى ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾.

قوله: ﴿ولقد﴾ اللام موطئة لقسم مقدر، وقد: للتحقيق، وعليه فالجملة مؤكدة بالقسم المقدر، واللام، وقد. قوله: ﴿بعثنا﴾ أي: أخرجنا، وأرسلنا في كل أمة، والأمة هنا: الطائفة من الناس. والحكمة من إرسال الرسل:

أ\_ إقامة الحجّة: قال تعالى ﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾.  
ب\_ الرحمة: لقوله تعالى ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾.

ج\_ بيان الطريق الموصل إلى الله تعالى، لأن الإنسان لا يعرف ما يجب لله على وجه التفصيل إلا عن طريق الرسل.

قوله: ﴿أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ (أن): قيل: تفسيرية، وهي التي سبقت بما يدل على القول دون حروفه، كقوله تعالى ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنْ اصْنَعْ الْقُلُوكَ﴾، والبعث متضمن معنى الوحي لأن كل رسول موحى إليه. وقيل: إنها مصدرية على تقدير الباء، أي: بأن اعبدوا، والراجع: الأول لعدم التقدير. قوله: ﴿أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ أي: تذللوا له بالعبادة، وسبق تعريف العبادة.

قوله: ﴿وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ أي: ابتعدوا عنه بأن تكونوا في جانب وهو في جانب.

والطاغوت: مشتق من الطغيان، وهو صفة مشبهة، والطغيان: مجاوزة الحد كما في قوله تعالى ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ﴾ أي: تجاوز حده.

وأجمع ما قيل في تعريفه هو ما ذكره ابن القيم رحمه الله بأنه: ما تجاوز به العبد حده من متبوع، أو معبود، أو مطاع.

ومراده من كان راضياً بذلك، أو يقال: هو طاغوت باعتبار عابده، وتابعه، ومطيعه، لأنه تجاوز به حده؛ حيث نزله فوق منزلته التي جعلها الله له، فتكون عبادته لهذا المعبود واتباعه لمتبوعه وطاعته لمطاعه طغياناً لمجاوزته الحد بذلك.

فالمتبوع مثل: الكهان، والسحرة، وعلماء السوء.

والمعبود مثل: الأصنام.

والمطاع مثل: الأمراء الخارجين عن طاعة الله، فإذا اتخذهم الإنسان أربابا يحل ما حرم الله من أجل تحليلهم له، ويحرم ما أحل الله من أجل تحريمهم له، فهؤلاء طواغيت، والفاعل تابع للطاغوت.

ودلالة الآية على التوحيد: أن الأصنام من الطواغيت التي تعبد من دون الله، والتوحيد لا يتم إلا بركنين، هما الإثبات والنفي.

إذ النفي المحض: تعطيل محض، والإثبات المحض: لا يمنع المشاركة، مثال ذلك: زيد قائم، يدل على ثبوت القيام لزيد، لكن لا يدل على انفراده به، (و لم يقيم أحد) هذا نفي محض، (و لم يقيم إلا زيد) هذا توحيد له بالقيام، لأنه اشتمل على إثبات ونفي.

وقوله: (الآية) أي: إلى آخر الآية، وتقرأ بالنصب، إما على أنها مفعول به لفعل محذوف تقديره أكمل الآية، أو أنها منصوبة بنزع الخافض، أي: إلى آخر الآية.

ووجه الاستشهاد بهذه الآية لكتاب التوحيد: أنها دالة على إجماع الرسل عليهم الصلاة والسلام على الدعوة إلى التوحيد، وأنهم أرسلوا به.

وقوله: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ الآية.

قوله: ﴿قَضَىٰ﴾ قضاء الله عز وجل ينقسم إلى قسمين: قضاء شرعي وقضاء كوني.

فالقضاء الشرعي: يجوز وقوعه من المقضي عليه وعدمه، ولا يكون إلا فيما يحبه الله. مثال ذلك: هذه الآية

﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ فتكون قضي بمعنى شرع، أو بمعنى وصى وما أشبههما.

والقضاء الكوني: لا بد من وقوعه، ويكون فيما أحبه الله، وفيما لا يحبه. مثال ذلك: قوله تعالى ﴿وَقَضَيْنَا

إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ فالقضاء هنا كوني، لأن الله لا يشرع

الفساد في الأرض، ولا يحبه.

فإذا قيل: فكيف يقضي الله ما لا يحبه؟ فالجواب: أن المحبوب قسمان: محبوب لذاته، ومحبوب لغيره.

فالمحبوب لغيره قد يكون مكروها لذاته، ولكن يحب لما فيه من الحكمة والمصلحة، فيكون حينئذ محبوبا من

وجه، مكروها من وجه آخر. مثال ذلك: الفساد في الأرض من بني إسرائيل في حد ذاته مكروه إلى الله؛ لأن الله

لا يحب الفساد، ولا المفسدين، ولكن للحكمة التي يتضمنها يكون بها محبوبا إلى الله عز وجل من وجه آخر.

ومن ذلك: القحط والجذب والمرض والفقير؛ لأن الله رحيم لا يجب أن يؤدي عباده بشيء من ذلك، بل يريد بعباده اليسر، لكن يقدره للحكم المترتبة عليه، فيكون محبوباً إلى الله من وجه، مكروهاً من وجه آخر، قال الله تعالى ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾. وهذا الإنسان المريض يُعطى جرعة من الدواء مرة كريهة الرائحة واللون، فيشربها وهو يكرهها، لما فيها من المرارة واللون والرائحة، ويحبها لما فيها من الشفاء، وكذا الطبيب يكوي المريض بالحديد المحمأة على النار، ويتألم منها، فهذا الألم مكروه له من وجه، محبوب له من وجه آخر.

والخطاب في الآية للنبي ﷺ لكن قال: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ ولم يقل: (أن لا تعبد)، ونظير ذلك في القرآن قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ﴾ فالخطاب الأول للرسول ﷺ والثاني عام، فما الفائدة من تغيير الأسلوب؟

أجيب: إن الفائدة من ذلك:

١\_ التنبيه؛ إذ تنبيه المخاطب أمر مطلوب للمتكلم، وهذا حاصل هنا بتغيير الأسلوب.

٢\_ أن النبي ﷺ زعيم أمته، والخطاب الموجه إليه موجه لجميع الأمة.

٣\_ الإشارة إلى أن ما خوطب به الرسول ﷺ فهو له ولأمته إلا ما دل الدليل على أنه مختص به.

٤\_ وفي هذه الآية خاصة الإشارة إلى أن النبي ﷺ مريب لا رب، عابد لا معبود، فهو داخل في قوله: ﴿تَعْبُدُوا﴾ وكفى به شرفاً أن يكون عبداً لله عز وجل، ولهذا يصفه الله تعالى بالعبودية في أعلى مقاماته، فقال في مقام التحدي والدفاع عنه: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾، وقال في مقام إثبات نبوته ورسالته إلى الخلق: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ﴾، وقال في مقام الإسراء والمعراج: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ﴾، ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ﴾.

أقسام العبودية:

تنقسم العبودية إلى ثلاثة أقسام:

١\_ عامة: وهي عبودية الربوبية، وهي لكل الخلق، قالت تعالى ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾ ويدخل في ذلك الكفار.

٢\_ عبودية خاصة: وهي عبودية الطاعة العامة، قال تعالى ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا﴾، وهذه تعم كل من تعبد لله بشرعه.

٣\_ عبودية خاصة الخاصة: وهي عبودية الرسل عليهم الصلاة والسلام، قال تعالى عن نوح: ﴿إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾، وقال عن محمد: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾، وقال في آخرين من الرسل: ﴿وَأذْكَرُ﴾

عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ ﴿١٠٠﴾، فهذه العبودية المضافة إلى الرسل خاصة الخاصة، لأنه لا يباري أحد هؤلاء الرسل في العبودية.

وقوله: ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ أي: قضى ربك أن نحسن بالوالدين إحسانا. والوالدان: يشمل الأم والأب ومن فوقهما، لكنه في الأم والأب أبلغ، وكلما قربا منك كانا أولى بالإحسان. والإحسان بذل المعروف.

وفي قوله: ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ بعد قوله: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ دليل على أن حق الوالدين بعد حق الله عز وجل، فإن قيل: فأين حق الرسول ﷺ؟ أجيب: بأن حق الله متضمن لحق الرسول ﷺ؛ لأن الله لا يعبد إلا بما شرع الرسول ﷺ.

وقوله: ﴿إِنَّمَا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ﴾ أي: كف الأذى عنهما، ففي قوله: ﴿إِحْسَانًا﴾ بذل المعروف، وفي قوله: ﴿فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ﴾ كف الأذى، ومعنى ﴿أف﴾ أتضجر، وفي الآية إشارة إلى أنهما إذا بلغا الكبر صاروا عبئا على ولدهما، فلا يتضجر من الحال، ولا ينهرهما في المقال إذا أساءا في الفعل أو القول.

وقوله: ﴿وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ أي: لينا حسنا بهدوء وطمأنينة، فالقول الكريم يكون في صيغته، وأدائه، والخطاب به.

والشاهد من هذه الآية: قوله تعالى ﴿أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾، فهذا هو التوحيد لتضمنه للنفي والإثبات.

### وقوله: ﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ الآية.

قوله ﴿وَلَا تُشْرِكُوا﴾ في مقابل (لا إله) لأنها نفي، وقوله: ﴿واعبدوا﴾ في مقابل (إلا الله)، لأنها إثبات. وقوله: ﴿شيئا﴾ نكرة في سياق النهي، فتعم كل شيء: لا نبيا، ولا ملكا، ولا وليا، بل ولا أمرا من أمور الدنيا.

وقوله: ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ يقال فيها ما قيل في الآية السابقة.

وقوله: ﴿وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ﴾ أي: إحسانا.

وذوو القربى هم من يجتمعون بالشخص في الجد الرابع.

واليتامى: جمع يتيم، وهو الذي مات أبوه ولم يبلغ.

والمساكين: هم الذين عدموا المال فأسكنهم الفقر.

وابن السبيل: هو المسافر الذي انقطعت به النفقة.

وقوله: ﴿وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنْبِ﴾ الجار: الملاصق للبيت أو من حوله، وذو القربى، أي: القريب، والجار الجنب، أي: الجار البعيد.

وقوله: ﴿وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ﴾ قيل: إنه الزوجة، وقيل: صاحبك في السفر لأنه يكون إلى جنبك، ولكل منهما حق؛ فالآية صالحة لهما.

وقوله: ﴿وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ هذا يشمل الإحسان إلى الأرقاء والبهائم؛ لأن الجميع ملك اليمين.

وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾ المختال: في هيئته. والفخور: في قوله، والله لا يحب هذا ولا هذا.

وقوله: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّي عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ الآيات.

قوله تعالى ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّي عَلَيْكُمْ﴾ الخطاب للنبي ﷺ أمره الله أن يقول للناس: ﴿تعالوا﴾ أي: أقبلا، وهلموا، وأصله من العلو كأن المنادي يناديك أن تعلق إلى مكانه، فيقول: تعال، أي: ارتفع إلي. وقوله: ﴿أتل﴾ بالجزم جوابا للأمر في قوله: ﴿تعالوا﴾.

وقوله: ﴿مَا حَرَّمَ رَبِّي عَلَيْكُمْ﴾ (ما) اسم موصول مفعول لأتل، والعائد محذوف، والتقدير: ما حرمه ربكم عليكم.

وقال: ﴿ربكم﴾ ولم يقل: ما حرم الله، لأن الرب هنا أنسب، حيث إن الرب له مطلق التصرف في المربوب والحكم عليه بما تقتضيه حكمته.

وقوله: ﴿أَلَّا تُشْرِكُوا﴾ (أن): تفسيرية، تفسر ﴿أتل ما حرم﴾ أي: أتل عليكم ألا تشركوا به شيئا، وليست مصدرية، وقد قيل به، وعلى هذا القول تكون (لا) زائدة، ولكن القول الأول أصح، أي: أتل عليكم عدم الإشراك، لأن الله لم يجرم علينا أن لا نشرك به، بل حرم علينا أن نشرك به، ومما يؤيد أن (أن) تفسيرية أن (لا) هنا ناهية لتناسب الجمل، فتكون كلها طلبية.

وقوله: ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ أي: وأتلو عليكم الأمر بالإحسان إلى الوالدين.

وقوله: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ﴾ بعد أن ذكر حق الأصول ذكر حق الفروع، والأولاد في اللغة العربية: يشمل الذكر والأنثى، قال تعالى ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثِيَيْنِ﴾.

وقوله: ﴿من إملاق﴾ الإملاق: الفقر، و (من) للسببية والتعليل؛ أي: بسبب الإملاق.

وقوله: ﴿نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ أي: إذا أبقيتموهم فإن الرزق لن يضيق عليكم بإبقتهم لأن الذي يقوم بالرزق هو الله.

وبدأ هنا برزق الوالدين، وفي سورة الإسراء بدأ برزق الأولاد، والحكمة في ذلك أنه قال هنا: ﴿من إِملاقٍ﴾ فالإملاق حاصل، فبدأ بذكر الوالدين اللذين أملقا، وهناك قال: ﴿حَشِيَّةَ إِملاقٍ﴾ فهما غنيان، لكن يخشيان الفقر، فبدأ برزق الأولاد قبل رزق الوالدين.

وتقييد النهي عن قتل الأولاد بخشية الإملاق بناء على واقع المشركين غالباً فلا مفهوم له.

وقوله: ﴿وَلَا تَقْرُبُوا الْفَوَاحِشَ﴾ لم يقل: لا تأتوا، لأن النهي عن القرب أبلغ من النهي عن الإتيان لأن النهي عن القرب نهي عنها وعمما يكون ذريعة إليها، ولذلك حرم على الرجل أن ينظر إلى المرأة الأجنبية، وأن يخلو بها، وأن تسافر المرأة بلا محرم لأن ذلك يقرب من الفواحش.

وقوله: ﴿مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ﴾ قيل: ما ظهر فحشه وما خفي؛ لأن الفواحش منها شيء مستفحش في نفوس جميع الناس ومنها شيء فيه خفاء، وقيل: ما أظهرتموه وما أسررتموه، فالإظهار كفعل الزنا والعياذ بالله مجاهرة، والإبطان كفعله سرا.

وقوله: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ النفس التي حرم الله: هي النفس المعصومة، وهي نفس المسلم، والذمي، والمعاهد، والمستأمن، بكسر الميم. والحق: ما أثبتته الشرع. والباطل: ما نفاه الشرع. فمن الحق الذي أثبتته الشرع في قتل النفس المعصومة أن يزني المحصن فيرجم حتى يموت، أو يقتل مكافئه، أو يخرج على الجماعة، أو يقطع الطريق، فإنه يقتل، وقال هنا: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ وقال قبلها: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ﴾ فيكون النهي عن قتل الأولاد مكرراً مرتين: مرة بذكر الخصوص، ومرة بذكر العموم.

وقوله: ﴿ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ﴾ المشار إليه ما سبق، والوصية بالشيء هي العهد به على وجه الاهتمام.

وقوله: ﴿تَعْقِلُونَ﴾ العقل هنا: حسن التصرف، وأما في قوله تعالى ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ فمعناه: تفهمون.

وفي هذا دليل على أن هذه الأمور إذا التزم بها الإنسان، فهو عاقل رشيد، وإذا خالفها، فهو سفيه ليس بعاقل.

وقد تضمنت هذه الآية خمس وصايا:

الأولى: توحيد الله.

الثانية: الإحسان بالوالدين.

الثالثة: أن لا نقتل أولادنا.

الرابعة: أن لا نقرب الفواحش.

الخامسة: أن لا نقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق.

وقوله: ﴿وَلَا تَقْرُبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ هذا حماية لأموال اليتامى أن لا نقربها إلا بالخصلة التي هي أحسن، فلا نقربها بأي تصرف إلا بما نرى أنه أحسن، فإذا لاح للولي تصرفان أحدهما أكثر ربحا فالواجب عليه أن يأخذ بما هو أكثر ربحا لأنه أحسن، والحسن هنا يشمل: الحسن الدنيوي، والحسن الديني، فإذا لاح تصرفان أحدهما أكثر ربحا وفيه ربا، والآخر أقل ربحا وهو أسلم من الربا، فنقدم الأخير، لأن الحسن الشرعي مقدم على الحسن الدنيوي.

وقوله: ﴿حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾ (حتى) هنا: حرف غاية، فما بعدها مخالف لما قبلها. أي: إذا بلغ أشده، فإننا ندفعه إليه بعد أن نختبره وننظر في حسن تصرفه، ولا يجوز لنا أن نبقية عندنا، ومعنى أشده: قوته العقلية والبدنية، والخطاب هنا لأولياء اليتامى، أو للحاكم على قول بعض أهل العلم، وبلوغ الأشد يختلف، والمراد به هنا الأشد الذي يكون به التكليف، وهو تمام خمس عشرة سنة أو إنبات العانة أو الإنزال.

وقوله: ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ﴾ أي: أوفوا الكيل إذا كلتم فيما يكال من الأطعمة والحبوب. وأوفوا الميزان: إذا وزنتم فيما يوزن، كاللحوم مثلا، والأمر بالإيفاء شامل لجميع ما تتعامل به مع غيرك فيجب عليك أن توفى بالكيل والوزن وغيرهما في التعامل. وقوله: ﴿بِالْقِسْطِ﴾ أي: بالعدل.

ولما كان قوله: ﴿بِالْقِسْطِ﴾ قد يشق بعض الأحيان لأن الإنسان قد يفوته أن يوفى الكيل أو الوزن أحيانا، أعقب ذلك بقوله: ﴿لَا تُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ أي: طاقتها، فإذا بذل جهده وطاقته وحصل النقص فلا يعد مخالفا؛ لأن ما خرج عن الطاقة معفو عنه فيه، وكما أن هذه الجملة تفيد العفو من وجه، وهو ما خرج عن الوسع، فإنها تفيد التغليظ من وجه، وهو أن على المرء أن يبذل وسعه في الإيفاء بالقسط، ولكن متى تبين الخطأ وجب تلافيه؛ لأنه داخل في الوسع.

وقوله: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا﴾ معناه: أي قول تقوله، فإنه يجب عليك أن تعدل فيه، سواء كان ذلك لنفسك على غيرك، أو لغيرك على نفسك، أو لغيرك على غيرك، أو لتحكم بين اثنين، فالواجب العدل، إذ العدل في اللغة الاستقامة، وضده الجور والميل، فلا تمل يمينا ولا شمالا، ولم يقل هنا: ﴿لَا تُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ لأن القول لا يشق فيه العدل غالبا.

وقوله: ﴿وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى﴾ أي: المقول له ذا قرابة، فلا تحابه لقرابته فتميل معه على غيره من أجله، فاجعل أمرك إلى الله عز وجل الذي خلقك، وأمرك بهذا، وإليه سترجع، ويسألك عزوجل ماذا فعلت في هذه الأمانة.

وقد أقسم أشرف الخلق، وسيد ولد آدم وأعدل البشر محمد ﷺ وقال: «وأيم الله، لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها».

وقوله: ﴿وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا﴾ قدم المتعلق، للاهتمام به.

وعهد الله: ما عهد به إلى عباده، وهي عبادته سبحانه وتعالى والقيام بأمره.

وقوله: ﴿ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ هذه الآية الكريمة فيها أربع وصايا من الخالق عزوجل:

الأولى: أن لا تقرب مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن.

الثانية: أن نوفي الكيل والميزان بالقسط.

الثالثة: أن نعدل إذا قلنا.

الرابعة: أن نوفي بعهد الله.

والآية الأولى فيها خمس وصايا؛ صار الجميع تسع وصايا.

ثم قال عزوجل: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ﴾ هذه هي الوصية العاشرة، فقوله: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي﴾

يحتمل أن المشار إليه ما سبق، لأنك لو تأملت وجده محيطا بالشرع كله، إما نصا وإما إيماء، ويحتمل أن المراد به ما علم من دين الله، أي: هذا الذي جاءكم به الرسول ﷺ هو صراطي، أي: الطريق الموصل إليه سبحانه وتعالى. والصراط يضاف إلى الله عز وجل، ويضاف إلى سالكه ففي قوله تعالى ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ هنا أضيف إلى سالكه، وفي قوله تعالى ﴿صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ هنا أضيف إلى الله عز وجل، وإضافته إلى الله عز وجل لأنه موصل إليه، ولأنه هو الذي وضعه لعباده جل وعلا، وإضافته إلى سالكه لأنهم هم الذين سلكوه.

وقوله: ﴿مُسْتَقِيمًا﴾ هذه حال من: ﴿صِرَاطُ﴾ أي: حال كونه مستقيما لا اعوجاج فيه فاتبعوه.

وقوله: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ السبل، أي: الطرق الملتوية الخارجة عنه، وتفرق: فعل

مضارع منصوب بأن بعد فاء السببية، لكن حذف منه تاء المضارعة، وأصلها: (تتفرق)، أي أنكم إذا اتبعتم السبل تفرقت بكم عن سبيله، وتشتت بكم الأهواء وبعدت.

وهنا قال: (السبل): جمع سبيل، وفي الطريق التي أضافها الله إلى نفسه قال: (سبيله) سبيل واحد، لأن سبيل

الله عز وجل واحد، وأما ما عداه فسبل متعددة؛ ولهذا قال النبي ﷺ: «وستفترق هذه الأمة إلى ثلاث وسبعين فرقة، كلها في النار، إلا واحدة»، فالسبيل المنجي واحد، والباقية متشعبة متفرقة، ولا يرد على هذا قوله تعالى ﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ﴾ لأن ﴿سُبُلَ﴾ في الآية الكريمة، وإن كانت مجموعة، لكن أضيفت إلى السلام فكانت منجية، ويكون المراد بها شرائع الإسلام.

وقوله: ﴿ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ أي: ذلك المذكور وصاكم لتنالوا به درجة التقوى، والالتزام بما أمر الله به ورسوله ﷺ.

قال ابن مسعود: من أراد أن ينظر إلى وصية محمد ﷺ التي عليها خاتمه فليقرأ قوله تعالى ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّي عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ إلى قوله ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ﴾ (الآية<sup>(١)</sup>).

الاستفهام هنا للحث والتشويق، واللام في قوله: (فليقرأ) للإرشاد.

وقوله: (محمد ﷺ) وهذا التعبير من ابن مسعود يدل على جواز مثله، مثل: قال محمد رسول الله ﷺ، ووصية محمد ﷺ، ولا ينافي قوله تعالى ﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا﴾ لأن دعاء الرسول هنا مناداته، فلا تقولوا عند المنادة: يا محمد! ولكن قولوا: يا رسوله الله! أما الخبر، فهو أوسع من باب الطلب. وقوله: (التي عليها خاتمه): الخاتم بمعنى التوقيع.

وقوله: (وصية محمد ﷺ)، ليست وصية مكتوبة محتوما عليها، لأن النبي ﷺ لم يوص بشيء، ويدل لذلك أن أبا جحيفة سأل علي بن أبي طالب: هل عهد إليكم النبي ﷺ بشيء؟ فقال: لا، والذي فلق الحبة، وبرأ النسمة؛ إلا فهما يؤتیه الله تعالى رجلا في القرآن، وما في هذه الصحيفة. قيل: وما في هذه الصحيفة؟ قال: العقل، وفكاك الأسير، وأن لا يقتل مسلم بكافر.

فلا يظن أن النبي ﷺ أوصى بهذه الآيات وصية خاصة مكتوبة، لكن ابن مسعود رضي الله عنه يرى أن هذه الآيات قد شملت الدين كله، فكأنها الوصية التي ختم عليها رسول الله ﷺ وأبقاها لأمته، وهي آيات عظيمة، إذا تدبرها الإنسان وعمل بها حصلت له الأوصاف الثلاثة الكاملة: العقل، والتذكر، والتقوى.

وعن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: كنت رديف النبي ﷺ على حمار، فقال لي: «يا معاذ! أتدري ما حق الله على العباد، وما حق العباد على الله؟» قلت، الله ورسوله أعلم. قال: «حق الله على العباد أن

(١) أخرجه الترمذي، أبواب تفسير القرآن، (٢٣٠/٨) وقال: حديث حسن غريب. والطبراني في الكبير (١٠٠٦٠).

يعبدوه ولا يشركوا به شيئا، وحق العباد على الله أن لا يعذب من لا يشرك به شيئا؟) قلت: يا رسول الله! أفلا أبشر الناس؟ قال: «لا تبشرهم فيتكلوا» أخرجاه في الصحيحين<sup>(١)</sup>.

قوله: (رديف): بمعنى رادف، أي: راكب معه خلفه، فهو فعيل بمعنى فاعل، مثل: رحيم بمعنى راحم، وسميع بمعنى سامع.

قوله: (ما حق الله على العباد؟): أي: ما أوجبه عليهم، وما يجب أن يعاملوه به. وألقاه على معاذ بصيغة السؤال ليكون أشد حضورا لقلبه حتى يفهم ما يقوله ﷺ.

قوله: (وما حق العباد على الله؟) أي: ما يجب أن يعاملهم به. والعباد لم يوجبوا شيئا، بل الله أوجبه على نفسه فضلا منه على عباده، كقوله تعالى ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾، فأوجب سبحانه على نفسه أن يرحم من عمل سوءا بجهالة.

قوله: (قلت: الله ورسوله أعلم): لفظ الجلالة مبتدأ، و(رسوله): معطوف عليه، وأعلم: خبر المبتدأ، وأفرد الخبر هنا مع أنه لاثنين لأنه على تقدير: (من)، واسم التفضيل إذا كان على تقدير (من)، فإن الأشهر فيه الأفراد والتذكير. والمعنى: أعلم من غيرهما، وأعلم مني أيضا.

قوله: (يعبدوه): أي: يتذللوا له بالطاعة.

قوله: (ولا يشركوا به شيئا): أي: في عبادته وما يختص به، وشيئا نكرة في سياق النفي، فتعم كل شيء؛ لا رسولا، ولا ملكا، ولا وليا، ولا غيرهم.

وقوله: (وحق العباد على الله أن لا يعذب من لا يشرك به شيئا): وهذا الحق تفضل الله به على عباده، ولم يوجبه عليه أحد، ولا تظن أن قوله: (من لا يشرك به شيئا) أنه مجرد عن العبادة، لأن التقدير: من يعبد ولا يشرك به شيئا، ولم يذكر قوله: (من يعبد)، لأنه مفهوم من قوله: (وحق العباد)، ومن كان وصفه العبودية، فلا بد أن يكون عابدا.

قوله: (أفلا أبشر الناس) مثل هذا التركيب: الهمزة ثم حرف العطف ثم الجملة، لعلماء النحو فيه قولان، الأول: أن بين الهمزة وحرف العطف محذوفا يقدر بما يناسب المقام، وتقديره هنا: أسكت فلا أبشر الناس؟ الثاني: أنه لا شيء محذوف، لكن هنا تقديم وتأخير، وتقديره: فألا أبشر؟ فالجملة معطوفة على ما سبق، وموضع الفاء سابق على الهمزة، فالأصل: فألا أبشر الناس؟ لكن لما كان هذا التركيب ركيكا، وهمزة الاستفهام لها الصدارة،

(١) رواه البخاري، كتاب اللباس، باب إرداف الرجل خلف الرجل (٨٤/٤)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة (٥٨/١).

قدمت على حرف العطف، ومثل ذلك قوله تعالى ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ وقوله تعالى ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾، وقوله تعالى ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾.

والبشارة: هي الإخبار بما يسر. وقد تستعمل في الإخبار بما يضر، ومنه قوله تعالى ﴿فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾، لكن الأكثر الأول.

قوله: (لا تبشرهم): أي: لا تخبرهم، ولا ناهية.

ومعنى الحديث أن الله لا يعذب من لا يشرك به شيئاً، وأن المعاصي تكون مغفورة بتحقيق التوحيد، ونهى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن إخبارهم لئلا يعتمدوا على هذه البشرية دون تحقيق مقتضاها، لأن تحقيق التوحيد يستلزم اجتناب المعاصي، لأن المعاصي صادرة عن الهوى، وهذا نوع من الشرك، قال تعالى ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ﴾. ومناسبة الحديث للترجمة: فضيلة التوحيد، وأنه مانع من عذاب الله.

## باب فضل التوحيد وما يكفر من الذنوب

سبق أن ذكر المؤلف كتاب التوحيد، أي: وجوب التوحيد، وأنه لا بد منه، وأن معنى قوله تعالى ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ أن العبادة لا تصح إلا بالتوحيد، وهنا ذكر المؤلف فضل التوحيد، ولا يلزم من ثبوت الفضل للشيء أن يكون غير واجب، بل الفضل من نتائجه وآثاره. وقوله (وما يكفر من الذنوب) معطوف على (فضل) فيكون المعنى: باب فضل التوحيد، وباب ما يكفر من الذنوب، وعلى هذا، فالعائد محذوف والتقدير ما يكفره من الذنوب. عقد هذا الباب لأمرين: الأول: بيان فضل التوحيد. الثاني: بيان ما يكفره من الذنوب؛ لأن من آثار فضل التوحيد تكفير الذنوب.

وقول الله تعالى ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾ الآية.

قوله: ﴿وَلَمْ يَلْبِسُوا﴾ أي: يخلطوا.

قوله: (بظلم) الظلم هنا ما يقابل الإيمان، وهو الشرك، ولما نزلت هذه الآية شق ذلك على الصحابة وقالوا: أينما لم يظلم نفسه؟ فقال النبي ﷺ: «ليس الأمر كما تظنون، إنما المراد به الشرك، ألم تسمعوا إلى قول الرجل الصالح \_ يعني لقمان \_: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾»<sup>(١)</sup>.

والظلم أنواع:

١ \_ أظلم الظلم: وهو الشرك في حق الله.

٢ \_ ظلم الإنسان نفسه: فلا يعطيها حقها، مثل أن يصوم فلا يفطر، ويقوم فلا ينام.

٣ \_ ظلم الإنسان غيره: مثل أن يتعدى على شخص بالضرب، أو القتل، أو أخذ مال، أو ما أشبه ذلك.

وإذا انتفى الظلم حصل الأمن، لكن هل هو أمن كامل؟ الجواب: إنه إن كان الإيمان كاملاً لم يخالطه معصية، فالأمن أمن مطلق، أي كامل، وإذا كان الإيمان مطلقاً إيمان غير كامل، فله مطلق الأمن، أي: أمن ناقص.

مثال ذلك: مرتكب الكبيرة، آمن من الخلود في النار، وغير آمن من العذاب، بل هو تحت المشيئة، قال الله

تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾.

(١) من حديث ابن مسعود، رواه البخاري، كتاب الأنبياء، باب قول الله تعالى ﴿ولقد آتينا لقمان الحكمة﴾ (٤٨٤).

وهذه الآية قالها الله تعالى حكما بين إبراهيم وقومه حين قال لهم: ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ﴾ إلى قوله: ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ فقال الله تعالى ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَمَنْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾ الآية، على أنه قد يقول قائل: إنها من كلام إبراهيم لبيّن لقومه؛ ولهذا قال بعدها: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ﴾. وقوله: (الأمّن): أل فيها للجنس، ولهذا فسرنا الأمّن بأنه إما أمّن مطلق، وإما مطلق أمّن، حسب الظلم الذي تلبس به.

وقوله: (وهم مهتدون): أي: في الدنيا إلى شرع الله بالعلم والعمل، فلاهتداء بالعلم هداية إرشاد، والاهتداء بالعمل هداية توفيق، وهم مهتدون في الآخرة إلى الجنة، كما قال الله تعالى في أصحاب الجحيم: ﴿احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ﴾ فهذه هداية الآخرة، وهي للذين ظلموا إلى صراط الجحيم، فيكون مقابلها أن الذين آمنوا ولم يظلموا، يهدون إلى صراط النعيم. وقال كثير من المفسرين في قوله تعالى ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْآمِنُونَ﴾ إن الأمّن في الآخرة، والهداية في الدنيا، والصواب أنها عامة بالنسبة للأمّن والهداية في الدنيا والآخرة. مناسبة الآية للترجمة: أن الله أثبت الأمّن لمن لم يشرك، والذي لم يشرك يكون موحدًا، فدل على أن من فضائل التوحيد استقرار الأمّن.

عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدا عبده ورسوله، وأن عيسى عبد الله ورسوله، وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، والجنة حق والنار حق، أدخله الله الجنة على ما كان من العمل» أخرجاه<sup>(١)</sup>.

قوله: (من شهد أن لا إله إلا الله): الشهادة لا تكون إلا عن علم، قال تعالى ﴿إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾، وهذا العلم قد يكون مكتسبا وقد يكون غريزيا، فالعلم بأنه لا إله إلا الله غريزي، قال ﷺ «كل مولود يولد على الفطرة»، وقد يكون مكتسبا، وذلك بتدبر آيات الله، والتفكر فيها. وقوله: (أن): مخففة من الثقيلة، والنطق بأن مشددة خطأ، لأن المشددة لا يمكن حذف اسمها، والمخففة يمكن حذفه.

(١) رواه البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب قوله تعالى ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ﴾ (٤٨٦)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة (٥٧/١).

وقوله: (لا إله): أي: لا مألوه، وليس بمعنى لا آله، والمألوه: هو المعبود محبة وتعظيما، تحبه وتعظمه لما تعلم من صفاته العظيمة، وأفعاله الجليلة.

وقوله: (إلا الله): أي: لا مألوه إلا الله، ولهذا حكى عن قريش قولهم: ﴿أَجْعَلِ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾، أما قوله تعالى ﴿فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ فهذا التأله باطل؛ لأنه بغير حق، فهو منفي شرعا، وإذا انتفى شرعا، فهو كالمنتفى وقوعا فلا قرار له، وبهذا يحصل الجمع بين قوله تعالى ﴿فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ﴾ وقوله تعالى حكاية عن قريش: ﴿أَجْعَلِ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا﴾ وبين قوله تعالى ﴿وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ﴾ فهذه الآلهة مجرد أسماء لا معاني لها ولا حقيقة، إذ هي باطلة شرعا، لا تستحق أن تسمى آلهة، لأنها لا تنفع ولا تضر، ولا تخلق ولا ترزق كما قال تعالى ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءَ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾.

التوحيد عند المتكلمين:

يقولون: إن معنى إله: آله، والإله: القادر على الاختراع، فيكون معنى لا إله إلا الله: لا قادر على الاختراع إلا الله.

والتوحيد عندهم أن توحيد الله فتقول: هو واحد في ذاته لا قسيم له، وواحد في أفعاله لا شريك له، وواحد في صفاته لا شبيه له. ولو كان هذا معنى لا إله إلا الله لما أنكرت قريش على النبي ﷺ دعوته، ولأمنت به وصدقت، لأن قريشا تقول: لا خالق إلا الله، فصار فهم المشركين خيرا من فهم هؤلاء المتكلمين، فالتوحيد الذي جاءت به الرسل في قوله تعالى ﴿مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ أي: من إله حقيقي يستحق أن يعبد، وهو الله.

ومن المؤسف أنه يوجد كثير من الكتاب الآن الذين يكتبون في هذه الأبواب تجدهم عندما يتكلمون على التوحيد لا يقررون أكثر من توحيد الربوبية، وهذا غلط ونقص عظيم، ويجب أن نغرس في قلوب المسلمين توحيد الألوهية، أكثر من توحيد الربوبية، لأن توحيد الربوبية لم ينكره أحد إنكارا حقيقيا، فكوننا لا نقرر إلا هذا الأمر الفطري المعلوم بالعقل ونسكت عن الأمر الذي يغلب فيه الهوى نقص عظيم، فعبادة غير الله هي التي يسيطر فيها هوى الإنسان على نفسه؛ حتى يصرفه عن عبادة الله وحده، فيعبد الأولياء، ويعبد هواه، حتى جعل النبي ﷺ الذي همه الدرهم والدينار ونحوهما، عابدا، وقال الله عز وجل: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ﴾، فالمعاصي من حيث المعنى العام يمكن أن نعتبرها من الشرك.

وأما بالمعنى الأخص، فتقسم إلى أنواع: شرك أكبر، وشرك أصغر، ومعصية كبيرة، ومعصية صغيرة.

وهذه المعاصي منها ما يتعلق بحق الله، ومنها ما يتعلق بحق الإنسان نفسه، ومنها ما يتعلق بحق الخلق، وتحقيق لا إله إلا الله أمر في غاية الصعوبة ولهذا قال بعض السلف: (كل معصية فهي نوع من الشرك)، وقال بعض السلف: (ما جاهدت نفسي على شيء مجاهدتها على الإخلاص)، ولا يعرف هذا إلا المؤمن.

قوله: (من شهد أن لا إله إلا الله): (من) شرطية، وجواب الشرط: (أدخله الله الجنة على ما كان من العمل)، والشهادة: هي الاعتراف باللسان، والاعتقاد بالقلب، والتصديق بالجوارح، ولهذا لما قال المنافقون للرسول ﷺ: ﴿نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ﴾ وهذه جملة مؤكدة بثلاث مؤكدات: الشهادة، وإن واللام كذبهم الله بقوله: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾ فلم ينفعهم هذا الإقرار باللسان؛ لأنه خال من الاعتقاد بالقلب، وخال من التصديق بالعمل، فلم ينفع، فلا تتحقق الشهادة إلا بعقيدة في القلب، واعتراف باللسان، وتصديق بالعمل.

وقوله: (لا إله إلا الله): أي: لا معبود على وجه يستحق أن يعبد إلا الله، وهذه الأصنام التي تعبد لا تستحق العبادة، لأنه ليس فيها من خصائص الألوهية شيء.

قوله: (وحده لا شريك له): (وحده): توكيد للإثبات (لا شريك له): توكيد للنفي في كل ما يختص به من الربوبية والألوهية، والأسماء والصفات، وقولنا: (فيما يختص به) حتى نسلم من شبهات كثيرة، منها شبهات النافين للصفات، لأن النافين للصفات زعموا أن إثبات الصفات إشراك بالله عزوجل حيث قالوا: يلزم من ذلك التمثيل. لكننا نقول: للخالق صفات تختص به، وللمخلوق صفات تختص به.

قوله: (وأن محمدا عبده ورسوله): (عبده) أي: ليس شريكا مع الله، و(ورسوله) أي: المبعوث بما أوحى إليه، فليس كاذبا على الله، فالرسول ﷺ عبد مربوب، جميع خصائص البشرية تلحقه ما عدا شيئا واحدا، وهو ما يعود إلى أسافل الأخلاق، فهو معصوم منه، قال تعالى ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ وقال تعالى ﴿قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا﴾، فهو بشر مثلنا، إلا أنه يوحي إليه، قال تعالى ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾، ومن قال: إن الرسول ﷺ ليس له ظل، أو أن نوره يطفى ظله إذا مشى في الشمس، فكله كذب باطل، ولهذا قالت عائشة رضي الله عنها: كنت أمد رجلي بين يديه) وتعذر بأن البيوت ليست فيها مصابيح. فلو كان النبي ﷺ له نور لم تعذر رضي الله عنها، ولكنه الغلو الذي أفسد الدين والدنيا. والعياذ بالله.

ومن الغلو قول البوصيري في البردة المشهورة:

سواك عند حلول الحادث العمم!

يا أكرم الخلق ما لي من ألوذ به

فضلا وإلا فقل يا زلة القدم!

إن لم تكن في معادي آخذا بيدي

فإن من جودك الدنيا وضررتها

ومن علومك علم اللوح والقلم!

قال ابن رجب وغيره: إنه لم يترك لله شيئاً ما دامت الدنيا والآخرة من جود الرسول ﷺ! ونشهد أن من يقول هذا ما شهد أن محمداً عبد الله، بل شهد أن محمداً فوق الله! كيف يصل بهم الغلو إلى هذا الحد؟! وهذا الغلو فوق غلو النصارى الذين قالوا: إن المسيح ابن الله، وقالوا: إن الله ثالث ثلاثة. هم قالوا فوق ذلك، قالوا: إن الله يقول: «من ذكرني في ملاء ذكرته في ملاء خير منه، وأنا مع عبدي إذا ذكرني»، والرسول معنا إذا ذكرناه، ولهذا كان أولئك الغلاة ليلة المولد إذا تلا التالي كلمة المصطفى قاموا جميعاً قيام رجل واحد، يقولون: لأن الرسول ﷺ حضر مجلسنا بنفسه فقمنا إجلالاً له! والصحابة رضي الله عنهم أشد إجلالاً منهم ومنا، ومع ذلك إذا دخل عليهم الرسول ﷺ وهو حي يكلمهم لا يقومون له.

أما الرسالة فهو رسول أرسله الله عز وجل بأعظم شريعة إلى جميع الخلق، فبلغها غاية البلاغ، مع أنه أودي وقوتل، حتى إنهم جاؤوا بسلا الجزور وهو ساجد عند الكعبة ووضعوه على ظهره، كل ذلك كراهية له ولما جاء به، ومع ذلك صبر، فصبر ﷺ حتى فتح الله عليه، وأنذر أم القرى ومن حولها، ثم إنه حمل هذه الشريعة من بعده أشد الناس أمانة وأقواهم على الاتباع، الصحابة رضي الله عنهم، وأدوها إلى الأمة نقية سليمة، والله الحمد. ونحب الرسول ﷺ لله وفي الله، فحب الرسول ﷺ من حب الله، ونقدمه على أنفسنا وأهلنا وأولادنا والناس أجمعين، وأحببناه من أجل أنه رسول الله ﷺ، ونحقق شهادة أن محمداً رسول الله، وذلك بأن نعتقد ذلك بقلوبنا، ونعترف به بألسنتنا، ونطبق ذلك في متابعتنا ﷺ بجوارحنا، فنعمل بهديه، ولا نعمل له.

أما ما ينقض تحقيق هذه الشهادة، فهو:

١\_ فعل المعاصي، فالمعصية نقص في تحقيق هذه الشهادة، لأنك خرجت بمعصيتك من اتباع النبي ﷺ  
٢\_ الابتداع في الدين ما ليس منه، لأنك تقربت إلى الله بما لم يشرعه الله ولا رسوله ﷺ. فإن قال قائل: أنا نويت التقرب إلى الله بهذا العمل الذي أبتدعه. قيل له: أنت أخطأت الطريق، فتعذر على نيتك، ولا تعذر على مخالفة الطريق متى علمت الحق. فالمبتدعون قد يقال: إنهم يثابون على حسن نيتهم إذا كانوا لا يعلمون الحق، ولكننا نخطئهم فيما ذهبوا إليه، أما أئمتهم الذين علموا الحق ولكن ردوه ليقوا جاههم ففيهم شبه أبي جهل وعتبة بن ربيعة والوليد بن المغيرة وغيرهم الذين قبلوا رسالة النبي ﷺ بالرد إبقاء على رئاستهم وجاههم.  
أما بالنسبة لاتباع هؤلاء الأئمة، فينقسمون إلى قسمين:

القسم الأول: الذين جهلوا الحق، فلم يعلموا عنه شيئاً، ولم يحصل منهم تقصير في طلبه، حيث ظنوا أن ما هم عليه هو الحق، فهؤلاء معدورون.

القسم الثاني: من علموا الحق، ولكنهم ردوه تعصبا لأئمتهم، فهؤلاء لا يعذرون، وهم كمن قال الله فيهم: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّهُتَدُونَ﴾.

وقوله: (وأن عيسى عبد الله ورسوله): الكلام فيها كالكلام في شهادة أن محمدا رسول الله، إلا أننا نؤمن برسالة عيسى، ولا يلزمنا اتباعه إذا خالفت شريعته شريعتنا. فشريعة من قبلنا لها ثلاث حالات:

الأولى: أن تكون مخالفة لشريعتنا، فالعمل على شرعنا.

الثانية: أن تكون موافقة لشريعتنا، فنحن متبعون لشريعتنا.

الثالثة: أن يكون مسكوتا عنها في شريعتنا، وفي هذه الحال اختلف علماء الأصول: هل نعمل بها، أو ندعها؟ والصحيح أنها شرع لنا، ودليل ذلك: قوله تعالى ﴿أَوَلَيْكَ الَّذِينَ هَدَىٰ اللَّهُ فَبِهَادِهِمُ اقْتَدِهْ﴾، وقوله تعالى ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾.

وقد تطرف في عيسى طائفتان:

الأولى: اليهود كذبوه، فقالوا: بأنه ولد زني، وأن أمه من البغايا، وأنه ليس بنبي.

الثانية: النصارى قالوا: إنه ابن الله، وإنه ثالث ثلاثة، وجعلوه إلها مع الله، وكذبوا فيما قالوا.

أما عقيدتنا نحن فيه: فنشهد أنه عبد الله ورسوله، وأن أمه صديقة، كما أخبر الله تعالى بذلك، وأنها أحصنت فرجها، وأنها عذراء، ولكن مثله عند الله كمثل آدم، خلقه من تراب ثم قال له: كن، فيكون.

ففي قوله: (عبد الله): رد على النصارى، وفي قوله: (ورسوله): رد على اليهود.

قوله: (وكلمته ألقاها إلى مريم): أطلق الله عليه كلمة، لأنه خلق بالكلمة عليه السلام، فالحديث ليس على

ظاهره، إذ عيسى عليه السلام ليس كلمة، لأنه يأكل، ويشرب، وتجري عليه جميع الأحوال البشرية، قال الله تعالى ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾.

قوله: (ألقاها إلى مريم) أي: وجهها إليها.

ومريم ابنة عمران ليست أخت موسى وهارون عليهما السلام كما يظنه بعض الناس، ولكن كما قال الرسول

ﷺ كانوا يسمون بأسماء أنبيائهم، فهارون أخو مريم ليس هارون أخا موسى، بل هو آخر يسمى باسمه، وكذلك عمران سمي باسم أبي موسى.

قوله: ﴿وَرُوحٌ مِنْهُ﴾ أي: صار جسده عليه السلام بالكلمة، فنفخت فيه هذه الروح التي هي من الله، أي:

خلق من مخلوقاته أضيفت إليه تعالى للتشريف والتكريم.

وعيسى عليه السلام ليس روحا، بل جسد ذو روح، قال الله تعالى ﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ

خَلَقَ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ﴾.

وقوله: (منه): (من) للابتداء، وليست للتبعيض، فهي كقوله تعالى ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ﴾، فقوله: (منه) أي: روح صادرة من الله عز وجل، وليست جزءا من الله كما تزعم النصارى. واعلم أن ما أضافه الله إلى نفسه ينقسم إلى ثلاثة أقسام:

الأول: العين قائمة بنفسها، وإضافتها إليه من باب إضافة المخلوق إلى خالقه، وهذه الإضافة قد تكون على سبيل عموم الخلق كقوله تعالى ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ﴾ وقوله تعالى ﴿إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ﴾، وقد تكون على سبيل الخصوص لشرفه، كقوله تعالى ﴿طَهَّرْنَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ﴾ وكقوله تعالى ﴿نَافَةَ اللَّهُ وَسُقْيَاهَا﴾، وهذا القسم مخلوق.

الثاني: أن يكون شيئا مضافا إلى عين مخلوقة يقوم بها، مثاله قوله تعالى ﴿وَرُوحٌ مِنْهُ﴾، فإضافة هذه الروح إلى الله من باب إضافة المخلوق إلى خالقه تشريفاً، فهي روح من الأرواح التي خلقها الله، وليست جزءاً أو روحاً من الله، إذ إن هذه الروح حلت في عيسى عليه السلام، وهو عين منفصلة عن الله، وهذا القسم مخلوق أيضاً.

الثالث: أن يكون وصفاً غير مضاف إلى عين مخلوقة، مثال ذلك قوله تعالى ﴿إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي﴾، فالرسالة والكلام أضيفا إلى الله من باب إضافة الصفة إلى الموصوف، فإذا أضاف الله لنفسه صفة، فهذه الصفة غير مخلوقة، وبهذا يتبين أن هذه الأقسام الثلاثة: قسمان منها مخلوقان، وقسم غير مخلوق.

فالأعيان القائمة بنفسها والمتصل بهذه الأعيان مخلوقة، والوصف الذي لم يذكر له عين يقوم بها غير مخلوق، لأنه يكون من صفات الله، وصفات الله غير مخلوقة.

قوله: (أدخله الله الجنة): إدخال الجنة ينقسم إلى قسمين:

الأول: إدخال كامل لم يسبق بعذاب لمن أتم العمل.

الثاني: إدخال ناقص مسبوق بعذاب لمن نقص العمل، فالمؤمن إذا غلبت سيئاته حسناته إن شاء الله عذبه بقدر عمله، وإن شاء لم يعذبه، قال الله تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾.

ولهما في حديث عتبان: «فإن الله حرم على النار من قال: لا إله إلا الله يبتغي بذلك وجه الله»<sup>(١)</sup>.

(١) رواه البخاري، كتاب الصلاة، باب المساجد في البيوت (١/ ١٥٤)، ومسلم كتاب المساجد، باب الرخصة في التخلف عن الجماعة بعذر (٤٥٥/١).

قوله: (عتبان): هو عتبان بن مالك الأنصاري رضي الله عنه، كان يصلي بقومه، فضعف بصره، وشق عليه الذهاب إليهم، فطلب من النبي ﷺ أن يصلي في مكان من بيته ليتخذه مصلى، فخرج إليه النبي ﷺ ومعه طائفة من أصحابه، منهم أبو بكر وعمر رضي الله عنهما، فلما دخل البيت، قال: أين تريد أن أصلي؟ قال: صل هنا. وأشار إلى ناحية من البيت، فصلى بهم النبي ﷺ ركعتين، ثم جلس على طعام صنعوه له، فجعلوا يتذاكرون، فذكروا رجلا يقال له مالك بن الدخشم، فقال بعضهم: هو منافق. فقال رسول الله ﷺ: «لا تقل هكذا، أليس قال: لا إله إلا الله يريد بذلك وجه الله؟! ثم قال: «فإن الله حرم على النار...» الحديث.

فنهاهم أن يقولوا هكذا، لأنهم لا يدرون عما في قلبه، لأنه يشهد أن لا إله إلا الله، ولم يبرئ الرجل، إنما أتى بعبارة عامة بأن الله حرم على النار من قال: لا إله إلا الله يبتغي بذلك وجه الله، ونهى أن نطلق ألسنتنا في عباد الله الذين ظاهرهم الصلاح، ونقول: هذا مرء، هذا فاسق، وما أشبه ذلك، لأننا لو أخذنا بما نظن فسدت الدنيا والآخرة؛ ولهذا قال العلماء: يحرم ظن السوء بمسلم ظاهره العدالة.

قوله: (فإن الله حرم على النار) أي: منع من النار، أو منع النار أن تصيبه.

قوله: (من قال: لا إله إلا الله) أي: بشرط الإخلاص، بدليل قوله: (يبتغي بذلك وجه الله) أي: يطلب وجه الله.

ومن طلب وجهها فلا بد أن يعمل كل ما في وسعه للوصول إليه، لأن مبتغي الشيء يسعى في الوصول إليه، وعليه، فلا نحتاج إلى قول الزهري رحمه الله بعد أن ساق الحديث، كما في صحيح مسلم حيث قال: ثم وجبت بعد ذلك أمور، وحرمت أمور، فلا يغتر مغتر بهذا. فالحديث واضح الدلالة على شرطية العمل لمن قال: لا إله إلا الله، حيث قال: (يبتغي بذلك وجه الله)؛ ولذا قال بعض السلف عند قول النبي ﷺ «مفتاح الجنة: لا إله إلا الله»: لكن من أتى بمفتاح لا أسنان له لا يفتح له. قال شيخ الإسلام: إن المبتغي لا بد أن يكمل وسائل البغية، وإذا أكملها حرمت عليه النار تحريماً مطلقاً، وإن أتى بشيء ناقص، فإن الابتغاء فيه نقص، فيكون تحريم النار عليه فيه نقص، لكن يمنع ما معه من التوحيد من الخلود في النار.

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «قال موسى عليه السلام: يا رب! علمني شيئاً أذكرك وأدعوك به قال: قل يا موسى: لا إله إلا الله. قال: يا رب كل عبادك يقولون هذا؟ قال:

يا موسى! لو أن السماوات السبع وعامرهن غيري والأرضين السبع في كفة، ولا إله إلا الله في كفة، مالت  
بهن لا إله إلا الله» رواه ابن حبان والحاكم وصححه<sup>(١)</sup>.

قوله: (أذكرك وأدعوك به): صفة لشيء، وليست جواب الطلب، فموسى عليه السلام طلب شيئا يحصل  
به أمران: ذكر الله، ودعاءه. فأجاب الله بقوله: (قل لا إله إلا الله)، وهذه الجملة ذكر متضمن للدعاء، لأن  
الذاكر يريد رضا الله عنه، والوصول إلى دار كرامته، إذن، فهو ذكر متضمن للدعاء، قال الشاعر:

أذكر حاجتي أم قد كفاني      حباؤك إن شيمتك الحباء  
إذا أثنى عليك المرء يوما      كفاه من تعرضه الثناء  
حباؤك: عطاؤك.

قوله: (كل عبادك يقولون هذا): ليس المعنى أنها كلمة هينة، لأن موسى عليه الصلاة والسلام يعلم عظم  
هذه الكلمة، ولكنه أراد شيئا يختص به، لأن تخصيص الإنسان بالأمر يدل على منقبة له ورفعته، فبين الله لموسى  
أنه مهما أعطي فلن يعطى أفضل من هذه الكلمة، وأن لا إله إلا الله أعظم من السماوات والأرض وما فيهن،  
لأنها تميل بهن وترجح، فدل ذلك على فضل لا إله إلا الله وعظمتها، لكن لا بد من الإتيان بشروطها، أما مجرد  
أن يقولها القائل بلسانه فكم من إنسان يقولها لكنها عنده كالريشة لا تساوي شيئا، لأنه لم يقلها على الوجه  
الذي تمت به الشروط وانتفت به الموانع.

قوله: (مالت): أي: رجحت حتى يملن.

قوله: (عامرهن): أي: ساكنهن.

قوله: (غيري): استثنى نفسه تبارك وتعالى، لأن قول لا إله إلا الله ثناء عليه، والمثنى عليه أعظم من الثناء.  
وهنا يجب أن تعرف أن كون الله تعالى في السماء ليس ككون الملائكة في السماء، فكون الملائكة في السماء  
كون حاجي، فهم ساكنون في السماء لأنهم محتاجون إلى السماء، لكن الرب تبارك وتعالى ليس محتاجا إليها،  
بل إن السماء وغير السماء محتاج إلى الله تعالى، فلا يظن ظان أن السماء تُقَلُّ الله أو تُظَلُّ أو تحيط به، وعليه  
فالسماوات باعتبار الملائكة أمكنة مقلدة للملائكة، وما فوقهم منها مُظَلُّ لهم، أما بالنسبة لله فهي جهة لأن الله  
تعالى مستو على عرشه، لا يُقَلُّه شيء من خلقه.

(١) رواه ابن حبان برقم (٣٢٤)، والحاكم (٥٢٨/١) وصححه ووافقه الذهبي، والبيهقي في الأسماء والصفات ص ١٠٢، وعزاه الهيثمي في المجمع  
(٨٢/١٠) لأبي يعلى، وقال: رجاله وثقوا على ضعف فيهم. اه وفي إسناده دراج بن سمعان، أبو السمح، وهو ضعيف. انظر: تقريب  
التهذيب (٢٣٥/١).

وللترمذي وحسنه عن أنس: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «قال الله تعالى يا ابن آدم! لو أتيتني بقراب الأرض خطايا، ثم لقيتني لا تشرك بي شيئا، لأتيتك بقرابها مغفرة»<sup>(١)</sup>.

قوله: (بقراب الأرض) أي: ما يقاربها، إما ملئا، أو ثقلا، أو حجما.

قوله: (لا تشرك بي شيئا) جملة في موضع نصب على الحال من التاء، أي: لقيتني في حال لا تشرك بي شيئا.

قوله: (شيئا): نكرة في سياق النفي تفيد العموم، أي: لا شركا أصغر ولا أكبر، وهذا قيد عظيم قد يتهاون به الإنسان، ويقول: أنا غير مشرك وهو لا يدري، فحب المال مثلا بحيث يلهي عن طاعة الله من الإشراف، قال النبي ﷺ: «تعس عبد الدينار، تعس عبد الدرهم، تعس عبد الخمصة، تعس عبد الخميلة»، فسمى النبي ﷺ من كان هذا همه عبدا له.

قوله: (لأتيتك بقرابها مغفرة): أي: أن حسنة التوحيد عظيمة تكفر الخطايا الكبيرة؛ إذا لقي الله وهو لا يشرك به شيئا، والمغفرة ستر الذنب والتجاوز عنه.

مناسبة الحديث للترجمة: أن في هذا الحديث فضل التوحيد، وأنه سبب لتكفير الذنوب، فهو مطابق لقوله في الترجمة: (وما يكفر من الذنوب).

وقول المؤلف في مسائل الباب: «العاشرة: النص على أن الأرضين سبع كالسماوات»، لم يرد في القرآن تصريح بذلك، وإنما ورد قوله تعالى ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ فالمثلية بالكيفية غير مرادة لظهور الفرق بين السماء والأرض في الهيئة والكيفية والارتفاع والحسن، فبقيت المثلية في العدد.

أما السنة، فهي صريحة جدا بأنها سبع، مثل قوله ﷺ: «من اقتطع شبرا من الأرض، طوقه يوم القيامة من سبع أرضين»، وقد اختلف في قوله ﷺ (من سبع أرضين) كيف تكون سبعا؟ فقيل: المراد: القارات السبع، وهذا ليس بصحيح، لأن هذا يمتنع بالنسبة لقوله: (طوقه من سبع أرضين)، وقيل: المراد المجموعة الشمسية. لكن ظاهر النصوص أنها طباق كالسماوات، وليس لنا أن نقول إلا ما جاء في الكتاب والسنة عن هذه الأرضين، لأننا لا نعرفها.

وقوله: «التاسعة عشرة: معرفة أن الميزان له كفتان»، أخذها المؤلف من قوله: (لو أن السماوات... وضعت في كفة ولا إله إلا الله في كفة)، والظاهر أن الذي في الحديث تمثيل، يعني أن قول: (لا إله إلا الله) أرجح من كل

(١) رواه الترمذي، الدعوات، باب فضل التوبة والاستغفار (٥/٥٤٨)، رقم (٣٥٤٠).

شيء، وليس في الحديث أن هذا الوزن في الآخرة، وكأن المؤلف رحمه الله حصل عنده انتقال ذهني فانتقل ذهنه من هذا إلى ميزان الآخرة.

## باب من حقق التوحيد دخل الجنة بغير حساب

هذا الباب كالمتمم للباب الذي قبله لأن الذي قبله (باب فضل التوحيد وما يكفر من الذنوب)، فمن فضله هذا الفضل العظيم الذي يسعى إليه كل عاقل، وهو دخول الجنة بغير حساب. وتحقيق التوحيد: تخليصه من الشرك. وقد ذكر المؤلف في هذا الباب آيتين، ومناسبتهما للباب الإشارة إلى تحقيق التوحيد، وأنه لا يكون إلا بانتفاء الشرك كله.

وقول الله تعالى ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾.

قوله: (أمة): أي: إماما، وقد سبق أن أمة تأتي في القرآن على أربعة أوجه: إمام، ودهر، وجماعة، ودين. وقوله: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾ هذا ثناء من الله سبحانه وتعالى على إبراهيم بأنه إمام متبوع، لأنه أحد الرسل الكرام من أولي العزم، ثم إنه ﷺ قدوة في أعماله وأفعاله وجهاده، فإنه جاهد قومه وحصل منهم عليه ما حصل، وألقي في النار فصبر، ثم ابتلاه الله سبحانه وتعالى بالأمر بذبح ابنه، وهو وحيد، وقد بلغ معه السعي أي: شب وترعرع، فليس كبيرا قد طابت النفس منه، ولا صغيرا لم تتعلق به النفس كثيرا، فصار على منتهى تعلق النفس به، ثم وفق إلى ابن بار مطيع لله، قال الله تعالى عنه: ﴿قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ لم يحنث والده ويتمرد ويهرب، بل أراد من والده أن يوافق أمر ربه، وهذا من بره بأبيه وطاعته لمولاه سبحانه وتعالى، وانظر إلى هذه القوة العظيمة مع الاعتماد على الله في قوله: ﴿سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾، فالسين في قوله: (ستجدني) تدل على التحقيق، وهو مع ذلك لم يعتمد على نفسه، بل استعان بالله في قوله: إن شاء الله. وامثلا جميعا وأسلما، وانقادا لله عز وجل، وتله للجبين، أي: على الجبين، أي جبهته، لأجل أن يذبحه وهو لا يرى وجهه، فجاء الفرج من الله تعالى ﴿وَوَدَّيْنَا أَنْ يَا إِبْرَاهِيمَ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾، ولا يصح ما ذكره بعضهم من أن السكين انقلبت، أو أن رقبته صارت حديدا، ونحو ذلك.

وقوله: (قانتا): القنوت: دوام الطاعة، والاستمرار فيها على كل حال.

وقوله: (حنيفا): أي: مائلا عن الشرك، مجانبنا لكل ما يخالف الطاعة.

وقوله: ﴿وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ تأكيد لاستمراره على التوحيد، فقد كان عليه الصلاة والسلام معصوما عن الشرك، مع أن قومه كانوا مشركين، فوصفه الله بامتناعه عن الشرك استمرارا في قوله: (حنيفا) وابتداء في قوله: ﴿وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾، والدليل على ذلك أن الله جعله إماما، ولا يجعل الله للناس إماما من لم يحقق التوحيد أبدا.

ومن تأمل حال إبراهيم عليه السلام وما جرى عليه وجد أنه في غاية ما يكون من مراتب الصبر، وفي غاية ما يكون من مراتب اليقين، لأنه لا يصبر على هذه الأمور العظيمة إلا من أيقن بالثواب، فمن عنده شك أو تردد لا يصبر على هذا، لأن النفس لا تدع شيئا إلا لما هو أحب إليها منه، ولا تحب شيئا إلا ما ظنت فائدته، أو تيقنت.

ويجب أن نعلم أن ثناء الله على أحد من خلقه يُقصد منه أمران هامين:

الأول: محبة هذا الذي أثنى الله عليه خيرا.

الثاني: أن نقندي به في هذه الصفات التي أثنى الله بها عليه، لأنها محل الثناء.

وقال: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ﴾.

هذه الآية سبقها آية، وهي قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ﴾، لكن المؤلف ذكر الشاهد، وقوله تعالى ﴿مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ﴾ أي: من خوفهم منه على علم، و(مشفقون) أي: خائفون من عذابه إن خالفوه، فالمعاصي بالمعنى الأعم كما سبق شرك، لأنها صادرة عن هوى مخالف للشرع، وقد قال الله تعالى ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ﴾، أما بالنسبة للمعنى الأخص، فيقسمها العلماء قسمين: شركا، وفسوقا، وقوله: (لا يشركون) يراد به الشرك بالمعنى الأعم، إذ تحقيق التوحيد لا يكون إلا باجتناب الشرك بالمعنى الأعم، ولكن ليس معنى هذا ألا تقع منهم المعاصي، لأن كل ابن آدم خطاء، ولكن إذا عصوا فإنهم يتوبون ولا يستمرون عليها، كما قال تعالى ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرِ اللَّهُ فَرِحُوا وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَرِحُوا بِأَلْحَابِهِمْ لَمْ نُجِبْ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ أَلَّا يَرْجِعُوا إِلَى اللَّهِ حَقِيرِينَ﴾.

وعن حصين بن عبد الرحمن، قال: كنت عند سعيد بن جبير فقال: أيكم رأى الكوكب الذي انقض الباردة؟ فقلت: أنا ثم قلت: أما إني لم أكن في صلاة، ولكنني لدغت قال: فما صنعت؟ قلت: ارتقيت. قال: فما حملك على ذلك؟ قلت: حديث حدثناه الشعبي. قال: وما حدثكم؟ قلت: حدثنا عن بريدة بن

الحصيب، أنه قال: لا رقية إلا من عين أو حمة<sup>(١)</sup>. قال: قد أحسن من انتهى إلى ما سمع، ولكن حدثنا ابن عباس عن النبي ﷺ أنه قال: «عرضت علي الأمم، فرأيت النبي ومعه الرهط، والنبي ومعه الرجل والرجلان، والنبي وليس معه أحد، إذ رفع لي سواد عظيم فظننت أنهم أمي، فقبل لي: هذا موسى وقومه. فنظرت فإذا سواد عظيم، فقبل لي: هذه أمتك، ومعهم سبعون ألفا يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب» ثم نهض فدخل منزله، فخاض الناس في أولئك، فقال بعضهم: فلعلهم الذين صحبوا رسول الله ﷺ، وقال بعضهم: فلعلهم الذين ولدوا في الإسلام فلم يشركوا بالله شيئاً، وذكروا أشياء، فخرج عليهم رسول الله ﷺ فأخبروه، فقال: هم الذين لا يسترقون ولا يكتون ولا يتطيرون وعلى ربهم يتوكلون»، فقام عكاشة بن محصن، فقال: ادع الله أن يجعلني منهم. فقال: أنت منهم. ثم قام رجل آخر فقال: ادع الله أن يجعلني منهم. فقال: «سبقك بها عكاشة»<sup>(٢)</sup>.

قوله: (عن حصين بن عبد الرحمن قال: كنت عند سعيد بن جبير): وهما رجلان من التابعين ثقتان.  
قوله: (انقض البارحة): أي: سقط البارحة، والبارحة: أقرب ليلة مضت، قال بعض أهل اللغة: تقول فعلنا الليلة كذا إن قلته قبل الزوال، وفعلنا البارحة كذا إن قلته بعد الزوال.  
قوله: (أما إني لم أكن في صلاة): قال هذا رحمه الله لئلا يظن أنه قائم يصلي فيحمد بما لم يفعل.  
قوله: (ارتقيت)، أي: استرقيت، لأن افتعل مثل استفعل، وفي رواية مسلم: (استرقيت)، أي: طلبت الرقية.  
قوله: (إلا من عين): العين نظرة من حاسد نفسه خبيثة، تتكيف بكيفية خاصة؛ فينبعث منها ما يؤثر على المصاب.

قوله: (حمة): بضم الحاء وفتح الميم مع تخفيفها، وهي كل ذات سم، والمعنى لدغته إحدى ذوات السموم.  
فقال سعيد بن جبير: قد أحسن من انتهى إلى ما سمع، ولكن حدثنا ابن عباس... إلخ. فحصين استند على حديث (لا رقية إلا من عين أو حمة) وهذا يدل على أن الرقية من العين أو الحمة مفيدة، وهذا أمر واقع، فإن الرقى تنفع بإذن الله من العين ومن الحمة أيضاً.  
ويستعمل للعين طريقة أخرى غير الرقية، وهو الاستغسال، وهي أن يؤتى بالعائن، ويطلب منه أن يتوضأ، ثم يؤخذ ما تناثر من الماء من أعضائه، ويصب على المصاب، ويشرب منه، ويرأ بإذن الله، وهناك طريقة أخرى،

(١) رواه الترمذي: (الطب) (٥٧)، وأبو داود: (الطب) (٣٨٨٤)، وأحمد (٤/٤٣٦، ٤/٤٣٨، ٤/٤٤٦).  
(٢) رواه البخاري، كتاب الرقاق، باب يدخل الجنة سبعون ألفاً، (١٩٩/٤)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب الدليل على دخول طوائف من المسلمين الجنة بغير حساب، (١٩٩/١).

ولا مانع منها أيضا، وهي أن يؤخذ شيء من شعاره، أي: ما يلي جسمه من الثياب، كالثوب، والطاقيّة، والسروال، وغيرها، أو التراب إذا مشى عليه وهو رطب، ويصب على ذلك ماء يرش به المصاب أو يشربه، وهو مجرب.

وأما العائن، فينبغي إذا رأى ما يعجبه أن يترك عليه، لقول النبي ﷺ لعامر بن ربيعة لما عان سهل بن حنيف «هلا بركت عليه» أي: قلت: بارك الله عليك.

قوله: (ولكن حدثنا): القائل: سعيد بن جبير.

قوله: (عرضت علي الأمم): العارض لها الله سبحانه وتعالى، وهذا في المنام فيما يظهر، وانظر: فتح الباري (١١ / ٤٠٧) باب يدخل الجنة سبعون ألفا، كتاب الرقاق، والأمم: جمع أمة، وهي أمم الرسل. وقوله: (الرهط): من الثلاثة إلى التسعة.

قوله: (والنبي ومعه الرجل والرجلان): الواو بمعنى أو، أي: ومعه الرجل أو الرجلان، والمعنى: والنبي ومعه الرجل، والنبي ومعه الرجلان.

قوله: (والنبي وليس معه أحد): أي: بيعث ولا يكون معه أحد، لكن بيعته الله لإقامة الحجة.

قوله: (إذ رفع لي): هذا على تقدير محذوف، أي: بينما أنا كذلك إذ رفع لي.

قوله: (سواد عظيم): السواد هنا الأشخاص، أي: أشخاصا عظيمة كانوا من كثرتهم سوادا.

قوله: (ف قيل لي: هذا موسى وقومه): وهذا يدل على كثرة أتباع موسى عليه السلام، وقومه الذين أرسل إليهم.

قوله: (فإذا سواد عظيم، ف قيل لي: هذه أمتك): وهذا أعظم من السواد الأول؛ لأن أمة النبي ﷺ أكثر بكثير من أمة موسى عليه السلام.

قوله: (بغير حساب ولا عذاب): أي: لا يعذبون ولا يحاسبون كرامة لهم، وظاهره أنه لا في قبورهم، ولا بعد قيام الساعة.

قوله: (فخاض الناس في أولئك): هذا الخوض للوصول إلى الحقيقة نظريا وعمليا؛ حتى يكونوا منهم.

قوله: (الذين صحبوا رسول الله): يحتمل أن المراد الصحبة المطلقة، ويؤيده ظاهر اللفظ، ويحتمل أن المراد الذين هاجروا معه، ويؤيده أنه لو كان المراد الصحبة المطلقة لقالوا: نحن. لأن المتكلم هم الصحابة، ويدل على هذا أيضا قول الرسول ﷺ لخالد بن الوليد «لا تسبوا أصحابي»، المراد بهم الذين هاجروا معه، لكن يمنع منه أن المهاجرين لا يبلغون سبعين ألفا، ويحتمل أن المراد من كان مع الرسول ﷺ إلى فتح مكة؛ لأنه بعد فتح مكة دخل الناس في دين الله أفواجا، وهذه المسألة تحتاج إلى مراجعة أكثر.

قوله: (الذين ولدوا في الإسلام): أي: من ولد بعد البعثة وأسلم، وهؤلاء كثيرون.

قوله: (فخرج عليهم رسول الله ﷺ فأخبروه): أي: أخبروه بما قالوا وما جرى بينهم.

قوله: (لا يسترقون)، في بعض روايات مسلم: «لا يرقون»، ولكن هذه الرواية خطأ كما قال شيخ الإسلام

ابن تيمية؛ لأن الرسول ﷺ كان يرقى، ورقاه جبريل وعائشة، وكذلك الصحابة كانوا يرقون. واستفعل بمعنى طلب الفعل، مثل استغفر أي: طلب المغفرة، واستجار: طلب الجوار، وهنا استرقى أي: طلب الرقية، أي لا يطلبون من أحد أن يقرأ عليهم؛ لقوة اعتمادهم على الله، ولعزة نفوسهم عن التذلل لغير الله، ولما في ذلك من التعلق بغير الله.

قوله: (ولا يكتون): أي: لا يطلبون من أحد أن يكويهم، ومعنى اكتوى: طلب من يكويه، وهذا مثل قوله:

(ولا يسترقون)، أما بالنسبة لمن أعد للكوي من قبل الحكومة فطلب الكوي منه ليس فيه ذل لأنه معد من قبل الحكومة يأخذ الأجر على ذلك من الحكومة، ولأن هذا الطلب مجرد إخبار من الطالب بأنه محتاج إلى الكوي، وليس سؤال تذلل.

قوله: (ولا يتطيرون): مأخوذ من الطير، والمصدر منه تطير، والطيرة اسم المصدر، وأصله: التشاؤم بالطير،

ولكنه أعم من ذلك، فهو التشاؤم بمرئي أو مسموع أو زمان أو مكان، وكانت العرب معروفة بالتطير.

وهل هذه الأشياء تدل على أن من لم يتصف بها فهو مذموم، أو فاته الكمال؟

الجواب: أن الكمال فاته، إلا بالنسبة للتطير فإنه لا يجوز؛ لأنه ضرر وليس له حقيقة أصلا.

أما بالنسبة لطلب العلاج فالظاهر أنه مثله<sup>(١)</sup>؛ لأنه عام، وقد يقال: إنه لولا قوله: (ولا يسترقون) لقلت:

إنه لا يدخل؛ لأن الاكتواء ضرر محقق: إحراق بالنار، وألم للإنسان، ونفعه مرتجى، لكن كلمة (يسترقون) مشكلة؛ فالرقية ليس فيها ضرر، إن لم تنفع لم تضر، والدواء مثلها؛ لأن الدواء إذا لم ينفع لم يضر، وقد يضر أيضا لأن الإنسان إذا تناول دواء وليس فيه مرض لهذا الدواء فقد يضره.

وهذه المسألة تحتاج إلى بحث، وهل نقول مثلا: ما تؤكد منفعته إذا لم يكن في الإنسان إذلال لنفسه فهو لا

يضر، أي: لا يفوت الكمال به، مثل الكسر وقطع العضو مثلا؟ ولو قال قائل بالاعتصار على ما في هذا

الحديث، وهو أنهم لا يسترقون ولا يكتون ولا يتطيرون، وأن ما عدا ذلك لا يمنع من دخول الجنة بلا حساب

ولا عذاب للنصوص الواردة بالأمر بالتداوي والثناء على بعض الأدوية كالعسل والحبة السوداء لكان له وجه.

(١) أي مثل طلب الرقية.

وإذا طلب منك إنسان أن يرقيك فهل يفوتك كمال إذا لم تمنعه؟ الجواب: لا يفوتك؛ لأن النبي ﷺ لم يمنع عائشة أن ترقيه، وهو أكمل الخلق توكلًا على الله وثقة به، ولأن هذا الحديث: (لا يسترقون...) إلخ، إنما كان في طلب هذه الأشياء، ولا يخفى الفرق بين أن تحصل هذه الأشياء بطلب، وبين أن تحصل بغير طلب.

قوله: (ثم قام رجل آخر، فقال: ادع الله أن يجعلني منهم. قال: سبقك بها عكاشة)، اختلف العلماء لماذا قال الرسول ﷺ هذا الكلام؟ فقيل: إنه كان منافقًا، فأراد الرسول ﷺ ألا يجابهه بما يكره تأليفًا. وقيل: خاف أن يفتح الباب فيطلبها من ليس منهم فقال هذه الكلمة التي أصبحت مثلًا، وهذا أقرب.

وقول المؤلف في مسائل الباب: «الخامسة: كون ترك الرقية والكي من تحقيق التوحيد»؛ لقوله: (الذين لا يسترقون ولا يكتوون)، والمراد بقول المؤلف: (الرقية والكي): الاسترقاء والاكتواء.

وقوله «الحادية عشرة: عرض الأمم عليه عليه الصلاة والسلام»، وهذا له فائدتان:

الفائدة الأولى: تسلية الرسول عليه الصلاة والسلام، حيث رأى من الأنبياء من ليس معه إلا الرجل والرجلان، ومن الأنبياء من ليس معه أحد.

الفائدة الثانية: بيان فضيلته عليه الصلاة والسلام وشرفه، حيث كان أكثرهم أتباعًا.

## باب الخوف من الشرك

مناسبة الباب للباين قبله: في الباب الأول ذكر المؤلف رحمه الله تحقيق التوحيد، وفي الباب الثاني ذكر أن من حقق التوحيد دخل الجنة بغير حساب ولا عذاب، وثالث بهذا الباب رحمه الله تعالى لأن الإنسان يرى أنه قد حقق التوحيد وهو لم يحققه، وذلك أن النفس متعلقة بالدنيا تريد حظوظها من مال أو جاه أو رئاسة، وقد تريد بعمل الآخرة الدنيا، وهذا نقص في الإخلاص، وقل من يكون غرضه الآخرة في كل عمله، ولهذا أعقب المؤلف رحمه الله ما سبق من الباين بهذا الباب، وهو الخوف من الشرك.

والشرك فيه أصغر وأكبر، وفيه خفي وجلي<sup>(١)</sup>.

فالشرك الأكبر: ما يخرج الإنسان من الملة.

والشرك الأصغر: اختلف العلماء في ضابطه على قولين:

القول الأول: أنه كل شيء أطلق الشارع عليه اسم الشرك ودلت النصوص على أنه ليس من الأكبر، مثل: «من حلف بغير الله فقد أشرك».

القول الثاني: أنه ما كان وسيلة للأكبر، وإن لم يطلق الشرع عليه اسم الشرك، مثل: أن يعتمد الإنسان على شيء كاعتماده على الله، لكنه لم يتخذها إلهًا، فهذا شرك أصغر؛ لأن هذا الاعتماد يؤدي به في النهاية إلى الشرك الأكبر، وهذا التعريف أوسع من الأول، لأن الأول يمنع أن تطلق على شيء أنه شرك إلا إذا كان لديك دليل، والثاني يجعل كل ما كان وسيلة للشرك فهو شرك.

وأما الشرك الجلي والخفي:

فبعضهم قال: إن الجلي والخفي هو الأكبر والأصغر.

وبعضهم قال: الجلي ما ظهر للناس من أصغر أو أكبر، كالحلف بغير الله، والسجود للصنم. والخفي: ما لا يعلمه الناس من أصغر أو أكبر، كالرياء، واعتقاد أن مع الله إلهًا آخر.

وقد يقال: إن الجلي ما انجلي أمره وظهر كونه شركًا، ولو كان أصغر، والخفي: ما سوى ذلك.

وقول الله عزوجل ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾.

(١) هذه الجملة إلى قوله «والخفي: ما سوى ذلك» ذكرها الشيخ في شرح مسائل باب من تبرك بشجر أو حجر، وقدمتها هنا للمناسبة.

(لا): نافية، (أن يشرك به): فعل مضارع، مقرون بأن المصدرية فيحول إلى مصدر تقديره: إن الله لا يغفر الإشراف به، أو لا يغفر إشراكا به.

وهل المراد بالشرك هنا الأكبر أم مطلق الشرك؟ على كل حال يجب الحذر من الشرك مطلقا؛ لأن العموم يحتفل أن يكون داخلا فيه الأصغر؛ لأن قوله (أن يشرك به) أن وما بعدها في تأويل مصدر، تقديره: إشراكا به فهو نكرة في سياق النفي، فتفيد العموم.  
قوله: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ﴾ المراد بالدون هنا: ما هو أقل من الشرك، وليس ما سوى الشرك.

وقال الخليل عليه السلام: ﴿وَاجْتَنِبِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾.

قيل: المراد ببنيه: بنوه لصلبه، ولا نعلم له من صلبه سوى إسماعيل وإسحاق. وقيل: المراد ذريته وما توالت من صلبه، وهو الأرجح، وذلك للآيات التي دلت على دعوته للناس من ذريته، ولكن كان من حكمة الله أن لا تجاب دعوته في بعضهم، كما أن الرسول ﷺ دعا الله أن لا يجعل بأس أمته بينهم فلم يجب الله دعاءه، وأيضا يمنع من الأول: أن الآية بصيغة الجمع، وليس لإبراهيم من الأبناء سوى إسحاق وإسماعيل.  
ومعنى: (اجتنبني) أي: اجعلني في جانب والأصنام في جانب، وهذا أبلغ مما لو قال: امنعني وبني من عبادة الأصنام.

فإبراهيم عليه السلام يخاف الشرك على نفسه، وهو خليل الرحمن وإمام الحنفاء فما بالك بنا نحن إذن؟! فلا تأمن الشرك، ولا تأمن النفاق، ولهذا قال ابن أبي مليكة: أدركت ثلاثين من أصحاب النبي ﷺ كلهم يخاف النفاق على نفسه. وها هو عمر بن الخطاب رضي الله عنه خاف على نفسه النفاق، فقال لحذيفة بن اليمان رضي الله عنه الذي أسر إليه النبي ﷺ بأسماء أناس من المنافقين فقال له عمر رضي الله عنه: أنشدك الله هل سماني لك رسول الله ﷺ مع من سمى من المنافقين؟ فقال حذيفة رضي الله عنه: لا، ولا أركي بعدك أحدا. أراد عمر بذلك زيادة الطمأنينة، وإلا فقد شهد له النبي ﷺ بالجنة.

قوله: ﴿أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾ أن والفعل بعدها في تأويل مصدر مفعول ثان لقوله: اجتنبني.  
والأصنام: جمع صنم، وهو ما جعل على صورة إنسان أو غيره يعبد من دون الله. أما الوثن: فهو ما عبد من دون الله، على أي وجه كان، وفي الحديث: «اللهم لا تجعل قبري وثنا يعبد»، فالوثن أعم من الصنم.  
ولا شك أن إبراهيم سأل ربه الثبات على التوحيد لأنه إذا جنبه عبادة الأصنام صار باقيا على التوحيد.

الشاهد من هذه الآية: أن إبراهيم خاف الشرك، وهو إمام الحنفاء، وهو سيدهم ما عدا رسول الله ﷺ.

وفي الحديث: «أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر» فسل عنه؟ فقال: «الرياء»<sup>(١)</sup>.

قوله: (الرياء): مشتق من الرؤية، مصدر رأى يرأى، كقاتل يقاتل قتالا. والرياء: أن يعبد الله ليراه الناس فيمدحوه على كونه عابدا، وليس يريد أن تكون العبادة للناس؛ لأنه لو أراد ذلك لكان شركا أكبر، والظاهر أن هذا على سبيل التمثيل، وإلا فقد يكون رياء، وقد يكون سماعا، أي يقصد بعبادته أن يسمعه الناس فيثنوا عليه، فهذا داخل في الرياء، فالتعبير بالرياء من باب التعبير بالأغلب، أما إن أراد بعبادته أن يقتدي الناس به فيها فليس هذا رياء، بل هذا من الدعوة إلى الله عزوجل، والرسول ﷺ يقول: «فعلت هذا لتأتموا بي وتعلموا صلاتي».

وعن ابن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «من مات وهو يدعو من دون الله ندا دخل النار»<sup>(٢)</sup>.

قوله: (من): هذه شرطية تفيد العموم للذكر والأنثى. قوله: (يدعو من دون الله ندا): أي: يتخذ لله ندا سواء دعاه دعاء عبادة أم دعاء مسألة؛ لأن الدعاء ينقسم إلى قسمين: الأول: دعاء عبادة، مثاله: الصوم، والصلاة، وغير ذلك من العبادات، فإذا صلى الإنسان أو صام فقد دعا ربه بلسان الحال أن يغفر له، وأن يجيره من عذابه، وأن يعطيه من نواله، ويبدل لهذا القسم قوله تعالى ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي﴾، فجعل الدعاء عبادة، وهذا القسم كله شرك، فمن صرف شيئا من أنواع العبادة لغير الله فقد كفر كفرا محرجا له عن الملة، فلو رجع لإنسان أو سجد لشيء يعظمه

(١) من حديث محمود بن لبيد، رواه الإمام أحمد في المسند (٤٢٨/٥)، قال ابن حجر في بلوغ المرام: أخرجه أحمد بإسناد حسن. وقال المنذري في الترغيب (٦٩/١): إسناده جيد. وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٢٢٢/١٠): رجاله رجال الصحيح غير عبد الله بن شبيب بن خالد، وهو ثقة.

(٢) رواه البخاري، كتاب التفسير، باب ﴿ومن الناس من يتخذ من دون الله أندادا﴾ (٣/١٩٦).

كتعظيم الله في هذا الركوع أو السجود لكان مشركا، ولهذا منع النبي ﷺ من الانحناء عند الملاقاة، خلافا لما يفعله بعض الجهال إذا سلم عليك انحنى لك، فيجب على كل مؤمن بالله أن ينكره؛ لأنه عظمك على حساب دينه. الثاني: دعاء المسألة، فهذا ليس كله شركا، بل فيه تفصيل، فإن كان المخلوق قادرا على ذلك فليس بشرك كقولك: اسقني ماء لمن يستطيع ذلك، وأما إن دعا المخلوق بما لا يقدر عليه إلا الله فإن دعوته شرك مخرج عن الملة. مثال ذلك: أن تدعو إنسانا أن ينزل الغيث معتقدا أنه قادر على ذلك، ومع الأسف ففي بعض البلاد الإسلامية من يعتقد أن فلانا المقبور الذي بقي جثة أو أكلته الأرض ينفع أو يضر، أو يأتي بالنسل لمن لا يولد لها، وهذا والعياذ بالله شرك أكبر مخرج من الملة، وإقرار هذا أشد من إقرار شرب الخمر والزنا؛ لأنه إقرار على كفر، وليس إقرارا على فسوق فقط.

قوله: (دخل النار): أي: خالدا، بدليل قوله تعالى ﴿إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾، وإذا حرمت الجنة لزم أن يكون خالدا في النار أبدا، فيجب أن نخاف من الشرك ما دامت هذه عقوبته فالمشرك خسر الآخرة لأنه في النار خالد، وخسر الدنيا أيضا لأنه لم يستفد منها شيئا، وقامت عليه الحجة، وجاءه النذير، ولكنه خسر والعياذ بالله، قال تعالى: ﴿وَمَنْ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُ وَمَا لَا يَضُرُّهُ وَمَا لَا يَنْفَعُهُ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ يَدْعُو لِمَنْ ضُرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ لَيْسَ الْمَوْلَى وَكَيْسَ الْعَشِيرِ﴾، وقال تعالى ﴿قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾، فخسر نفسه لأنه لم يستفد منها شيئا، وخسر أهله لأنهم إن كانوا من المؤمنين فهم في الجنة، فلا يتمتع بهم في الآخرة، وإن كانوا في النار فكذلك لأنه كلما دخلت أمة لعنت أختها.

والشرك خفي جدا، فقد يكون في الإنسان وهو لا يشعر إلا بعد المحاسبة الدقيقة، ولهذا قال بعض السلف: ما جاهدت نفسي على شيء مجاهدتها على الإخلاص.

فالشرك أمره صعب جدا ليس بالهين، ولكن يسر الله الإخلاص على العبد، وذلك بأن يجعله الله نصب عينيه، فيقصد بعمله وجه الله، لا يقصد مدح الناس أو ذمهم أو ثناءهم عليه، فالناس لا ينفعونه أبدا، حتى لو خرجوا معه لتشجيع جنازته لم ينفعه إلا عمله، قال ﷺ: «يتبع الميت ثلاثة: فيرجع اثنان ويبقى واحد، يتبعه أهله وماله وعمله فيرجع أهله وماله ويبقى عمله».

وكذلك أيضا من المهم: أن الإنسان لا يفرحه أن يقبل الناس قوله لأنه قوله، لكن يفرحه أن يقبل الناس قوله إذا رأى أنه الحق لأنه الحق، لا أنه قوله، وكذا لا يحزنه أن يرفض الناس قوله لأنه قوله؛ لأنه حينئذ يكون قد دعا لنفسه، لكن يحزنه أن يرفضوه لأنه الحق، وبهذا يتحقق الإخلاص.

ولمسلم عن جابر أن رسول الله ﷺ قال: «من لقي الله لا يشرك به شيئاً دخل الجنة، ومن لقيه يشرك به شيئاً دخل النار»<sup>(١)</sup>.

قوله: (من): شرطية تفيد العموم، وفعل الشرط: (لقي)، وجوابه قوله: (دخل الجنة)، وهذا الدخول لا ينافي أن يعذب بقدر ذنوبه إن كانت عليه ذنوب لدلالة نصوص الوعيد على ذلك، وهذا إذا لم يغفر الله له لأنه داخل تحت المشيئة.

قوله: (لا يشرك): في محل نصب على الحال من فاعل (لقي).

قوله: (شيئاً): نكرة في سياق الشرط فيعم أي شرك، حتى ولو أشرك مع الله أشرف الخلق، وهو الرسول ﷺ دخل النار، فكيف بمن يجعل الرسول ﷺ أعظم من الله، فيلجأ إليه عند الشدائد ولا يلجأ إلى الله، بل ربما يلجأ إلى ما دون الرسول ﷺ! وهناك من لا يبالي بالحلف بالله صادقا أم كاذبا ولكن لا يحلف بقوميته إلا صادقا! وقوله (دخل النار): هل يلزم من دخول النار الخلود لمن أشرك؟ هذا بحسب الشرك، إن كان الشرك أصغر فإنه لا يلزم من ذلك الخلود في النار، وإن كان أكبر فإنه يلزم منه الخلود في النار، كما دلت على ذلك النصوص، لكن لو حملنا الحديث على الشرك الأكبر في الموضوعين في قوله: (من مات لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة، ومن لقي الله يشرك به شيئاً دخل النار) لقلنا: من لقي الله لا يشرك به شركا أكبر دخل الجنة، وإن عذب قبل الدخول في النار بما يستحق فيكون مآله إلى الجنة، ومن لقيه يشرك به شركا أكبر دخل النار مخلدا فيها، ولم نحتج إلى هذا التفصيل.

وقول المؤلف في مسائل الباب: «الثالثة: أنه [يعني الرياء] من الشرك الأصغر»؛ لأن النبي ﷺ لما سئل عنه قال: (الرياء)، فسماه شركا أصغر. وهل يمكن أن يصل إلى الأكبر؟ ظاهر الحديث: لا؛ لأنه قال: (الشرك الأصغر)، فسئل عنه فقال: (الرياء)، لكن في عبارات ابن القيم رحمه الله أنه إذا ذكر الشرك الأصغر قال: كيسيير الرياء، فهذا يدل على أن كثيره ليس من الأصغر، لكن إن أراد بالكمية فنعم، لأنه لو كان يراني في كل عمل لكان مشركا شركا أكبر لعدم وجود الإخلاص في عمل يعمله، أما إذا أراد الكيفية فظاهر الحديث أنه أصغر مطلقا.

(١) كتاب الإيمان، باب من مات وهو لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة (١/٩٤).

## باب الدعاء إلى شهادة أن لا إله إلا الله

هذا الترتيب الذي ذكره المؤلف من أحسن ما يكون، لأنه لما ذكر توحيد الإنسان بنفسه ذكر دعوة غيره إلى ذلك؛ لأنه لا يتم الإيمان إلا إذا دعا إلى التوحيد، قال تعالى ﴿وَالْعَصْرُ. إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ. إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾، والدعاء إلى شهادة أن لا إله إلا الله من تمام التوحيد، ولا يتم التوحيد إلا به.

### وقول الله تعالى ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ﴾ الآية.

قوله: (قل هذه سبيلي): المشار إليه ما جاء به النبي ﷺ من الشرع عبادة ودعوة إلى الله. سبيلي: طريقي.  
قوله: (أدعو): حال من الياء في قوله: (سبيلي)، ويحتمل أن تكون استئنفا لبيان تلك السبيل.  
وقوله: (إلى الله) لأن الدعوة إلى الله ينقسمون إلى قسمين: داع إلى الله، وداع إلى غيره.  
فالداعي إلى الله تعالى هو المخلص الذي يريد أن يوصل الناس إلى الله تعالى، والداعي إلى غيره قد يكون داعيا إلى نفسه، يدعو إلى الحق لأجل أن يعظم بين الناس، ولهذا تجده يغضب إذا لم يفعل الناس ما أمر به، ولا يغضب إذا ارتكبوا نهيًا أعظم منه لكن لم يدع إلى تركه، وقد يكون داعيا إلى رئيسه؛ كما يوجد في كثير من الدول من علماء الضلال من علماء الدول لا علماء الملل، يدعون إلى رؤسائهم، من ذلك لما ظهرت الاشتراكية في البلاد العربية قام بعض علماء الضلالة بالاستدلال عليها بآيات وأحاديث بعيدة الدلالة، بل ليس فيها دلالة، فهؤلاء دعوا إلى غير الله.

ومن دعا إلى الله ثم رأى الناس فارين منه فلا يبأس ويترك الدعوة، فإن الرسول ﷺ قال لعلي: (انفذ على رسلك فوالله لأن يهدي الله بك رجلا واحدا خير لك من حمر النعم)، يعني: أن اهتداء رجل واحد من قبائل اليهود خير لك من حمر النعم، فإذا استجاب واحد كفى، وإذا لم يستجب أحد فقد أبرأ ذمته أيضا، وفي الحديث: (والنبي وليس معه أحد)، ثم إنه يكفي من الدعوة إلى الحق والتحذير من الباطل أن يتبين للناس أن هذا حق وهذا باطل؛ لأن الناس إذا سكتوا عن بيان الحق وأقر الباطل مع طول الزمن ينقلب الحق باطلا، والباطل حقا.  
قوله: (على بصيرة): أي: علم، فتضمنت هذه الدعوة الإخلاص والعلم؛ لأن أكثر ما يفسد الدعوة عدم الإخلاص، أو عدم العلم، وليس المقصود بالعلم في قوله: (على بصيرة) العلم بالشرع فقط، بل يشمل: العلم

بالشرع، والعلم بحال المدعو، والعلم بالسبيل الموصل إلى المقصود، وهو الحكمة. فيكون بصيرا بحكم الشرع، وبصيرا بحال المدعو، وبصيرا بالطريق الموصلة لتحقيق الدعوة، ولهذا قال النبي ﷺ لمعاذ: (إنك تأتي قوما أهل كتاب)، وهذه ليست كلها من العلم بالحكم الشرعي؛ لأن علمي أن هذا الرجل قابل للدعوة بالدين، وهذا قابل للدعوة بالشدة، وهذا عنده علم يمكن أن يقابلني بالشبهات \_ أمر زائد على العلم بالحكم الشرعي، وكذلك العلم بالطرق التي تجلب المدعويين كالترغيب بكذا أو بالتأليف، فالنبي ﷺ أعطى المؤلفلة قلوبهم في غزوة حنين إلى مئة بعير، فهذا كله من الحكمة، فالجاهل لا يصلح للدعوة، وليس محمودا، وليست طريقته طريقة الرسول ﷺ لأن الجاهل يفسد أكثر مما يصلح.

قوله: ﴿أَنَا وَمَنْ اتَّبَعَنِي﴾ ذكروا فيها رأيين، الأول: (أنا) مبتدأ، وخبرها (على بصيرة)، و(من اتبعني) معطوفة على (أنا) أي: أنا ومن اتبعني على بصيرة أي: في عبادتي ودعوتي. الثاني: (أنا) توكيد للضمير المستتر في قوله: (أدعو) أي: أدعو أنا إلى الله ومن اتبعني يدعو أيضا، أي: قل هذه سبيلي أدعو إلى الله ويدعو من اتبعني، وكلانا على بصيرة.

قوله: (وسبحان الله): أي: وسبحان الله أن أكون أدعو على غير بصيرة. وإعراب (سبحان): مفعول مطلق عامله محذوف تقديره أسبح.

قوله: ﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ محلها مما قبلها في المعنى توكيد؛ لأن التوحيد معناه نفي الشرك.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما (أن رسول الله ﷺ لما بعث معاذًا إلى اليمن قال له: «إنك تأتي قوما من أهل الكتاب؛ فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله» وفي رواية: «إلى أن يوحدوا الله. فإن هم أطاعوك لذلك فأعلمهم أن الله افترض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة، فإن هم أطاعوك لذلك فأعلمهم أن الله افترض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم، فإن هم أطاعوك لذلك فإياك وكرائم أموالهم، واتق دعوة المظلوم، فإنه ليس بينها وبين الله حجاب» أخرجاه<sup>(١)</sup>.

(١) رواه البخاري، كتاب المغازي، باب بعث أبي موسى ومعاذ إلى اليمن (٣/١٦٠)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب الدعاء إلى الشهادتين (٥٠/١).

قوله: (بعث معاذاً): أي: أرسله، وبعثه على صفة المعلم والحاكم والداعي، وبعثه في ربيع الأول سنة عشر من الهجرة، وهذا هو المشهور، وبعثه هو وأبا موسى الأشعري رضي الله عنهما، بعث معاذاً إلى صنعاء وما حولها، وأبا موسى إلى عدن وما حولها، وأمرهما: أن «اجتمعا وتطاوعا ولا تفترقا، ويسرا ولا تعسرا، وبشرا ولا تنفرا».

قوله: (إنك تأتي قوماً من أهل الكتاب): قال ذلك مرشداً له، وهذا دليل على معرفته ﷺ بأحوال الناس، وما يعلمه من أحوالهم فله طريقان: الوحي، والعلم والتجربة.

قوله: (من): بيانية، والمراد بالكتاب: التوراة والإنجيل، فيكون المراد بأهل الكتاب اليهود والنصارى، وهم أكثر أهل اليمن في ذلك الوقت، وإن كان في اليمن مشركون، ولهذا اعتمد الأكثر، وأخبره النبي ﷺ بذلك لأمرين:

الأول: أن يكون بصيراً بأحوال من يدعو.

الثاني: أن يكون مستعداً لهم لأنهم أهل كتاب، وعندهم علم.

قوله: (فليكن): الفاء للاستئناف أو عاطفة، واللام للأمر، و(أول): اسم يكن، وخبرها (شهادة)، وقيل العكس، والظاهر أنه يريد أن يبين أن أول ما يكون هي الشهادة، وإذا كان كذلك يكون (أول) مرفوعاً على أنه اسم يكن أي: أول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله.

قوله: (شهادة): الشهادة هنا من العلم، قال تعالى ﴿إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾، فالشهادة هنا العلم والنطق باللسان؛ لأن الشاهد مخبر عن علم، وهذا المقام لا يكفي فيه مجرد الإخبار، بل لا بد من علم وإخبار وقبول وإقرار وإذعان أي: انقياد؛ فلو اعتقد بقلبه ولم يقل بلسانه: أشهد أن لا إله إلا الله، فقد قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: إنه ليس بمسلم بالإجماع حتى ينطق بها؛ لأن كلمة أشهد تدل على الإخبار، والإخبار متضمن للنطق، فلا بد من النطق فالنية فقط لا تجزئ ولا تنفعه عند الله حتى ينطق، والنبي ﷺ قال لعنه أبي طالب: «قل»، ولم يقل: اعتقد أن لا إله إلا الله.

ولهما عن سهل بن سعد رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال يوم خيبر: لأعطين الراية غداً رجلاً يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله يفتح الله على يديه. فبات الناس يدوكون ليلتهم أيهم يعطاها، فلما أصبحوا غدوا على رسول الله ﷺ كلهم يرجو أن يعطاها، فقال: «أين علي بن أبي طالب؟» فقيل: هو يشتكي عينيه. فأرسلوا إليه، فأتي به، فبصق في عينيه، ودعا له، فبرأ كأن لم يكن به وجع، فأعطاه الراية، فقال:

«انفذ على رسلك حتى تنزل بساحتهم، ثم ادعهم إلى الإسلام، وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله تعالى فيه، فوالله لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من حمر النعم»<sup>(١)</sup>.  
يدوكون أي: يخوضون.

قوله: (لأعطين): هذه جملة مؤكدة بثلاث مؤكدات: القسم المقدر، واللام، والنون، والتقدير: والله لأعطين.  
قوله: (الراية): العلم، وسمي راية لأنه يرى، وهو ما يتخذه أمير الجيش للعلامة على مكانه.  
قوله: (يحب الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله): أثبت المحبة لله من الجانبين، أي أن الله تعالى يحب ويحب، وقد أنكر هذا أهل التعطيل، وقالوا: المراد بمحبة الله للعبد إثابته أو إرادة إثابته، والمراد بمحبة العبد لله محبة ثوابه، وهذا تحريف للكلام عن ظاهره مخالف لإجماع السلف من الصحابة والتابعين وأئمة الهدى من بعدهم، ومحبة الله تعالى ثابتة له حقيقة، وهي من صفاته الفعلية.

قوله: (على يديه): أي: يفتح الله خبير على يديه، وفي ذلك بشارة بالنصر.  
قوله: (يدوكون): أي: يخوضون، وجملة يدوكون خبر بات.  
قوله: (غدوا على رسول الله): أي: ذهبوا إليه في الغداة مبكرين، كلهم يرجو أن يعطاها؛ لينال محبة الله ورسوله.

قوله: (يشتكى عينيه): أي: يتألم منهما.  
قوله: (فبراً): هذا من آيات الله الدالة على قدرته وصدق رسوله ﷺ، وهذا من مناقب أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، أنه يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله.  
قوله: (انفذ على رسلك): أي مهلك، مأخوذ من رسل الناقة أي: حليها يحلب شيئاً فشيئاً، والمعنى: امش الهويني؛ لأن المقام خطير لأنه يخشى من كمين.

قوله: (حتى تنزل بساحتهم): أي: ما يقرب منهم وما حولهم، والنبي ﷺ يقول: «إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين»، وهذا التأييد ثابت لأئمة إذا كانت على الوصف الذي عليه الرسول ﷺ وأصحابه.  
قوله: (وأخبرهم بما يجب عليهم): أي: فلا تكفي الدعوة إلى الإسلام فقط، بل يخبرهم بما يجب عليهم فيه؛ حتى يقتنعوا به ويلتزموا.

وهذه المسألة يتردد الإنسان فيها: هل يخبرهم بما يجب عليهم من حق الله في الإسلام قبل أن يسلموا أو بعده؟ فإذا نظرنا إلى ظاهر حديث معاذ وحديث سهل هذا فإننا نقول: الأولى أن تدعوه للإسلام، وإذا أسلم

(١) رواه البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة خيبر (١٣٤/٣)، ومسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل علي (١٨٧٢/٤).

تخبره، وإذا نظرنا إلى واقع الناس الآن، وأنهم لا يسلمون عن اقتناع، فقد يسلم وإذا أخبرته ربما يرجع، قلنا: يخبرون أولاً بما يجب عليهم من حق الله فيه لئلا يردوا عن الإسلام بعد. ويحتمل أن يقال: ترك هذه المسألة للواقع، وما تقتضيه المصلحة من تقديم هذا أو هذا.

قوله: (لأن يهدي الله): اللام واقعة في جواب القسم، وأن بفتح الهمزة، مصدرية، ويهدي مؤول بالمصدر مبتدأ، و (خير): خبر، ونظيرها قوله تعالى ﴿وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ﴾. قوله: (حُمُر النعم): بتسكين الميم: جمع حمراء، وهي الإبل الحمراء، وذكرها لأنها مرغوبة عند العرب، وهي أحسن وأنفس الإبل عندهم.

وقوله: (لأن يهدي الله بك)، ولم يقل: لأن تهدي؛ لأن الذي يهدي هو الله، والمراد بالهداية هنا هداية التوفيق والدلالة.

وهل المراد الهداية من الكفر إلى الإسلام، أو يعم كل هداية؟ نقول: هو موجه إلى قوم يدعوهم إلى الإسلام، وهل نقول: إن القرينة الحالية تقتضي التخصيص، وأن من اهتدى على يديه رجل في مسألة فرعية من مسائل الدين لا يحصل له هذا الثواب بقرينة المقام لأن عليا موجه إلى قوم كفار يدعوهم إلى الإسلام؟ الله أعلم.

## باب تفسير التوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله

التفسير معناه: الكشف والإيضاح، مأخوذ من قولهم: فَسَّرَت الثمرة قشرها، ومن قول الإنسان: فَسَّرْتُ ثوبي، ومنه تفسير القرآن الكريم.

والتوحيد تقدم تعريفه، وقوله: (وشهادة أن لا إله إلا الله): معطوف على التوحيد أي: وتفسير شهادة أن لا إله إلا الله، والعطف هنا من باب عطف المترادفين لأن التوحيد حقيقة هو شهادة أن لا إله إلا الله. وهذا الباب مهم لأنه لما سبق الكلام على التوحيد وفضله والدعوة إليه، كأن النفس الآن اشرأبت إلى بيان ما هو هذا التوحيد الذي بوب له هذه الأبواب (وجوبه، وفضله، والدعوة إليه)، فيجاب بهذا الباب، وهو تفسير التوحيد، وقد ذكر المؤلف خمس آيات.

وقول الله تعالى ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾ الآية.

قوله تعالى (أولئك) أولاء: مبتدأ، (الذين): اسم موصول بدل منه، (يدعون): صلة الموصول. وجملة (يبتغون): خبر المبتدأ أي: هؤلاء الذين يدعوهم هؤلاء هم أنفسهم يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب فكيف تدعوهم وهم محتاجون مفتقرون؟! فهذا سفه في الحقيقة، وهذا ينطبق على كل من دعي وهو داع، كعيسى بن مريم والملائكة والأولياء والصالحين، وأما الشجر والحجر فلا يدخل في الآية.

فهؤلاء الذين زعمتم أنهم أولياء من دون الله لا يملكون كشف الضر ولا تحويله من مكان إلى مكان؛ لأنهم هم بأنفسهم يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب، وقد قال تعالى مبينا حال هؤلاء المدعوين: ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾.

قوله: (يدعون) أي: دعاء مسألة كمن يدعو عليا عند وقوعهم في الشدائد، وقد يكون دعاء عبادة كمن يتذلل لهم بالتقرب والنذر والركوع والسجود.

قوله: (يبتغون): يطلبون.

قوله: (الوسيلة) أي: الشيء الذي يوصلهم إلى الله، يعني: يطلبون ما يكون وسيلة إلى الله سبحانه وتعالى أيهم أقرب إلى الله، وكذلك أيضا يرجون رحمته ويخافون عذابه.

وجه مناسبة الآية للباب، باب تفسير التوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله: أن التوحيد يتضمن البراءة من الشرك، بحيث لا يدعو مع الله أحدا لا ملكا مقربا، ولا نبيا مرسلا، وهؤلاء الذين يدعون الأنبياء والملائكة لم يتبرؤوا من الشرك، بل هم واقعون فيه، ومن العجب أنهم يدعون من هم في حاجة إلى ما يقربهم إلى الله تعالى، فهم غير مستغنين عن الله بأنفسهم فكيف يغنون غيرهم؟!

وقوله: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي﴾ الآية.

قوله: (براء): على وزن فعّال، وهي صفة مشبهة من التبرؤ، وهو التخلي أي: إنني متخلي غاية التخلي عما تعبدون إلا الذي فطرنى.

قوله: ﴿إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي﴾ جمع بين النفي والإثبات فالنفي: ﴿بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ﴾ والإثبات: ﴿إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي﴾، فدل على أن التوحيد لا يتم إلا بالكفر بما سوى الله والإيمان بالله وحده: ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى﴾، وهؤلاء يعبدون الله ويعبدون غيره لأنه قال: ﴿إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي﴾ والأصل في الاستثناء الاتصال إلا بدليل، ومع ذلك تبرأ منهم.

وكذا يوجد في بعض البلدان الإسلامية من يصلي ويزكي ويصوم ويحج، ومع ذلك يذهبون إلى القبور يسجدون لها ويركعون، فهم كفار غير موحدين، ولا يقبل منهم أي عمل، وهذا من أخطر ما يكون على الشعوب الإسلامية؛ لأن الكفر بما سوى الله عندهم ليس بشيء، وهذا جهل منهم، وتفريط من علمائهم لأن العامي لا يأخذ إلا من علمه، لكن بعض الناس والعياذ بالله عالم دولة لا عالم ملة. وفي قول إبراهيم عليه السلام: ﴿إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي﴾ ولم يقل إلا الله فائدتان:

الأولى: الإشارة إلى علة إفراد الله بالعبادة؛ لأنه كما أنه منفرد بالخلق فيجب أن يفرد بالعبادة.

الثانية: الإشارة إلى بطلان عبادة الأصنام؛ لأنها لم تفرطكم حتى تعبدوها، وهذه من البلاغة التامة في تعبير إبراهيم عليه السلام.

يستفاد من الآية: أن التوحيد لا يحصل بعبادة الله مع غيره، بل لا بد من إخلاصه لله، والناس في هذا المقام ثلاثة أقسام:

قسم يعبد الله وحده.

وقسم يعبد غيره فقط.

وقسم يعبد الله وغيره.

وقوله: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهَبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ الآية.

الأحبار: جمع حَبْر، بفتح الحاء وكسرهما، وهو العالم، ويقال للعالم أيضا بحر لكثرة علمه.

قوله تعالى (ورهبانهم) أي: عبادهم.

وقوله: (أربابا): جمع رب، أي يجعلونهم أربابا من دون الله، فجعلوا الأحبار أربابا؛ لأنهم يأتمرون بأمرهم في

مخالفة أمر الله، فيطيعونهم في معصية الله، وجعلوا الرهبان أربابا باتخاذهم أولياء يعبدونهم من دون الله.

قوله: (من دون الله) أي: من غير الله.

قوله: ﴿وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ﴾ معطوف على أحبارهم، أي: اتخذوا المسيح ابن مريم أيضا ربا حيث قالوا: إنه

ثالث ثلاثة.

قوله: (إلا ليعبدوا) أي: يتذللوا بالطاعة لله وحده، الذي خلق المسيح والأحبار والرهبان والسموات والأرض.

قوله: (سبحانه): تنزيهه لله عما يشركون.

وجه كون هذه الآية تفسيرا للتوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله: أن الله أنكر عليهم اتخاذ الأحبار والرهبان

أربابا من دون الله، فهؤلاء جعلوا الأحبار شركاء في الطاعة، كلما أمروا بشيء أطاعوهم، سواء وافق أمر الله أم

لا، إذا فالتوحيد يستلزم أن تكون طاعتك لله وحده، ولهذا على الرغم من تأكيد النبي ﷺ لطاعة ولاة الأمر قال:

«إنما الطاعة في المعروف».

وقوله: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾ الآية.

قوله: (يتخذ): جاءت بالإفراد مراعاة للفظ (من)، وقوله: (يحبونهم) بالجمع مراعاة للمعنى.

وقوله: (أندادا): جمع ند، وهو الشبيه والنظير.

وقوله: ﴿يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾ هذا وجه المشابهة أي: الندية في المحبة؛ يحبونهم كحب الله، واختلف المفسرون

في قوله: ﴿كَحُبِّ اللَّهِ﴾، فقيل: يجعلون محبة الأصنام مساوية لمحبة الله، فيكون في قلوبهم محبة لله ومحبة للأصنام،

ويجعلون محبة الأصنام كمحبة الله، فيكون المصدر مضافا إلى مفعوله. أي يحبون الأصنام كحبهم الله.

وقيل: يحبون هذه الأصنام محبة شديدة كمحبة المؤمنين لله.

وسياق هذه الآية يؤيد القول الأول.

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ على الرأي الأول يكون معناها: والذين آمنوا أشد حبا لله من هؤلاء لله؛ لأن محبة المؤمنين خالصة، ومحبة هؤلاء فيها شرك بين الله وبين أصنامهم، وعلى الرأي الثاني معناها: والذين آمنوا أشد حبا لله من هؤلاء لأصنامهم؛ لأن محبة المؤمنين ثابتة في السراء والضراء على برهان صحيح، بخلاف المشركين فإن محبتهم لأصنامهم تتضاءل إذا مسهم الضر.

فما بالك برجل يحب غير الله أكثر من محبته لله؟! وما بالك برجل يحب غير الله ولا يحب الله؟! فهذا أقبح وأعظم، وهذا موجود في كثير من المنتسبين للإسلام اليوم فإنهم يحبون أولياءهم أكثر مما يحبون الله، ولهذا لو قيل له: احلف بالله حلف صادقا أو كاذبا، أما الولي فلا يلحف به إلا صادقا، وفيه أناس أيضا أشركوا بالله في محبة غيره، لا على وجه العبادة الشرعية لكن على وجه العبادة المذكورة في الحديث، وهي محبة الدرهم والدينار والخميسة والحميلة، يوجد أناس لو فتشت عن قلوبهم لوجدت قلوبهم ملامى من محبة الدنيا، وحتى هذا الذي جاء يصلي، هو في المسجد لكن قلبه مشغول بما يحبه من أمور الدنيا، فهذا نوع من أنواع العبادة في الحقيقة، ولو حاسب الإنسان نفسه لماذا خلق؟ لعلم أنه خلق لعبادة الله، وأيضا خلق لدار أخرى ليست هذه الدار، فهذه الدار مجاز يجوز الإنسان منها إلى الدار الأخرى، الدار التي خلق لها والتي يجب أن يعنى بالعمل لها، يا ليت شعري متى يوما من الأيام فكر الإنسان ماذا عملت؟ وكم بقي لي في هذه الدنيا؟ وماذا كسبت؟ الأيام تمضي، ولا أدري هل ازدادت قربا من الله أو بعدا من الله؟ هل نحاسب أنفسنا عن هذا الأمر؟ فلا بد لكل إنسان عاقل من غاية، فما هي غايته؟ نحن الآن نطلب العلم للتقرب إلى الله بطلبه، وإعلام أنفسنا، وإعلام غيرنا، فهل نحن كلما علمنا مسألة من المسائل طبقناها؟ وهل نحن إذ علمنا مسألة ندعو عباد الله إليها؟ هذا أمر يحتاج إلى محاسبة، ولذلك فإن على طالب العلم مسؤولية ليست هينة، عليه أكثر من زكاة المال، فيجب أن يعمل ويتحرك ويبث العلم والوعي في الأمة الإسلامية، وإلا انحرفت عن شرع الله.

والمحبة أنواع:

الأول: المحبة لله، وهذه لا تنافي التوحيد، بل هي من كماله، فأوثق عرى الإيمان: الحب في الله، والبغض في الله، والمحبة لله: هي أن تحب هذا الشيء لأن الله يحبه، سواء كان شخصا أو عملا، وهذا من تمام التوحيد.

الثاني: المحبة الطبيعية التي لا يؤثرها المرء على محبة الله، فهذه لا تنافي محبة الله، كمحبة الزوجة والولد والمال.

الثالث: المحبة مع الله التي تنافي محبة الله، وهي أن تكون محبة غير الله كمحبة الله أو أكثر من محبة الله، بحيث إذا تعارضت محبة الله ومحبة غيره قدم محبة غير الله، وذلك إذا جعل هذه المحبة ندا لمحبة الله يقدمها على محبة الله أو يساويها بها.

الشاهد من هذه الآية: أن الله جعل هؤلاء الذين ساووا محبة الله بمحبة غيره مشركين جاعلين لله أندادا.

وفي الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «من قال: لا إله إلا الله، وكفر بما يعبد من دون الله حرم ماله ودمه، وحسابه على الله ﷻ»<sup>(١)</sup>.

قوله: (وفي الصحيح): لم يفصح المؤلف رحمه الله بمراده بالصحيح أهو صحيح البخاري أم صحيح مسلم، أم أن المراد به الحديث الصحيح، وليس له اصطلاح في ذلك يحمل عليه عند الإطلاق، والمراد به هنا صحيح مسلم.

قوله: ﷻ (من قال لا إله إلا الله): أي لا معبود حق إلا الله.

قوله: (وكفر بما يعبد من دون الله): أي: بعبادة من يعبد من دون الله، قلنا ذلك لأن عيسى بن مريم كان يعبد من دون الله، ونحن نؤمن به، لكن لا نؤمن بعبادته.

وفي قوله: (وكفر بما يعبد من دون الله): دليل على أنه لا يكفي مجرد التلفظ بلا إله إلا الله، بل لا بد أن تكفر بعبادة من يعبد من دون الله، بل وتكفر أيضا بكل كفر، فمن يقول: لا إله إلا الله، ويرى أن النصراني واليهود اليوم على دين صحيح فليس بمسلم، ومن يرى الأديان أفكارا يختار منها ما يريد فليس بمسلم، بل الأديان عقائد مفروضة من قبل الله عزوجل.

### وشرح هذه الترجمة ما بعدها من الأبواب.

قوله: (وشرح هذه الترجمة): المراد بالشرح هنا: التفصيل، والترجمة: هي التعبير بلغة عن لغة أخرى، ولكنها تطلق باصطلاح المؤلفين على العناوين والأبواب، فيقال: ترجم على كذا أي: بوب له.

(١) رواه مسلم، كتاب الإيمان، باب الأمر بقتال الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله (٥٣/١).

## باب من الشرك لبس الحلقة والخيط ونحوهما لرفع البلاء أو دفعه

الشرك: اسم جنس يشمل الأصغر والأكبر، وليس هذه الأشياء قد يكون أصغر وقد يكون أكبر بحسب اعتقاد لابسها.

وكان لبس هذه الأشياء من الشرك لأن كل من أثبت سببا لم يجعله الله سببا شرعيا ولا قدريا فقد جعل نفسه شريكا مع الله، فمثلا: قراءة الفاتحة سبب شرعي للشفاء، وأكل المسهل سبب حسي لانطلاق البطن، وهو قدري لأنه يعلم بالتجارب.

والناس في الأسباب طرفان ووسط:

الأول: من ينكر الأسباب، وهم كل من قال بنفي حكمة الله كالجبرية، والأشعرية.

الثاني: من يغلو في إثبات الأسباب حتى يجعلوا ما ليس بسبب سببا، وهؤلاء هم عامة الخرافيين من الصوفية ونحوهم.

الثالث: من يؤمن بالأسباب وتأثيراتها، ولكنهم لا يثبتون من الأسباب إلا ما أثبتته الله سبحانه ورسوله، سواء كان سببا شرعيا أو كونيا، ولا شك أن هؤلاء هم الذين آمنوا بالله إيمانا حقيقيا، وآمنوا بحكمته حيث ربطوا الأسباب بمسبباتها، والعلل بمعلولاتها، وهذا من تمام الحكمة.

ولبس الحلقة ونحوها: إن اعتقد لابسها أنها مؤثرة بنفسها دون الله فهو مشرك شركا أكبر في توحيد الربوبية لأنه اعتقد أن مع الله خالقا غيره.

وإن اعتقد أنها سبب، ولكنه ليس مؤثرا بنفسه فهو مشرك شركا أصغر؛ لأنه لما اعتقد أن ما ليس بسبب سببا فقد شارك الله تعالى في الحكم لهذا الشيء بأنه سبب، والله تعالى لم يجعله سببا.

وطريق العلم بأن الشيء سبب:

إما عن طريق الشرع، وذلك كالعسل: ﴿فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ﴾، وكقراءة القرآن فيها شفاء للناس، قال الله تعالى ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾.

وإما عن طريق القدر، كما إذا جربنا هذا الشيء فوجدناه نافعا في هذا الألم أو المرض، ولكن لا بد أن يكون أثره ظاهرا مباشرا كما لو اکتوى بالنار فبرئ بذلك مثلا فهذا سبب ظاهر بين، وإنما قلنا هذا لئلا يقول قائل: أنا جربت هذا وانتفعت به، وهو لم يكن مباشرا كالحلقة، فقد يلبسها إنسان وهو يعتقد أنها نافعة، فينتفع

لأن للانفعال النفسي للشيء أثرا بينا، والشعور النفسي ليس طريقا شرعيا لإثبات الأسباب، كما أن الإلهام ليس طريقا للتشريع.

قوله: (لبس الحلقة والخيط): الحلقة: من حديد أو ذهب أو فضة أو ما أشبه ذلك، والخيط معروف.  
قوله: (ونحوهما): كالمرصعات، وكمن يصنع شكلا معيناً من نحاس أو غيره لدفع البلاء، أو يعلق على نفسه شيئاً من أجزاء الحيوانات، والناس كانوا يعلقون القرب البالية على السيارات ونحوها لدفع العين، حتى إذا رآها الشخص نفرت نفسه فلا يعين.

قوله: (لرفع البلاء، أو دفعه): الفرق بينهما: أن الرفع بعد نزول البلاء، والدفع قبل نزول البلاء.  
وشيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب لا ينكر السبب الصحيح للرفع أو الدفع، وإنما ينكر السبب غير الصحيح.

وقول الله تعالى ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ﴾  
الآية.

وقوله الله تعالى (أفرايتم) أي: أخبروني، وهذا تفسير باللائم؛ لأن من رأى أخبر، وإلا فهي استفهام عن رؤية.

وقوله: (تدعون): المراد بالدعاء دعاء العبادة ودعاء المسألة فهم يدعون هذه الأصنام دعاء عبادة، فيتعبدون لها بالنذر والذبح والركوع والسجود، ويدعونها دعاء مسألة لدفع الضرر أو جلب النفع، فالله سبحانه إذا أراد بعبد ضراً لا تستطيع الأصنام أن تكشفه، وإن أراد به رحمة لا تستطيع أن تمسك الرحمة عنه فهي لا تكشف الضرر ولا تمنع النفع فلماذا تعبد؟!

وقوله: (كاشفات): يشمل الدفع والرفع فهي لا تكشف الضرر بدفعه وإبعاده، ولا تكشفه برفعه وإزالته.  
قوله: ﴿قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ﴾ أي: كافي، والحسب: الكفاية، ومنه قوله تعالى ﴿جَزَاءً مِنْ رَبِّكَ عَطَاءً حِسَاباً﴾  
من الحسب وهو الكفاية.

قوله: ﴿عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ قدم الجار والمجرور لإفادة الحصر لأن تقديم ما حقه التأخير يفيد الحصر، وهذا لا ينافي أن يوكل الإنسان إنساناً في شيء ويعتمد عليه؛ لأن هناك فرقا بين التوكل على الإنسان الذي يفعل لك شيئاً بأمرك، وبين توكلك على الله، لأن توكلك على الله اعتقادك أن بيده النفع والضرر، وأنت متذل معتمد عليه، مفتقر إليه، مفوض أمرك إليه.

والشاهد من هذه الآية: أن هذه الأصنام لا تنفع أصحابها لا يجلب نفع ولا بدفع ضرر فليست أسبابا لذلك، فيقاس عليها كل ما ليس بسبب شرعي أو قدرى فيعتبر اتخاذه سببا إشراكا بالله، وهذا يدل على حذق المؤلف رحمه الله وقوة استنباطه، وإلا فالآية بلا شك في الشرك الأكبر الذي تعبد فيه الأصنام، ولكن القياس واضح جدا لأن هذه الأصنام ليست أسبابا تنفع، فيقاس عليها كل ما ليس بسبب، فيعتبر إشراكا بالله.

عن عمران بن حصين رضي الله عنه أن النبي ﷺ رأى رجلا في يده حلقة من صفر، فقال: «ما هذه؟» قال: من الواهنة. فقال: «انزعها فإنها لا تزيدك إلا وهنا، فإنك لو مت وهي عليك ما أفلحت أبدا» رواه أحمد بسند لا بأس به<sup>(١)</sup>.

قوله: (رأى رجلا): لم يبين اسمه لأن المهم بيان القضية وحكمها، لكن ورد ما يدل على أنه عمران نفسه. والحلقة والصفر معروفان.

(ما أفلحت): الفلاح هو النجاة من المرهوب، وحصول المطلوب.

هذا الحديث مناسب للباب مناسبة تامة لأن هذا الرجل لبس حلقة من صفر إما لدفع البلاء أو لرفعه، والظاهر أنه لرفعه، لقوله: (لا تزيدك إلا وهنا)، والزيادة تكون مبنية على أصل. ففي هذا الحديث دليل على عدة فوائد:

١\_ أنه ينبغي لمن أراد إنكار المنكر أن يسأل أولا عن الحال لأنه قد يظن ما ليس بمنكر منكرا، ودليله أن الرسول ﷺ قال: (ما هذه)، والاستفهام هنا للاستعلام فيما يظهر وليس للإنكار. وقوله الرجل: (من الواهنة): من للسببية أي: لبستها بسبب الواهنة، وهي مرض يوهن الإنسان ويضعفه، قد يكون في الجسم كله، وقد يكون في بعض الأعضاء كما سبق.

٢\_ وجوب إزالة المنكر لقوله: (انزعها)، فأمره بنزعها لأن لبسها منكر، وأيد ذلك بقوله: (إنها لا تزيدك إلا وهنا).

أي: وهنا في النفس، وربما تزيده وهنا في الجسم، أما وهن النفس فلأن الإنسان إذا تعلق نفسه بهذه الأمور ضعفت واعتمدت عليها ونسيت الاعتماد على الله عزوجل، فهذا الذي لبس الحلقة من الواهنة لا تزيده إلا

(١) رواه أحمد (٤/٤٤٥) واللفظ له، وابن ماجه، كتاب الطب، باب تعليق التمام (٢/١١٦٧)، وليس فيه: (فإنك لو مت...) إلخ. وفي الزوائد: إسناده حسن لأن مبارك هذا هو ابن فضالة. ورواه ابن حبان أيضا برقم (٤١٠، ٤١١) والحاكم (٤/٢١٦) وصححه.

وهنا؛ لأنه سوف يعتقد أنها ما دامت عليه فهو سالم، فإذا نزعها عاد إليه الوهن، وهذا بلا شك ضعف في النفس.

٣\_ أن الأسباب التي لا أثر لها بمقتضى الشرع أو العادة أو التجربة لا ينتفع بها الإنسان.

٤\_ أن لبس الحلقة وشبهها لدفع البلاء أو رفعه من الشرك لقوله: (لو مت وهي عليك ما أفلحت أبدا) وانتفاء الفلاح دليل على الخيبة والخسران. ولكن هل هذا شرك أكبر أو أصغر؟ سبق لنا عند الترجمة أنه يختلف بحسب اعتقاد صاحبه.

٥\_ أن الأعمال بالخواتيم لقوله: (لو مت وهي عليك) فعرف أنه لو ألق عنها قبل الموت لم تضره؛ لأن الإنسان إذا تاب قبل أن يموت صار كمن لا ذنب له.

وله عن عقبة بن عامر مرفوعا: «من تعلق تميمة فلا أتم الله له، ومن تعلق ودعة فلا ودع الله له»<sup>(١)</sup>، وفي رواية: «من تعلق تميمة فقد أشرك»<sup>(٢)</sup>.

قوله: (من تعلق تميمة): أي: علق بها قلبه، واعتمد عليها في جلب النفع ودفع الضرر.

والتميمة شيء يعلق على الأولاد من خرز أو غيره؛ يتقون به العين.

وقوله: (فلا أتم الله له): الجملة خبرية بمعنى الدعاء، ويحتمل أن تكون خبرية محضة، ومثل ذلك قوله ﷺ (ومن تعلق ودعة فلا ودع الله له).

والودعة: واحدة الودع، وهي أحجار تؤخذ من البحر يعلقونها لدفع العين، ويزعمون أن الإنسان إذا علق هذه الودعة؛ لم تصبه العين، أو لا يصيبه الجن.

قوله: (لا ودع الله له): أي: لا تركه الله في دعة وسكون، وضد الدعة والسكون القلق والألم. وقيل: لا ترك الله له خيرا فعومل بنقيض قصده.

وقوله: (فقد أشرك): هذا الشرك يكون أكبر؛ إن اعتقد أنها ترفع أو تدفع بذاتها دون أمر الله، وإلا فهو أصغر.

(١) رواه أحمد في المسند (١٥٤/٤)، والطحاوي في شرح معاني الآثار (٣٢٥/٤)، والحاكم (٢١٦/٤)، وفيه: خالد بن عبيد المعافري، لم يوثقه غير ابن حبان كما في التعجيل ص ١١٤، وقال المنذري في الترغيب (٣٠٦/٤): إسناده جيد، وقال الهيثمي في المجمع (١٠٣/٥): رجاله ثقات، وقال الحافظ في التعجيل ص ١١٤: رجاله موثقون.

(٢) رواه أحمد (١٥٦/٤)، والحاكم (٢١٩/٤)، وقال المنذري في الترغيب (٠٣٧/٤) والهيثمي في المجمع (١٠٣/٥): رواه أحمد ثقات.

ولابن أبي حاتم عن حذيفة أنه رأى رجلا في يده خيط من الحمى، فقطعه وتلا قوله: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾<sup>(١)</sup>.

وقوله: وتلا قوله تعالى ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾ أي وتلا حذيفة هذه الآية، والمراد بها المشركون الذين يؤمنون بتوحيد الربوبية ويكفرون بتوحيد الألوهية.

وقوله: (وهم مشركون) في محل نصب على الحال من أكثر أي: وهم متلبسون بالشرك، وكلام حذيفة في رجل مسلم لبس خيطا لتبريد الحمى أو الشفاء منها، وفيه دليل على أن الإنسان قد يجتمع فيه إيمان وشرك، ولكن ليس الشرك الأكبر لأن الشرك الأكبر لا يجتمع مع الإيمان، ولكن المراد هنا الشرك الأصغر، وهذا أمر معلوم.

وقوله في المسائل: (الثالثة: أنه لم يعذر بالجهالة) هذا فيه نظر لأن قوله ﷺ: (لو مت وهي عليك ما أفلحت أبدا) ليس بصريح أنه لو مات قبل العلم، بل ظاهره: لو مت وهي عليك بعد أن علمت وأمرت بنزعها. وهذه المسألة تحتاج إلى تفصيل فنقول: الجهل نوعان: جهل يعذر فيه الإنسان، وجهل لا يعذر فيه.

فما كان ناشئا عن تفریط وإهمال مع قيام المقتضي للتعلم فإنه لا يعذر فيه، سواء في الكفر أو في المعاصي. وما كان ناشئا عن خلاف ذلك، أي أنه لم يهمل ولم يفرط ولم يقيم المقتضي للتعلم بأن كان لم يطرأ على باله أن هذا الشيء حرام فإنه يعذر فيه، فإن كان منتسبا إلى الإسلام لم يضره، وإن كان منتسبا إلى الكفر فهو كافر في الدنيا، لكن في الآخرة أمره إلى الله على القول الراجح، يمتحن فإن أطاع دخل الجنة، وإن عصى دخل النار.

(١) أورد سنده في تيسير العزيز الحميد من طريق عروة بن الزبير عن حذيفة، ولا يعرف لعروة سماع من حذيفة.

## باب ما جاء في الرقى والتمايم

لم يذكر المؤلف أن هذا الباب من الشرك، وجزم في الباب الأول أنها من الشرك بدون استثناء، أما هذا الباب فلم يذكر أنها شرك؛ لأن من الرقى ما ليس بشرك، كما سيتبين.  
قوله: (الرقى): جمع رقية، وهي القراءة على اللديغ والمعين ونحوهما.  
قوله: (التمايم): جمع تميمة، وسميت تميمة لأنهم يرون أنه يتم بها دفع العين.

في الصحيح عن أبي بشير الأنصاري رضي الله عنه أنه كان مع رسول الله ﷺ في بعض أسفاره، فأرسل رسولا: (أن لا يبقين في رقبة بغير قلادة من وتر أو قلادة إلا قطعت<sup>(١)</sup>).

قوله: (أسفاره): السفر: مفارقة محل الإقامة، وسمي سفرا لأمرين:  
الأول: حسي، وهو أنه يسفر ويظهر عن بلده لخروجه من البنيان.  
الثاني: معنوي، وهو أنه يسفر عن أخلاق الرجال أي: يكشف عنها.  
قوله: (قلادة من وتر، أو قلادة): شك من الراوي، والأولى أرجح لأن القلائد كانت تتخذ من الأوتار، ويعتقدون أن ذلك يدفع العين عن البعير، وهذا اعتقاد فاسد لأنه تعلق بما ليس بسبب، وقد سبق أن التعلق بما ليس بسبب شرعي أو حسي شرك؛ لأنه بتعلقه أثبت للأشياء سببا لم يثبتته الله لا بشرعه ولا بقدره، ولهذا أمر النبي ﷺ أن تقطع هذه القلائد. أما إذا كانت هذه القلادة من غير وتر، وإنما تستعمل للقيادة كالزمام فهذا لا بأس به لعدم الاعتقاد الفاسد، وكان الناس يعملون ذلك من الصوف أو غيره.  
قوله: (في رقبة بغير): ذكر البعير لأن هذا هو الذي كان منتشرا حينذاك؛ فهذا القيد بناء على الواقع عندهم فيكون كالتمثيل، وليس بمخصص.  
ولا يلزم أن تكون القلادة في الرقبة، بل لو جعلت في اليد أو الرجل فلها حكم الرقبة لأن العلة هي هذه القلادة، وليس مكان وضعها.

(١) رواه البخاري، كتاب الجهاد، باب ما قيل في الجرس ونحوه في أعناق الإبل (٢/٣٥٩)، ومسلم، كتاب اللباس، باب كراهة الكلب والجرس في السفر (٣/١٦٧٢).

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الرقى والتائم والتولة شرك»  
رواه أحمد وأبو داود<sup>(١)</sup>.

قوله: (إن الرقى): جمع رقية، وهذه ليست على عمومها، بل هي عام أريد به خاص، وهو الرقى بغير ما ورد به الشرع، أما ما ورد به الشرع فليست من الشرك، قال ﷺ في الفاتحة: «وما يدريك أنها رقية»، فالرقى المشروعة التي ورد بها الشرع جائزة، وكذا الرقى المباحة التي يرقى بها الإنسان المريض بدعاء من عنده ليس فيه شرك جائزة أيضا.

قوله: (التائم): فسرها المؤلف بقوله: (شيء يعلق على الأولاد يتقون به العين)، وهي من الشرك، لأن الشارع لم يجعلها سببا تتقى به العين.

وإذا كان الإنسان يُلبس أبناءه ملابس رثة خوفا من العين فهل هذا جائز؟ الظاهر أنه لا بأس به؛ لأنه لم يفعل شيئا، وإنما ترك شيئا، وهو التحسين والتجميل، وقد ذكر ابن القيم في زاد المعاد أن عثمان رأى صبيا مليحا، فقال: دسموا نونته، والنونة: هي التي تخرج في الوجه عندما يضحك الصبي كالنقرة، ومعنى دسموا أي: سودوا.

وأما الخط \_ وهي أوراق من القرآن تجمع وتوضع في جلد ويخاط عليها، ويلبسها الطفل على يده أو رقبته \_ ففيها خلاف بين العلماء، وظاهر الحديث أنها ممنوعة، ومن ذلك أن بعضهم يكتب القرآن كله بحروف صغيرة في أوراق صغيرة، ويضعها في صندوق صغير، ويعلقها على الصبي، وهذا مع أنه محدث فهو إهانة للقرآن الكريم؛ لأن يسيل عليها لعاب الصبي، وربما يتلوث بالنجاسة، ويدخل به الحمام والأماكن القذرة.

ومما يؤسف له أن بعض الناس اتخذوا من العبادات نوعا من التبرك فقط، مثل ما يشاهد من أن بعض الناس يمسح الركن اليماني ويمسح به وجه الطفل وصدرة، وهذا معناه أنهم جعلوا مسح الركن اليماني من باب التبرك لا التعبد، وهذا جهل، وقد قال عمر في الحجر: إني أعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع، ولولا أني رأيت رسول الله ﷺ يقبلك ما قبلتك.

قوله: (التولة): شيء يعلقونه على الزوج، يزعمون أنه يجب الزوجة إلى زوجها والزوج إلى امرأته، وهذا شرك لأنه ليس بسبب شرعي ولا قدرتي للمحبة.

(١) رواه أحمد (٣٨١/١)، وأبو داود، كتاب الطب، باب في تعليق التائم (٢١٢/٥)، وابن ماجه، كتاب الطب، باب تعليق التائم (١١٦٦/٢)، والحاكم، في الرقى والتائم (٤ / ٤١٨) وقال: صحيح الإسناد على شرط الشيخين، وابن حبان (٤١٢)، والطبراني في الكبير (١٠٥٠٣).

ومثل ذلك الدبلة، والدبلة: خاتم يشتري عند الزواج يوضع في يد الزوج، وإذا ألقاه الزوج قالت المرأة: إنه لا يحبها، فهم يعتقدون فيه النفع والضرر، ويقولون: إنه ما دام في يد الزوج فإنه يعني أن العلاقة بينهما ثابتة، والعكس بالعكس، فإذا وُجدت هذه النية فإنه من الشرك الأصغر، وإن لم توجد هذه النية وهي بعيدة ألا تصحبها— ففيه تشبه بالنصارى، فإنها مأخوذة منهم، وإن كانت من الذهب فهي بالنسبة للرجل فيها محذور ثالث، فهي إما من الشرك، أو مضاهاة النصارى، أو تحريم النوع إن كانت للرجال، فإن خلت من ذلك فهي جائزة لأنها خاتم من الخواتم.

وقوله: (شرك): هل هي شرك أصغر أو أكبر؟ نقول: بحسب ما يريد الإنسان منها: إن اتخذها معتقداً أن المسبب للمحبة هو الله فهي شرك أصغر، وإن اعتقد أنها تفعل بنفسها فهي شرك أكبر.

وعن عبد الله بن عكيم مرفوعاً: «من تعلق شيئاً وكل إليه» رواه أحمد والترمذي<sup>(١)</sup>.

قوله: (من تعلق شيئاً): أي: اعتمد عليه وجعله همه ومبلغ علمه، وصار يعلق رجاءه به وزوال خوفه به. وشيئاً: نكرة في سياق الشرط فتعم جميع الأشياء، فمن تعلق بالله سبحانه وتعالى وجعل رغبته ورجاءه فيه وخوفه منه فإن الله تعالى يقول: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ أي: كافيته. قوله: (وكل إليه): أي: أسند إليه، وفوض. أقسام التعلق بغير الله:

الأول: ما ينافي التوحيد من أصله، وهو أن يتعلق بشيء لا يمكن أن يكون له تأثير، ويعتمد عليه اعتماداً معرضاً عن الله، مثل تعلق عباد القبور بمن فيها عند حلول المصائب، ولهذا إذا مستهم الضراء الشديدة يقولون: يا فلان أنقذنا! فهذا لا شك أنه شرك أكبر مخرج من الملة.

الثاني: ما ينافي كمال التوحيد، وهو أن يعتمد على سبب شرعي صحيح مع الغفلة عن المسبب، وهو الله عزوجل وعدم صرف قلبه إليه فهذا نوع من الشرك، ولا نقول شرك أكبر لأن هذا السبب جعله الله سبباً. الثالث: أن يتعلق بالسبب تعلقاً مجرداً لكونه سبباً فقط، مع اعتماده الأصلي على الله فيعتقد أن هذا السبب من الله، وأن الله لو شاء لأبطل أثره، فهذا لا ينافي التوحيد ولا إثم فيه.

(١) رواه أحمد (٣١٠/٤)، والترمذي، أبواب الطب، باب ما جاء في كراهة التعليق (٢٦٣/٦) قال: حديث عبد الله بن عكيم إنما نعرفه من حديث ابن أبي ليلي، والحاكم، كتاب الطب (٢١٦/٤) وسكت عنه، وقال ابن البنا في الفتح الرباني (١٨٨/١٧): هذا الحديث لا تقل درجته عن الحسن لاسيما وله شواهد تؤيده.

ومع وجود الأسباب الشرعية الصحيحة، ينبغي للإنسان أن لا يعلق نفسه بالسبب، بل يعلقها بالله، فالموظف الذي يعلق قلبه بمرتبته تعلقا كاملا مع الغفلة عن المسبب وهو الله، قد وقع في نوع من الشرك. أما إذا اعتقد أن المرتب سبب، والمسبب هو الله سبحانه وتعالى، وجعل الاعتماد على الله، فهذا لا ينافي التوكل، وقد كان الرسول ﷺ يأخذ بالأسباب مع اعتماده على المسبب، وهو الله عزوجل.

وجاء في الحديث: (من تعلق) ولم يقل: من علق؛ لأن المتعلق بالشيء يعلق به بقلبه وبنفسه، بحيث ينزل خوفه ورجاءه وأمله به، وليس كذلك من علق.

التمائم شيء يُعلق على الأولاد يتقون به العين، لكن إذا كان المعلق من القرآن فرخص فيه بعض السلف، وبعضهم لم يرخص فيه، ويجعله من المنهي عنه، منهم ابن مسعود رضي الله عنه.

والرقى هي التي تسمى العزائم، وخص منها الدليل ما خلا من الشرك، فقد رخص فيه رسول الله ﷺ من العين والحمة.

والتولة شيء يصنعونه يزعمون أنه يجب الرجل إلى امرأته والمرأة إلى زوجها.

قوله: (إذا كان المعلق من القرآن...) أي: أو الأدعية المباحة، والأذكار الواردة فهذه المسألة اختلف فيها السلف رحمهم الله، فمنهم من رخص في ذلك لعموم قوله تعالى ﴿وَنُنزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ ولم يذكر الوسيلة التي تتوصل بها إلى الاستشفاء بهذا القرآن؛ فدل على أن كل وسيلة يتوصل بها إلى ذلك فهي جائزة، كما لو كان القرآن دواء حسيا.

ومنهم من منع ذلك وقال: لا يجوز تعليق القرآن للاستشفاء به؛ لأن الاستشفاء بالقرآن ورد على صفة معينة، وهي أن تقرأ على المريض به، فلا تتجاوزها، فلو جعلنا الاستشفاء بالقرآن على صفة لم ترد فقد فعلنا سببا ليس مشروعاً، وقد نقله المؤلف رحمه الله عن ابن مسعود، ولولا الشعور النفسي بأن تعليق القرآن سبب للشفاء لكان انتفاء السببية على هذه الصورة أمراً ظاهراً؛ فإن التعليق ليس له علاقة بالمرض، بخلاف النفث على مكان الألم فإنه يتأثر بذلك.

وهذا هو الأقرب، لا سيما وأن هذا المعلق قد يفعل أشياء تنافي قدسية القرآن كالغيبة ودخول بيت الخلاء، وأيضا إذا علق وشعر أن به شفاء استغنى به عن القراءة المشروعة، وإن كان صبيا فرمما بال ووصلت الرطوبة إلى هذا المعلق، ولأنه لم يرد عن النبي ﷺ فيه شيء.

قوله: (التي تسمى العزائم): أي: في عرف الناس.

قوله: (وخص منها الدليل ما خلا من الشرك): أي: الأشياء الخالية من الشرك فهي جائزة، سواء كان مما ورد بلفظه مثل: «اللهم رب الناس! أذهب الباس، اشف أنت الشافي» أو لم يرد بلفظه مثل: اللهم عافه، اللهم اشفه، وإن كان فيها شرك فإنها غير جائزة، مثل: يا جني! أنقذه، ويا فلان الميت! اشفه. ونحو ذلك.

قوله: (من العين والحمة): سبق تعريفهما، وظاهر كلام المؤلف: أن الدليل لم يرخص إلا في هذين الأمرين: العين والحمة، لكن ورد بغيرهما، فقد كان النبي ﷺ ينفخ على يديه عند منامه بالمعوذات، ويمسح بهما ما استطاع من جسده، ولهذا يرى بعض أهل العلم أن الترخيص في الرقية من القرآن عام، ويقول: إن معنى قول النبي ﷺ (لا رقية إلا من عين أو حمة) أي: لا استرقاء إلا من عين أو حمة، والاسترقاء: طلب الرقية، فالمصيب بالعين وهو (العائن) يطلب منه أن يقرأ على المعيون، وكذلك الحمة يطلب الإنسان من غيره أن يقرأ عليه لأنه مفيد كما في حديث أبي سعيد في قصة السرية.

شروط جواز الرقية:

الأول: أن يعتقد أنها سبب لا تنفع إلا بإذن الله.

الثاني: أن لا تكون مما يخالف الشرع كما إذا كانت متضمنة دعاء غير الله.

الثالث: أن تكون مفهومة معلومة، فإن كانت من جنس الطلاسم والشعوذة فإنها لا تجوز.

أما بالنسبة للتمائم فإن كانت من أمر محرم، أو اعتقد أنها نافعة لذاتها، أو كانت بكتابة لا تفهم فإنها لا تجوز بكل حال.

وإن تمت فيها الشروط الثلاثة السابقة في الرقية فإن أهل العلم اختلفوا فيها كما سبق.

وروى أحمد عن رويغ قال: قال لي رسول الله ﷺ: «يا رويغ! لعل الحياة ستطول بك فأخبر الناس أن من عقد لحيته، أو تقلد وترا، أو استنجى برجيع دابة أو عظم فإن محمدا بريء منه»<sup>(١)</sup>.

قوله: (من عقد لحيته): اللحية عند العرب كانت لا تقص ولا تحلق، كما أن ذلك هو السنة، لكنهم كانوا يعتقدون لحاهم لأسباب، منها: الافتخار والعظمة، ومنها الخوف من العين.

وبعض العامة إذا جاءهم طعام أخذوا شيئا منه فرموه في الأرض دفعا للعين، وهذا اعتقاد فاسد، ومخالف لقول النبي ﷺ: «إذا سقطت لقمة أحدكم فليمط ما بها من الأذى، وليأكلها».

(١) رواه أحمد (٤/١٠٨، ١٠٩)، وأبو داود (كتاب الطهارة، باب ما ينهى عنه أن يستنجى به، ٣٤/١)، والنسائي (كتاب الزينة، باب عقد اللحية ٨/١٣٥)، والطبراني في "الكبير" برقم (٤٤٩١). وإسناده صحيح كما في "النهج السديد" (ص ٦٢).

قوله: (أو تقلد وترا): كانوا يعلقون الأوتار في أعناق إبلهم أو خيلهم، أو في أعناقهم، يزعمون أنه يمنع العين، وهذا من الشرك.

قوله: (أو استنجى برجيع دابة): الاستنجاء: مأخوذ من النجو، وهو إزالة أثر الخارج من السبيلين، ورجيع الدابة: هو روثها.

قوله: (أو عظم): العظم معروف، وإنما تبرأ النبي ﷺ من استنجى بهما لأن الروث علف بهائم الجن والعظم طعامهم، يجدونه أوفر ما يكون لحما، وكل دَنَبُ قرن بالبراءة من فاعله فهو من كبائر الذنوب، كما هو معروف عند أهل العلم.

الشاهد من هذا الحديث قوله: (من تقلد وترا).

وعن سعيد بن جبير، قال: من قطع تميمة من إنسان كان كعدل رقبة. رواه وكيع.

قوله: (كعدل رقبة) بفتح العين لأنه من غير الجنس، والمعادل من الجنس بكسر العين. وجه المشابهة بين قطع التميمة وعتق الرقبة أنه إذا قطع التميمة من إنسان فكأنه أعتقه من الشرك، ففكه من النار، ولكن يقطعها بالتي هي أحسن لأن العنف يؤدي إلى المشاحنة والشقاق، إلا إن كان ذا شأن كالأمير، والقاضي ونحوه ممن له سلطة فله أن يقطعها مباشرة.

وله عن إبراهيم، قال: كانوا يكرهون التمام كلها من القرآن وغير القرآن.

قوله: (وله عن إبراهيم): هو النخعي. قوله: (كانوا): الضمير يعود إلى أصحاب ابن مسعود. قوله: (يكرهون التمام كلها من القرآن وغير القرآن): وقد سبق أن هذا رأي ابن مسعود، فأصحابه يرون ما يراه.

قوله: (التمام): هي ما يعلق على المريض أو الصحيح، سواء من القرآن أو غيره للاستشفاء أو لاتقاء العين، أو ما يعلق على الحيوانات، وفي هذا الوقت أصبح تعليق القرآن لا للاستشفاء بل لمجرد التبرك والزينة كالقلائد الذهبية والحلي التي يكتب عليها لفظ الجلالة أو آية الكرسي أو القرآن كاملاً، فهذا كله من البدع، فالقرآن ما نزل ليستشفى به على هذا الوجه، إنما يستشفى به على ما جاء به الشرع.

وقوله في المسائل: (الثانية: تفسير التولة)، وقد سبق ذلك، وعندى أن منها ما يسمى بالدبلة إن اعتقدوا أنها صلة بين المرء وزوجته.

(الثالثة: أن هذه الثلاثة كلها من الشرك من غير استثناء): ظاهر كلامه حتى الرقى، وهذا فيه نظر؛ لأن الرقى ثبت عن النبي ﷺ أنه يرقى ويرقى، ولكنه لا يسترقى، أي: لا يطلب الرقية، وقد سبق للمؤلف رحمه الله أن الدليل خص منها ما خلا من الشرك، وبالنسبة للتائم فعلى رأي الجمهور فيه نظر أيضا، وأما على رأي ابن مسعود فصحيح.

(الرابعة: أن الرقية بالكلام الحق من العين أو الحمة ليس من ذلك) المؤلف رحمه الله تعالى خصص العين والحمة، ولكن الصحيح أنه يشمل غيرهما كالسحر.

(السادسة: أن تعليق الأوتار على الدواب عن العين من ذلك): أي: من الشرك.

تنبيه:

ظهر في الأسواق في الآونة الأخيرة حلقة من النحاس يقولون: إنها تنفع من الروماتيزم، ولا ندري هل هذا صحيح أم لا؟ لكن الأصل أنه ليس بصحيح لأنه ليس عندنا دليل شرعي ولا حسي يدل على ذلك، فالأصل أنها ممنوعة حتى يثبت لنا دليل صحيح صريح واضح أن لها اتصالا مباشرا بهذا الروماتيزم حتى ينتفع بها. (الثامنة: فضل ثواب من قطع تيممة من إنسان)؛ لقول سعيد بن جبير، ولكن هل قوله حجة؟ إن قيل: ليس بحجة فيقال: إنه إنما كان كذلك لأنه إنقاذ له من رق الشرك فهو كمن أعتقه بل أبلغ، فهو من باب القياس.

## باب من تبرك بشجر أو حجر ونحوهما

قوله: (تبرك): تفعل من البركة، والبركة: هي كثرة الخير وثبوته، وهي مأخوذة من البركة بالكسر، والبركة: مجمع الماء، ومجمع الماء يتميز عن مجرى الماء بأمرين: الكثرة والثبوت. والتبرك: طلب البركة، وطلب البركة لا يخلو من أمرين:

١\_ أن يكون التبرك بأمر شرعي معلوم مثل القرآن، قال تعالى ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ﴾. ٢\_ أن يكون بأمر حسي معلوم مثل: التعليم، والدعاء، ونحوه فهذا الرجل يتبرك بعلمه ودعوته إلى الخير فيكون هذا بركة لأننا نلنا منه خيرا كثيرا، وقال أسيد بن حضير: ما هذه بأول بركتكم يا آل أبي بكر. وهناك بركات موهومة باطلة، مثل ما يزعمه الدجالون أن فلانا الميت الذي يزعمون أنه ولي أنزل عليكم من بركته وما أشبه ذلك، فهذه بركة باطلة لا أثر لها، وقد يكون للشيطان أثر في هذا الأمر.

أما كيفية معرفة هل هذه من البركات الباطلة أو الصحيحة، فيعرف ذلك بحال الشخص، فإن كان من أولياء الله المتقين المتبعين للسنة المبتعدين عن البدعة فإن الله قد يجعل على يديه من الخير والبركة ما لا يحصل لغيره، أما إن كان مخالفا للكتاب والسنة أو يدعو إلى باطل فإن بركته موهومة، وقد تضعها الشياطين له مساعدة على باطله، وذلك مثل ما يحصل لبعضهم أنه يقف مع الناس في عرفة ثم يأتي إلى بلده ويضحى مع أهل بلده، قال شيخ الإسلام ابن تيمية: إن الشياطين تحملهم لكي يعثر بهم الناس، وهؤلاء وقع منهم مخالفات، منها: عدم إتمام الحج، ومنها أنهم يعمرون بالمليقات ولا يحرمون منه.

قوله: (شجر): اسم جنس فيشمل أي شجرة تكون، ومن حسنات أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه لما رأى الناس ينتابون الشجرة التي وقعت تحتها بيعة الرضوان أمر بقطعها.

قوله: (وحجر): اسم جنس يشمل أي حجر كان، حتى الصخرة التي في بيت المقدس فلا يتبرك بها، وكذا الحجر الأسود لا يتبرك به، وإنما يتعبد لله بمسحه وتقبيله اتباعا للرسول ﷺ، وبذلك تحصل بركة الثواب، ولهذا قال عمر رضي الله عنه: إني لأعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع، ولولا أني رأيت رسول الله ﷺ يقبلك ما قبلتك. فتقبيله عبادة محضة خلافا للعامة، يظنون أن به بركة حسية، ولذلك إذا استلمه بعض هؤلاء مسح على جميع بدنه تبركا بذلك.

قوله: (ونحوهما): أي: من البيوت والقباب والحجر، حتى حجرة قبر النبي ﷺ فلا يتمسح بها تبركا.

## وقول الله تعالى ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ﴾ الآيات.

لما ذكر الله عزوجل المعراج بقوله: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ﴾ الآيات قال: ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ﴾ أي: رأى النبي ﷺ من آيات الله الكبرى، ثم قال: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ﴾ أي: أخبروني ما شأنها، وما حالها بالنسبة إلى هذه الآيات العظيمة، إنها ليست بشيء. والاستفهام للاستخفاف بهذه الأصنام.

قوله: (اللات): تقرأ بتشديد التاء وتخفيفها، فعلى قراءة التشديد تكون اسم فاعل من اللت، وكان هذا الصنم أصله رجل يلت السويق للحجاج فلما مات عكفوا على قبره وجعلوه صنما. وأما على قراءة التخفيف فإن اللات مشتقة من الله، أو من الإله، وهو صنم لأهل الطائف. وقوله: (والعزى): مؤنث أعز، وهو صنم يعبده قريش وبنو كنانة مشتق من اسم الله العزيز. قوله: (ومناة): قيل: مشتقة من المنان، وقيل: من منى لكثرة ما يعنى عنده من الدماء بمعنى يراق، ومنه سميت منى لكثرة ما يراق فيها من الدماء.

وكان هذا الصنم بين مكة والمدينة لهذيل وخزاعة، وكان الأوس والخزرج يعظمونها ويهلون منها للحج. وقوله: (الثالثة الأخرى): إشارة إلى أن التي تعظمونها وتكثر إراقة الدماء حولها هي أخرى، بمعنى متأخرة أي: ذميمة حقيرة.

وإنما ذكر هذه الأصنام الثلاثة لأنها أعظم الأصنام عند العرب.

قوله: الآيات: أي: أكمل الآيات بعدها.

قوله: ﴿الْكُفْرَ وَاللَّاتِ وَالْعُزَّىٰ﴾ هذا أيضا استفهام إنكاري على المشركين الذين يجعلون لله البنات ولهم البنين، فإذا ولد لهم الذكر فرحوا به، وإذا ولدت الأنثى ظل وجه الإنسان منهم مسودا وهو كظيم، ومع ذلك يقولون: الملائكة بنات الله، فيجعلون البنات لله والعياذ بالله ولهم ما يشتهون.

قوله: ﴿تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ﴾ ضيزى: جائرة؛ لأنه على الأقل إذا أردتم القسمة فاجعلوا لكم من البنات نصيبا، واجعلوا لله من البنين نصيبا، أما أن تجعلوا ما تختارونه لأنفسكم، وهم البنون، وتجعلون ما تكرهون لله فهذه قسمة جائرة.

قوله: ﴿إِنَّ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءُ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾ الضمير في (هي) يعود إلى الأصنام أي: هذه الأصنام (اللات والعزى، ومناة) التي سميتوها آلهة واتخذتموها آلهة تعبدونها هي مجرد أسماء سميتوها، ولكن ما أنزل الله بها من سلطان أي: من حجة ودليل.

وأصل السلطان في اللغة العربية: ما به سلطة، فإن كان في مقام العلم فهو العلم، وإن كان في مقام القدرة فهو القدرة، وإن كان في مقام الأمر والنهي فهو من له الأمر والنهي، فمثلا قوله تعالى ﴿لَا تَتَّقُوا إِلَّا بَسُلْطَانًا﴾ أي: بقدرة وقوة، ومثل قوله تعالى ﴿مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾ أي: من حجة وبرهان، وفي الحديث: «السلطان ولي من لا ولي له» أي: من له الأمر والنهي.

قوله: ﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ﴾ (إن) هنا بمعنى ما، أي ما يتبعون إلا الظن، والظن الذي يتبعونه هو أنها آلهة، وأن لله البنات ولهم البنون، والظن لا يغني من الحق شيئا كما قال تعالى في آية أخرى.  
قوله: ﴿وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ﴾ كذلك أيضا يتبعون ما تهوى الأنفس، وهذا أضر شيء على الإنسان أن يتبع ما يهوى، قال تعالى ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ﴾.  
قوله: ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَى﴾ أي: على يد النبي ﷺ، فكان الأجدر بهم أن يتبعوا الهدى دون الهوى.

مناسبة الآية للترجمة:

أنهم يعتقدون أن هذه الأصنام تنفعهم وتضرهم، ولهذا يأتون إليها يدعونها، ويدبحون لها، ويتقربون إليها، وقد يتتلى الله المرء فيحصل له ما يريد من اندفاع ضر أو جلب نفع بهذا الشرك ابتلاء من الله وامتحانا، وهذا له نظائر، أن الله يتتلى المرء بتيسير أسباب المعصية له حتى يعلم سبحانه من يخافه بالغيب.

وعن أبي واقد الليثي قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى حنين، ونحن حدثاء عهد بكفر، وللمشركين سدرة يعكفون عندها وينوطون بها أسلحتهم يقال لها: ذات أنواط، فمررنا بسدرة فقلنا: يا رسول الله! اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط. فقال رسول الله ﷺ: «الله أكبر! إنها السنن! قلتم والذي نفسي بيده كما قالت بنو إسرائيل لموسى: ﴿اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾، لتركن سنن من كان قبلكم» رواه الترمذي وصححه<sup>(١)</sup>.

قوله: (حدثاء): أي: قريبو عهد بكفر، وإنما ذكر ذلك رضي الله عنه للاعتذار لطلبهم وسؤالهم، ولو قر الإيمان في قلوبهم لم يسألوا هذا السؤال.  
قوله: (يعكفون عندها): أي: يقيمون عليها، والعكوف: ملازمة الشيء.

(١) رواه أحمد في المسند (٢١٨/٥)، والترمذي، أبواب الفتن، باب ما جاء: لتركن سنن من كان قبلكم (٣٤٣/٦) وقال: حسن صحيح، وابن أبي عاصم في السنة برقم (٧٦)، وابن حبان برقم (٨٣٥)، والطبراني في الكبير برقم (٣٢٩٠)، والبيهقي في المعرفة (١٠٨/١).

قوله: (ينوطون): أي: يعلقون بها أسلحتهم تبركا.

قوله: (قلتم والذي نفسي بيده كما قالت بنو إسرائيل لموسى: ﴿اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾)، أي: إن الرسول ﷺ قاس ما قاله الصحابة رضي الله عنهم على ما قاله بنو إسرائيل لموسى حين قالوا: اجعل لنا إلهًا كما لهم آلهة، فأنتم طلبتم ذات أنواط كما أن لهؤلاء المشركين ذات أنواط.

وقوله عليه الصلاة والسلام: (والذي نفسي بيده) المراد أن نفسه بيد الله، لا من جهة إمامتها وإحيائها فحسب، بل من جهة تديرها وتصريفها أيضا، ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها سبحانه وتعالى.

قوله: (لتركبن سنن من كان قبلكم) أي: لتفعلن مثل فعلهم، ولتقولن مثل قولهم، وهذه الجملة لا يراد بها الإقرار، وإنما يراد بها التحذير، لأنه من المعلوم أن سنن من كان قبلنا مما جرى تشبيهه سنن ضالة، حيث طلبوا آلهة مع الله، فأراد النبي عليه الصلاة والسلام أن يحذر أمته أن تترك سنن من كان قبلها من الضلال والغي. والشاهد من هذا الحديث قولهم: (اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط) فأنكر عليهم النبي ﷺ.

## باب ما جاء في الذبح لغير الله

قوله: (لغير الله): اللام للتعليل والقصد: أي قاصدا بذبحه غير الله.

والذبح لغير الله ينقسم إلى قسمين:

١\_ أن يذبح لغير الله تقربا وتعظيما، فهذا شرك أكبر مخرج عن الملة.

٢\_ أن يذبح لغير الله فرحا وإكراما، فهذا من الأمور العادية التي الأصل أنها مباحة.

ومراد المؤلف هنا القسم الأول، فلو قدم السلطان إلى بلد فذبحنا له، فإن كان تقربا وتعظيما، فإنه شرك أكبر، وتحرم هذه الذبائح، وعلامة ذلك أننا نذبحها في وجهه ثم ندعها، أما لو ذبحناها له إكراما وضيافة، وطبخت وأكلت فهذا من باب الإكرام وليس بشرك.

وقوله: (لغير الله) يشمل الأنبياء، والملائكة، والأولياء، وغيرهم.

وقوله في الترجمة: (باب ما جاء في الذبح لغير الله): أشار إلى الدليل دون الحكم، ومثل هذه الترجمة يترجم

بها العلماء للأمور التي لا يجزمون بحكمها، أو التي فيها تفصيل، وأما الأمور التي يجزمون بها فإنهم يقولونها بالجزم، مثل باب وجوب الصلاة، وباب تحريم الغيبة، ونحو ذلك.

والمؤلف رحمه الله تعالى لا شك أنه يرى تحريم الذبح لغير الله على سبيل التقرب والتعظيم، وأنه شرك أكبر، لكنه أراد أن يمرن الطالب على أخذ الحكم من الدليل، وهذا نوع من التربية العلمية، فإن المعلم أو المؤلف يدع الحكم مفتوحا، ثم يأتي بالأدلة لأجل أن يكل الحكم إلى الطالب، فيحكم به على حسب ما سيق له من هذه الأدلة.

وقد ذكر المؤلف في هذا الباب ثلاث آيات:

وقول الله تعالى ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ لَا شَرِيكَ لَهُ﴾ الآية.

قوله: (قل): الخطاب للنبي ﷺ، أي قل لهؤلاء المشركين معلنا لهم قيامك بالتوحيد الخالص، لأن هذه السورة مكية.

قوله: (إن صلاتي): الصلاة في اللغة: الدعاء، وفي الشرع: عبادة الله ذات أقوال وأفعال معلومة، مفتوحة بالتكبير، محتتمة بالتسليم.

قوله: (ونسكي): النسك لغة: العبادة، وفي الشرع: ذبح القرбан. فهل تحمل هذه الآية على المعنى اللغوي أو على المعنى الشرعي؟ سبق أن ما جاء في لسان الشرع يحمل على الحقيقة الشرعية كما أن ما جاء في لسان أهل العرف فهو محمول على الحقيقة العرفية، وفي لسان العرب على الحقيقة اللغوية؛ وعلى هذا يحمل النسك في الآية على المعنى الشرعي.

وإذا حملت على المعنى الشرعي، صارت خاصة في نوع من العبادات، وهي: الصلاة، والذبح، ويكون النص على هاتين العبادتين كمثال لإخلاص جميع العبادات لله تعالى.

قوله: (ومحيى ومماتي): أي: حياتي وموتي، أي: التصرف فيّ وتدبير أمري حيا وميتا لله.

وفي قوله: (صلاتي ونسكي) إثبات توحيد العبادة، وفي قوله: (ومحيى ومماتي) إثبات توحيد الربوبية.

قوله: (لله): خير إن، والله: علم على الذات الإلهية، وأصله: الإله، فحذفت الهزمة، لكثرة الاستعمال تخفيفا، وهو بمعنى مألوه، فهو فعّال بمعنى مفعول، مثل غراس بمعنى مغروس، وفراش بمعنى مفروش، والمألوه: المحبوب المعظم. قوله: (رب العالمين): الرب هنا: المالك المتصرف، وهذه ربوبية مطلقة، و(العالمين) ما سوى الله، وسمي بذلك، لأنه علم على خالقه.

الآية الثانية: قوله: (لا شريك له): الجملة حالية من قوله (لله) أي: حال كونه لا شريك له، والله سبحانه لا شريك له في عبادته، ولا في ربوبيته، ولا أسمائه وصفاته، ولهذا قال تعالى ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾.

قوله: (بذلك): الجار والمجرور متعلق بـ (أمرت) فيكون دالا على الحصر والتخصيص، وإنما خص بذلك، لأنه أعظم المأمورات، وهو الإخلاص لله تعالى ونفي الشرك، فكأنه ما أمر إلا بهذا، ومعلوم أن من أخلص لله تعالى، فسيقوم بعبادة الله سبحانه وتعالى في جميع الأمور.

قوله: (أمرت): إيهام الفاعل هنا تعظيما له، ومن المعلوم أن الأمر هو الله تعالى.

قوله: ﴿وَأَنَا أَوْلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ يحتمل أن المراد الأولوية الزمنية، فيتعين أن تكون أولوية إضافية، ويكون المراد أنا أول المسلمين من هذه الأمة، لأنه سبقه في الزمن من أسلموا. ويحتمل أن المراد الأولوية المعنوية، فإن أعظم الناس إسلاما وأتمهم انقيادا هو الرسول ﷺ، فتكون الأولوية أولوية مطلقة.

قوله: (المسلمين): الإسلام عند الإطلاق يشمل الإيمان، لأن المراد به الاستسلام لله ظاهرا وباطنا.

والشاهد من الآية التي ذكرها المؤلف: أن الذبح لا بد أن يكون خالصا لله.

## وقوله: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ﴾.

قوله: (فصل): الفاء للسببية عاطفة على قوله: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكُوفْرَ﴾ أي: بسبب إعطائنا لك ذلك صل لربك وانحر شكرا لله تعالى على هذه النعمة. والمراد بالصلاة هنا الصلاة المعروفة شرعا. وقوله: وانحر: المراد بالنحر: الذبح، أي اجعل نحرك لله كما أن صلاتك له فأفادت هذه الآية الكريمة أن النحر من العبادة، ولهذا أمر الله به وقرنه بالصلاة. وقوله: (وانحر): مطلق، فيدخل فيه كل ما ثبت في الشرع مشروعيته، وهي ثلاثة أشياء: الأضاحي، والهدايا، والعقائق.

عن علي رضي الله عنه قال: حدثني رسول الله ﷺ بأربع كلمات: «لعن الله من ذبح لغير الله، لعن الله من لعن والديه، لعن الله من أوى محدثا، لعن الله من غير منار الأرض» رواه مسلم<sup>(١)</sup>.

قوله: (كلمات): جمع كلمة، والكلمة في اصطلاح النحويين: القول المفرد. أما في اللغة فهي كل قول مفيد، قال الرسول ﷺ: «أصدق كلمة قالها شاعر: ألا كل شيء ما خلا الله باطل»، وقال تعالى ﴿كَلِمَاتٌ هَيِّئَ قَائِلُهُنَّ﴾ وهي قوله: ﴿لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ﴾. وقوله: (لعن الله): اللعن من الله: الطرد والإبعاد عن رحمة الله، وإذا قيل: اللهم العن فلانا، فالمعنى أبعده عن رحمتك واطرده عنها. وقوله: (لغير الله): يشمل كل من سوى الله حتى لو ذبح لني، أو ملك، أو جني، أو غيرهم. وقوله: (لعن): يحتمل أن تكون الجملة خبرية، ويحتمل أن تكون إنشائية بلفظ الخبر، أي: اللهم العن من ذبح لغير الله، والخبر أبلغ؛ لأن الدعاء قد يستجاب وقد لا يستجاب. وقوله: (والديه): يشمل الأب والأم، ومن فوقهما، لأن الجد أب. وقوله: (من لعن والديه): أي: سبهما وشتمهما، فاللعن من الإنسان السب والشتم، لأن النبي ﷺ قيل له: كيف يلعن الرجل والديه؟ قال: «يسب أبا الرجل فيسب أباه، ويسب أمه فيسب أمه».

(١) في كتاب الأضاحي، باب تحريم الذبح لغير الله (١٥٦٧/٣).

قوله: (من آوى محدثا): أي: ضمه إليه وحماه، والإحداث: يشمل الإحداث في الدين، كالبدع التي أحدثها الجهمية والمعتزلة، وغيرهم، والإحداث في الأمر: أي في شؤون الأمة، كأصحاب الجرائم.  
قوله: (منار الأرض): أي: علاماتها ومراسيمها التي تحدد بين الجيران.

وعن طارق بن شهاب أن رسول الله ﷺ قال: «دخل الجنة رجل في ذباب، ودخل النار رجل في ذباب!» قالوا: وكيف ذلك يا رسول الله؟ قال: «مر رجلان على قوم لهم صنم لا يجوزه أحد حتى يقرب له شيئا، فقالوا لأحدهما: قرب. قال: ليس عندي شيء أقرب. قالوا له: قرب ولو ذبابا. فقرب ذبابا، فخلوا سبيله، فدخل النار. وقالوا للآخر: قرب. فقال: ما كنت لأقرب لأحد شيئا دون الله عزوجل! فضربوا عنقه، فدخل الجنة» رواه أحمد<sup>(١)</sup>.

في الحديث ثلاث علل:

الأولى: أن طارق بن شهاب اتفقوا على أنه لم يسمع من النبي ﷺ، واختلفوا في صحبته، والأكثر على أنه صحابي، فإن قلنا: إنه صحابي، فلا يضر عدم سماعه من النبي ﷺ؛ لأن مرسل الصحابي حجة، وإن كان غير صحابي فهو ضعيف.

الثانية: أن الحديث معنعن من قبل الأعمش، وهو من المدلسين.

الثالثة: أن الإمام أحمد رواه عن طارق عن سلمان موقوفا من قوله، وكذا أبو نعيم وابن أبي شيبة، فيحتمل أن سلمان أخذه عن بني إسرائيل.

قوله: (في ذباب): في: للسببية، أي: بسبب ذباب، ونظيره قول النبي ﷺ (دخلت النار امرأة في هرة حبستها...) الحديث، أي: بسبب هرة.

قوله (فدخل النار): مع أنه ذبح شيئا حقيرا لا يؤكل، لكن لما نوى التقرب به إلى هذا الصنم، صار مشركا، فدخل النار.

وقوله في المسائل: (التاسعة: كونه دخل النار بسبب ذلك الذباب الذي لم يقصده، بل فعله تخلصا من شرهم): هذه المسألة ليست مسلمة، فإن قوله: قرب ولو ذبابا؛ يقتضي أنه فعله قاصدا التقرب، أما لو فعله تخلصا من شرهم فإنه لا يكفر؛ لعدم قصد التقرب، وقد قال ﷺ: «إنما الأعمال بالنيات»، وظاهر القصة أن الرجل ذبح بنية التقرب، لأن الأصل أن الفعل المبني على طلب يكون موافقا لهذا الطلب؛ لهذا نرى خلاف ما

(١) رواه الإمام أحمد في الزهد ص ١٥، ١٦، وأبو نعيم في الحلية (٢٠٣/١).

يرى المؤلف رحمه الله، أي أنه لو فعله بقصد التخلص ولم ينو التقرب لهذا الصنم لا يكفر، لعموم قوله تعالى ﴿مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا﴾ وهذا الذي فعل ما يوجب الكفر تخلصا مطمئن قلبه بالإيمان.

والصواب أيضا: أنه لا فرق بين القول المكروه والفعل، وإن كان بعض العلماء يفرق ويقول: إذا أكره على القول لم يكفر، وإذا أكره على الفعل كفر، ولدينا نص عام في الموضوع، وهو قوله تعالى ﴿مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ﴾ الآية، ولم يقل: بالقول.

مسألة: هل الأولى للإنسان إذا أكره على الكفر أن يصبر ولو قتل، أو يوافق ظاهرا ويتأول؟

فيه تفصيل: إذا كان موافقة الإكراه لا يترتب عليه ضرر في الدين للعامّة، فإن الأولى أن يوافق ظاهرا لا باطنا، لا سيما إذا كان بقاءه فيه مصلحة للناس، مثل: صاحب المال الباذل فيما ينفع أو العلم النافع وما أشبه ذلك، حتى وإن لم يكن فيه مصلحة، ففي بقاءه على الإسلام زيادة عمل، وهو خير، وهو قد رخص له أن يكفر ظاهرا عند الإكراه، فالأولى أن يتأول، ويوافق ظاهرا لا باطنا.

أما إذا كان في موافقته وعدم صبره ضرر على الإسلام فإنه يصبر، وقد يجب الصبر، لأنه من باب الصبر على الجهاد في سبيل الله، وليس من باب إبقاء النفس، ولهذا لما شكى الصحابة للنبي ﷺ ما يجدونه من مضايقة المشركين، قص عليهم قصة الرجل فيمن كان قبلنا بأن الإنسان كان يمشط ما بين لحمه وجلده بأمشاط الحديد ويصبر. فكأنه يقول لهم: اصبروا. ولو حصل من الصحابة رضي الله عنهم في ذلك الوقت موافقة للمشركين وهم قلة لحصل بذلك ضرر عظيم على الإسلام، والإمام أحمد رحمه الله في المحنة المشهورة لو وافقهم ظاهرا لحصل في ذلك مضرة على الإسلام.

## باب لا يذبح لله بمكان يذبح فيه لغير الله

هذا الانتقال من المؤلف من أحسن ما يكون، ففي الباب السابق ذكر الذبح لغير الله، فنفس الفعل لغير الله، وفي هذا الباب ذكر الذبح لله ولكنه في مكان يذبح فيه لغيره، كمن يريد أن يضحي لله في مكان يذبح فيه للأصنام، فلا يجوز أن تذبح فيه، لأنه موافقة للمشركين في ظاهر الحال، وربما أدخل الشيطان في قلبك نية سيئة، فتعتقد أن الذبح في هذا المكان أفضل، وما أشبه ذلك، وهذا خطر.

### وقول الله تعالى ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا﴾ الآية.

قوله: ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ﴾: ضمير الغيبة يعود إلى مسجد الضرار، الذي بني على نية فاسدة، قال تعالى ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِزْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾.

قوله: ﴿لَمَسْجِدٍ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى﴾ اللام: للابتداء، ومسجد: مبتدأ، وخبره: ﴿أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ﴾، وفي هذا التنكير تعظيم للمسجد، بدليل قوله: ﴿أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى﴾ أي: جعلت التقوى أساسا له، فقام عليه، وهذه الأحقية ليست على بابها، لأنه هنا لا حق لمسجد الضرار أن يقام فيه.

قوله: ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُجِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا﴾ بخلاف من كان في مسجد الضرار، فإنهم رجس، كما قال الله تعالى في المنافقين: ﴿سَيَخْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ﴾.

قوله: (يتطهروا): يشمل طهارة القلب من النفاق والحسد والغل وغير ذلك، وطهارة البدن من الأقدار والنجاسات والأحداث.

وجه المناسبة من الآية:

أنه لما كان مسجد الضرار مما اتخذ للمعاصي ضرارا وكفرا وتفريقا بين المؤمنين، نهى الله رسوله أن يقوم فيه، مع أن صلاته فيه لله، فدل على أن كل مكان يعصى الله فيه أنه لا يقام فيه، وكذا لو أراد إنسان أن يذبح لله في مكان يذبح فيه لغير الله كان حراما، لأنه يشبه الصلاة في مسجد الضرار.

وعن ثابت بن الضحاك رضي الله عنه قال: نذر رجل أن ينحر إبلا ببوانة، فسأل النبي ﷺ فقال: «هل كان فيها وثن من أوثان الجاهلية يعبد؟» قالوا: لا. قال: «فهل كان فيها عيد من أعيادهم؟» قالوا: لا. فقال رسول الله ﷺ: «أوف بنذرك، فإنه لا وفاء لنذر في معصية الله، ولا فيما لا يملك ابن آدم» رواه أبو داود، وإسناده على شرطهما<sup>(١)</sup>.

قوله: (نذر): النذر في اللغة: الإلزام. واصطلاحاً: إلزام المكلف نفسه لله شيئاً غير واجب.

قوله: (إبلا): اسم جمع لا واحد له من لفظه، لكن له واحد من معناه، وهو البعير.

قوله: (هل كان فيها وثن): الوثن: كل ما عبد من دون الله، من شجر أو حجر، سواء نحت أو لم ينحت. والصنم يختص بما صنعه الآدمي.

قوله: (الجاهلية): نسبة إلى ما كان قبل الرسالة، وسميت بذلك، لأنهم كانوا على جهل عظيم.

قوله: (عيد) اسم لما يعود أو يتكرر، والعود بمعنى الرجوع، أي: هل اعتاد أهل الجاهلية أن يأتوا إلى هذا المكان ويتخذوا هذا اليوم عيداً وإن لم يكن فيه وثن؟ قالوا: لا.

قوله: (أوف بنذرك): فعل أمر، وهل المراد به المعنى الحقيقي للأمر أو المراد به الإباحة؟

الجواب: بالنسبة لنحر الإبل المراد به المعنى الحقيقي، وبالنسبة للمكان المراد به الإباحة، لأنه لا يتعين أن يذبحها في ذلك المكان.

وقوله: (أوف بنذرك) علل ﷺ ذلك بانتفاء المانع، فقال: (فإنه لا وفاء لنذر في معصية الله).

قوله: (لا وفاء): لا: نافية للجنس، وفاء: اسمها، لنذر: خبرها. قوله: (في معصية الله): صفة لنذر، أي: لا يمكن أن توفي بنذر في معصية الله، لأنه لا يتقرب إلى الله بمعصيته.

وقوله: (ولا فيما لا يملك ابن آدم) الذي لا يملكه ابن آدم يشمل معينين، الأول: ما لا يملك فعله شرعاً، كما لو قال: لله علي أن أعتق عبد فلان، فلا يصح لأنه لا يملك إعتاقه. الثاني: ما لا يملك فعله قدراً، كما لو قال: لله علي نذر أن أطير.

ويستفاد من الحديث: أنه لا يذبح لله بمكان يذبح فيه لغير الله، وهو ما ساقه المؤلف من أجله، والحكمة من ذلك ما يلي:

الأول: أنه يؤدي إلى التشبه بالكفار.

(١) رواه أبو داود، كتاب الأيمان والندور، باب ما يؤمر به من الوفاء بالنذر (٦٠٧/٣)، والبيهقي في السنن (٨٣/١٠)، والطبراني في الكبير برقم (٣٤١)، وصححه ابن حجر في التلخيص (١٨٠/٤).

الثاني: أنه يؤدي إلى الاغترار بهذا الفعل، لأن من رآك تذبح بمكان يذبح فيه المشركون ظن أن فعل المشركين جائز.

الثالث: أن هؤلاء المشركين سوف يقوون على فعلهم إذا رأوا من يفعل مثلهم، ولا شك أن تقوية المشركين من الأمور المحظورة، وإغاثتهم من الأعمال الصالحة، قال الله تعالى ﴿وَلَا يَطَّأُونَ مَوْطِئًا يُغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوِّ نِيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ﴾.

أما بالنسبة للصلاة في الكنيسة فإن الصلاة تخالف صلاة أهل الكنيسة، لا يكون الإنسان متشبهاً بهذا العمل، بخلاف الذبح في مكان يذبح فيه لغير الله، فإن الفعل واحد بنوعه وجنسه، ولهذا لو أراد إنسان أن يصلي في مكان يذبح فيه لغير الله لجاز ذلك؛ لأنه ليس من نوع العبادة التي يفعلها المشركون في هذا المكان.

## باب من الشرك النذر لغير الله

النذر لغير الله مثل أن يقول: لفلان علي نذر، أو لهذا القبر علي نذر، يريد بذلك التقرب إليه، وما أشبه ذلك. والفرق بينه وبين نذر المعصية: أن النذر لغير الله ليس لله أصلاً، ونذر المعصية لله، ولكنه على معصية من معاصيه، ونظير هذا الحلف بالله على شيء محرم، والحلف بغير الله، فالحلف بغير الله مثل: والنبي، لأفعلن كذا وكذا، والحلف بالله على محرم مثل: والله لأسرقن.

وحكم النذر لغير الله أنه شرك، لأنه عبادة للمندور له، وإذا كان عبادة فقد صرفها لغير الله، فيكون مشركاً وهذا النذر لغير الله لا ينعقد، ولا تجب فيه كفارة، بل هو شرك تجب التوبة منه، كالحلف بغير الله، فلا ينعقد، وليس فيه كفارة.

وأما نذر المعصية فينعقد، لكن لا يجوز الوفاء به، وعليه كفارة يمين، كالحلف بالله على المحرم ينعقد، وفيه كفارة.

### وقول الله تعالى ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ﴾

قوله: ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ﴾ هذه الآية سيقت لمدح الأبرار: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرُفُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا﴾، ومدحهم بهذا يقتضي أن يكون عبادة، لأن الإنسان لا يمدح ولا يستحق دخول الجنة إلا بفعل شيء يكون عبادة.

ولو أعقب المؤلف هذه الآية بقوله تعالى ﴿وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ﴾ لكان أوضح، لأن قوله: ﴿وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ﴾ أمر، والأمر بوفائه يدل على أنه عبادة، لأن العبادة ما أمر به شرعاً. وجه استدلال المؤلف بالآية على أن النذر لغير الله من الشرك: أن الله تعالى أثني عليهم بذلك، وجعله من الأسباب التي بها يدخلون الجنة، ولا يكون سبباً يدخلون به الجنة إلا وهو عبادة، فيقتضي أن صرفه لغير الله شرك.

### وقوله: ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ﴾

قوله: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ﴾: تعليق الشيء بعلم الله دليل على أنه محل جزاء، إذ لا نعلم فائدة لهذا الإخبار بالعلم إلا لترتب الجزاء عليه، وترتب الجزاء عليه يدل على أنه من العبادة التي يجازي الإنسان عليها، وهذا وجه استدلال المؤلف بهذه الآية.

وفي الصحيح عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: «من نذر أن يطيع الله، فليطعه، ومن نذر أن يعصي الله، فلا يعصه»<sup>(١)</sup>.

قوله: (فليطعه): الفاء واقعة في جواب الشرط، لأن الجملة إنشائية طلبية، واللام لام الأمر. وظاهر الحديث: يشمل ما إذا كانت الطاعة المندورة جنسها واجب، كالصلاة والحج وغيرهما، أو غير واجب، كتعليم العلم وغيره، ويشمل من نذر طاعة نذرا مطلقا ليس له سبب، مثل: (لله علي أن أصوم ثلاثة أيام)، ومن نذر نذرا معلقا، مثل: إن نجحت، فله علي أن أصوم ثلاثة أيام. لأن الحديث عام.

واعلم أن النذر لا يأتي بخير ولو كان نذر طاعة، وإنما يستخرج به من البخيل، ولهذا نهي عنه النبي ﷺ، وبعض العلماء يجرمه، وإليه يميل شيخ الإسلام ابن تيمية؛ للنهي عنه، ولأنك تلزم نفسك بأمر أنت في عافية منه، وكم من إنسان نذر ثم ندم، وربما لم يفعل، وبدل لقوة القول بتحريم النذر قوله تعالى ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ﴾، فهذا التزام مؤكد بالقسم، فيشبه النذر، قال الله تعالى: ﴿قُلْ لَا تُقْسِمُوا طَاعَةً مَعْرُوفَةً﴾ أي: عليكم طاعة معروفة بدون يمين، والإنسان الذي لا يفعل الطاعة إلا بنذر، أو حلف على نفسه يعني أن الطاعة ثقيلة عليه.

ومما يدل على قوة القول بالتحريم أيضا خصوصا النذر المعلق: أن الناذر كأنه غير واثق بالله عز وجل، فكأنه يعتقد أن الله لا يعطيه الشفاء إلا إذا أعطاه مقابله، وفي هذا سوء ظن بالله عز وجل، والقول بالتحريم قول وجيه.

فإن قيل: كيف تحرمون ما أثنى الله على من وفى به؟

فالجواب: أننا نقول: إن المحرم أو المكروه كراهة شديدة هو عقد النذر، وفرق بين عقده ووفائه، فالعقد

ابتدائي، والوفاء في ثاني الحال تنفيذ لما نذر.

قوله: (ومن نذر أن يعصي الله، فلا يعصه) لا: ناهية، والنهي بحسب المعصية، فإن كانت المعصية حراما

فالوفاء بالنذر حرام، وإن كانت المعصية مكروهة فالوفاء بالنذر مكروه.

(١) رواه البخاري، كتاب الأيمان والنذور، باب النذر فيما لا يملك وفي معصية (٢٢٩/٤).

## باب من الشرك الاستعاذة بغير الله

قوله: (من الشرك): من: للتبويض، وهذه الترجمة ليست على إطلاقها، لأنه إذا استعاذ بشخص مما يقدر عليه فإنه جائز، كالأستعاذة.

وقول الله تعالى ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾.

قوله: (يعوذون): الجملة خبر كان، ويقال: عاذ به ولاذ به، فالعياذ مما يخاف، واللياذ فيما يؤمل، وعليه قول الشاعر يخاطب ممدوحه، ولا يصلح ما قاله إلا لله:

يا من ألوذ به فيما أوّمله      ومن أعوذ به مما أحاذره

قوله: ﴿يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ﴾ أي: يلتجئون إليهم مما يحاذرونه، يظنون أنهم يعيدونهم، ولكن زادوهم رهقا، أي: خوفا وذعرا، وكانت العرب في الجاهلية إذا نزلوا في واد نادوا بأعلى أصواتهم: أعوذ بسيد هذا الوادي من سفهاء قومه.

قوله: (رهقا): أي: ذعرا وخوفا، بل الرهق أشد من مجرد الذعر والخوف، فكأنهم مع ذعرهم وخوفهم أرهقهم وأضعفهم، فالذعر والخوف في القلوب، والرهق في الأبدان.

وهذه الآية تدل على أن الاستعاذة بالجن حرام، لأنها لا تفيد المستعيز، بل تزيده رهقا، فعوقب بنقيض قصده، وهذا ظاهر، فتكون الواو ضمير الجن، والهاء ضمير الإنس. وقيل: إن الإنس زادوا الجن رهقا، أي: استكبارا وعتوا، ولكن الصحيح الأول.

وجه الاستشهاد بالآية: ذم المستعيزين بغير الله، والمستعيز بالشيء لا شك أنه قد علق رجاءه به، واعتمد عليه، وهذا نوع من الشرك.

وعن خولة بنت حكيم قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من نزل منزلا، فقال: أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق لم يضره شيء حتى يرحل من منزله ذلك» رواه مسلم<sup>(١)</sup>.

(١) في كتاب الذكر والدعاء، باب في التعوذ من سوء القضاء (٤/٢٠٨٠).

قوله: (من نزل منزلاً) يشمل من نزل على سبيل الإقامة الدائمة، أو الطارئة، بدليل أنه نكرة في سياق الشرط، والنكرة في سياق الشرط تفيد العموم.

وقوله: (أعوذ) أي: ألتجئ وأعتصم.

قوله: (كلمات): هي من جموع القلة، لأنه جمع مؤنث سالم، والراجع: أن جموع القلة تدل على الكثرة بالدليل، ف(كلمات) جمع قلة دال على الكثرة لوجود الدليل، قال تعالى ﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَاداً لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾.

والمراد بالكلمات هنا: الكلمات الكونية والشرعية.

قوله: (التامات): تمام الكلام بأمرين: الصدق في الأخبار والعدل في الأحكام، قال الله تعالى ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقاً وَعَدْلًا﴾.

قوله: (من شر ما خلق): أي: من شر الذي خلق، لأن الله خلق كل شيء: الخير والشر، ولكن الشر خلقه الله تعالى لحكمة، فعاد بهذه الحكمة خيراً، فكان خيراً، وعلى هذا نقول: الشر ليس في فعل الله، بل في مفعولاته، أي: مخلوقاته.

وليس كل ما خلق الله فيه شر، لكن تستعيز من شره إن كان فيه شر، لأن مخلوقات الله تنقسم إلى ثلاثة أقسام:

- شر محض، كالنار وإبليس باعتبار ذاتيهما، أما باعتبار الحكمة التي خلقهما الله من أجلها، فهي خير.
- خير محض كالجنة، والرسول، والملائكة.
- فيه شر وخير، كالإنس، والجن، والحيوان.

قوله: (لم يضره شيء): نكرة في سياق النفي، فتفيد العموم من شر كل ذي شر، من الجن والإنس وغيرهم، والظاهر والخفي حتى يرتحل من منزله، لأن هذا خبر لا يمكن أن يتخلف مخبره، لأنه كلام الصادق المصدوق، لكن إن تخلف، فهو لوجود مانع لا لقصور السبب أو تخلف الخبر.

ونظير ذلك كل ما أخبر به النبي ﷺ من الأسباب الشرعية إذا فعلت ولم يحصل المسبب، فليس ذلك لخلل في السبب، ولكن لوجود مانع، مثل: قراءة الفاتحة على المرضى شفاءً، ويقرأها بعض الناس ولا يشفى المريض، وليس ذلك قصوراً في السبب، بل لوجود مانع بين السبب وأثره.

ومنه: التسمية عند الجماع، فإنها تمنع ضرر الشيطان للولد، وقد توجد التسمية ويضر الشيطان الولد، لوجود مانع يمنع من حصول أثر هذا السبب، فعليك أن تفتش ما هو المانع حتى تزيله فيحصل لك أثر السبب.

والمؤلف يقول في الترجمة: الاستعاضة بغير الله، وهنا استعاضة بالكلمات، ولا تناقض؛ لأن كلمات الله صفة من صفاته، ولهذا استدل العلماء بهذا الحديث على أن كلام الله من صفاته غير مخلوق، لأن الاستعاضة بالمخلوق لا تجوز في مثل هذا الأمر، وفي الحديث: «أعوذ بعزة الله وقدرته من شر ما أجد وأحاذر»، ويجوز القسم بالله وبصفاته، لأنها غير مخلوقة.

أما القسم بالآيات فإن أراد الآيات الشرعية فجائز، وإن أراد الآيات الكونية فغير جائز. أما الاستعاضة بالمخلوق ففيها تفصيل: فإن كان المخلوق لا يقدر عليه فهي من الشرك، وأما الاستعاضة بمخلوق فيما يقدر عليه فهي جائزة.

## باب من الشرك أن يستغيث بغير الله أو يدعو غيره

الاستغاثة: طلب الغوث، وهو إزالة الشدة.

وكلام المؤلف رحمه الله ليس على إطلاقه، بل يقيد بما لا يقدر عليه المستغاث به، إما لكونه ميتا، أو غائبا، أو يكون الشيء مما لا يقدر على إزالته إلا الله تعالى، فلو استغاث بحي حاضر فيما يقدر عليه كان جائزا، قال الله تعالى ﴿فَاسْتَعَاثُ الَّذِي مِنْ شَيْعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ﴾، وإذا طلبت ومن أحد الغوث وهو قادر عليه، فإنه يجب عليك تصحيحا لتوحيدك أن تعتقد أنه مجرد سبب، فلا تعتمد عليه وتنسى خالق السبب، فهذا قاذح في كمال التوحيد.

قوله: (أو يدعو غيره): أي: من الشرك أن يدعو غير الله، وذلك لأن الدعاء من العبادة، قال الله تعالى ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ عبادتي أي: دعائي، فسمى الله الدعاء عبادة، وقال ﷺ: «إن الدعاء هو العبادة». والدعاء ينقسم إلى قسمين:

- ١\_ ما يقع عبادة، وهذا صرفه لغير الله شرك، وهو المقرون بالرهبة والرغبة والحب والتضرع.
  - ٢\_ ما لا يقع عبادة، فهذا يجوز أن يوجه إلى المخلوق، قال النبي ﷺ: «من دعاكم فأجيبوه» وقال: «إذا دعاك فأجبه»؛ فمراد المؤلف دعاء العبادة أو دعاء المسألة فيما لا يمكن للمسؤول إجابته.
- وقوله: (أو يدعو) من باب عطف العام على الخاص، لأن الاستغاثة دعاء بإزالة الشدة فقط، والدعاء عام لكونه لطلب منفعة، أو لدفع مضرة.
- وقد ذكر المؤلف رحمه الله في هذا الباب عدة آيات:

وقول الله تعالى ﴿وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذَا مِنَ الظَّالِمِينَ. وَإِنْ يَمَسُّكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ﴾ الآية.

قوله: ﴿وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ الخطاب للرسول ﷺ، والحكم له ولغيره، أو الخطاب عام لكل من يصح خطابه ويدخل فيه الرسول ﷺ.

وتوجيه الخطاب إلى النبي ﷺ على القول الأول لا يقتضي أن يكون هذا الفعل ممكنا منه، قال تعالى ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾، فالخطاب له ولجميع الرسل، ولا يمكن أن يقع منه باعتبار حاله، لا باعتبار كونه إنسانا وبشرا.

والحكمة من النهي أن يكون غيره متأسيا به، فإذا كان النهي موجها إلى من لا يمكن منه باعتبار حاله، فهو إلى من يمكن منه من باب أولى.

وقوله: ﴿وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ الدعاء: طلب ما ينفع، أو طلب دفع ما يضر، وهو نوعان كما قال أهل العلم:

- دعاء عبادة، وهو أن يكون قائما بأمر الله، لأن القائم بأمر الله كالمصلي والصائم والمزكي يريد بذلك الثواب والنجاة من العقاب، ففعله متضمن للدعاء بلسان الحال.
  - الثاني: دعاء مسألة، وهو طلب ما ينفع، أو طلب دفع ما يضره.
- فالأول لا يجوز صرفه لغير الله، والثاني فيه تفصيل سبق.

قوله: ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أي سوى الله.

قوله: ﴿مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ﴾ (ما لا ينفَعُك) أي: ما لا يجلب لك النفع لو عبدته. (ولا يضرُك): أي لو تركت عبادته لا يضرُك، لأنه لا يستطيع الانتقام. وهذا القيد \_ أعني كونه لا ينفَعُك ولا يضرُك \_ ليس له مفهوم، فيكون لك أن تدعو من ينفَعُك ويضرُك، بل هو لبيان الواقع، لأن المدعو من دون الله لا يحصل منه نفع ولا ضرر، قال الله تعالى ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾، وكل قيد يراد به بيان الواقع فإنه كالتعليل للحكم، فمثلا قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ﴾ أي: اعبدوه لأنه خلقكم، وقوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ أي: لأنه لا يدعوكم إلا لما يحييكم، وكذلك قوله تعالى ﴿وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ﴾ أي: لأنه لا ينفَعُك ولا يضرُك.

قوله: ﴿فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ أي: إن دعوت من دون الله ما لا ينفَعُك ولا يضرُك، (فإنك إذن) أي: حال فعلك (من الظالمين).

وقوله: ﴿فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ﴾ هذا كقول النبي ﷺ «واعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن ينفَعوك بشيء لم ينفَعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك».

قوله: ﴿وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ﴾ هنا قال: (يردك)، وفي الضر قال: (يمسك) فهل هذا من باب تنويع العبارة، أو هناك فرق معنوي؟

الجواب: هناك فرق معنوي، وهو أن الأشياء المكروهة لا تنسب إلى إرادة الله، بل تنسب إلى فعله، أي: مفعوله، فالله لا يريد الضر لذاته، بل يريد تغييره، لما يترتب عليه من الخير، ولما وراء ذلك من الحكم البالغة، أما الخير، فهو مرادٌ لله لذاته، ومفعول له، والله أعلم بما أراد بكلامه، لكن هذا الذي يتبين لي.

قوله: ﴿فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ﴾، أي: لا يستطيع أحد أن يرد فضل الله أبداً، ولو اجتمعت الأمة على ذلك، وفي الحديث: «اللهم! لا مانع لما أعطيت، ولا معطي لما منعت»؛ وعليه فنعتمد على الله في جلب المنافع، ودفع المضار، وبقاء ما أنعم علينا به، ونعلم أن الأمة مهما بلغت من الكيد والحيل لتمنع فضل الله فإنها لا تستطيع. قوله: ﴿يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾، الضمير إما أن يعود إلى الفضل، لأنه أقرب، أو إلى الخير، لأنه هو الذي يتحدث عنه، ولا يختلف المعنى بذلك.

قوله: (من يشاء): كل فعل مقيد بالمشيئة فإنه مقيد بالحكمة، فمشيئة الله ليست مشيئة مجردة يفعل ما يشاء مجرد أنه يشاءه فقط، بل هي صادرة عن حكمته تعالى، قال تعالى: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾.

قوله: (من عباده): العبودية هنا عامة، لأن قوله: (بخير) يشمل خير الدنيا والآخرة، وخير الدنيا يصيب الكفار.

قوله: ﴿وَهُوَ الْعَفُورُ الرَّحِيمُ﴾، أي: ذو المغفرة، والمغفر: ستر الذنب والتجاوز عنه، مأخوذة من المغفر، وهو ما يتقى به السهام، والمغفر فيه ستر ووقاية. والرحيم، أي: ذو الرحمة، وهي صفة تليق بالله عزوجل تقتضي الإحسان والإنعام.

الشاهد قوله: ﴿وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ﴾ في الآية الأولى، فقد نبه الله نبيه أن من يدعو أحداً سوى الله لا ينفعه ولا يضره، وقوله في الآية الثانية: ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ﴾.

### وقوله ﴿فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ﴾.

لو أتى المؤلف بأول الآية: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا﴾ لكان أولى، فهم يعبدون هذه الأوثان من شجر وحجر وغيرها وهي لا تملك لهم رزقا، فإذا كانت لا تملك الرزق، فالذي يملكه هو الله، ولهذا قال: ﴿فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ﴾ أي: اطلبوا عند الله الرزق، لأنه سبحانه هو الذي لا ينقضي ما عنده: ﴿مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ﴾.

وقوله: (عند الله): عند الله: حال من الرزق، وقدم الحال مع أن موضعها التأخير عن صاحبها لإفادة الحصر، إذ إن تقديم ما حقه التأخير يفيد الحصر، أي: فابتغوا الرزق حال كونه عند الله لا عند غيره.

قوله: (واعبدوه): أي: تذللوا له بالطاعة، لأن العبادة مأخوذة من التعبيد، وهو التذليل، ومنه قولهم: طريق معبد، أي: مذل للسالكين، لأنكم إذا تذللتم له بالطاعة فذلك من أسباب الرزق.

قوله: (واشكروا له): إذا أضاف الله الشكر له متعديا باللام، فهو إشارة إلى الإخلاص، أي: واشكروا نعمة الله لله، لأن الشاكر قد يشكر الله لبقاء النعمة، وهذا لا بأس به، ولكن كونه يشكر الله وتأتي إرادة بقاء النعمة تبعاً، هذا هو الأكمل والأفضل.

والشكر فسروه بأنه: القيام بطاعة المنعم، وقالوا: إنه يكون في ثلاثة مواضع:  
١ \_ في القلب، وهو أن يعترف بقلبه أن هذه النعمة من الله.

٢ \_ اللسان، وهو أن يتحدث بها على وجه الثناء على الله والاعتراف وعدم الجحود، لا على سبيل الفخر والخيلاء والترفع على عباد الله.

٣ \_ الجوارح، وهو أن يستعملها بطاعة المنعم، وعلى حسب ما يختص بهذه النعمة.  
والشاهد من هذه الآية: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرَّزْقَ﴾ وإذا كانت هذه المعبودات لا تملك الرزق، فكيف تستغيث بها؟!

وقوله: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ الآية.

قوله تعالى (ومن أضل): استفهام يراد به النفي، أي لا أحد أضل، وإذا كان الاستفهام مراداً به النفي كان أبلغ من النفي المجرد، لأنه نفي متضمن للتحدي.

قوله: (من يدعو): يراد بالدعاء هنا دعاء المسألة ودعاء العبادة.

قوله: (من دون الله): أي سواه.

قوله: ﴿مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ أي: لو بقي كل عمر الدنيا يدعو ما استجاب له، قال الله تعالى ﴿إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ﴾.

وقوله: (من لا يستجيب) أتى بـ (من) وهي للعاقل، مع أنهم يعبدون الأصنام والأحجار والأشجار وهي غير عاقلة؛ لأنهم لما عبدوها نزلوها منزلة العاقل، فخطبوا بمقتضى ما يدعون.

الشاهد: قوله: ﴿مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ فإذا كان من سوى الله لا يستجيب إلى يوم القيامة، فكيف يليق بك أن تستغيث به دون الله؟! ولكن قد يتلى من يدعو غير الله فيأتيه المدد عند الاستغاثة لا بالاستغاثة، وفرق بين ما يأتي بالشيء وما يأتي عند الشيء.

وقوله: ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ﴾.

قوله: (المضطر): أصلها: المضتر، أي: الذي أصابه الضرر، قال تعالى ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ. فَاسْتَجَبْنَا لَهُ﴾، فلا يجيب المضطر إلا الله، لكن قيده بقوله: (إذا دعاه)، أما إذا لم يدعه، فقد يكشف الله ضره، وقد لا يكشفه. قوله: (ويكشف السوء): أي: يزيل السوء، والسوء: ما يسوء المرء، وهو دون الضرورة، لأن الإنسان قد يساء بما لا يضره.

وقوله: (ويكشف السوء) هل هي متعلقة بما قبلها في المعنى، وأنه إذا أجابه كشف سوءه، أو هي مستقلة: يجيب المضطر إذا دعاه ثم أمر آخر يكشف السوء؟ الجواب: المعنى الأخير أعم، لأنها تشمل كشف سوء المضطر وغيره، ومن دعا الله ومن لم يدعه، وعلى التقدير الأولى تكون خاصة بكشف سوء المضطر، ومعلوم أنه كلما كان المعنى أعم كان أولى، ويؤيد العموم قوله: ﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ﴾.

قوله: ﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ﴾ الذين يجعلهم الله خلفاء الأرض هم عباد الله الصالحون، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزُّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾، وقال تعالى ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ...﴾.

قوله: ﴿أَلَيْهَ مَعَ اللَّهِ﴾ الاستفهام للإنكار، أو بمعنى النفي، وهما متقاربان، أي: هل أحد مع الله يفعل ذلك؟! الجواب: لا، وإذا كان كذلك، فيجب أن تصرف العبادة لله وحده، وكذلك الدعاء، فالواجب على العبد أن يوجه السؤال إلى الله تعالى، ولا يطلب من أحد أن يزيل ضرورته ويكشف سوءه وهو لا يستطيع.

روى الطبراني بإسناده أنه كان في زمن النبي ﷺ منافق يؤذي المؤمنين، فقال بعضهم: قوموا بنا نستغيث برسول الله ﷺ من هذا المنافق. فقال النبي ﷺ: «إنه لا يستغاث بي، وإنما يستغاث بالله»<sup>(١)</sup>.

قوله: (بإسناده): يشير إلى أن هذا الإسناد ليس على شرط الصحيح، بل هو إسناده الخاص، وعليه فيجب أن يراجع هذا الإسناد، وذكر الهيثمي في مجمع الزوائد: أن رجاله رجال الصحيح غير ابن لهيعة، وهو حسن الحديث. وابن لهيعة خلط في آخر عمره لاحتراق كتبه.

ولم يذكر المؤلف الصحابي، وفي الشرح هو عبادة بن الصامت.

قوله: (فقال بعضهم): أي: الصحابة. قوله: (نستغيث): أي: نطلب الغوث وهو إزالة الشدة.

قوله: (من هذا المنافق): إما بزجره، أو تعزيره، أو بما يناسب المقام.

قوله: (إنه لا يستغاث بي) ظاهر هذه الجملة النفي مطلقاً، ويحتمل أن المراد: لا يستغاث به في هذه القضية المعينة. فعلى الأول: يكون نفي الاستغاثة من باب سد الذرائع والتأديب في اللفظ، وليس من باب الحكم بالعموم، لأن الاستغاثة بالرسول ﷺ تجوز فيما يقدر عليه، وهذا المعنى هو ما اختاره المؤلف \_رحمه الله\_ في المسألة الثامنة عشرة من مسائل هذا الباب، أما إذا قلنا: إن النفي عائد إلى القضية المعينة التي استغاثوا بالنبي ﷺ منها، فإنه يكون النفي حقيقياً، أي: لا يستغاث بي في مثل هذه القضية، لأن النبي ﷺ كان يعامل المنافقين معاملة المسلمين، ولا يمكنه حسب الحكم الظاهر للمنافقين أن ينتقم من هذا المنافق انتقاماً ظاهراً، إذ إن المنافقين يستترون، وعلى هذا، فلا يستغاث للتخلص من المنافق إلا بالله.

(١) رواه الطبراني كما في مجمع الزوائد (١٥٩/١٠) عن عبادة بن الصامت، وقال الهيثمي: رجاله رجال الصحيح غير ابن لهيعة، وهو حسن الحديث.

## باب قول الله تعالى ﴿أَيُّشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلِقُونَ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ هُمْ نَصراً﴾ الآية.

مناسبة الباب لما قبله:

لما ذكر رحمه الله الاستعانة والاستغاثة بغير الله عز وجل، ذكر البراهين الدالة على بطلان عبادة ما سوى الله، وذكر رحمه الله ثلاث آيات:

- الآية الأولى والثانية: قوله: (أيشركون ما لا يخلق شيئاً وهم يخلقون...): بين الله عجز هذه الأصنام وأنها لا تصلح أن تكون معبودة من أربعة وجوه، هي:
- ١\_ أنها لا تخلق، ومن لا يخلق لا يستحق أن يعبد.
  - ٢\_ أنهم مخلوقون من العدم، فهم مفتقرون إلى غيرهم ابتداء ودواماً.
  - ٣\_ أنهم لا يستطيعون نصر الداعين لهم، وقوله: (ولا يستطيعون) أبلغ من قوله: (لا ينصروهم) لأنه لو قال: (لا ينصروهم) فقد يقول قائل: لكنهم يستطيعون، لكن لما قال: ﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ هُمْ نَصراً﴾ كان أبلغ لظهور عجزهم.
  - ٤\_ أنهم لا يستطيعون نصر أنفسهم.

### وقوله: ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ﴾ الآية.

قوله: ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ﴾ يشمل دعاء المسألة، ودعاء العبادة، و (من دونه) أي: سوى الله.

قوله: ﴿مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ﴾ القطمير: اللفافة الرقيقة التي على نواة التمر.

فهؤلاء المدعوون لا يملكون من قطمير، فإن قيل: أليس الإنسان يملك النخل كله كاملاً؟ أجيب: إنه يملكه، ولكنه ملك ناقص ليس حقيقياً، فلا يتصرف فيه إلا على حسب ما جاء به الشرع.

ثم قال تعالى: ﴿إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾.

أي أن هذه الأصنام لو دعوتوها ما سمعت، ولو فرض أنها سمعت ما استجابت، لأنها لا تقدر على ذلك، ولهذا قال إبراهيم عليه السلام لأبيه: ﴿يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا﴾، فإذا كانت كذلك فكيف تدعى من دون الله؟!

قوله: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾ هو كقوله تعالى ﴿وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾، فهؤلاء المعبودون إن كانوا يبعثون ويحشرون فكفرهم بشركهم ظاهر كمن يعبد عزيرا والمسيح، وإن كانوا أحجارا وأشجارا ونحوها فيحتمل أن يشملها ظاهر الآية، وهو أن الله يأتي بهذه الأحجار ونحوها فتكفر بشرك من يشرك بها، ويؤيده قوله تعالى ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ وما ثبت في الصحيحين عن النبي ﷺ أنه عند بعث الناس يقال: لتتبع كل أمة ما كانت تعبد من دون الله، فإذا كانت المعبودات تحضر وتحصب في النار إهانة لعباديتها وتحضر لتتبع إلى النار، فلا غرو أن تكفر بعباديتها إذا أحضرت.

وما ورد من سماع الأموات لسلام من سلم عليهم لا ينافي قوله تعالى ﴿إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ﴾، وقد اختلف في سماع الأموات للسلام وردهم على من سلم عليهم على قولين، فمن قال بسماعهم استدل بالخطاب الواقع في سلام الزائر لهم بالمقبرة: السلام عليكم أهل الديار، وبما ثبت في الصحيح من أن المشيعين إذا انصرفوا سمع المشيع قرع نعالهم، وبما جاء في الحديث الذي صححه ابن عبد البر وأقره ابن القيم: بأن الإنسان إذا سلم على شخص يعرفه في الدنيا رد الله عليه روحه فرد السلام، فالجواب على هذا القول: أنه لا يلزم من السلام عليهم أن يسمعوا، ولهذا كان المسلمون يسلمون على النبي ﷺ في حياته في التشهد وهو لا يسمعهم قطعا، أما الحديث الثاني فهو وارد في وقت خاص، وهو انصراف المشيعين بعد الدفن، وأما الثالث فعلى تقدير صحته لا يلزم أن يسمعوا كل شيء، ولو فرض أنهم يسمعون غير السلام فإن الله صرح بأن المدعويين من دون الله لا يسمعون دعاء من يدعوهم، فلا يمكن أن نقول: إنهم يسمعون دعاء من يدعوهم؛ لأن هذا كفر بالقرآن.

وفي الصحيح عن أنس قال: شُجَّ النبي ﷺ يوم أحد، وكسرت رباعيته، فقال: «كيف يفلح قوم شجوا نبيهم؟» فنزلت: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾<sup>(١)</sup>.

قوله: (شُجَّ): الشجعة: الجرح في الرأس والوجه خاصة.

قوله: (وكسرت رباعيته): السنان المتوسطان يسميان ثنايا، وما يليهما يسميان رباعيتين.

(١) رواه البخاري معلقا بصيغة الجزم، كتاب المغازي، باب ليس لك من الأمر شيء (١٠٨/٣)، ومسلم موصولا، كتاب الجهاد، باب غزوة أحد (١٤١٧/٣).

قوله: (فقال: كيف يفلح قوم شجوا نبيهم؟) الاستفهام يراد به الاستبعاد.

قوله: (يفلح) من الفلاح، وهو الفوز بالمطلوب، والنجاة من المهوب.

قوله: (فنزلت: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾) قوله: (الأمر) أي: الشأن، والمراد: شأن الخلق، و(شيء):

نكرة في سياق النفي، فتعم.

فشأن الخلق إلى خالقهم، حتى النبي ﷺ ليس له من الأمر شيء، فما بالك بمن سواه من الأنبياء والأولياء،

فليس لهم من الأمر شيء، والأمر كله لله وحده.

ونستفيد من هذا الحديث أنه يجب الحذر من إطلاق اللسان إذا رأى الإنسان مبتلى بالمعاصي، فلا نستبعد

رحمة الله منه، فإن الله تعالى قد يتوب عليه. فهؤلاء الذين شجوا نبيهم لما استبعد النبي ﷺ فلاحهم، قيل له:

﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾.

وفيه عن ابن عمر رضي الله عنهما: أنه سمع رسول الله ﷺ يقول إذا رفع رأسه من الركوع في الركعة

الأخيرة من الفجر: اللهم العن فلانا وفلانا، بعدما يقول: «سمع الله لمن حمده، ربنا ولك الحمد»، فأنزل الله:

﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾<sup>(١)</sup>.

وفي رواية: يدعو على صفوان بن أمية وسهيل بن عمرو والحارث بن هشام، فنزلت: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ

الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾<sup>(٢)</sup>.

قوله: (إذا رفع رأسه من الركوع في الركعة الأخيرة من الفجر) قيّد مكان الدعاء من الصلوات بالفجر، ومكانه

من الركعات بالأخيرة، ومكانه من الركعة بما بعد الرفع من الركوع.

قوله: (يقول: اللهم العن فلانا وفلانا): اللعن: الطرد والإبعاد عن رحمة الله، أي: أبعدهم عن رحمتك،

واطردهم منها.

و(فلانا وفلانا): بينه في الرواية الثانية أنهم: صفوان بن أمية، وسهيل بن عمرو، والحارث بن هشام.

(١) رواه البخاري، كتاب المغازي، باب ليس لك من الأمر شيء (١٠٨/٣).

(٢) رواها البخاري، كتاب المغازي، باب ليس لك من الأمر شيء (١٠٨/٣)، وهي مرسلّة عن سالم بن عبد الله، وقد وصلها أحمد كما في

المسند (٩٣/٢)، والترمذي رقم (٣٠٠٤)، وابن جرير في تفسيره (٥٨/٤) من طريق عمر بن حمزة، عن سالم، عن ابن عمر. وعمر ضعيف

كما في (التقريب) (٥٣/٢).

قوله: (فأنزل الله: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ هنا قال: (فأنزل)، وفي الحديث السابق قال: أنه قال: كيف يفلح قوم شجوا نبيهم! فنزلت)، وعلى هذا يكون سبب نزول الآية دعوة النبي ﷺ على هؤلاء، وقوله: كيف يفلح قوم شجوا نبيهم؟ ولا مانع أن يكون لنزول الآية سببان.

وقد أسلم هؤلاء الثلاثة وحسن إسلامهم رضي الله عنهم، فتأمل الآن أن العداوة قد تنقلب ولاية؛ لأن القلوب بيد الله سبحانه وتعالى، ولو أن الأمر كان على ظن النبي ﷺ لبقى هؤلاء على الكفر حتى الموت، إذ لو قبلت الدعوة عليهم، وطردوا عن الرحمة، لم يبق إلا العذاب، ولكن النبي ﷺ ليس له من الأمر شيء، فالأمر كله لله.

وهل الذي نُهي عنه الرسول ﷺ الدعاء أو لعن المعينين؟

الجواب: المنهي عنه هو لعن الكفار في الدعاء على وجه التعيين، أما لعنهم عموماً فلا بأس به، ولا بأس أيضاً بدعائنا على الكافر بقولنا: اللهم! أرح المسلمين منه، واكفهم شره. ونحو ذلك. أما الدعاء بالهلاك لعموم الكفار فإنه محل نظر، ولهذا لم يدع النبي ﷺ على قريش بالهلاك، بل قال: «اللهم! عليك بهم، اللهم! اجعلها عليهم سنين كسني يوسف» وهذا دعاء عليهم بالتضييق. وأما دعاء خبيب حيث قال: (اللهم أحصهم عدداً، ولا تبق منهم أحداً) فهو دعاء على فئة محصورة من الكفار لا على جميع الكفار.

وفيه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قام رسول الله ﷺ حين أنزل عليه: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ فقال: «يا معشر قريش\_ أو كلمة نحوها\_! اشتروا أنفسكم، لا أغني عنكم من الله شيئاً. يا عباس بن عبد المطلب! لا أغني عنك من الله شيئاً. يا صفية عممة رسول الله ﷺ! لا أغني عنك من الله شيئاً. ويا فاطمة بنت محمد! سليني من مالي ما شئت، لا أغني عنك من الله شيئاً»<sup>(١)</sup>.

قوله: (وأنذر): الإنذار: الإعلام المقرون بتخويف.

قوله: (عشيرتك): العشيرة: قبيلة الرجل من الجد الرابع فما دون.

قوله: (الأقربين): أي: الأقرب فالأقرب.

وقوله: (حين أنزل عليه) يفيد أنه لم يتأخر ﷺ بل قام مسارعاً.

قوله: (أو كلمة نحوها): أي: أو قال كلمة نحوها، وهذا من احتراز الرواة أنهم إذا شكوا أدنى شك قالوا: أو

كما قال، أو كلمة نحوها، وما أشبه ذلك!

(١) رواه البخاري، كتاب التفسير، باب وأنذر عشيرتك الأقربين (٣/٢٧٢)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب وأنذر عشيرتك الأقربين (١/١٩٢).

قوله: (اشترؤا أنفسكم): أي: أنقذوها، لأن المشتري نفسه كأنه أنقذها من هلاك.

قوله: (لا أغني عنكم من الله شيئاً): هذا هو الشاهد، أي: لا أنفعكم بدفع شيء عنكم دون الله، ولا أمنعكم من شيء أرادته الله لكم، لأن الأمر بيد الله، ولهذا أمر الله نبيه بذلك، فقال: ﴿قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا﴾

قوله: (شيئاً): نكرة في سياق النفي، فتعم كل شيء.

قوله: (يا عباس بن عبد المطلب): إن قيل: كيف يقول النبي ﷺ (عبد المطلب) مع أنه لا يجوز أن يضاف عبد إلا إلى الله عز وجل؟ فالجواب: إن هذا ليس بإنشاء، بل هو خبر، ولهذا انتمى إليه الرسول ﷺ فقال:

أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب

قوله: (لا أغني عنكم من الله شيئاً) هذا كلام النبي ﷺ لأقاربه الأقربين: عمه، وعمته، وابنته فما بالك بمن هم أبعده؟! إن عدم إغنائه عنهم شيئاً من باب أولى، فهؤلاء الذين يتعلقون بالرسول ﷺ ويلوذون به ويستجيرون به قد غرهم الشيطان واجتالهم عن طريق الحق، لأنهم تعلقوا بما ليس بمتعلق، إذ الذي ينفع بالنسبة للرسول ﷺ هو الإيمان به واتباعه، أما دعاؤه والتعلق به ورجاؤه وخشيته فهذا شرك بالله، وهو مما يبعد عن الرسول ﷺ وعن النجاة من عذاب الله.

وإذا كان القرب من النبي ﷺ لا يغني عن القريب شيئاً، دل ذلك على منع التوسل بجاه النبي ﷺ، لأن جاه النبي ﷺ لا ينتفع به إلا النبي ﷺ؛ ولهذا كان أصح قولي أهل العلم تحريم التوسل بجاه النبي ﷺ. وفي الحديث امثال النبي ﷺ لأمر ربه في قوله تعالى ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ فإنه قام بهذا الأمر أتم القيام، فدعا وعم وخص، وبين أنه لا ينجي أحداً من عذاب الله بأي وسيلة، بل الذي ينجي هو الإيمان به واتباع ما جاء به.

## باب قول الله تعالى ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُزِعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾

مناسبة الترجمة:

أن هذا من البراهين الدالة على أنه لا يستحق أحد أن يكون شريكاً مع الله؛ لأن الملائكة وهم أقرب الخلق لله عزوجل يحصل منهم عند كلام الله سبحانه الفزع.

قوله تعالى ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُزِعَ عَن قُلُوبِهِمْ﴾ (عن) تفيد المجاوزة، والمعنى: جاوز الفزع قلوبهم، أي: أزيل الفزع عن قلوبهم. والفزع: الخوف المفاجئ.

وقوله: (عن قلوبهم) أي: قلوب الملائكة؛ بدليل ما سيأتي من حديث أبي هريرة.

قوله تعالى ﴿قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ﴾ المعنى: قال بعضهم لبعض.

وقوله: ﴿قَالُوا الْحَقَّ﴾ أي: قال المسؤولون. والحق: صفة لمصدر محذوف مع عامله، والتقدير قال القول الحق. والحق في الكلام هو الصدق في الأخبار والعدل في الأحكام، كما قال الله تعالى ﴿وَمَتَّ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾.

ولا يفهم من قوله: ﴿قَالُوا الْحَقَّ﴾ أنه قد يكون قوله باطلاً، بل هو بيان للواقع.

فإن قيل: ما دام بيانا للواقع وكان معلوماً عند الملائكة أنه لا يقول إلا الحق فلماذا الاستفهام؟

أجيب: أن هذا من باب الثناء على الله بما قال، وأنه سبحانه لا يقول إلا الحق.

قوله تعالى ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾، أي: العلي في ذاته وصفاته، والكبير: ذو الكبرياء، وهي العظمة التي لا يدانيها شيء، أي العظيم الذي لا أعظم منه.

مناسبة الآية للتوحيد: أنه إذا كان منفرداً في العظمة والكبرياء فيجب أن يكون منفرداً في العبادة.

وفي الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إِذَا قَضَى اللَّهُ الْأَمْرَ فِي السَّمَاءِ ضَرَبَتْ الْمَلَائِكَةُ بِأَجْنِحَتِهَا خُضْعَانًا لِقَوْلِهِ، كَأَنَّهُ سِلْسَلَةٌ عَلَى صَفْوَانٍ، يَنْفِذُهُمْ ذَلِكَ، ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُزِعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾، فَيَسْمَعُهَا مُسْتَرَقُّ السَّمْعِ، وَمُسْتَرَقُّ السَّمْعِ هَكَذَا بَعْضُهُ فَوْقَ بَعْضٍ، وَصَفَهُ سَفِيَانٌ بِكَفِّهِ، فَحَرَفَهَا وَبَدَّدَ بَيْنَ أَصَابِعِهِ، فَيَسْمَعُ الْكَلِمَةَ، فَيَلْقِيهَا إِلَىٰ مَنْ تَحْتَهُ، ثُمَّ يَلْقِيهَا

الآخر إلى من تحته، حتى يلقيها على لسان الساحر أو الكاهن، فرمما أدركه الشهاب قبل أن يلقيها، وربما ألقاها قبل أن يدركه، فيكذب معها مئة كذبة فيقال: أليس قد قال لنا يوم كذا وكذا: كذا وكذا؟ فيصدق بتلك الكلمة التي سمعت من السماء»<sup>(١)</sup>.

قوله: (قضى الله الأمر في السماء): يكون القضاء بالقول لقوله تعالى ﴿وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾.

قوله: (خضعانا): أي: خضوعا لقوله.

(كأنه) أي: صوت القول في وقعه على قلوبهم.

قوله: (صفوان): هو الحجر الأملس الصلب، ووقوع السلسلة عليه يكون لها صوت عظيم.

وليس المراد تشبيه صوت الله تعالى بهذا؛ لأن الله ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾، بل المراد تشبيهه

ما يحصل لهم من الفرع عندما يسمعون كلامه بفرع من يسمع وقع سلسلة على صفوان.

قوله: (ينفذهم ذلك): النفوذ: هو الدخول في الشيء، والمعنى: إن هذا الصوت يبلغ منهم كل مبلغ.

قوله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ﴾ أي: أزيل عنها الفرع.

قوله: (قالوا): أي: قال بعضهم لبعض.

قوله: ﴿مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقُّ﴾ أي: قالوا: قال القول الحق.

وهذا الجواب الذي يقولونه يحتمل أن يكونوا قد علموا ما قال وقالوا: إنه الحق، فيكون هذا عائدا إلى الوحي

الذي تكلم الله به، ويحتمل أنهم قالوا ذلك لعلمهم أن الله سبحانه لا يقول إلا الحق وإن لم يعلموا ما قاله.

وهذا الحديث مطابق للآية تماما، فيجب أن يكون تفسير الآية، ولا يقبل لأي قائل أن يفسرها بغيره؛ لأن

تفسير القرآن إذا كان بالقرآن أو السنة فإنه نص لا يمكن لأحد أن يتجاوزه، فلا يقبل أن يقال: إذا فرع عن

قلوب الناس يوم القيامة. بل نقول: الرسول ﷺ فسر الآية بتفسير غيبي لا مجال للاجتهاد فيه، وما كان غيبيا

وجاء به النص فالواجب علينا قبوله.

قوله: (فيسمعها مسترق السمع): أي: هذه الكلمة التي تكلمت بها الملائكة، و(مسترق): مفرد مضاف

فيعم جميع المسترقين. وكلمة (مسترق) فيها دليل على أنه يبادر فيختلسها اختلاسا في سرعة، ويؤيده قوله: ﴿إِلَّا

مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَائِبٌ﴾.

(١) رواه البخاري، كتاب التفسير، باب (إلا من استرق السمع) (٢٤٧/٣).

قوله: (ومسترق السمع هكذا بعضه فوق بعض): يحتمل أن يكون هذا من كلامه ﷺ أو من كلام أبي هريرة، أو من كلام سفيان.

قوله: (وصفه سفيان بكفه): أي: أنها واحد فوق الثاني، أي الأصابع، فالجن يترابون واحدا فوق الآخر، إلى أن يصلوا إلى السماء، فيقعدون لكل واحد مقعد خاص، قال تعالى ﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَصَدًا﴾.

قوله: (فيسمع الكلمة، فيلقها إلى من تحته): أي: يسمع أعلى المسترقين الكلمة، فيلقها إلى من تحته أي: يخبره بها.

قوله: (ثم يلقها الآخر إلى من تحته حتى يلقها): أي: يلقى الكلمة آخرهم الذي في الأرض على لسان الساحر أو الكاهن.

قوله: (فربما أدركه الشهاب) إلخ: الشهاب: جزء منفصل من النجوم، ثاقب، قوي، ينفذ فيما يصطدم به. قال العلماء في تفسير قوله تعالى ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ﴾ أي: جعلنا شهابها الذي ينطلق منها، فهذا من باب عود الضمير إلى الجزء لا إلى الكل، فالشهاب: نيازك تنطلق من النجوم، وهي كما قال أهل الفلك: تنزل إلى الأرض، وقد تحدث تصدعا فيها، أما النجم فلو وصل إلى الأرض لأحرقها. واختلف العلماء: هل المسترقون انقطعوا عن الاستراق بعد بعثة الرسول ﷺ إلى الأبد أو انقطعوا في وقته فقط؟ والثاني هو الأقرب، أنهم انقطعوا في وقت البعثة فقط، حتى لا يلتبس كلام الكهان بالوحي، ثم بعد ذلك زال السبب الذي من أجله انقطعوا.

قوله: (فيكذب معها مئة كذبة): هذا على سبيل المبالغة لا التحديد، أي أنه يكذب معها كذبات كثيرة، وقد تزيد عن ذلك وقد تنقص.

(فيقال: أليس قد قال لنا يوم كذا وكذا: كذا وكذا؟) والناس في هذه الأمور الغريبة على حسب ما أخبر به المخبر يأخذون كل ما يقوله صدقا، فإذا أخبر بشيء فوقع، ثم أخبر بشيء ثان قالوا: إذن لا بد أن يصدق.

وعن النواس بن سمعان رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا أراد الله تعالى أن يوحي بالأمر تكلم بالوحي أخذت السماوات منه رجفة (أو قال: رعدة شديدة) خوفا من الله عزوجل، فإذا سمع ذلك أهل السماوات صعقوا وخرروا لله سجدا، فيكون أول من يرفع رأسه جبريل، فيكلمه الله من وحيه بما أراد،

ثم يمر جبريل على الملائكة، كلما مر بسماء سأله ملائكتها: ماذا قال ربنا يا جبريل؟ فيقول: قال الحق، وهو العلي الكبير، فيقولون كلهم مثل ما قال جبريل، فينتهي جبريل بالوحي إلى حيث أمره الله عزوجل»<sup>(١)</sup>.

هذا الحديث لم يخرجهُ المؤلف، لكن قد ذكره ابن كثير من رواية ابن أبي حاتم، وذكر فيه علة، وهي أن في سنده الوليد بن مسلم، وهو مدلس وقد رواه عن شيخه بالنعنة فيكون في الحديث ضعف، إلا أنه قد روى مسلم وأحمد من حديث ابن عباس شاهداً له، فيه أن الله إذا تكلم بالوحي سمعه حملة العرش فسبحوا، ثم سمعه أهل كل سماء فيسبحون كما سبح أهل السماء السابعة، حتى يصل إلى السماء الدنيا، فتخطفه الجن أو الشياطين. وهذا وإن لم يكن فيه ذكر رجفة السماء أو السجود لكن يدل على أن له أصلاً.

قوله: (أخذت السماوات منه رجفة): السماوات: مفعول به، ورجفة: فاعل.

قوله: (أو قال: رعدة شديدة): شك من الراوي، وإنما تأخذ السماوات الرجفة أو الرعدة لأنه سبحانه عظيم يخافه كل شيء، حتى السماوات التي ليس فيها روح.

قوله: (فإذا سمع ذلك أهل السماوات صعقوا وخروا لله سجداً): إن قيل: كيف يمكن أن يصعقوا ويخروا سجداً؟ فالجواب: أن الصعق هنا والله أعلم يكون قبل السجود، فإذا أفاقوا سجدوا.

قوله: (فيكون أول من يرفع رأسه جبريل): أول: بالنصب على أنها خير مقدم، وجبريل بالرفع على أنها اسم يكون مؤخرًا.

قوله: (ثم يمر جبريل على الملائكة): لأنه يريد النزول من عند الله إلى حيث أمره الله أن ينتهي إليه بالوحي. قوله: (قال الحق وهو العلي الكبير): سبق في تفسير ذلك أنه يحتمل: قال الحق في هذه القضية المعينة، أو قال الحق لأن من عادته سبحانه ألا يقول إلا الحق، وأياً كان فإن جبريل لا يخبر الملائكة بما أوحى الله إليه، بل يقول: قال الحق، مبهماً، ولهذا سمي عليه السلام بالأمين، والأمين: هو الذي لا يبوح بالسر.

فإن قيل: فكيف يسمع المسترقون الكلمة وجبريل عندما يُسأل يقول: (قال الحق) فقط؟

فالجواب: أن الوحي لا يعلمه أهل السماء، بل هو من الله إلى جبريل إلى النبي ﷺ، أما الأمور القدرية التي يتكلم الله بها فليست خاصة بجبريل، بل ربما يعلمها أهل السماء مفصلة، ثم يسمعها مسترقو السمع.

قوله: (فيقولون كلهم مثل ما قال جبريل): أي: قال الحق. وهو العلي الكبير.

(١) رواه ابن أبي عاصم في السنة برقم (٥١٥)، والطبري في تفسيره (٦٣/٢٢)، وابن أبي حاتم كما في تفسير ابن كثير (٥٣٧/٣)، وابن خزيمة في التوحيد ص ١٤٤، والبيهقي في الأسماء والصفات ص ٢٠٢، والبعوي في تفسيره (٢٩٠/٥)، والحديث في إسناده نعيم بن حماد، ضعيف. انظر: تهذيب التهذيب (٤٥٨/١٠)، والوليد بن مسلم وهو مدلس وقد عنعنه. انظر: تقريب التهذيب (٣٣٦/٢).

قوله: (فإنتهى جبريل بالوحي إلى حيث أمره الله عزوجل): أي: يصل بالوحي إلى حيث أمره الله من الأنبياء والرسل.

## باب الشفاعة

ذكر المؤلف رحمه الله الشفاعة في كتاب التوحيد لأن المشركين الذين يعبدون الأصنام يقولون: إنها شفعاء لهم عند الله، وهم يشركون بالله سبحانه وتعالى فيها بالدعاء والاستغاثة، وهم بذلك يظنون أنهم معظّمون لله، ولكنهم منتقصون له؛ لأنه عليم بكل شيء، وله الحكم التام المطلق، والقدرة التامة، ومن كان كذلك فإنه لا يحتاج إلى شفعاء، والملوك في الدنيا يحتاجون إلى شفعاء إما لقصور علمهم، أو لنقص قدرتهم، أو لقصور سلطانهم فيتجرأ عليهم الشفعاء فيشفعون بلا استئذان، والله عزوجل كامل العلم والقدرة والسلطان، فلا يحتاج لأحد أن يشفع عنده، ولهذا لا تكون الشفاعة عنده سبحانه إلا بإذنه لكمال سلطانه وعظمته.

ثم الشفاعة لا يراد بها معونة الله سبحانه في شيء مما شفع فيه، ولكن يقصد بها أمران، هما: إكرام الشافع، ونفع المشفوع له.

والشفاعة لغة: اسمٌ من شفع يشفع، إذا جعل الشيء اثنين.

واصطلاحاً: التوسط للغير بجلب منفعة أو دفع مضرة.

وذكر المؤلف رحمه الله في هذا الباب عدة آيات:

وقول الله عزوجل: ﴿وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا

شَفِيعٌ﴾.

قوله تعالى ﴿وَأَنْذِرْ بِهِ﴾ الإنذار: هو الإعلام المتضمن للتخويف، والضمير في (به) يعود للقرآن كما قال تعالى ﴿كِتَابٌ أَنْزَلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾. وقوله: ﴿يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا﴾ أي: يخافون مما يقع لهم من سوء العذاب في ذلك الحشر. والحشر: الجمع، وقد ضمن هنا معنى الضم والانتهاء.

قوله: ﴿لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾ (ولي) أي: ناصر ينصرهم. ﴿وَلَا شَفِيعٌ﴾ أي: شافع يتوسط لهم، وهذا محل الشاهد، ففي هذه الآية نفي الشفاعة من دون الله، أي من دون إذنه، ومفهومها: أنها ثابتة بإذنه،

وهذا هو المقصود، الشفاعة من دونه مستحيلة، وبإذنه جائزة وممكنة، أما عند الملوك فجائزة بإذنتهم وبغير إذنتهم، فيمكن لمن كان قريبا من السلطان أن يشفع بدون أن يستأذن.

### وقوله: ﴿قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا﴾.

قوله تعالى ﴿لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ﴾ مبتدأ وخبر، وقدم الخبر للحصر، والمعنى: الشفاعة كلها لله وحده. وأفادت الآية في قوله: (جميعا) أن هناك أنواعا للشفاعة، وقد قسم أهل العلم رحمهم الله الشفاعة إلى قسمين رئيسيين، هما:

القسم الأول: الشفاعة الخاصة بالرسول ﷺ وهي أنواع:

النوع الأول: الشفاعة العظمى، وهي من المقام المحمود الذي وعده الله، فإن الناس يلحقهم يوم القيامة في ذلك الموقف العظيم من الغم والكرب ما لا يطيقونه، فيقول بعضهم لبعض: اطلبوا من يشفع لنا عند الله، فيذهبون إلى آدم ونوح وإبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام، فكلهم يعتذر من الشفاعة حتى ينتهوا إلى النبي ﷺ فيشفع إلى الله تعالى ليريح أهل الموقف.

الثاني: شفاعته في أهل الجنة أن يدخلوها، لأنهم إذا عبروا الصراط ووصلوا إليها وجدوها مغلقة، فيطلبون من يشفع لهم، فيشفع النبي ﷺ إلى الله في فتح أبواب الجنة لأهلها.

الثالث: شفاعته ﷺ في عمه أبي طالب أن يخفف عنه العذاب، وهذه مستثناة من قوله تعالى ﴿فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ﴾، وقوله تعالى ﴿يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا﴾؛ وذلك لما كان لأبي طالب من نصرة للنبي ﷺ ودفاع عنه، وهذه الشفاعة خاصة بالرسول ﷺ، لا أحد يشفع في كافر أبدا إلا النبي ﷺ، ومع ذلك لم تقبل الشفاعة كاملة، وإنما هي تخفيف فقط.

القسم الثاني: الشفاعة العامة له ﷺ ولجميع المؤمنين وهي أنواع:

النوع الأول: الشفاعة فيمن استحق النار أن لا يدخلها، وهذه قد يستدل لها بقول الرسول ﷺ «ما من مسلم يموت فيقوم على جنازته أربعون رجلا لا يشركون بالله شيئا إلا شفعم الله فيه» فإن هذه شفاعة قبل أن يدخل النار، فيشفعم الله في ذلك.

النوع الثاني: الشفاعة فيمن دخل النار أن يخرج منها، وقد تواترت بها الأحاديث وأجمعت عليها الصحابة، واتفق عليها أهل الملة ما عدا طائفتين: المعتزلة والخوارج.

النوع الثالث: الشفاعة في رفع درجات المؤمنين، وهذه تؤخذ من دعاء المؤمنين بعضهم لبعض كما قال ﷺ في أبي سلمة: «اللهم اغفر لأبي سلمة، وارفع درجته في المهديين، وافسح له في قبره، ونور له فيه، واخلفه في عقبه» والدعاء شفاعة.

فإن قيل: إن الشفاعة لا تكون إلا بإذنه سبحانه، فكيف يسمى دعاء الإنسان لأخيه شفاعة وهو لم يستأذن من ربه؟

فالجواب: إن الله أمر بأن يدعو الإنسان لأخيه الميت، وأمره بالدعاء إذن وزيادة. وأما الشفاعة الموهومة التي يظنها عباد الأصنام من معبوديهم فهي شفاعة باطلة؛ لأن الله لا يأذن لأحد بالشفاعة إلا من ارتضاه من الشفعاء والمشفوع لهم.

وقوله: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾.

قوله تعالى ﴿مَنْ ذَا الَّذِي﴾ (من): اسم استفهام بمعنى النفي، أي: لا يشفع أحد عند الله إلا بإذنه، وسبق أن النفي إذا جاء في سياق الاستفهام فإنه يكون مضمناً معنى التحدي. وأفادت الآية: أنه يشترط للشفاعة إذن الله فيها؛ لكمال سلطانه جل وعلا، فإنه كلما كمل سلطان الملك فإنه لا أحد يتكلم عنده ولو كان بخير إلا بعد إذنه.

وقوله: ﴿وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى﴾.

قوله تعالى ﴿وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ﴾ كم: خبرية للتكثير، والمعنى: ما أكثر الملائكة الذين في السماء، ومع ذلك لا تغني شفاعتهم شيئاً إلا بعد إذن الله ورضاه. فللشفاعة شرطان، هما:

١\_ الإذن من الله لقوله: ﴿أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ﴾.

٢\_ رضاه عن الشافع والمشفوع له لقوله: (ويرضى)، إلا في التخفيف عن أبي طالب، وقد سبق ذلك.

وهذه الآية في سياق بيان بطلان ألوهية اللات والعزى، قال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ﴾ إلى أن قال تعالى: ﴿وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ﴾ الآية، أي إذا كانت الملائكة وهي في السماوات في العلو لا تغني شفاعتهم إلا بعد إذنه تعالى ورضاه فكيف باللات والعزى وهي في الأرض؟!

وقوله: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ الآيتين.

قوله تعالى ﴿قُلِ ادْعُوا﴾ الأمر للتحدي والتعجيز، وقوله: (ادعوا) يحتمل معنيين، هما: أحضروهم، وادعوهم دعاء مسألة، فلو دعوهم دعاء مسألة لا يستجيبون لهم كما قال تعالى ﴿إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ﴾، وكذلك لو دعوهم دعاء حضور لم يحضروا، ولو حضروا ما انتفعوا بحضورهم. قوله: ﴿لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ واحدة الدر: وهي صغار النمل، ويضرب بها المثل في القلة، وكذلك ما دون الذرة لا يملكونه، والمقصود بذكر الذرة المبالغة، وإذا قصد المبالغة بالشيء قلة أو كثرة فلا مفهوم له، ولا يرد على هذا أن الله أثبت ملكا للإنسان؛ لأن ملك الإنسان قاصر ومتجدد وزائل.

قوله: ﴿وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكَ﴾ أي: ما لهؤلاء الذين تدعون من دون الله في السماوات والأرض من مشاركة، أي لا يملكونه انفرادا ولا مشاركة.

قوله: ﴿وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ﴾ الضمير في: ﴿وَمَا لَهُ﴾ يعود إلى الله تعالى، وفي (منهم) يعود إلى الأصنام أي: ما لله تعالى من هذه الأصنام ظهير، والظهير: المعين.

وبذلك ينتفي عن هذه الأصنام كل ما يتعلق به العابدون، فهي لا تملك شيئا على سبيل الانفراد، ولا المشاركة، ولا الإعانة، لأن من يعينك وإن كان غير شريك لك يكون له منة عليك فرما تحاييه في إعطائه ما يريد. فإذا انتفت هذه الأمور الثلاثة لم يبق إلا الشفاعة، وقد أبطلها الله بقوله: ﴿وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾، فلا تنفع عند الله الشفاعة لهؤلاء لأن هذه الأصنام لا يأذن الله لها، فانقطعت كل الوسائل والأسباب للمشركين، وهذا من أكبر الآيات الدالة على بطلان عبادة الأصنام؛ لأنها لا تنفع عابديها.

وهذه الآيات تدل على أنه يجب على الإنسان قطع جميع تعلقاته إلا بالله عبادة وخوفا ورجاء واستعانة ومحبة وتعظيما حتى يكون عبدا لله حقيقة، ويكون هواه وإرادته وحبه وبغضه وولائه ومعاداته لله وفي الله.

قال أبو العباس: نفى الله عما سواه كل ما يتعلق به المشركون، فنفى أن يكون لغيره ملك أو قسط منه، أو يكون عوناً لله، ولم يبق إلا الشفاعة، فبين أنها لا تنفع إلا لمن أذن له الرب كما قال: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى﴾، فهذه الشفاعة التي يظنها المشركون هي منتفية يوم القيامة كما نفاها القرآن، وأخبر النبي ﷺ أنه يأتي فيسجد لربه ويمجده، لا يبدأ بالشفاعة أولاً، ثم يقال له: ارفع رأسك، وقل يسمع، وسل تعط، واشفع تشفع. وقال أبو هريرة له ﷺ: من أسعد الناس بشفاعتك؟ قال: «من قال: لا إله إلا الله خالصاً من قلبه»، فتلك الشفاعة لأهل الإخلاص بإذن الله، ولا تكون لمن أشرك بالله، وحقيقته أن الله سبحانه هو الذي يتفضل على أهل الإخلاص فيغفر لهم بواسطة دعاء من أذن له أن يشفع ليكرمه وينال المقام المحمود. فالشفاعة التي نفاها القرآن ما كان فيها شرك، ولهذا أثبت الشفاعة بإذنه في مواضع، وقد بين النبي ﷺ أنها لا تكون إلا لأهل الإخلاص والتوحيد» انتهى كلامه.

قوله: (قال أبو العباس): هو شيخ الإسلام تقي الدين أحمد بن عبد الحلیم بن عبد السلام بن تيمية رحمه الله.

قوله: (وأخبر النبي ﷺ أنه يأتي فيسجد لربه... لا يبدأ بالشفاعة أولاً): فإذا كان الرسول ﷺ وهو أعظم الناس جاهاً عند الله لا يشفع إلا بعد أن يأذن الله له فكيف بهذه الأصنام هل يمكن أن تشفع لأصحابها؟ واعلم أن شرك المشركين في السابق كان في عبادة الأصنام، أما الآن فهو في طاعة المخلوق في المعصية، فإن هؤلاء يقدسون زعماءهم أكثر من تقديس الله إن أقروا به، فيقال لهم: إنهم بشر مثلكم، خرجوا من مخرج البول والحيض، وليس لهم شرك في السماوات ولا في الأرض، ولا يملكون الشفاعة لكم عند الله، فكيف تتعلقون بهم؟! حتى إن الواحد منهم يركع لرئيسه أو يسجد له كما يسجد لرب العالمين! والواجب علينا نحو ولاية الأمور طاعتهم، وطاعتهم من طاعة الله، وليست استقلالاً، أما عبادتهم كعبادة الله فهذه جاهلية وكفر. وجه إدخال باب الشفاعة في كتاب التوحيد: أن الشفاعة الشركية تنافي التوحيد، والبراءة منها هو حقيقة التوحيد.

## باب قول الله تعالى ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾

مناسبة هذا الباب لما قبله:

أنه نوع من الباب الذي قبله، فإذا كان لا أحد يستطيع أن ينفع أحدا بالشفاعة والخلص من العذاب، كذلك لا يستطيع أحد أن يهدي أحدا فيقوم بما أمر الله به. والخطاب في الآية للنبي ﷺ، وكان يجب هداية عمه أبي طالب، فأنت يا محمد، يا من له المنزلة الرفيعة عند الله لا تستطيع أن تهدي من أحببت هدايته، لأن الأمر كله بيد الله. والهداية التي نفاها الله عن رسوله ﷺ هداية التوفيق، والتي أثبتها له هداية الدلالة والإرشاد كما في قوله تعالى ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾.

وفي الصحيح عن ابن المسيب عن أبيه قال: لما حضرت أبا طالب الوفاة جاءه رسول الله ﷺ وعنده عبد الله بن أبي أمية وأبو جهل، فقال له: «يا عم! قل لا إله إلا الله، كلمة أحاج لك بها عند الله». فقالا له: أترغب عن ملة عبد المطلب؟ فأعاد عليه النبي ﷺ فأعادا، فكان آخر ما قال: هو على ملة عبد المطلب، وأبي أن يقول: لا إله إلا الله. فقال النبي ﷺ: «لأستغفرن لك ما لم أنه عنك». فأنزل الله عز وجل: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ﴾، وأنزل الله في أبي طالب: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾<sup>(١)</sup>.

قوله (لما حضرت أبا طالب الوفاة) يشكل مع قوله تعالى ﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ﴾، فظاهر الحديث قبول توبته، والجواب عن ذلك من أحد وجهين: الأول: أن يقال لما حضرت أبا طالب الوفاة، أي ظهر عليه علامات الموت ولم ينزل به.

(١) رواه البخاري، كتاب التفسير، باب إنك لا تهدي من أحببت (٢٧٣/٣)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب الدليل على صحة إسلام من حضره الموت (٥٤/١).

والثاني: أن هذا خاص بأبي طالب مع النبي ﷺ، وهذا أوضح؛ لأنه قال: (كلمة أحاج لك بها عند الله)، ولم يجزم بنفعها له، ولم يقل: كلمة تخرجك من النار، ولأنه سبحانه أذن للنبي ﷺ بالشفاعة لعمه مع كفره، وهذا لا يستقيم إلا له.

قوله: (فقال: يا عم! قل لا إله إلا الله): أتى ﷺ بهذه الكنية الدالة على العطف لأن العم صنو الأب. قوله: (يا عم) فيها وجهان: يا عمّ بكسر الميم على تقدير أنها مضافة إلى الياء، ويا عمّ بضم الميم: على تقدير قطعها عن الإضافة.

قوله: (قل لا إله إلا الله)، قال أهل العلم: يسن تلقين المحتضر لا إله إلا الله، لكن بدون قول (قل) لأنه ربما مع الضجر يقول: لا! لضيق صدره مع نزول الموت، أو يكره هذه الكلمة أو معناها، وفي هذا الحديث قال ﷺ: (قل)؟

والجواب: أن أبا طالب كان كافراً، فإذا قيل له: (قل) وأبي فهو باق على كفره، لم يضره التلقين بهذا، بخلاف المسلم فهو على خطر لأنه ربما يضره التلقين على هذا الوجه. قوله: (كلمة): منصوبة لأنها بدل لا إله إلا الله، ويجوز إذا لم تكن الرواية بالنصب أن تكون بالرفع، أي: هي كلمة، ولكن النصب أوضح.

قوله: (أحاج): بضم الجيم وفتحها: فعلى ضم الجيم فهي صفة لكلمة، وإذا كانت بالفتح فهي مجزومة جواباً للأمر: (قل) أي: قل أحاج.

قوله ﷺ (أستغفرن لك ما لم أنه عنك) كأنه ﷺ في نفسه شيء من القلق، حيث قال: (ما لم أنه عنك) فوقع الأمر كما توقع ونهي عنه.

قوله: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ أي يهدي هداية التوفيق من يشاء، واعلم أن كل فعل يضاف إلى مشيئة الله تعالى فهو مقرون بالحكمة، أي: من اقتضت حكمته أن يهديه هداة، ومن اقتضت حكمته أن يضلّه أضله.

وقوله تعالى ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ﴾ في سورة التوبة، وهي متأخرة مدنية، وقصة أبي طالب مكية، وهذا يدل على تأخر النهي عن الاستغفار للمشركين، ولهذا استأذن النبي ﷺ للاستغفار لأمه وهو ذاهب للعمرة، ولا يمكن أن يستأذن بعد نزول النهي؛ فدل على تأخر الآية، وأن المراد أن قصة أبي طالب داخله في عموم معنى الآية، لا أن الآية نزلت في ذلك الوقت.

وهذا الحديث يقطع وسائل الشرك بالرسول ﷺ وغيره، فالذين يلجؤون إليه ﷺ ويستنجدون به مشركون، فلا ينفعهم ذلك؛ لأنه لم يؤذن له أن يستغفر لعمه، مع أنه قد قام معه قياما عظيما، ناصره وآزره في دعوته فكيف بغيره ممن يشركون بالله؟!!

## باب ما جاء أن سبب كفر بني آدم وتركهم دينهم هو الغلو في الصالحين وقول الله عزوجل: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ﴾.

قوله: (وقول الله عزوجل): يعني: وباب قول الله عزوجل

قوله: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ﴾ هم اليهود والنصارى، والكتاب: التوراة لليهود، والإنجيل للنصارى.

قوله: ﴿لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ﴾: أي: لا تتجاوزوا الحد مدحا أو قدحا، والأمر واقع كذلك بالنسبة لأهل الكتاب عموما فإنهم غلوا في عيسى بن مريم عليه السلام مدحا وقدحا، حيث قال النصارى، إنه ابن الله، وجعلوه ثالث ثلاثة، واليهود غلوا فيه قدحا، وقالوا: إن أمه زانية، وإنه ولد زنا، قاتلهم الله، فكل من الطرفين غلا في دينه وتجاوز الحد بين إفراط أو تفريط.

قوله: ﴿وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ﴾ وهو ما قاله سبحانه وتعالى عن نفسه بأنه: إله واحد، أحد، صمد، لم يتخذ صاحبة ولا ولدا.

قوله: ﴿إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ﴾ هذه صيغة حصر، فيكون المعنى: ما المسيح عيسى ابن مريم إلا رسول الله، وأضافه إلى أمه ليقطع قول النصارى الذين يضيفونه إلى الله، وفي قوله: (رسول الله) إبطال لقول اليهود: إنه كذاب، ولقول النصارى: إنه إله، وفي قوله: (وكلمته) إبطال لقول اليهود: إنه ابن زنا. وكلمته التي ﴿أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ﴾ أن قال له كن فكان.

قوله: (وروح منه): أي: إنه عزوجل جعل عيسى عليه الصلاة والسلام كغيره من بني آدم من جسد وروح، وأضاف روحه إليه تشريفا وتكريما كما في قوله تعالى في آدم ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي﴾ فهذا للتشريف والتكريم. قوله: ﴿فَأَمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ الخطاب لأهل الكتاب، ومن رسله محمد ﷺ الذي هو آخرهم وخاتمهم وأفضلهم.

قوله: ﴿وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةً﴾ أي: إن الله ثالث ثلاثة.

قوله: ﴿انْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ أي: تنزيها له أن يكون له ولد؛ لأنه مالك لما في السماوات وما في الأرض، ومن جملتهم عيسى بن مريم عليه الصلاة والسلام، فهو من جملة المملوكين المربوبين فكيف يكون إلهها مع الله أو ولدا لله؟ ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾. ولم يشر المؤلف رحمه الله تعالى إلى إكمال الآية، ونرجو أن يكون في إكمالها لها فائدة.

والشاهد من هذه الآية:

قوله ﴿لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ﴾، فنهى عن الغلو في الدين لأنه يتضمن مفسد كثيرة، منها:

١\_ أنه تنزيل للمغلو فيه فوق منزلته إن كان مدحا، وتحتها إن كان قدحا.

٢\_ أنه يؤدي إلى عبادة هذا المغلو فيه كما هو الواقع من أهل الغلو.

٣\_ أنه يصد عن تعظيم الله سبحانه وتعالى؛ لأن النفس إما أن تنشغل بالباطل أو بالحق، فإذا انشغلت

بالغلو بهذا المخلوق وإطرائه وتعظيمه تعلقته به ونسيته ما يجب لله تعالى من حقوق.

٤\_ أن المغلو فيه إن كان موجودا فإنه يزهو بنفسه ويتعاضم ويعجب بها، وهذه مفسدة تفسد المغلو فيه إن

كانت مدحا، وتوجب العداوة والبغضاء وقيام الحروب والبلاء بين هذا وهذا إن كانت قدحا.

وهل يدخل في هذا الغلو في العبادات؟

الجواب: نعم، يدخل الغلو في العبادات، مثل أن يرهق الإنسان نفسه بالعبادة ويتعبها، فإن النبي ﷺ نهى

عن ذلك، ومثل أن يزيد عن المشروع، كأن يرمي بجمرات كبيرة، أو يأتي بأذكار زائدة عن المشروع أدبار الصلوات

تكميلا للوارد أو غير هذا، فالنهى عن الغلو في الدين يعم الغلو من كل وجه.

وفي الصحيح عن ابن عباس رضي الله عنهما في قول الله تعالى ﴿وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾، قال: هذه أسماء رجال صالحين من قوم نوح، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم: أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون فيها أنصابا، وسموها بأسمائهم، ففعلوا ولم تعبد، حتى إذا هلك أولئك، ونسي العلم عبدت<sup>(١)</sup>.

قوله: (وقالوا): أي: قال بعضهم لبعض.

قوله: (لا تذرنا): أي: لا تدعن وتتركن.

قوله: (آلهتكم): هل المراد: لا تذرنا عبادتها، أو تمكنوا أحدا من إهانتها؟ الجواب: المعنيان كلاهما، وهذا من

التواصي بالباطل.

قوله: (ولا سواعا): لا: زائدة للتوكيد، وفائدتها أنهم جعلوا مدخولها كالمستقل، بخلاف يعوق ونسر فهما

دون مرتبة من سبقهما.

(١) رواه البخاري، كتاب التفسير، باب ودا ولا سواعا ولا يغوث (٣/٣١٦).

وقوله تعالى ﴿وَدَاَّ وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَٰعُوثَ وَيَٰعُوقَ وَنَسْرًا﴾ هذه الخمسة كأن لها مزية على غيرها؛ لأن قوله: (أهتكم) عام يشمل كل ما يعبدون، فهذه المذكورة كأنها كبار آهتكم فخصوها بالذكر. وقول ابن عباس رضي الله عنهما في هذه الآية: (هذه أسماء رجال صالحين من قوم نوح)، المعنى: أنها كانت قبل نوح.

قوله: (أوحى الشيطان): أي: وحي وسوسة، وليس وحي إلهام. قوله: (أن انصبوا إلى مجالسهم): الأنصاب: جمع نُصْب، وهو كل ما ينصب من عصا أو حجر أو غيره. قوله: (وسمؤهم بأسمائهم): أي: ضعوا أنصابا في مجالسهم، وقولوا: هذا ود، وهذا سواع، وهذا يعوث... لأجل إذا رأيتموهم تتذكروا عبادتهم فتتنشطوا لها، هكذا زين لهم الشيطان، وهذا غرور ووسوسة من الشيطان كما قال لآدم: ﴿هَلْ أَذُكُّ عَلَى شَجَرَةِ الْحُدِّ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى﴾. قوله: (ففعّلوا ولم تعبد، حتى إذا هلك أولئك ونسي العلم عبدت من دون الله): ذكر ابن عباس رضي الله عنهما أنه كان بين آدم ونوح عشرة قرون، والقرن مئة سنة، حتى إذا طال عليهم الأمد حصل النزاع والتفرق، فبعث الله النبيين كما قال تعالى ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ الآية. هذا هو تفسير ابن عباس رضي الله عنهما للآية، وهل تفسيره حجة؟

الجواب: يرجع في التفسير أولا إلى القرآن فالقرآن يفسر بعضه بعضا، مثل قوله تعالى ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَ﴾ تفسيرها: ﴿نَارٌ حَامِيَةٌ﴾، فإن لم نجد في القرآن في سنة الرسول ﷺ، فإن لم نجد في تفسير الصحابة، وتفسير الصحابي حجة بلا شك؛ لأنهم أدرى بالقرآن حيث نزل بعصرهم وبلغتهم، ويعرفون عنه أكثر من غيرهم، حتى قال بعض العلماء: إن تفسير الصحابي في حكم المرفوع، وهذا ليس بصحيح، لكنه لا شك أنه حجة على من بعدهم، فإن اختلف الصحابة في التفسير أخذنا بما يرجحه سياق الآية، والآية تدل على ما ذكره ابن عباس.

قال ابن القيم: قال غير واحد من السلف: لما ماتوا عكفوا على قبورهم، ثم صوروا تماثيلهم، ثم طال عليهم الأمد فعبدوهم.

قوله: (الأمد): الزمن، وهذا كتفسير ابن عباس إلا أن ابن عباس يقول: (إنهم جعلوا الأنصاب في مجالسهم)، وهنا يقول: (عكفوا على قبورهم)، ولا يبعد أنهم فعلوا هذا وهذا، أو أنهم قبروا في مجالسهم فتكون هي محل القبور، والشاهد قوله: (ثم طال عليهم الأمد فعبدوهم) فسبب العبادة إذا الغلو في هؤلاء الصالحين حتى عبدهم.

وعن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم، إنما أنا عبد، فقولوا: عبد الله ورسوله»<sup>(١)</sup>.

قوله: (لا تطروني): الإطراء: المبالغة في المدح.  
قوله: (كما أطرت النصارى ابن مريم)، هذا النهي يحتمل أنه منصب على هذا التشبيه، أي لا تطروني بأن تصفوني بأني إله، أو ابن الله، وبهذا المعنى يوحى قول البوصيري:  
دع ما ادعته النصارى في نبيهم واحكم بما شئت مدحا فيه واحتكم  
أي: دع ما قاله النصارى أن عيسى عليه الصلاة والسلام ابن الله أو ثالث ثلاثة، وقل ما شئت فيه من المدح مما سوى ذلك، ولو كان غلوا لا يرضاه النبي ﷺ.  
ويحتمل أن النهي عام، فيشمل غلو النصارى في عيسى ابن مريم وما دونه من الغلو، ويكون قوله: (كما أطرت) لمطلق التشبيه لا للتشبيه المطلق، والدليل على أن المراد هذا قوله: (إنما أنا عبد فقولوا عبد الله ورسوله).  
قوله: (إنما أنا عبد): أي: ليس لي حق من الربوبية، ولا مما يختص به الله عزوجل.  
قوله: (فقولوا عبد الله ورسوله): هذان الوصفان أصدق وصف وأشرفه في الرسول ﷺ فأشرف وصف للإنسان أن يكون من عباد الله، قال تعالى ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا﴾، وقال تعالى ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ﴾، فوصفهم الله بالعبودية قبل الرسالة مع أن الرسالة شرف عظيم، لكن كونهم عبادا لله عزوجل أشرف وأعظم.

وقال: قال رسول الله ﷺ: «إياكم والغلو؛ فإنما أهلك من كان قبلكم الغلو»<sup>(٢)</sup>.

قوله: (إياكم): للتحذير.

(١) أخرجه البخاري، (٣٤٤٥، ٦٨٣٠)، ولم أجده في مسلم.

(٢) من حديث ابن عباس، رواه أحمد في المسند (٢١٥/١، ٣٤٧)، والنسائي في الصغرى، كتاب مناسك الحج، باب التقاط الحصى (٢٦٨/٥)، وابن ماجه، كتاب المناسك، باب قدر الحصى (١٠٠٨/٢)، وابن أبي عاصم في السنة برقم (٩٨)، وابن حبان برقم (١١٠)، والطبراني في الكبير برقم (٢٧٤٧)، والحاكم (٤٦٦/٤)، والبيهقي في السنن الكبرى (١٢٧/٥)، وقال النووي في المجموع (١٣٧/٨): إسناده صحيح على شرط مسلم، وكذا قال شيخ الإسلام في اقتضاء الصراط المستقيم ص ١٠٦.

قوله: (والغلو): معطوف على إياكم، وأقرب ما قيل في إعراب هذا الأسلوب: أن "إيا" منصوبة بفعل أمر مقدر تقديره إياك أُحذِر، أي: احذر نفسك أن تغرك، والغلو معطوف على إياك، أي: واحذر الغلو. والغلو كما سبق: هو مجاوزة الحد، مدحا أو ذما، وقد يشمل ما هو أكثر من ذلك أيضا فيقال: مجاوزة الحد في الثناء وفي التعبد وفي العمل؛ لأن هذا الحديث ورد في رمي الجمرات، حيث روى ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ غداة العقبة وهو على ناقته: «القط لي حصي»، فلقطت له سبع حصيات هن حصي الخذف، فجعل ينفضهن في كفه، ويقول: «أمثال هؤلاء فارموا، وإياكم والغلو في الدين؛ فإنما أهلك من كان قبلكم الغلو في الدين» هذا لفظ ابن ماجه.

قوله: (إنما): أداة حصر، والحصر: إثبات الحكم للمذكور ونفيه عما عداه.

قوله: (أهلك): يحتمل معنيين:

الأول: أن المراد هلاك الدين.

الثاني: أنه هلاك الأجسام، فيكون الغلو هلاكا للدين، فإذا هلك الدين أهلكهم الله تعالى هلاك الأجسام. والحصر في قوله: (فإنما أهلك من كان قبلكم الغلو) حصر إضافي لا حقيقي، فلو قيل: إنه حقيقي حصل إشكال، وهو أن هناك أحاديث أضاف النبي ﷺ الهلاك فيها إلى أعمال غير الغلو، مثل قوله ﷺ «إنما أهلك من كان قبلكم أنهم إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد»، لكنه حصر إضافي أي: باعتبار عمل معين، وبهذا يزول التناقض عن الأحاديث، فيقال: «أهلك من كان قبلكم الغلو» هذا الحصر باعتبار الغلو في التعبد، وفي الحديث الآخر يقال: أهلك من كان قبلكم باعتبار الحكم، فيهلك الناس إذا أقاموا الحد على الضعيف دون الشريف.

والناس في العبادة طرفان ووسط، فمنهم المُفْرِط، ومنهم المُفَرِّط، ومنهم المتوسط، فدين الله بين الغالي فيه والجافي عنه، وهذا هو الواجب، فلا يجوز التشدد في الدين والمبالغة، ولا التهاون وعدم المبالاة. والغلو له أقسام كثيرة، منها الغلو في العقيدة، ومنها الغلو في العبادة، ومنها الغلو في المعاملة، ومنها الغلو في العادات.

ومسلم عن ابن مسعود أن رسول الله ﷺ قال: «هلك المنتطعون» قالها ثلاثا<sup>(١)</sup>.

(١) رواه مسلم في صحيحه، كتاب العلم، باب هلك المنتطعون (٤/٢٠٥٥).

قوله: (المتنطعون): المتنطع: هو المتعمق المتقعر المتشدد، سواء كان في الكلام أو في الأفعال، فهو هالك، وكثيرا ما يقتن بالتنطع الإعجاب بالنفس، وهو هلاك.

والتنطع أيضا في المسائل الدينية يشبه الغلو فيها، فهو أيضا من أسباب الهلاك، ومن ذلك ما يفعله بعض الناس من التنطع في صفات الله تعالى والتقعر فيها، حيث يسألون عما لم يسأل عنه الصحابة رضي الله عنهم، وهم يعلمون أن الصحابة خير منهم وأشد حرصا على العلم، وفيهم رسول الله ﷺ الذي عنده من الإجابة على الأسئلة ما ليس عند غيره من الناس مهما بلغ علمهم.

فهذه الأحاديث الثلاثة كلها تدل على تحريم الغلو، وأنه سبب للهلاك، وأن الواجب أن يسير العبد إلى الله بين طرفي نقيض بالدين الوسط، فكما أن هذه الأمة هي الوسط ودينها هو الوسط، فينبغي أن يكون سيرها في دينها على الطريق الوسط.

خلاصة الباب:

بيان أن الغلو في الصالحين من أسباب الكفر، وأن خطر الغلو عظيم، فالواجب تنزيل الصالحين منازلهم، ولكن لا نتجاوز بهم المنزلة فنغلو فيهم، وهذا هو العدل.

## باب ما جاء في التغليظ فيمن عبد الله عند قبر رجل صالح فكيف إذا عبده؟!

قوله: (التغليظ): التشديد.

قوله: (من عبد الله عند قبر رجل صالح): أي: عمل عملا تعبد لله به، من قراءة أو صلاة أو صدقة أو غير ذلك.

قوله: (فكيف إذا عبده؟): أي: يكون أشد وأعظم.

في الصحيح عن عائشة أن أم سلمة ذكرت لرسول الله ﷺ كنيسة رأته بأرض الحبشة، وما فيها من الصور، فقال: «أولئك إذا مات فيهم الرجل الصالح أو العبد الصالح بنوا على قبره مسجدا، وصوروا فيه تلك الصور، أولئك شرار الخلق عند الله»<sup>(١)</sup>.  
فهؤلاء جمعوا بين الفتنين: فتنة القبور، وفتنة التماثيل.

قولها: (من الصور) الظاهر أن هذه الصور صور مجسمة وتماثيل منصوبة.

قوله: (أولئك): المشار إليهم نصارى الحبشة، ويحتمل أن يراد من فعلوا هذه الأفعال أي كانوا.

وقوله: (أولئك) يجوز في الكاف الكسر والفتح، وقد ذكر العلماء أن في كاف الخطاب المتصل باسم الإشارة ثلاثة أوجه:

الوجه الأول: أن يكون مطابقا للمخاطب: المفرد للمفرد والمثنى للمثنى والجمع للجمع، مذكرا كان أم مؤنثا.  
الوجه الثاني: الفتح مطلقا.

الوجه الثالث: الكسر للمؤنث مطلقا، والفتح للمذكر مطلقا. وأشهرها الوجه الأول.

قوله: (الرجل الصالح أو العبد الصالح): أو: شك من الراوي.

قوله: (صوروا فيه تلك الصور): أي: التي رأت، والأقرب أنها صورة ذلك الرجل الصالح، وربما أنهم يضيفون إلى صورته صورة بعض الصالحين، وربما تكون الصور على أحجام مختلفة، فتجتمع منها صور كثيرة.

(١) رواه البخاري، كتاب الصلاة، باب هل تنبش قبور مشركي الجاهلية (١/١٥٥)، ومسلم، كتاب المساجد، باب النهي عن بناء المساجد على القبور (١/٣٧٥).

قوله: (أولئك شرار الخلق عند الله): لأن عملهم هذا وسيلة إلى الكفر والشرك، وهذا أعظم الظلم وأشدّه، فما كان وسيلة إليه فإن صاحبه جدير بأن يكون من شرار الخلق عند الله سبحانه وتعالى.  
قوله: (فهؤلاء جمعوا بين الفتنين: فتنة القبور، وفتنة التماثيل): هذا من كلام شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله.

قوله: (فتنة القبور) لأنهم بنوا المساجد عليها.  
قوله: (فتنة التماثيل) لأنهم صوروا، وإنما سمي ذلك فتنة لأنها سبب لصد الناس عن دينهم، وكل ما كان كذلك، فإنه فتنة.

ولهما عنها قالت: لما نزل برسول الله ﷺ طفق يطرح خميصة له على وجهه، فإذا اغتم بها كشفها، فقال وهو كذلك: «لعنة الله على اليهود والنصارى، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد»، يحذر ما صنعوا، ولولا ذلك أبرز قبره، غير أنه خشي أن يتخذ مسجداً. أخرجاه<sup>(١)</sup>.

قوله: (ولهما عنها): الضمير يعود على البخاري ومسلم، وإن لم يسبق لهما ذكر، لكنه لما كان ذلك مصطلحاً معروفاً صح أن يعود الضمير عليهما وإن لم يذكر.  
وقوله: (عنها) أي: عن عائشة.  
قالت: (لما نُزِل برسول الله): أي: نزل به ملك الموت لقبض روحه.  
قوله: (خميصة): هي كساء مربع له أعلام.  
قوله: (فإذا اغتم بها): أي: أصابه الغم بسببها.  
قوله: (وهو كذلك): أي: وهو في حال الاحتضار.  
قوله: (لعنة الله على اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد): يقول هذا في سياق الموت، و (لعنة الله) أي: طرده وإبعاده، وهذه الجملة يحتمل أنه يراد بها الخبر بأن الله لعنهم، ويحتمل أن يراد بها الدعاء عليهم باللعن.

قوله: (اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد): الجملة تعليل لقوله: (لعنة الله على اليهود والنصارى)، أي: لعنهم الله؛ لأنهم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد، أي: أمكنة للسجود، سواء بنوا مساجد أم لا.

(١) رواه البخاري، كتاب الجنائز، باب ما يكره من اتخاذ المساجد على القبور (٤٠٨/١)، ومسلم، كتاب المساجد، باب النهي عن بناء المساجد على القبور (٣٧٦/١).

قوله: (يجذر ما صنعوا): أي: إنه ﷺ قال ذلك في سياق الموت تحذيرا لأمته مما صنع هؤلاء لأنه علم أنه سيموت وأنه ربما يحصل هذا ولو في المستقبل البعيد.

قوله: (ولولا ذلك أبرز قبره): أي لولا التحذير وخوف أن يتخذ قبره مسجدا لأخرج ودفن في البقيع مثلا، لكنه في بيته أصون له وأبعد عن اتخاذه مسجدا، وهذا أحد الأسباب التي أوجبت أن لا يبرز مكان قبره ﷺ، ومن أسباب ذلك: إخباره ﷺ أنه ما قبض نبي إلا دفن حيث قبض، ولا مانع أن يكون للحكم الواحد سببان أو أكثر.

قوله: (غير أنه خشي أن يتخذ مسجدا): خشي فيها روايتان: حُشي، وحُشي، فعلى رواية حُشي يكون الذي وقعت منهم الخشية الصحابة رضي الله عنهم، وعلى رواية حُشي يكون الذي وقعت منه الخشية النبي ﷺ، والحقيقة أن الأمر كله حاصل، فالرسول ﷺ أخبر بأنه ما قبض نبي إلا دفن حيث قبض، ولعن اليهود والنصارى لأنهم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد خوفا من اتخاذه قبره مسجدا، والصحابة رضي الله عنهم اتفقوا على أن يدفن ﷺ في بيته بعد تشاورهم لأنهم خشوا ذلك، ويجوز أن يكون بعضهم أشار بأن يدفن في بيته، وليس في ذهنه إلا هذه الخشية، وبعضهم أشار أن يدفن في بيته وعنده علم بأنه ﷺ قال: «ما قبض نبي إلا دفن حيث قبض»، وخوفا من اتخاذه مسجدا.

في هذا الحديث والحديث السابق: التحذير من اتخاذه قبور الأنبياء مساجد.

فإن قيل: إن قبر النبي ﷺ الآن في المسجد؟!

فالجواب من أوجه:

الوجه الأول: أن المسجد لم يبن على القبر، بل بني المسجد في حياة النبي ﷺ.

الوجه الثاني: أن النبي ﷺ لم يدفن في المسجد ليقال: إن هذا من دفن الصالحين في المسجد، بل دفن في بيته.

الوجه الثالث: أن إدخال بيوت الرسول ﷺ ومنها بيت عائشة مع المسجد ليس باتفاق من الصحابة، بل بعد أن انقرض أكثرهم، وذلك عام ٩٤ هـ تقريبا، فليس مما أجازه الصحابة أو أجمعوا عليه.

الوجه الرابع: أن القبر ليس في المسجد حتى بعد إدخاله؛ لأنه في حجرة مستقلة عن المسجد، فليس المسجد مبنيا عليه، ولهذا جعل هذا المكان محفوظا ومحوطا بثلاثة جدران، وجعل الجدار في زاوية منحرفة عن القبلة، أي مثلث، والركن في الزاوية الشمالية، بحيث لا يستقبله الإنسان إذا صلى لأنه منحرف.

ولمسلم عن جندب بن عبد الله قال: سمعت النبي ﷺ قبل أن يموت بخمس وهو يقول: «إني أبرأ إلى الله أن يكون لي منكم خليل؛ فإن الله قد اتخذني خليلا كما اتخذ إبراهيم خليلا، ولو كنت متخذا من أمتي خليلا لاتخذت أبا بكر خليلا، ألا وإن من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم مساجد، ألا فلا تتخذوا القبور مساجد فإني أنهاكم عن ذلك»<sup>(١)</sup>.

قوله: (بخمس): أي: خمس ليال.

قوله: (أبرأ): البراءة: هي التخلي، أي: أتخلي أن يكون لي منكم خليل.

قوله: (خليل): هو الذي يبلغ في الحب غايته؛ لأن حبه يكون قد تخلل الجسم كله، قال الشاعر يخاطب محبوبته:

قد تخللت مسلك الروح مني      وبذا سمي الخليل خليلا

والخلة أعظم أنواع المحبة وأعلاها، ولم يثبتها الله عزوجل فيما نعلم إلا لاثنتين من خلقه، وهما: إبراهيم في قوله تعالى ﴿اتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾، ومحمد لقوله ﷺ (إن الله اتخذني خليلا كما اتخذ إبراهيم خليلا)، وبهذا تعرف الجهل العظيم الذي يقوله العامة: إن إبراهيم خليل الله، ومحمدا حبيب الله، وهذا تنقص في حق الرسول ﷺ؛ لأنهم بهذه المقالة لم يفرقوا بينه وبين غيره ممن يحبهم الله من المؤمنين، فإن الله يحب المحسنين والصابرين وغيرهم ممن علق الله بفعالهم المحبة.

قوله: (فإن الله قد اتخذني خليلا كما اتخذ إبراهيم خليلا): هذا تعليل لقوله: (إني أبرأ إلى الله أن يكون لي منكم خليل، فالنبي ﷺ ليس في قلبه خلة لأحد إلا لله عزوجل.

قوله: (ولو كنت متخذا من أمتي خليلا لاتخذت أبا بكر خليلا): هذا نص صريح على أن أبا بكر أفضل من علي رضي الله عنهما، وفي هذا رد على الرافضة الذين يزعمون أن عليا أفضل من أبي بكر.

قوله: (ألا وإن من كان قبلكم): (ألا) للتنبيه، وهذه الجملة في أثناء الحديث لكنه ابتدأها بالتنبيه لأهمية المقام.

قوله: (ألا فلا تتخذوا): هذا تنبيه آخر للنهي عن اتخاذ القبور مساجد، وهذا عام يشمل قبره وقبر غيره.

قوله: (فإني أنهاكم عن ذلك): هذا نهي باللفظ دون الأداة تأكيدا لهذا النهي لأهمية المقام.

(١) رواه مسلم، كتاب المساجد، باب النهي عن بناء المساجد على القبور (١/٣٧٧).

فأفاد الحديث التحذير من اتخاذ القبور مساجد في قوله: (ألا فلا تتخذوا القبور مساجد)، وقوله: (فإني أنهاكم عن ذلك)، وأن من دفن شخصا في مسجد وجب عليه نبشه وإخراجه من المسجد، وأن من بنى مسجدا على قبر وجب عليه هدمه.

وفيه حرص النبي ﷺ على أمته في إبعادهم عن الشرك وأسبابه؛ لأن اتخاذ القبور مساجد من وسائل الشرك وذرائعه، وهذا من كمال رأفته ورحمته بالأمة.

فقد نهي عنه في آخر حياته، ثم إنه لعن وهو في السياق من فعله، والصلاة عندها من ذلك وإن لم يبين مسجدا، وهو معنى قولها «خشي أن يتخذ مسجدا»، فإن الصحابة لم يكونوا لينوا حول قبره مسجدا، وكل موضع قصدت الصلاة فيه فقد اتخذ مسجدا، بل كل موضع يصلى فيه يسمى مسجدا؛ كما قال ﷺ «جعلت لي الأرض مسجدا وطهورا».

قوله: (فقد نهي عنه في آخر حياته...) هذا من كلام شيخ الإسلام ابن تيمية، وقوله: (فقد نهي عنه في آخر حياته) الضمير يعود إلى النبي ﷺ، والمنهي عنه هو اتخاذ القبور مساجد.

قوله: (والصلاة عندها من ذلك وإن لم يبين مسجدا): (عندها) أي: القبور، وقوله: (من ذلك) أي: من اتخاذها مساجد، وعلى هذا فلا تجوز الصلاة عند القبور، ولهذا نهي النبي ﷺ كما في صحيح مسلم من حديث أبي مرثد الغنوي أن يُصَلَّى إلى القبور فقال ﷺ: «لا تصلُّوا إلى القبور».

قوله: (وهو معنى قولها: خشي أن يتخذ مسجدا) الضمير في (قولها) يرجع إلى عائشة رضي الله عنها. قوله: (فإن الصحابة لم يكونوا لينوا حول قبره مسجدا) هذا من كلام شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى، والمعنى أنه قد يقال: (خشي أن يتخذ مسجدا) معناه: خشي أن يبنى عليه مسجدا، وعلى هذا المعنى لا بأس في الصلاة عند قبره ﷺ من غير أن يبنى عليه مسجدا. فأجاب الشيخ عن الشبهة بأن الصحابة لا يمكن أن يبنوا حول قبره مسجدا؛ لأن مسجده مجاور لبنته فكيف يبنون مسجدا آخر؟! فيكون معنى قولها: (خشي أن يتخذ مسجدا) أي: مكانا يصلى فيه وإن لم يبين المسجد.

ولا ريب أن أصل تحريم بناء المساجد على القبور أن المساجد مكان الصلاة، والناس يأتون إليها للصلاة فيها، فإذا صلى الناس في مسجد بني على قبر فكأنهم صلوا عند القبر، والمحذور الذي يوجد في بناء المساجد على القبور يوجد فيما إذا اتخذ هذا المكان للصلاة وإن لم يبين مسجدا.

فتبين بهذا أن اتخاذ القبور مساجد له معنيان:

الأول: أن تبنى عليها مساجد.

الثاني: أن تتخذ مكانا للصلاة عندها وإن لم يبن المسجد.

والخلاصة: أنه لا يجوز بناء المساجد على القبور لأنها وسيلة إلى الشرك، وهو عبادة صاحب القبر، ولا يجوز أيضا أن تقصد القبور للصلاة عندها، وهذا من اتخاذها مساجد؛ لأن العلة من اتخاذها مساجد موجودة في الصلاة عندها.

ولأحمد بسند جيد عن ابن مسعود رضي الله عنه مرفوعا: «إن من شرار الناس من تدركهم الساعة وهم أحياء، والذين يتخذون القبور مساجد»، ورواه أبو حاتم في صحيحه<sup>(١)</sup>.

قوله: (من تدركهم الساعة): الساعة يوم القيامة.

وهذا لا يخالف قوله ﷺ «لا تزال طائفة من أمتي على الحق ظاهرين لا يضرهم من خذلهم حتى يأتي أمر الله» وفي رواية «حتى تقوم الساعة»، فالمراد في الحديث الثاني: قرب قيام الساعة، وليس إلى قيامها بالفعل؛ لأنها لا تقوم إلا على شرار الخلق.

قوله: (الذين يتخذون القبور مساجد): فهم من شرار الخلق وإن لم يشركوا؛ لأنهم فعلوا وسيلة من وسائل الشرك، والوسائل لها أحكام المقاصد، وإن كانت دون مرتبتها، لكنها تعطى حكمها بالمعنى العام.

(١) رواه الإمام أحمد في المسند (٤٣٥/١)، وابن أبي شيبة في المصنف (٣٤٥/٣)، وابن خزيمة برقم (٧٨٩)، وابن حبان برقم (٣٤٠)، والطبراني في الكبير برقم (١٠٤١٣)، وقال شيخ الإسلام في اقتضاء الصراط المستقيم ص ٣٣٠: إسناده جيد. وقال الهيثمي في المجمع بعد عزوه للطبراني (٢٧/٢): إسناده حسن.

## باب ما جاء أن الغلو في قبور الصالحين يصيرها أوثاناً تعبد من دون الله

هذا الباب له صلة بما قبله، وهو أن الغلو في قبور الصالحين يصيرها أوثاناً تعبد من دون الله، أي يؤول الأمر بالغالين إلى أن يعبدوا هذه القبور أو أصحابها، والغلو: مجاوزة الحد مدحاً أو ذماً، والمراد هنا: مدحاً.

قوله: (الصالحين): يشمل الأنبياء والأولياء ومن دوتهم.

قوله: (أوثاناً): جمع وثن، وهو كل ما نصب للعبادة، والصنم: ما نصب للعبادة وهو تمثال، فيكون الوثن

أعم.

قوله: (تعبد من دون الله) أي: من غيره، وهو شامل لما إذا عبدت وحدها أو عبدت مع الله، لأن الواجب

في عبادة الله إفراده فيها.

روى مالك في الموطأ أن رسول الله ﷺ قال: «اللهم لا تجعل قبوري وثناً يعبد، اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد»<sup>(١)</sup>.

قوله: (اللهم): أصلها: يا الله! فحذفت يا النداء لأجل البداءة باسم الله، وعض عنها الميم الدالة على

الجمع، فكان الداعي جمع قلبه على الله، وكانت الميم في الآخر لأجل البداءة باسم الله.

قوله: (لا تجعل قبوري وثناً يعبد) قوله: (يعبد): صفة لوثن، وهي صفة كاشفة، لأن الوثن هو الذي يعبد من

دون الله.

وإنما سأل النبي ﷺ ذلك لأن من كان قبلنا جعلوا قبور أنبيائهم مساجد وعبدوا صالحهم فسأل النبي ﷺ

ربه أن لا يجعل قبره وثناً يعبد، لأن دعوته كلها إلى التوحيد ومحاربة الشرك.

وهل استجاب الله دعوة نبيه ﷺ بأن لا يجعل قبره وثناً يعبد، أم اقتضت حكمته غير ذلك؟

يقول ابن القيم رحمه الله:

فأجاب رب العالمين دعاءه وأحاطه بثلاثة الجدران

(١) رواه مالك في الموطأ (١٧٢/١)، وابن سعد في الطبقات (٢٤٠/٢) عن عطاء بن يسار مرسلًا، وعبد الرزاق (١٠٦/١) وابن أبي شيبة

(٣٤٥/٣) عن زيد بن أسلم مرسلًا، ووصله أحمد (٢٤٦/٢) والحميدي برقم (١٠٢٥) وأبو نعيم في الحلية (٢٨٣/٦، ٧/٣١٧) عن

أبي هريرة، وصححه البزار وابن عبد البر كما في تنوير الحوالك (١٨٦/١) وشرح الزرقاني (١/٣٥١).

صحيح أنه يوجد أناس يغفلون فيه، ولكن لم يصلوا إلى جعل قبره وثنا، ولكن قد يعبدون الرسول ﷺ ولو في مكان بعيد، فإن وجد من يتوجه له ﷺ بدعائه عند قبره فيكون قد اتخذه وثنا، لكن القبر نفسه لم يجعل وثنا.

ولابن جرير بسنده عن سفيان، عن منصور، عن مجاهد: ﴿أَفْرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى﴾: قال: كان يلت لهم السوق فمات فعكفوا على قبره.  
وكذا قال أبو الجوزاء عن ابن عباس: كان يلت السوق للحاج<sup>(١)</sup>.

قوله: (عن سفيان): إما سفيان الثوري، أو ابن عيينة، هذا مبهم، والمبهم يمكن معرفته بمعرفة شيوخه وتلاميذه، وفي الشرح - أعني تيسير العزيز الحميد - يقول: الظاهر أنه الثوري.

قوله: (أفرايتهم): الهمزة للاستفهام، والمراد به التحقير، والخطاب لعابدي هذه الأصنام، لما ذكر الله تعالى قصة المعراج وما حصل فيه من الآيات العظيمة التي قال عنها: ﴿لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى﴾ قال: ﴿أَفْرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى﴾ أي: ما نسبة هذه الأصنام للآيات الكبيرة التي رآها النبي ﷺ ليلة المعراج؟!

قوله: (اللات... كان يلت لهم... إلخ): على قراءة التشديد: من لت يلت، فهو لاتٌ. أما على قراءة التخفيف، فوجهها أنها خففت لتسهيل الكلام، أي: حذف منها التضعيف تخفيفاً، وقد سبق أنهم قالوا: إن اللات من الإله. وأصله: رجل كان يلت السوق للحجاج، فلما مات عظموه وعكفوا على قبره ثم جعلوه إلهاً، وجعلوا التسمية الأولى مقترنة بالتسمية الأخيرة، فيكون أصله من لت السوق، ثم جعلوه من الإله.

وفي هذا: التحذير من الغلو في القبور، ولهذا نهي عن تخصيصها والبناء عليها والكتابة عليها خوفاً من هذا المحذور العظيم الذي يجعلها تعبد من دون الله، وكان الرسول ﷺ يأمر إذا بعث بعثاً: بأن لا يدعوا قبراً مشرفاً إلا سووه؛ لعلمه أنه مع طول الزمان سيقال: لولا أن لهذا القبر مزية ما اختلفت عن القبور، فالذي ينبغي أن تكون القبور متساوية لا ميزة لواحد منها عن البقية.

قوله: (السويق): هو عبارة عن الشعير يحمص، ثم يطحن، ثم يخلط بتمر أو شبيهه.

وقوله: (كان يلت لهم السوق، فمات، فعكفوا على قبره) يعني: فعبدوه.

ففيه: أن الغلو في قبور الصالحين يصيرها أوثاناً كما في قبر اللات، وهذه من أهم الوسائل إلى الشرك.

(١) رواه البخاري، كتاب التفسير، باب أفرايتهم اللات والعزى (٣/٣٩٩).

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لعن رسول الله ﷺ زائرات القبور، والمتخذين عليها المساجد والسرج. رواه أهل السنن<sup>(١)</sup>.

قوله: (لعن): اللعن: هو الطرد والإبعاد عن رحمة الله، ومعنى (لعن رسول الله ﷺ) أي: دعا عليهم باللعنة. قوله: (زائرات القبور): جمع زائرة، والزيارة هنا: الخروج إلى المقابر. وزائر: اسم فاعل، يصدق بالمرء الواحدة، وفي حديث أبي هريرة: لعن رسول الله ﷺ زوارات القبور. بتشديد الواو، وهي صيغة مبالغة تدل على الكثرة أي كثرة الزيارة.

قوله: (المتخذين عليها المساجد): هذا الشاهد من الحديث، وقد سبق أن اتخذ القبور مساجد له صورتان: أن يتخذها مصلى يصلى عندها، وبناء المساجد عليها.

قوله: (والسرج): جمع سراج، توقد عليها السرج تعظيما وغلوا فيها. وهذا الحديث يدل على تحريم زيارة النساء للقبور، بل على أنه من كبائر الذنوب، لأن اللعن لا يكون إلا على كبيرة، ويدل على تحريم اتخاذ المساجد والسرج عليها، وهو كبيرة من كبائر الذنوب للعن فاعله. المناسبة للباب:

أن اتخذ المساجد عليها وإسراجها غلو فيها، فيؤدي بعد ذلك إلى عبادتها. وهل يدخل في اتخاذ السرج على المقابر ما لو وضع فيها مصابيح كهرباء لإنارتها؟ الجواب: أما في المواطن التي لا يحتاج الناس إلى إنارتها للدفن فيها فلا يسرج، أما الموضع الذي يقبر فيه فيسرج ما حوله، فقد يقال بجوازه؛ لأنه ليس في ذلك ما يدل على تعظيم القبر، بل اتخذ الإسراج للحاجة. ولكن الذي نرى أنه ينبغي المنع مطلقا؛ لعدم الضرورة، فإن الناس إذا احتاجوا للإنارة للدفن، فعندهم سيارات يمكن أن يضيئوا مصابيحها، ويمكنهم أن يحملوا سراجا معهم، ولأنه إذا فتح هذا الباب فإن الشر سيتسع في قلوب الناس ولا يمكن ضبطه فيما بعد، وقد تضاء المصابيح لحاجة ثم تترك مضاء الليل كله؛ فالذي نرى أنه يمنع منعاً باتاً، أما إذا كان في المقبرة حجرة يوضع فيها اللبن ونحوه فلا بأس بإضاءتها لأنها بعيدة عن القبور، والإضاءة داخلية لا تشاهد.

(١) رواه الطيالسي برقم (٢٧٣٣)، وأحمد (٢٢٩/١، ٢٨٧، ٣٢٤، ٣٣٧)، وابن أبي شيبة (٣/٣٤٤)، وأبو داود، كتاب الجنائز، باب في زيارة النساء القبور (٣/٥٥٨)، والنسائي، كتاب الجنائز، باب التعليل في اتخاذ السرج على القبور (٤/٩٥)، والترمذي، الصلاة، باب كراهة أن يتخذ على القبر مسجداً، رقم (٣٢٠) وقال: حديث حسن، وابن ماجه مختصراً، كتاب الجنائز، باب النهي عن زيارة القبور، رقم (١٥٧٥)، وابن حبان رقم (٧٨٨)، والطبراني في الكبير (١٢٧٢٥)، والحاكم (١/٣٧٤)، والبيهقي (٤/٢٧٨).

والمهم أن وسائل الشرك يجب على الإنسان أن يتعد عنها ابتعادا عظيما، ولا يقدر للزمن الذي هو فيه الآن، بل يقدر للأزمان البعيدة، فالمسألة ليست هينة.

وفي الحديث ما يدل على تحريم زيارة النساء للقبور وأنها من كبائر الذنوب، والعلماء اختلفوا في ذلك على أقوال، هذا أحدها.

والقول الثاني: أنها مكروهة؛ وهذا هو المشهور من مذهب أحمد عند أصحابه؛ لحديث أم عطية: نهيينا عن اتباع الجنائز، ولم يعزم علينا.

والقول الثالث: أنها مباحة، لحديث المرأة التي مر النبي ﷺ بها وهي تبكي عند قبر، فقال لها «اتقي الله واصبري» فلم ينهها عن الزيارة، وإنما أمرها أن تتقي الله وتصبّر. ولما ثبت في صحيح مسلم من حديث عائشة الطويل، وفيه: أن النبي ﷺ خرج إلى أهل البقيع في الليل، واستغفر لهم ودعا لهم، وأن عائشة قالت: ما أقول لهم يا رسول الله؟ قال: «قولي: السلام عليكم يا أهل الديار من المؤمنين والمسلمين...»، فعلمها النبي ﷺ دعاء زيارة القبور، وتعليمه هذا دليل على الجواز.

ورأيت قولاً رابعاً: أن زيارة النساء للقبور سنة كالرجال؛ لعموم قوله ﷺ «كنت نهيتكم عن زيارة القبور، فزوروها فإنها تذكركم الآخرة»، ولأن عائشة رضي الله عنها زارت قبر أخيها، فقال لها عبد الله بن أبي مليكة: ليس النبي ﷺ قد نهى عن زيارة القبور؟ قالت: إنه أمر بها بعد ذلك. وهذا دليل على أنه منسوخ.

والصحيح القول الأول، ويجاب عن أدلة الأقوال الأخرى: بأن الصريح منها غير صحيح، والصحيح غير صريح، فمن ذلك أن دعوى النسخ غير صحيحة، لأنها لا تقبل إلا بشرطين، تعذر الجمع بين النصين، والجمع هنا سهل وليس بمتعذر، لأنه يمكن أن يقال: إن الخطاب في قوله «كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها» للرجال دون النساء؛ لأن النساء جاء في حقهن نهي خاص. والشرط الآخر للنسخ: العلم بالتأريخ، وهنا لم نعلم التأريخ، لأن النبي ﷺ لم يقل: كنت لعنت من زار القبور، بل قال: (كنت نهيتكم)، والنهي دون اللعن، وأيضاً، فإن قوله: (كنت نهيتكم) خطاب للرجال، ولعن زائرات القبور خطاب للنساء فلا يمكن حمل خطاب الرجال على خطاب النساء.

وأما حديث المرأة فهي لم تخرج للزيارة قطعاً، لكنها أصيبت فلم تتمالك نفسها فخرجت. وأما حديث عائشة، فإنها قالت للرسول ﷺ ماذا أقول؟ فقال: «قولي: السلام عليكم...» فهل المراد أنها تقول ذلك إذا مرت، أو إذا خرجت زائرة؟ هو محتمل، فلا يعارض النهي الصريح، فنحمله على الأول.

وأما فعلها مع أخيها رضي الله عنهما، فإن فعلها مع أخيها لم يستدل عليها عبد الله بن أبي مليكة بلعن زائرات القبور، وإنما استدل عليها بالنهي عن زيارة القبور مطلقاً، ومعلوم أن النهي عن زيارة القبور كان عاماً،

ولهذا أجابته بالنسخ العام، وقالت: إنه قد أمر بذلك، ونحن وإن كنا نقول: إن عائشة رضي الله عنها استدلت بلفظ العموم، فهي كغيرها من العلماء لا يعارض بقولها قول الرسول ﷺ.

وأما قوله ﷺ في حديث أبي هريرة (زورات القبور) فهل يدل على أن النهي عن تكرار الزيارة والإكثار منها؛ لأن (زورات) صيغة مبالغة؟ هذا ممكن، لكننا إذا حملناه على ذلك، فإننا أضعنا دلالة المطلق (زائرات)، والتضعيف قد يحمل على كثرة الفاعلين لا على كثرة الفعل، ف (زورات) يعني: النساء إذا كن مئة كان فعلهن كثيرا، والتضعيف باعتبار الفاعل موجود في اللغة العربية، قال تعالى: ﴿جَنَّاتٍ عَدْنٍ مُمْتَتِحَةً لَهُمُ الْأَبْوَابُ﴾، فلما كانت الأبواب كثيرة كان فيها التضعيف، إذ الباب لا يفتح إلا مرة واحدة.

فالراجع تحريم زيارة النساء للمقابر وأنها من كبائر الذنوب، وانظر كلام شيخ الإسلام ابن تيمية في مجموع الفتاوى (٣٤٣/٢٤).

مسألة:

المرأة إذا ذهبت للروضة في المسجد النبوي لتصلي فيها فلا مانع من أن تقف وتسلم، والأحسن البعد عن الزحام ومخالطة الرجال، ولئلا يظن من يشاهدها أن المرأة يجوز لها قصد الزيارة، وتسليم المرء على النبي ﷺ يبلغه حيث كان.

## باب ما جاء في حماية المصطفى ﷺ جناب التوحيد وسده كل طريق يوصل إلى الشرك

قوله: (المصطفى): أصلها: المصطفى، من الصفوة، وهو خيار الشيء، فالنبي ﷺ أفضل المصطفين لأنه أفضل أولي العزم من الرسل، والأصطفاء على درجات، أعلاها اصطفاء أولي العزم من الرسل، ثم اصطفاء الرسل، ثم اصطفاء الأنبياء، ثم اصطفاء الصديقين، ثم اصطفاء الشهداء، ثم اصطفاء الصالحين.

قوله: (حماية): من حمى الشيء، إذا جعل له مانعا يمنع من يقرب حوله، ومنه حماية الأرض عن الرعي فيها. قوله: (جناب): بمعنى جانب، والتوحيد: تفعيل من الوحدة، وهو إفراد الله تعالى بما يجب له من الربوبية والألوهية والأسماء والصفات.

قوله: (وسده كل طريق يوصل إلى الشرك): لأن الشرك أعظم الذنوب، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ فالشرك ليس بالأمر الهين، فهو يفسد القلب والقصد، وإذا فسد القصد فسد العمل، قال ﷺ: «إنما الأعمال بالنيات»، فالرسول ﷺ حمى جانب التوحيد حماية محكمة، وسد كل طريق يوصل إلى الشرك ولو من بعيد، لأن من سار على الدرب وصل، والشيطان يزين للإنسان أعمال السوء شيئا فشيئا حتى يصل إلى الغاية.

وقول الله تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾ الآية.

الخطاب في قوله: (جاءكم) قيل: للعرب، لقوله: (من أنفسكم)، قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ﴾، ويحتمل أن يكون عاما للأمة كلها، ويكون المراد بالنفس هنا الجنس، أي: ليس من الجن ولا الملائكة، بل هو من جنسكم، كما قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾، وعلى الاحتمال الأول فيه إشكال، لأن النبي ﷺ بعث إلى جميع الناس من العرب والعجم، ولكن يقال في الجواب: إنه خوطب العرب بهذا، لأن منة الله عليهم به أعظم من غيرهم، حيث كان منهم، وفي هذا تشريف لهم بلا ريب.

والاحتمال الثاني أولى، للعموم، ولقوله: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾، ولما كان المراد العرب قال: (منهم) لا (من أنفسهم)، قال الله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ﴾

وقال تعالى عن إبراهيم وإسماعيل: ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ﴾، وعلى هذا، فإذا جاءت (من أنفسهم) فالمراد: عموم الأمة، وإذا جاءت (منهم) فالمراد: العرب.

قوله: (عزيز): أي: صعب، والمعنى: أنه يصعب عليه ما يشق عليكم، ولهذا بعث بالحنيفية السمحة، وما خير بين شيئين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثما.

قوله: (ما عنتم): (ما): مصدرية، لا موصولة، أي: عنتم، أي: مشقتكم.

قوله: (حريص عليكم): الحرص: بذل الجهد لإدراك أمر مقصود، والمعنى: باذل غاية جهده في مصلحتكم، فهو جامع بين أمرين: دفع المكروه الذي أفاده قوله: (عزيز عليه ما عنتم) وحصول المحبوب الذي أفاده قوله: (حريص عليكم)، وهذا من نعمة الله علينا وعلى الرسول ﷺ أن يكون على هذا الخلق العظيم.

قوله: ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رُؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾ الرأفة: أشد الرحمة وأرقها. والرحمة: رقة بالقلب تتضمن الحنو على المرحوم والعطف عليه يجلب الخير له ودفع الضرر عنه، وقولنا: (رقة في القلب) هذا باعتبار المخلوق، أما بالنسبة لله تعالى، فلا نفسرها بهذا التفسير، لأن الله تعالى ليس كمثل شيء.

قوله: ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رُؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾ تقديم الجار والجرور يفيد الحصر، أي: إن النبي ﷺ في غير المؤمنين ليس رؤوفا ولا رحيفا، بل هو شديد عليهم كما وصفه الله هو وأصحابه بذلك في قوله ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تجعلوا بيوتكم قبورا، ولا تجعلوا قبري عبدا، وصلوا علي فإن صلاتكم تبلغني حيث كنتم» رواه أبو داود بإسناد حسن ورواه ثقات<sup>(١)</sup>.

قوله: (لا تجعلوا بيوتكم قبورا): هذه الجملة اختلفت في معناها، فمنهم من قال: لا تجعلوها قبورا، أي: لا تدفنوا فيها، وهذا لا شك أنه ظاهر اللفظ، وقال بعض العلماء: المراد بـ (لا تجعلوا بيوتكم قبورا)، أي: لا تجعلوها مثل القبور لا تصلون فيها، وذلك لأنه من المتقرر عندهم أن المقابر لا يصلى فيها، وأيدوا هذا التفسير بأنه سبقها جملة في بعض الطرق: «اجعلوا من صلاتكم في بيوتكم، ولا تجعلوها قبورا»، وكلا المعنيين صحيح، فلا يجوز أن يدفن الإنسان في بيته، بل يدفن مع المسلمين، لأن هذه هي العادة المتبعة منذ عهد النبي ﷺ إلى اليوم، ولأنه

(١) رواه أحمد (٣٦٧/٢)، وأبو داود، كتاب المناسك، باب زيارة القبور (٥٣٤/٢) وسكت عنه، وصححه النووي في الأذكار ص ٩٣، وقال شيخ الإسلام في الاقتضاء ص ٣٢١: إسناده حسن، ورواه ثقات مشاهير، لكن عبد الله بن نافع الصائغ الفقيه صاحب مالك فيه لين، لا يقدر في حديثه. وحسنه ابن حجر في تخريج الأذكار، كما في الفتوحات الربانية (٣/٣١٣).

إذا دفن في بيته فإنه ربما يكون وسيلة إلى الشرك، فيُعظم هذا المكان، ولأنه يحرم من دعوات المسلمين الذين يدعون بالمغفرة لأموات المسلمين عند زيارتهم للمقابر، ولأنه يضيق على الورثة من بعده فيسأمون منه، وربما يستوحشون منه، وإذا باعوه لا يساوي إلا شيئاً قليلاً، ولأنه قد يحدث عنده من الصخب واللغو والأفعال المحرمة ما يتنافى مع مقصود الشارع، فإن الرسول ﷺ يقول: «زوروا القبور، فإنها تذكركم الآخرة».

وأما أن المعنى: لا تجعلوها قبوراً، أي: مثل القبور في عدم الصلاة فيها، فهو دليل على أنه ينبغي أن يجعل الإنسان من صلاته في بيته، وفيه أيضاً: أنه من المتقرر عندهم أن المقبرة لا يصلى فيها، فيكون فيه دليل واضح على أن المقابر ليست محلاً للصلاة، وهذا هو الشاهد من الحديث للباب، لأن اتخاذ المقابر مساجد سبب قريب جدا للشرك.

واتخاذها مساجد سبق أن له مرتبتين:

الأولى: أن يبني عليها مسجداً.

الثانية: أن يتخذها مصلى يقصدها ليصلي عندها.

والحديث يدل على أن الأفضل: أن المرء يجعل من صلاته في بيته وذلك جميع النوافل، لقوله ﷺ «أفضل صلاة المرء في بيته، إلا المكتوبة» إلا ما ورد الشرع أن يفعل في المسجد، مثل: صلاة الكسوف، وقيام الليل في رمضان، حتى ولو كنت في المدينة النبوية، لأن النبي ﷺ قال ذلك وهو في المدينة، وتكون المضاعفة بالنسبة للفرائض أو النوافل التي تسن لها الجماعة.

قوله: (عيداً): العيد: اسم لما يعتاد فعله أو التردد إليه، كما لو كان كلما حال عليه الحول صنع طعاماً ودعا الناس، فهذا يسمى عيداً لأنه جعله يعود ويتكرر، وكذلك من العيد: أن تعتاد شيئاً تتردد إليه، مثل: ما يفعل بعض الجهلة في شهر رجب وهو ما يسمى بالزيارة الرجبية، حيث يذهبون إلى المدينة يزورون قبر النبي ﷺ.

فمعنى الحديث: لا تترددوا على قبوري وتعتادوا ذلك، سواء قيدوه بالسنة أو بالشهر أو بالأسبوع، وإنما يزار لسبب، كما لو قدم الإنسان من سفر فذهب إلى قبره فزاره، أو زاره ليتذكر الآخرة كغيره من القبور.

وما يفعله بعض الناس في المدينة كلما صلى الفجر ذهب إلى قبر النبي ﷺ من أجل السلام عليه، فيعتاد هذا كل فجر فهذا من المنهي عنه.

قوله: (وصلوا علي): أي: قولوا: اللهم صل على محمد، وقد أمر الله بذلك في قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾. والصلاة من الله على رسوله ثناؤه عليه في الملائكة الأعلى.

وعن علي بن الحسين رضي الله عنه أنه رأى رجلا يجيء إلى فرجة كانت عند قبر النبي ﷺ فيدخل فيها فيدعو، فنهاه وقال: ألا أحدثكم حديثا سمعته من أبي عن جدي عن رسول الله ﷺ قال: «لا تتخذوا قبوري عيدا، ولا بيوتكم قبورا، وصلوا علي فإن تسليمكم يبلغني أين كنتم» رواه في المختارة<sup>(١)</sup>.

قوله: (يجيء إلى فرجة): هذا الرجل لم يتكرر مجيئه إلى هذه الفرجة إلا لاعتقاده أن فيها فضلا ومزية، وكونه يظن أن الدعاء عند القبر له مزية ففتح باب ووسيلة إلى الشرك، بل جميع العبادات إذا كانت عند القبر فلا يجوز أن يعتقد أن لها مزية، سواء كانت صلاة أو دعاء أو قراءة، ولهذا نقول: تكره القراءة عند القبر إذا كان الإنسان يعتقد أن القراءة عند القبر أفضل.

قوله: (فإن تسليمكم يبلغني أين كنتم): اللفظ هكذا، وأشك في صحته، لأن قوله: (صلوا علي) يقتضي أن يقال: فإن صلاتكم تبلغني، إلا أن يقال هذا من باب الطي والنشر. والمعنى: صلوا علي وسلموا، فإن تسليمكم وصلاتكم تبلغني، وكأنه ذكر الفعلين والعلتين، لكن حذف من الأولى ما دلت عليه الثانية، ومن الثانية ما دلت عليه الأولى.

(١) رواه البخاري في التاريخ الكبير (١٨٦/٢)، وأبو يعلى كما في مجمع الزوائد (٣/٤)، وقال الهيثمي: فيه جعفر بن إبراهيم الجعفري، ذكره أبو حاتم ولم يذكر فيه جرحا، وبقية رجاله ثقات. وفيه أيضا علي بن عمر بن الحسين، مستور، كما في التقريب (٤١/٢). ورواه أيضا: الضياء في المختارة، كما في اقتضاء الصراط المستقيم ص ٣٢٢.

## باب ما جاء أن بعض هذه الأمة يعبد الأوثان

سبب مجيء المؤلف بهذا الباب لدحض حجة من يقول: إن الشرك لا يمكن أن يقع في هذه الأمة، وأنكروا أن تكون عبادة القبور والأولياء من الشرك، لأن هذه الأمة معصومة منه، لقوله ﷺ «إن الشيطان أيسر أن يعبد المصلون في جزيرة العرب، ولكن في التحريش بينهم»، والجواب عن هذا سبق عند الكلام على المسألة الثامنة عشرة من مسائل باب من تبرك بشجر أو حجر ونحوهما.

قوله: (أن بعض هذه الأمة): أي: لا كلها، لأن في هذه الأمة طائفة لا تزال منصورة على الحق إلى قيام الساعة، لكنه سيأتي في آخر الزمان ريح تقبض روح كل مسلم، فلا يبقى إلا شرار الناس. قوله: (الأوثان): جمع وثن، وهو: كل ما عبد من دون الله.

وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيحًا مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ﴾.

الآية الأولى: قوله تعالى: (ألم تر): الاستفهام هنا للتقرير والتعجيب، والخطاب إما للنبي ﷺ أو لكل من يصح توجيه الخطاب إليه، أي: ألم تر أيها المخاطب؟ قوله: ﴿إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا﴾ أي: أعطوا، ولم يعطوا كل الكتاب، بل ﴿نَصِيحًا مِنَ الْكِتَابِ﴾، لأنهم حرموا بسبب معصيتهم، فليس عندهم العلم الكامل بما في الكتاب. قوله: ﴿يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ﴾ أي: يصدقون بهما، ويقرونها لا ينكرونها، فإذا أقر الإنسان هذه الأوثان، فقد آمن بها. والجبت قيل: السحر، وقيل: هو الصنم، والأصح: أنه عام لكل صنم أو سحر أو كهانة أو ما أشبه ذلك.

والطاغوت: ما تجاوز به العبد حده من معبود أو متبوع أو مطاع، فالمعبود كالأصنام، والمتبوع كعلماء الضلال، والمطاع كالأمراء، فطاغوتهم في تحريم ما أحل الله، أو تحليل ما حرم الله تعد من عبادتهم، والمراد من كان راضيا بعبادتهم إياه، أو يقال: هو طاغوت باعتبار عابديه، لأنهم تجاوزوا به حده، فتكون عبادتهم لهذا المعبود طغيانا.

وجه المناسبة في الآية للباب لا يتبين إلا بالحديث، وهو: «لتركبن سنن من كان قبلكم»، فإذا كان الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت، وأن من هذه الأمة من يرتكب سنن من كان قبلنا، يلزم من هذا أن في هذه الأمة من يؤمن بالجبت والطاغوت، فتكون الآية مطابقة للترجمة تماما. وفي الآية: أن من العجب أن يعطى الإنسان نصيبا من الكتاب ثم يؤمن بالجبت والطاغوت، وأن العلم قد لا يعصم صاحبه من المعصية، لأن الذين أوتوا الكتاب آمنوا بالكفر.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ أَنْبَيْتُكُمْ بِشَرِّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ﴾.

قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ أَنْبَيْتُكُمْ﴾ الخطاب للنبي ﷺ ردا على هؤلاء اليهود الذين اتخذوا دين الإسلام هزوا ولعبا، وقوله: (أنبئكم): أي: أخبركم، والاستفهام هنا للتقرير والتشويق.

قوله: ﴿بَشَرٍ مِنْ ذَلِكَ﴾ المشار إليه ما كان عليه الرسول ﷺ وأصحابه، فإن اليهود يزعمون أنهم هم الذين على الحق، وأنهم خير من الرسول صلى الله عليه وعلى آله وسلم وأصحابه، وأن الرسول ﷺ وأصحابه ليسوا على الحق، فقال الله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ أَنْبَيْتُكُمْ بِشَرِّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ﴾، والمثوبة: من ثاب يثوب إذا رجع، ويطلق على الجزاء، أي: بشر من ذلك جزاء عند الله.

قوله: ﴿مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ﴾ أي: طرده وأبعده عن رحمته.

قوله: (وغضب عليه): أي: أحل عليه غضبه، والغضب: صفة من صفات الله الحقيقية تقتضي الانتقام من المغضوب عليه، ولا يصح تحريفه إلى معنى الانتقام، والقاعدة العامة عند أهل السنة: أن آيات الصفات وأحاديثها تجرى على ظاهرها اللائق بالله عزوجل فلا تجعل من جنس صفات المخلوقين، ولا تحرف فتتفنى عن الله، فلا نغلو في الإثبات ولا في النفي.

قوله: ﴿وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ﴾ الإشارة هنا إلى اليهود، فإنهم لعنوا كما قال تعالى: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾، ومسح بعضهم قردة بقوله تعالى: ﴿كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾، وغضب الله عليهم بقوله: ﴿فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ﴾،

قوله: ﴿وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ﴾ فعل ماضٍ معطوف على قوله: (لعنه الله) صلة الموصول، أي: ومن عبد الطاغوت، ولم يُعَدَّ (مَنْ) مع طول الفصل، لأن هذا ينطبق على موصوف واحد، فلو أعيدت (مَنْ) لأوهم أنهم جماعة آخرون، وهم جماعة واحدة.

وقوله تعالى ﴿قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا﴾.

هذه الآية في سياق قصة أصحاب الكهف، وقوله: ﴿قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ﴾ المراد بهم: الحكام في ذلك الوقت، قالوا مقسمين مؤكدين: ﴿لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا﴾ وبناء المساجد على القبور من وسائل الشرك كما سبق.

عن أبي سعيد رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لتتبعن سنن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة، حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه» قالوا: يا رسول الله! اليهود والنصارى؟ قال: «فمن؟!» أخرجاه<sup>(١)</sup>.

قوله: (سنن من كان قبلكم): فيها روايتان: (سَنَنَ) و (سُنُنَ). أما بضم السين فهي جمع سُنَّة، وهي الطريقة، وأما بالفتح فهي مفرد بمعنى الطريق.

وقوله: (من كان قبلكم): أي: من الأمم.

وقوله: (لتتبعن سنن من كان قبلكم) عام مخصوص؛ لأن في هذه الأمة من لا يتبع تلك السنن كما أخبر النبي ﷺ لأنه لا تزال طائفة من هذه الأمة على الحق، وقد يقال: إن الحديث على عمومته وأنه لا يلزم أن تتبع هذه الأمة الأمم السابقة في جميع سننها، بل بعض الأمة يتبعها في شيء وبعض الأمة يتبعها في شيء آخر، وحينئذ لا يقتضي خروج هذه الأمة من الإسلام، وهذا أولى لبقاء الحديث على عمومته.

وهذا الخبر من النبي ﷺ للتحذير من اتباع تلك السنن، لا للإقرار.

قوله: (حذو القذة بالقذة): القذة: هي ريشة السهم، والسهم له ريش متحاذٍ تماما.

قوله: (حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه): هذه الجملة تأكيد منه ﷺ للمتابعة، وجحر الضب من

أصغر الجحور، فالنبي ﷺ قال ذلك على سبيل المبالغة، كقوله ﷺ «من اقتطع شبرا من الأرض ظلما طوقه الله به يوم القيامة من سبع أرضين»، فمن اقتطع ذراعا فمن باب أولى.

(١) رواه البخاري، كتاب الاعتصام، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم «لتتبعن سنن من كان قبلكم» (٣/ ٣٦٧)، ومسلم، كتاب العلم، باب اتباع سنن اليهود والنصارى (٤/ ٢٠٥٤). لكن جملة «حذو القذة بالقذة» ليست في الصحيحين، وهي في المسند (٤/ ١٢٥) من حديث شداد بن أوس بلفظ «ليحملن شرار هذه الأمة على سنن الذين خلوا من قبلكم أهل الكتاب حذو القذة بالقذة».

قوله: (قالوا: اليهود والنصارى) يجوز فيها وجهان، نصب اليهود والنصارى على أنه مفعول لفعل محذوف تقديره: أتعني اليهود والنصارى؟ والثاني: الرفع على أنه خبر لمبتدأ محذوف تقديره: أهم اليهود والنصارى؟ قوله: (قال: فمن): أي: فمن أعني غير هؤلاء، أو فمن هم غير هؤلاء؟ ومناسبة الحديث للباب: أنه لما عبت الأمم السابقة الأصنام والأوثان، فسيكون في هذه الأمة من يعبد الأصنام والأوثان.

ومسلم عن ثوبان رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله زوى لي الأرض، فرأيت مشارقتها ومغارها، وإن أمتي سيبلغ ملكها ما زوى لي منها، وأعطيت الكنزين الأحمر والأبيض، وإني سألت ربي لأمتي أن لا يهلكها بسنة بعامة، وأن لا يسلط عليهم عدوا من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم، وإن ربي قال: يا محمد! إني إذا قضيت قضاء، فإنه لا يرد، وإني أعطيتك لأمتك أن لا أهلكهم بسنة بعامة، وأن لا أسلط عليهم عدوا من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم، ولو اجتمع عليهم من بأقطارها، حتى يكون بعضهم يهلك بعضها، ويسبي بعضهم بعضا»<sup>(١)</sup>.

ورواه البرقاني في صحيحه وزاد: «وإنما أخاف على أمتي الأئمة المضلين، وإذا وقع عليهم السيف لم يرفع إلى يوم القيامة، ولا تقوم الساعة حتى يلحق حي من أمتي بالمشركين، وحتى تعبد فئام من أمتي الأوثان، وإنه سيكون في أمتي كذابون ثلاثون كلهم يزعم أنه نبي، وأنا خاتم النبيين لا نبي بعدي، ولا تزال طائفة من أمتي على الحق منصوره، لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتي أمر الله تبارك وتعالى»<sup>(٢)</sup>.

قوله: (زوى لي الأرض): جمع وضم الأرض.

قوله: (فرأيت): أي: بعيني، فهي رؤية عينية، ويحتمل أن تكون رؤية منامية.

قوله: (مشارقتها ومغارها): وهذا ليس على الله بعزير، لأنه على كل شيء قدير.

(١) رواه مسلم، كتاب الفتن، باب هلاك هذه الأمة بعضهم ببعض (٤/٢٢١٥).

(٢) هذه الزيادة رواها أبو داود في كتاب الفتن، باب ذكر الفتن (٤/٤٥٢)، وابن ماجه، كتاب الفتن، باب ما يكون من الفتن، رقم (٣٩٥٢)،

والحاكم في المستدرک (٤/٤٤٩) وصححه على شرط الشيخين، وأبو نعیم في الحلیة (٢/٢٨٩)، وفي الدلائل ص ٤٦٩، وأحمد في المسند

(٥/٢٧٨، ٢٨٤). وفي النهج السديد ص ١٢٩: صحيح على شرط مسلم.

وهل المراد بالزوي هنا أن الأرض جمعت، أو أن الرسول ﷺ قوي نظره حتى رأى البعيد؟ الأقرب إلى ظاهر اللفظ: أن الأرض جمعت، لا أن بصره قوي حتى رأى البعيد. وقال بعض العلماء: المراد قوة بصر النبي ﷺ، أي أن الله أعطاه قوة بصر حتى أبصر مشارق الأرض ومغاربها، لكن الأقرب الأول.

وهذا الزي من الأمور الغيبية التي لا يجوز أن توردها كيف ولم، بل نقول: إن الله على كل شيء قدير، وهذه المسائل التي لا ندركها يجب التسليم المحض لها.

قوله: (وإن أمتي سيبلغ ملكها ما زوي لي منها): والمراد: أمة الإجابة التي آمنت بالرسول ﷺ، سيبلغ ملكها ما زوي للرسول ﷺ منها، وهذا هو الواقع، فإن ملك هذه الأمة اتسع من المشرق ومن المغرب اتساعاً بالغاً، لكنه من الشمال والجنوب أقل بكثير.

قوله: (وأعطيت الكنزين: الأحمر والأبيض): الكنزان: هما الذهب والفضة، كنوز كسرى وقيصر، فالذهب عند قيصر، والفضة عند كسرى، وكل منهما عنده ذهب وفضة، لكن الأغلب على كنوز قيصر الذهب، وعلى كنوز كسرى الفضة.

وقوله: (أعطيت): الذي أُعطي الكنزين أمته ﷺ بعد موته، لكن ما أعطيت أمته فهو كالمعطى له، لأنه إمامها.

قوله: (وإني سألت ربي لأمتي أن لا يهلكها بسنة بعامة): هكذا في الأصل: (بعامة)، والمعنى بمهلكة عامة، وفي رواية في بعض النسخ: (بسنة عامة).

والسنة: الجذب والقحط، فهو مهلك، قال ﷺ: «اللهم اجعلها عليهم سنين كسني يوسف»، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ﴾، ويحتمل أن يكون المعنى بعام واحد، فتكون الباء للظرفية. وعامة، أي: تعمهم.

قوله: (وأن لا يسلط عليهم عدوا من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم): البيضة: ما يجعل على الرأس وقاية من السهام. والمراد: يظهر عليهم ويغلبهم.

قوله: (إذا قضيت قضاء فإنه لا يرد): المراد بالقضاء هنا: القضاء الكوني، لا الشرعي.

وفي قوله: (إذا قضيت قضاء، فإنه لا يرد) من كمال سلطان الله وقدرته وربوبيته ما هو ظاهر، لأنه ما من ملك سوى الله إلا يمكن أن يرد ما قضى به.

وقضاء الله الكوني لا يكون إلا لحكمة كقضائه الشرعي، فهو لا يقضي قضاء إلا والحكمة تقتضيه، كما لا يشاء شيئاً إلا والحكمة تقتضيه، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾، ولكن لا يلزم من الحكمة أن نحيط بها علماً؛ لأننا أقصر من أن نحيط علماً بحكم الله كلها.

والمقصود من قوله: (إذا قضيت قضاء، فإنه لا يرد) بيان أن من الأشياء التي سأها النبي ﷺ ما لم يعطها، لأن الله قضى بعلمه وحكمته ذلك، ولا يمكن أن يرد ما قضاه الله عزوجل.

قوله: (وإني أعطيتك لأمتك أن لا أهلكهم بسنة بعامة، وأن لا أسلط عليهم عدوا من سوى أنفسهم، فيستبيح بيضتهم، ولو اجتمع عليهم من بأقطارها حتى يكون بعضهم يهلك بعضها ويسبي بعضهم بعضا)، فإذا وقع ذلك منهم فقد يسלט عليهم عدوا من سوى أنفسهم، فيستبيح بيضتهم، فإجابة الله لرسوله ﷺ في الجملة الأولى بدون استثناء، وفي الجملة الثانية باستثناء (حتى يكون بعضهم...).

قوله: (إنما أخاف على أمتي الأئمة المضلين): الأئمة: جمع إمام، والإمام قد يكون إماما في الخير أو الشر، قال تعالى في أئمة الخير: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أُمَّةً يَهْتَدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾، وقال تعالى عن آل فرعون: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أُمَّةً يَدْعُونَ إِلَى التَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنصَرُونَ﴾، والذي في حديث الباب: أئمة الشر، فيشمل الحكام الفاسدين، والعلماء المضلين.

قوله: (وإذا وقع عليهم السيف) إلخ، هذا من آيات النبي ﷺ وهذا حق واقع، فإنه لما وقع السيف في هذه الأمة لم يرفع، فما زال بينهم القتال منذ قتل الخليفة الثالث عثمان رضي الله عنه.

قوله: (ولا تقوم الساعة حتى يلحق حي من أمتي بالمشركين): الحي: بمعنى القبيلة. وهل المراد باللحوق هنا اللحوق البدني، بمعنى أنه يذهب هذا الحي إلى المشركين ويدخلون فيهم، أو اللحوق الحكمي، بمعنى أن يعملوا بعمل المشركين، أو الأمران معا؟ الظاهر أن المراد جميع ذلك.

قوله: (وحتى تعبد فئام من أمتي الأوثان): الفئام: الجماعات، وهذا وقع، ففي كل جهة من جهات المسلمين من يعبدون القبور ويعظمون أصحابها ويسألونهم الحاجات والرغبات ويلتجئون إليهم.

قوله: (وإنه سيكون في أمتي كذابون ثلاثون): لأن النبي ﷺ خاتم النبيين ولا نبي بعده، وهؤلاء الثلاثون ظهر بعضهم، وبعضهم ينتظر، لأن النبي ﷺ لم يحصرهم في زمن معين، فما دامت الساعة لم تقم، فهم ينتظرون.

قوله: (وأنا خاتم النبيين) إن قيل: ما الجواب عما ثبت في نزول عيسى بن مريم في آخر الزمان، مع أنه نبي ويضع الجزية ولا يقبل إلا الإسلام؟ فالجواب: أن نبوته سابقة لنبوة محمد ﷺ، وأما كونه يضع الجزية ولا يقبل إلا الإسلام، فليس تشريعا جديدا ينسخ قبول الجزية، بل هو تشريع من محمد ﷺ لأنه أخبر به مقرر له.

قوله: (ولا تزال طائفة من أمتي على الحق منصوره): المعنى: أنهم يبقون إلى آخر وجودهم منصورين، وهذا من نعمة الله، فلما ذكر أن حيا من الأحياء يلتحقون بالمشركين، وأن فئاما يعبدون الأصنام، وأن أناسا يدعون النبوة، فيكون من هؤلاء الإخلاق بالشهادتين: شهادة أن لا إله إلا الله بالشرك، وأن محمدا رسول الله بادعاء

النبوة، وذلك أصل الإسلام، فلما بين ذلك لم يجعل الناس يأسون، فقال: (لا تزال طائفة من أمتي على الحق منصوراً). والطائفة: الجماعة.

وقوله: (على الحق): جار ومجرور خبر تزال.

قوله: (منصورة): خبر ثان، ويجوز أن يكون حالا، والمعنى: لا تزال على الحق، وهي كذلك أيضاً منصوراً. قوله: (لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم): خذلهم، أي: لم ينصرهم ويوافقهم على ما ذهبوا إليه، وفي هذا دليل على أنه سيوجد من يخذلهم، لكنه لا يضرهم، لأن الأمور بيد الله، وقد قال ﷺ: «واعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك»، وكذلك لا يضرهم من خالفهم، لأنهم منصورون بنصر الله.

قوله: (حتى يأتي أمر الله): أي: أمره الكوني، وذلك عند قرب قيام الساعة، عندما يأتي أمره سبحانه وتعالى بأن تُقبض نفس كل مؤمن، حتى لا يبقى إلا شرار الخلق، فعليهم تقوم الساعة. الشاهد من هذا الحديث: قوله في رواية البرقاني: (حتى يلحق حي من أمتي بالمشركين، ويعبد فئام من أمتي الأوثان).

وقوله: (لا تزال طائفة من أمتي على الحق منصوراً) هذه لم يحدد مكانها، فتشمل جميع بقاع الأرض، فهذه الطائفة مهما نأت بهم الديار فهي طائفة واحدة منصوراً على الحق لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتي أمر الله.

قال بعض السلف: إن الطائفة المنصورة هم أهل الحديث. وأقول: لا بد هنا من التفصيل، فإن أريد بذلك أهل الحديث المصطلح عليه، وأخرج منهم الفقهاء وعلماء التفسير وما أشبه ذلك، فهذا ليس بصحيح، لأن علماء التفسير والفقهاء الذين يتحرون البناء على الدليل هم في الحقيقة من أهل الحديث، فكل من تحاكم إلى الكتاب والسنة فهو من أهل الحديث بالمعنى العام، فأهل الحديث هم: كل من يتحرى العمل بسنة رسول الله ﷺ، فيشمل الفقهاء الذين يتحرون العمل بالسنة، وإن لم يكونوا من أهل الحديث اصطلاحاً.

## باب ما جاء في السحر

السحر لغة: ما خفي ولطف سببه، ومنه سمي السحر لآخر الليل، لأن الأفعال التي تقع فيه تكون خفية. وأما في الشرع، فإنه ينقسم إلى قسمين:

الأول: عقد ورقى وطلاسم يتوصل بها الساحر إلى استخدام الشياطين فيما يريد.

الثاني: أدوية وعقاقير تؤثر على بدن المسحور وعقله وإرادته وتصوره وميله، وهو ما يسمى عندهم بالصرف والعطف<sup>(١)</sup>.

فالسحر قسمان:

- شرك، وهو الأول الذي يكون بواسطة الشياطين، يعبدونهم ويتقرب إليهم لیسلطهم على المسحور.
- عدوان وفسق، وهو الثاني الذي يكون بواسطة الأدوية والعقاقير ونحوها.

وبهذا التقسيم الذي ذكرناه نتوصل به إلى مسألة مهمة، وهي: هل يكفر الساحر أو لا يكفر؟ فقد اختلف في هذا أهل العلم، ولكن التقسيم السابق الذي ذكرناه يتبين به حكم هذه المسألة، فمن كان سحره بواسطة الشياطين، فإنه يكفر لأنه لا يتأتى ذلك إلا بالشرك غالباً، لقوله تعالى: ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكٍ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَائِكَةِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾ إلى قوله: ﴿وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلَّمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلَقٍ﴾ ومن كان سحره بالأدوية والعقاقير ونحوها فلا يكفر، ولكن يعتبر عاصياً معتدياً.

وأما قتل الساحر فإن كان سحره كفراً قتل قتل ردة إلا أن يتوب على القول بقبول توبته، وهو الصحيح، وإن كان سحره دون الكفر، قتل قتل الصائل، أي: قتل لدفع أذاه وفساده في الأرض، وعلى هذا يرجع في قتله إلى اجتهاد الإمام، وظاهر النصوص التي ذكرها المؤلف أنه يقتل بكل حال.

والسحر يؤثر بلا شك، لكنه لا يؤثر بقلب الأعيان إلى أعيان أخرى، لأنه لا يقدر على ذلك إلا الله عزوجل وإنما يخيل إلى المسحور أن هذا الشيء انقلب وهذا الشيء تحرك أو مشى وما أشبه ذلك، كما جرى لموسى عليه الصلاة والسلام أمام سحرة آل فرعون، ﴿يَخِيلُ إِلَيْهِمْ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهُمْ تَسْعَى﴾.

(١) لا إشكال في انقسام السحر قسمين، لكن عدُّ سحر الصرف والعطف من القسم الثاني مشكلاً، لأنه مما يعود إلى استخدام الشياطين.

وانظر: التمهيد لشرح كتاب التوحيد ص ٣٠٠.

ومناسبة الباب لكتاب التوحيد: أن من أقسام السحر ما لا يتأتى غالبا إلا بالشرك، فالشياطين لا تخدم الإنسان غالبا إلا لمصلحة، ومعلوم أن مصلحة الشيطان أن يغوي بني آدم فيدخلهم في الشرك والمعاصي.

وقول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلَقٍ﴾.

قوله تعالى: (ولقد علموا): ضمير الفاعل يعود على متعلمي السحر.  
ومعنى (اشتراه): تعلمه.

قوله: ﴿مَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلَقٍ﴾ أي: من نصيب، وكل من ليس له في الآخرة من خلاق فعمله حابط باطل، لكن إما أن ينتفي النصيب انتفاء كلياً فيكون العمل كفراً، أو ينتفي كمال النصيب فيكون فسقاً.

وقوله: ﴿يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ﴾.

قال عمر: الجبت السحر، والطاغوت الشيطان.

وقال جابر: الطواغيت كهان كان ينزل عليهم الشيطان، في كل حي واحد.

قوله تعالى: (يؤمنون): أي: اليهود.

(بالجبت)، أي: السحر كما فسرها عمر بن الخطاب، واليهود كانوا من أكثر الناس سحرا، ويدعون أن سليمان عليه السلام علمهم إياه، وقد اعتدوا، فسحروا النبي ﷺ.  
قوله: (الطاغوت): أجمع ما قيل فيه: هو ما تجاوز به العبد حده من معبود أو متبوع أو مطاع. ومعنى (من معبود) أي: بعلمه ورضاه.

الشاهد: قوله: (بالجبت)، فقد فسرها أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه بأنها السحر، وأما تفسيره الطاغوت بالشيطان، فإنه من باب التفسير بالمثل، وكذا قول جابر رضي الله عنه: (الطواغيت كهان كان ينزل عليهم الشيطان، في كل حي واحد) هذا أيضا من باب التفسير بالمثل، فجعل من جملة الطواغيت الكهان، والكاهن قيل: هو الذي يخبر عما في الضمير. وقيل: الذي يخبر عن المغيبات في المستقبل.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «اجتنبوا السبع الموبقات»، قالوا: يا رسول الله! وما هن؟ قال: «الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات»<sup>(١)</sup>.

قوله: (اجتنبوا) أبلغ من قوله: اتركوا، لأن الاجتناب معناه أن تكون في جانب وهي في جانب آخر، وهذا يستلزم البعد عنها.

وقوله: (السبع الموبقات) هذا لا يقتضي الحصر، فإن هناك موبقات أخرى، ولكن النبي ﷺ يحصر أحيانا بعض الأنواع والأجناس، ومن ذلك حديث السبعة الذين يظلمهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله، ومثله: «ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة»، وإن قلنا بدلالة حديث أبي هريرة في الباب على الحصر لكونه وقع بـ (أل) المعرفة فإنه حصرها لأن هذه أعظم الكبائر.

وقوله: (الموبقات): أي: المهلكات.

قوله: (قال: الشرك بالله): قدمه لأنه أعظم الموبقات، أن تجعل لله ندا وهو خلقك، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾، وقال تعالى: ﴿مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾، والشرك بالله يتناول الشرك بربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته.

قوله: والسحر: أي من الموبقات، وظاهر كلام النبي ﷺ أنه لا فرق بين أن يكون ذلك بواسطة الشياطين أو بواسطة الأدوية والعقاقير؛ لأنه إن كان بواسطة الشياطين فهو داخل في الشرك بالله، وإن كان دون ذلك فهو أيضا جرم عظيم، لأن السحر من أعظم ما يكون في الجناية على بني آدم.

قوله: (وقتلت النفس التي حرم الله إلا بالحق): المراد بالنفس: البدن الذي فيه الروح، والمراد بالنفس هنا: نفس الآدمي، وقوله: (التي حرم الله): مفعول (حرم) محذوف تقديره: حرم قتلها، وقوله: (إلا بالحق) أي: بالعدل، لأن هذا حكم، والحق إذا ذكر بإزاء الأحكام، فالمراد به العدل، وإن ذكر بإزاء الأخبار، فالمراد به الصدق، وقوله: (إلا بالحق): أي: مما يوجب القتل، مثل: الثيب الزاني، والنفس بالنفس، والتارك لدينه المفارق للجماعة.

والنفس المحرمة أربعة أنفس، هي نفس المؤمن والذمي والمعاهد والمستأمن بكسر الميم طالب الأمان.

قوله: (وأكل الربا): الربا في اللغة: الزيادة، وفي الشرع: تفاضل في عقد بين أشياء يجب فيها التساوي، ونسأ في عقد بين أشياء يجب فيها التقابض.

(١) أخرجه البخاري في الوصايا (٣٩٣/٥ فتح)، ومسلم في الإيمان (٩٢/١).

وقوله: (وأكل الربا): ذكر النبي ﷺ الأكل، لأنه أعم وجوه الانتفاع، هكذا قال أهل العلم، والمراد به أخذ الربا، سواء استعمله في الأكل أو الفرش أو البناء أو المسكن أو غير ذلك، وكذا قوله: (وأكل مال اليتيم)، واليتيم: هو الذي مات أبوه قبل بلوغه.

قوله: (والتولي يوم الزحف) التولي: هو الإدبار والفرار، ويوم الزحف، أي: يوم لقاء الصفيين في قتال الكفار، وسمي يوم الزحف، لأن الجموع إذا مشى بعضها إلى بعض ثرى كالذي يمشي زحفا رويدا رويدا. والتولي يوم الزحف من كبائر الذنوب، لأنه يتضمن الإعراض عن الجهاد في سبيل الله، وكسر قلوب المسلمين، وتقوية أعداء الله، وهذا يؤدي إلى هزيمة المسلمين. لكن هذا الحديث خصصته الآية، وهي قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُؤَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبرُهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِعَضْبٍ مِنَ اللَّهِ﴾، فالله سبحانه استثنى حالين: الأولى: أن يكون متحرفا لقتال، أي: متهيئا له، كمن ينصرف ليصلح من شأنه أو يهيئ الأسلحة وبعدها، ومنه الانحراف إلى مكان آخر يأتي العدو من جهته.

الثانية: المتحيز إلى فئة، كما إذا حصرت سرية للمسلمين يمكن أن يقضي عليها العدو، فانصرف من هؤلاء لينقدها، فهذا لا بأس به لدعاء الضرورة إليه، بشرط ألا يكون على الجيش ضرر.

وكذا يجوز التولي إذا كان الكفار أكثر من مثلي المسلمين، فيجوز الفرار حينئذ، لقوله تعالى: ﴿الآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ﴾، أو كان عندهم عدة لا يمكن للمسلمين مقاومتها، كالتائرات إذا لم يكن عند المسلمين من الصواريخ ما يدفعها، فإذا علم أن الصمود يستلزم الهلاك والقضاء على المسلمين فلا يجوز لهم أن يبقوا.

قوله: (وقذف المحصنات) القذف: الرمي، والمراد به هنا الرمي بالزنا، والمحصنات هنا الحرائر، وهو الصحيح. والغافلات: العفيفات عن الزنا البعيدات عنه، اللاتي لا يخطر على بالهن هذا الأمر. والمؤمنات احتراز من الكافرات، فمن قذف امرأة هذه صفاتها فإن ذلك من الموبقات.

وقذف الرجل كقذف المرأة، وإنما خص بذلك المرأة لأن الغالب أن القذف يكون للنساء، فتخصيصهن من باب التخصيص بالغالب، والقيد الأغلب لا مفهوم له، لأنه لبيان الواقع. والشاهد من هذا الحديث قوله: السحر.

وعن جندب مرفوعا: «حد الساحر ضربة بالسيف» رواه الترمذي، وقال: الصحيح أنه موقوف<sup>(١)</sup>.

(١) أخرجه الترمذي في الحدود، باب ما جاء في الساحر (١٥٦/٥)، وقال: هذا حديث لا نعرفه مرفوعا إلا من هذا الوجه، وإسماعيل بن مسلم المكي يضعف في الحديث، وإسماعيل بن مسلم العدوي البصري قال وكيع: هو ثقة، ويروي عن الحسن أيضا، والصحيح عن جندب

قوله: (وعن جندب): ليس هو جندب بن عبد الله البجلي، بل جندب الخير المعروف بقاتل الساحر.  
قوله: (مرفوعا): أي: إلى النبي ﷺ، لكن نقل المؤلف عن الترمذي قوله: والصحيح أنه موقوف، أي: من  
قوله جندب.

قوله: (حد الساحر ضربة بالسيف): حده يعني: عقوبته المحددة شرعا.  
وظاهره أنه لا يكفر، لأن الحدود تطهر المحدود من الإثم، والكافر إذا قتل على رده فالقتل لا يطهره، وهذا  
محمول على ما سبق: أن من أقسام السحر ما لا يخرج الإنسان عن الإسلام، وهو ما كان بالأدوية والعقاقير التي  
توجب الصرف والعطف وما أشبه ذلك.  
قوله: (ضربة بالسيف): روي بالناء وروي بالهاء، وكلاهما صحيح، لكن الأولى أبلغ، لأن التنكير وصيغة  
الوحدة يدلان على أنها ضربة قوية قاضية، وهذا كناية عن القتل.

وفي صحيح البخاري عن بجالة بن عبدة قال: كتب عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن اقتلوا كل ساحر  
وساحرة. قال: فقتلنا ثلاث سواحر<sup>(١)</sup>.  
وصح عن حفصة رضي الله عنها أنها أمرت بقتل جارية لها سحرها فقتلت<sup>(٢)</sup>.  
وكذلك صح عن جندب<sup>(٣)</sup>.  
قال أحمد: عن ثلاثة من أصحاب النبي ﷺ.

قوله: وفي (صحيح البخاري): ذكر في الشرح \_ أعني تيسير العزيز الحميد \_ أن هذا اللفظ ليس في البخاري،  
والذي في البخاري: أنه أمر بأن يفرق بين كل ذي محرم من المجوس، وأما قتل الساحر فرواه القطيعي في الجزء

موقوف). والحديث أخرجه أيضا: الطبراني في (الكبير) (رقم ١٦٦٥)، والدارقطني (١١٤/٣)، والحاكم (٣٦٠/٤). (وصححه ووافقه  
الذهبي)، والبيهقي (١٣٦/٨). وأخرجه من طريق إسماعيل عن الحسن مرسلا: عبد الرزاق (١٨٤/١٠)، وابن حزم في (المحلى)  
(٣٩٦/١١). والحديث ضعفه ابن حجر في (الفتح) (٢٣٦/١٠)، ورجح الذهبي في (الكبائر) وفقه (ص ٤٢).  
(١) أخرجه الشافعي كما في بدائع المنن (١٥٣٢)، وعبد الرزاق (١٧٩/١٠، ١٨٠)، وأحمد في المسند (١٩٠/١، ١٩١)، وأبو داود في الخراج،  
باب أخذ الجزية من المجوس (٤٣١/٣)، والبيهقي (١٣٦/٨)، وابن حزم (٣٩٧/١١) وصححه.  
(٢) أخرجه مالك في الموطأ، كتاب العقول، باب ما جاء في الغيلة والسحر (٨٧١/٢) عن محمد بن عبد الرحمن بن سعد بلاغا. ووصله عبد الله  
بن الإمام في مسائل أبيه ص ٤٢٧، والبيهقي (١٣٦/٨) بسند صحيح، كما صححه الإمام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله.  
(٣) أخرجه البخاري في التاريخ الكبير (٢٢٢/٢)، والبيهقي (١٣٦/٨)، وسنده صحيح، كما صححه الإمام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله.

الثاني من فوائده، وقال الشارح: إسناده حسن. قال: فعزو المصنف إلى البخاري يحتمل أنه أراد أصله لا لفظه  
اهد.

وهذا القتل هل هو حد أم قتله لكفره؟ يحتمل هذا وهذا بناء على التفصيل السابق في كفر الساحر، فمن  
خرج به السحر إلى الكفر فقتله قتل ردة، ومن لم يخرج به السحر إلى الكفر فقتله من باب دفع الصائل يجب  
تنفيذه حيث رآه الإمام.

قوله: (قال أحمد: عن ثلاثة من أصحاب النبي ﷺ): أي صح عن ثلاثة من أصحاب النبي ﷺ، وهم: عمر  
وحفصة وجندب الخير.

والقول بقتلهم موافق للقواعد الشرعية، لأنهم يسعون في الأرض فسادا، وفسادهم من أعظم الفساد، فقتلهم  
واجب على الإمام، ولا يجوز للإمام أن يتخلف عن قتلهم، لأن مثل هؤلاء إذا تركوا وشأنهم انتشر فسادهم في  
الأرض، وإذا قتلوا سلم الناس من شرهم، وارتدع الناس عن تعاطي السحر.

## باب بيان شيء من أنواع السحر

قد سبق أن السحر ينقسم إلى قسمين: كفر، وفسق، فإن كان باستخدام الشياطين وما أشبه ذلك فهو كفر، وكذلك ما ذكره هنا من أنواع السحر، منها ما هو كفر، ومنها ما هو فسق، حسب ما تقتضيه الأدلة الشرعية.

قال أحمد: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا عوف، عن حيان بن العلاء، حدثنا قطن بن قبيصة، عن أبيه، أنه سمع النبي ﷺ قال: «إن العيافة والطرق والطيرة من الجبت»<sup>(١)</sup>.  
قال عوف: العيافة: زجر الطير، والطرق: الخط يخط بالأرض، والجبت قال الحسن: رنة الشيطان. إسناده جيد، ولأبي داود والنسائي وابن حبان في صحيحه المسند منه.

قوله: (العيافة): مصدر عاف يعيف عيافة، وهي: زجر الطير للتشاؤم أو التفاؤل، فإذا زجر الطائر وذهب شمالا تشاءم، وإذا ذهب يمينا تفاءل.

قوله: (الطرق): فسره عوف: بأنه الخط يخط في الأرض، فيخطون على الرمل على سبيل السحر والكهانة، فهذا نوع من السحر.

فإن قيل: قد صح عن الرسول ﷺ أن نبيا من الأنبياء كان يخط، وقال: «من وافق خطه فذاك»، فالجواب: أن الرسول ﷺ علقه بأمر لا يتحقق الوصول إليه، فما يدرينا هل وافق خطه أم لا؟

قوله: (الطيرة): أي: من الجبت، وهي اسم مصدر تطير، والمصدر منه تطير، وهي التشاؤم بمرئي أو مسموع، وقيل: التشاؤم بمعلوم، مرثيا كان أو مسموعا، زمانا كان أو مكانا، وهذا أشمل. وأصل التطير: التشاؤم، لكن أضيفت إلى الطير، لأن غالب التشاؤم عند العرب بالطير.

والإنسان إذا فتح على نفسه باب التشاؤم ضاقت عليه الدنيا، وصار يتخيل كل شيء أنه شؤم.

(١) أخرجه عبد الرزاق (٤٠٣/١٠)، وأحمد في مسنده (٤٧٧/٣، ٦٠/٥)، وابن سعد في الطبقات (٣٥/٧)، وأبو داود في الطب، باب في الخط وزجر الطير (٢٢٨/٤)، والنسائي في الكبرى، كما في تحفة الأشراف (٢٧٥/٨)، وابن حبان (١٤٢٦)، والطحاوي في شرح معاني الآثار (٣١٢/٤)، والبيهقي (١٣٩/٨)، والبعوي في شرح السنة (١٧٧/١٢). وقال النووي في رياض الصالحين: رواه أبو داود بإسناد حسن.

قوله: (من الجبت): سبق في الباب قبله عن عمر رضي الله عنه أن الجبت السحر.  
وأما قول الحسن: (الجبت: رنة الشيطان) فقال صاحب تيسير العزيز الحميد: لم أجد فيه كلاما. والظاهر أن رنة الشيطان أي: وحي الشيطان. وقول الحسن جاء في تفسير ابن كثير باللفظ الذي ذكره المؤلف، وجاء في المسند (٥ / ٦٠) بلفظ: إنه الشيطان.

ووجه كون العيافة من السحر أن العيافة يستند فيها الإنسان إلى أمر خفي لا حقيقة له، وليس بسبب شرعي ولا حسي، وهذا سحر كما سبق تعريف السحر في اللغة.  
وكذلك الطرق من السحر، لأنهم يستعملونه في السحر، ويتوصلون به إليه.  
والطيرة كذلك، لأنها مثل العيافة تماما، تستند إلى أمر خفي لا يصح الاعتماد عليه، وسيأتي في باب الطيرة ما يستثنى منه.

قوله: (إسناده جيد...): وعندي أنه أقل من الجيد في الواقع، إلا أن يكون هناك متابعات، ولكن بعض العلماء يذهب إلى أن الحديث إذا صح متنه وكان موافقا للأصول فإنه يتساهل في سنده، والعكس بالعكس، إذا كان مخالفا للأصول، فإنه لا يبالي بالسند، وهذا مسلك جيد بالنسبة لأخذ الحكم من الحديث، لكن بالنسبة للحكم على السند بأنه جيد بمجرد شهادة الأصول لهذا الحديث بالصحة فهذا مشكل؛ لأنه يلزم أنه لو جاءنا هذا السند في حديث آخر حكمنا بأنه جيد، فالأولى أن يقال: إن السند فيه ضعيف، ولكن المتن صحيح.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «من اقتبس شعبة من النجوم فقد اقتبس شعبة من السحر، زاد ما زاد» رواه أبو داود وإسناده صحيح<sup>(١)</sup>.

قوله: (اقتبس): أي: تعلم، لأن التعلم وهو أخذ الطالب من العالم شيئا من علمه بمنزلة الرجل يقتبس من صاحب النار شعلة.

قوله: (شعبة): أي: طائفة.

قوله: (من النجوم): المراد: علم النجوم الذي يستدل به على الحوادث الأرضية.

فعلم النجوم قسمان:

(١) أخرجه أحمد في المسند (١/٢٢٧، ٣١١) وأبو داود في الطب، باب في النجوم (٤/٢٢٦)، وابن ماجه في الأدب، باب تعلم النجوم (٢/١٢٢٨)، والطبراني في الكبير (١١٢٧٨)، والبيهقي (٨/١٣٨)، من حديث ابن عباس. والحديث صححه النووي في الرياض، والعراقي في تخریج الإحياء (٤/١١٧)، والذهبي، كما في فيض القدير (٦/٨٠).

الأول: علم التأثير، وهو أن يستدل بالأحوال الفلكية على الحوادث الأرضية، فهذا محرم باطل، وفيه ورد هذا الحديث.

الثاني: علم التسيير، وهو ما يستدل به على الجهات والأوقات، فهذا جائز، وقد يكون واجبا أحيانا، كما قال الفقهاء: إذا دخل وقت الصلاة يجب على الإنسان أن يتعلم علامات القبلة من النجوم والشمس والقمر، قال تعالى: ﴿وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾.

قوله: (فقد اقتبس شعبة من السحر) المراد بالسحر هنا: ما هو أعم من السحر المعروف، لأن هذا من الاستدلال بالأموال الخفية التي لا حقيقة لها، كما أن السحر لا حقيقة له، لكنه يمويه، فهكذا اختلاف النجوم لا تتغير بها الأحوال.

وقوله: (زاد ما زاد) أي: كلما زاد شعبة من تعلم النجوم ازداد شعبة من السحر.

وجه مناسبة الحديث لترجمة المؤلف: أن من أنواع السحر تعلم النجوم ليستدل بها على الحوادث الأرضية. وهذا الحديث وإن كان ضعيف السند، لكن من حيث المعنى صحيح تشهد له النصوص الأخرى.

وللنسائي من حديث أبي هريرة: «من عقد عقدة، ثم نفث فيها فقد سحر، ومن سحر فقد أشرك، ومن تعلق شيئا وكل إليه»<sup>(١)</sup>.

قوله: (ثم نفث فيها): النفث: النفخ بريق خفيف، والمراد هنا النفث من أجل السحر، أما لو عقد عقدة ثم نفث فيها من أجل أن تحتكم بالرطوبة فليس بداخل في الحديث، قوله: (ومن سحر فقد أشرك): هذا لا يتناول جميع السحر، إنما المراد من سحر بواسطة طاعة الشياطين واستخدامهم فيما يريد، فهذا لا شك أنه مشرك، أما من سحر بالأدوية والعقاقير وما أشبهها فقد سبق أنه لا يكون مشركا.

قوله: (ومن تعلق شيئا) أي: استمسك به، واعتمد عليه.

(وكل إليه)، أي: جعل هذا الشيء عمادا له، ووكله الله إليه، وتخلي عنه.

(١) أخرجه النسائي في كتاب تحريم الدم، باب الحكم في السحرة (١١٢/٧)، والمزي في تهذيب الكمال (٦٥٤/٢). وقال المنذري في الترغيب (٣٢/٤): رواه النسائي من رواية الحسن عن أبي هريرة، ولم يسمع منه عند الجمهور. وقال الذهبي في الميزان (٣٧٨/٢): هذا الحديث لا يصلح؛ للين عباد وانقطاعه. وحسنه ابن مفلح في الآداب (٧٨/٣)، ورواه عبد الرزاق عن الحسن مرسلًا في المصنف (١٧/١١). قال في النهج السديد ص ١٣٥: ثبت أن أصل الحديث مرسل، لكن عبادا أخطأ فوصله.

ومناسبة هذه الجملة للتي قبلها: أن النافخ في العقد يريد أن يتوصل بهذا الشيء إلى حاجته ومآربه، فيوكل إلى هذا الشيء المحرم.

ووجه آخر: وهو أن من الناس من إذا سُحر عن طريق النفخ بالعقد ذهب إلى السحرة وتعلق بهم، ولا يذهب إلى القراء والأدوية المباحة والأدعية المشروعة، ومن توكل على الله كفاه، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ﴾، وقد يشمل الحديث من اعتمد على نفسه وصار معجبا بما يقول ويفعل، فإنه يوكل إلى نفسه، فيوكل إلى ضعف وعجز وعورة، ولهذا ينبغي أن تكون دائما متعلقا بالله في كل أفعالك وأحوالك، حتى في أهون الأمور.

ونقول للإنسان: اعتمد على نفسك بالنسبة للناس، فلا تسألهم ولا تستندل أمامهم، واستغن عنهم ما استطعت، أما بالنسبة لله، فلا تستغن عنه، بل كن دائما معتمدا على ربك حتى تتيسر لك الأمور، ومن هذا النوع من يتعلقون ببعض الأحرار يعلقونها، فإنهم يوكلون إلى هذا، ولا يحصل لهم مقصودهم، لكنهم لو اعتمدوا على الله وسلكوا السبل الشرعية، حصل لهم ما يريدون، ومن هذا النوع أيضا من تعلق شيئا من القبور وجعلها ملجأه عند طلب الأمور فإنه يوكل إليه، لكن قد يفتن ويحصل له المطلوب عند دعاء هؤلاء، ولكن هذا المطلوب الذي حصل عند دعائهم لا بدعائهم، والآية صريحة في ذلك، قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾، لكن الله تعالى قد يفتن من شاء من عباده. مناسبة الحديث:

أن هؤلاء الذين يتعلقون بالسحر ويجعلونه صناعة يصلون بها إلى مآربهم يوكلون إلى ذلك، وآخر أمرهم الخسارة والندم.

وعن ابن مسعود أن رسول الله ﷺ قال: «ألا هل أنبئكم ما العضه؟ هي النميمة، القالة بين الناس»<sup>(١)</sup>.

قوله: (العضه) على وزن الحبل، بمعنى القطع، وأما رواية العضة على وزن عده فإنها بمعنى التفريق، وأيا كان فإنها تتضمن قطعا وتفريقا.

قوله: (هي النميمة): فعيلة بمعنى مفعولة، وهي من نم الحديث إلى غيره، أي: نقله، والنميمة فسرنا بقوله: (القالة بين الناس)، أي: نقل القول بين الناس، فينقل من هذا إلى هذا.

(١) أخرجه مسلم في البر والصلة، باب تحريم النميمة (٤/٢٠١٢).

والنميمة كما أخبر الرسول ﷺ تقطع الصلة، وتفرق بين الناس، وهذا يشبه السحر بالتفريق، قال تعالى: ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ﴾.

والنميمة من كبائر الذنوب، وهي سبب لعذاب القبر، ومن أسباب حرمان دخول الجنة، قال ﷺ: «لا يدخل الجنة قتات» أي: نمام، وفي حديث ابن عباس المتفق عليه: أنه ﷺ مر بقبرين يعذبان، أحدهما كان يمشي بالنميمة.

ولهما عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «إن من البيان لسحرا»<sup>(١)</sup>.

البيان: هو الفصاحة والبلاغة.

ووجه كون البيان سحرا أنه يأخذ بلب السامع، فيصرفه أو يعطفه، فيظن السامع أن الباطل حق لقوة تأثير المتكلم، وهذا من جنس السحر الذي يسمونه العطف والصرف.

وقوله: (إن من البيان لسحرا) ليس مدحا للبيان ولا ذما له، ولكنه بيان لواقعه، فالبيان من حيث هو لا يمدح عليه ولا يذم، ولكن ينظر إلى أثره والمقصود منه، فإن كان المقصود منه رد الحق وإثبات الباطل فهو مذموم، لأنه استعمال لنعمة الله في معصيته، وإن كان المقصود منه إثبات الحق وإبطال الباطل فهو ممدوح، والبيان من حيث هو لا شك أنه نعمة، ولهذا امتن الله به على الإنسان، فقال تعالى: ﴿عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾.

وقد كان المؤلف حكيما في تعبيره بالترجمة، حيث قال: باب بيان شيء من أنواع السحر، ولم يحكم عليها بشيء، لأن منها ما هو شرك، ومنها ما هو من كبائر الذنوب، ومنها دون ذلك، ومنها ما هو جائز على حسب ما يقصد به وعلى حسب آثاره.

(١) أخرجه البخاري في النكاح، باب الخطبة (٣٧٤/٣) من حديث ابن عمر، ومسلم في الجمعة، باب تخفيف الصلاة والخطبة (٥٩٤/٢) من حديث عمار بن ياسر.

## باب ما جاء في الكهان ونحوهم

الكهان والكهنة: جمع كاهن، وهم قوم يكونون في أحياء العرب يتحاكم الناس إليهم، وتتصل بهم الشياطين، وتخبرهم عما كان في السماء، تسترق السمع من السماء وتخبر الكاهن به، ثم الكاهن يضيف إلى هذا الخبر ما يضيف من الأخبار الكاذبة ويخبر الناس بالأمور المستقبلية، فإذا وقع مما أخبر به شيء اعتقده الناس علما بالغيب، فصاروا يتحاكمون إليهم.

وليس من الكهانة في شيء من يخبر عن أمور تدرك بالحساب، كمن يخبر عن كسوف الشمس أو خسوف القمر مستندا إلى الحساب، ومن يخبر عن أحوال الطقس في الأربع والعشرين ساعة القادمة وما أشبه ذلك؛ لأنه أيضا يستند إلى أمور حسية، فمن أخبر عن أمر مستقبل مستندا إلى شيء محسوس فليس من علم الغيب، والشيء الذي يدرك بالحس إنكاره قبيح، ومن أنكره مستندا إلى الشرع فهو متسبب إلى الطعن في الشرع.

روى مسلم في صحيحه عن بعض أزواج النبي ﷺ عن النبي ﷺ قال: «من أتى عرافا فسأله عن شيء فصدقه بما يقول لم تقبل له صلاة أربعين يوما»<sup>(١)</sup>.

العراف: صيغة مبالغة من العارف، أو نسبة، أي: من ينتسب إلى العرافة.  
والعراف قيل: هو الكاهن، وهو الذي يخبر عن المستقبل. وقيل: هو اسم عام للكاهن والمنجم والرمال ونحوهم ممن يستدل على معرفة الغيب بمقدمات يستعملها، وهذا المعنى أعم، ويدل عليه الاشتقاق، إذ هو مشتق من المعرفة، فيشمل كل من تعاطى هذه الأمور وادعى بها المعرفة.  
قوله: (فسأله عن شيء... لم تقبل له صلاة أربعين يوما) ظاهر الحديث أن مجرد سؤاله يوجب عدم قبول صلاته أربعين يوما، ولكنه ليس على إطلاقه، فسؤال العراف ونحوه ينقسم إلى أقسام:  
القسم الأول: أن يسأله سؤالا مجردا، فهذا حرام؛ لقول النبي ﷺ «من أتى عرافا...» فإثبات العقوبة على سؤاله يدل على تحريمه، إذ لا عقوبة إلا على فعل محرم.

(١) أخرجه مسلم في السلام، باب تحريم الكهانة وإتيان الكهان (١٧٥/٤) دون قوله (فصدقه)، وقد أخرج هذه الزيادة الإمام أحمد في مسنده (٣٨٠/٥، ٦٨/٤).

القسم الثاني: أن يسأله فيصدقته ويعتبر قوله، فهذا كفر؛ لأن تصديقه في علم الغيب تكذيب للقرآن، حيث قال تعالى: ﴿قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ﴾.

القسم الثالث: أن يسأله ليختبره هل هو صادق أو كاذب، لا لأجل أن يأخذ بقوله، فهذا لا بأس به، ولا يدخل في الحديث، وقد سأل النبي ﷺ ابن صياد فقال: «ماذا خبأت لك؟» قال: الدخ. فقال: «اخشأ، فلن تعدو قدرك»، فالنبي ﷺ سأله عن شيء أضره له، لأجل أن يختبره، فأخبره به.

القسم الرابع: أن يسأله ليظهر عجزه وكذبه، فيمتحنه في أمور يتبين بها كذبه وعجزه، وهذا مطلوب، وقد يكون واجبا.

هذا، وخدمة الجن للإنس ليست محرمة على كل حال، بل هي على حسب الحال، فالجني يخدم الإنس في أمور لمصلحة الإنس، وقد يكون للجن فيها مصلحة، وقد لا يكون له فيها مصلحة، بل لأنه يحبه في الله، وقد يخدمونهم لطاعة الإنس لهم فيما لا يرضي الله عزوجل، إما في الذبح لهم، أو في عبادتهم، أو ما أشبه ذلك.

وقوله: (فصدقه): ليست في صحيح مسلم، بل في رواية أحمد، والذي في مسلم: (فسأله عن شيء لم تقبل له صلاة أربعين ليلة) وزيادتها في نقل المؤلف إما لأن النسخة التي نقل منها فيها هذا اللفظ (فصدقه)، أو أن المؤلف عزاه إلى مسلم باعتبار أصله، فأخذ من مسلم: (فسأله)، وأخذ من أحمد: (فصدقه).

وقوله: (لم تقبل له صلاة أربعين ليلة)، نفى القبول إن كان لفوات شرط أو لوجود مانع فهو نفي لصحة العبادة، كما لو قلت: من صلى بغير وضوء لم يقبل الله صلاته، ومن صلى في مكان مغصوب لم يقبل الله صلاته، عند من يرى ذلك.

وإن كان نفي القبول لا يتعلق بفوات شرط ولا وجود مانع، فلا يلزم منه نفي الصحة، وإنما يكون المراد بالقبول المنفي: إما نفي القبول التام، أي: لم تقبل على وجه التمام الذي يحصل به تمام الرضا وتمام المثوبة، وإما أن يراد به أن هذه السيئة التي فعلها تقابل تلك الحسنة في الميزان فتسقطها، ويكون وزرها موازيا لأجر تلك الحسنة، وإذا لم يكن له أجر صارت كأنها غير مقبولة، وإن كانت مجزئة ومبرئة للذمة، لكن الثواب الذي حصل بها قوبل بالسيئة فأسقطته، ومنه حديث الباب، ومنه أيضا قوله ﷺ «من شرب الخمر، لم تقبل له صلاة أربعين يوما».

وقوله: (أربعين يوما): تخصيص هذا العدد لا يمكننا أن نعلله، لأن الشيء المقدر بعدد لا يستطيع الإنسان غالبا أن يعرف حكمته، فكون الصلاة خمس صلوات أو خمسين لا نعلم لماذا خصصت بذلك، فهذا من الأمور التي يقصد بها التعبد لله، والتعبد لله بما لا تعرف حكمته أبلغ من التعبد له بما تعرف حكمته، لأنه أبلغ في التذلل.

ويؤخذ من الحديث: تحريم إتيان العراف وسؤاله، إلا ما استثني كالتقسيم الثالث والرابع، لما في إتيانهم وسؤالهم من المفاسد العظيمة، التي ترتب على تشجيعهم وإغراء الناس بهم، وهم في الغالب يأتون بأشياء باطلة.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «من أتى كاهنا فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد ﷺ» رواه أبو داود<sup>(١)</sup>.

قوله: (كفر بما أنزل على محمد): وجه ذلك: أن ما أنزل على محمد—وهو القرآن—قال الله تعالى فيه: ﴿قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ﴾، فالذي يصدق الكاهن في علم الغيب وهو يعلم أنه لا يعلم الغيب إلا الله فهو كافر كفرا أكبر مخرجا عن الملة، وإن كان جاهلا ولا يعتقد أن القرآن فيه كذب، فكفره كفر دون كفر.

وللأربعة والحاكم—وقال: صحيح على شرطهما—عن أبي هريرة: «من أتى عرافا أو كاهنا فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد ﷺ»<sup>(٢)</sup>.  
ولأبي يعلى بسند جيد عن ابن مسعود مثله موقوفا<sup>(٣)</sup>.

(١) أخرجه أحمد (٤٠٨/٢، ٤٧٦)، والبخاري في التاريخ الكبير (١٦٦/٣، ١٧)، وأبو داود في الطب، باب في الكاهن (٢٢٥/٤)، والترمذي في الطهارة، باب في كراهية إتيان الحائض (١٦٤/١)، وقال: لا نعرف هذا الحديث إلا من حديث حكيم الأثرم، عن أبي تيممة الهجيمي، عن أبي هريرة... وضعف محمد هذا الحديث من قبل إسناده. وأخرجه ابن ماجه في الطهارة، باب النهي عن إتيان الحائض (٢٠٩/١)، والدارمي (٢٥٩/١)، وابن الجارود (٢٠٧)، والعقيلي (٣١٨/١)، والطحاوي في شرح معاني الآثار (٤٤/٣)، والبيهقي في السنن (١٩٨/٧)، والحاكم (٨/١) وصححه على شرط الشيخين. والحديث صححه الألباني في الإرواء (٦٨/٧).

(٢) أخرجه الإمام أحمد (٤٢٩/٢)، والحاكم في المستدرک (٨/١) وصححه على شرطهما، والبيهقي (١٣٥/٨). وقال الشارح الشيخ سليمان في تيسير العزيز الحميد ص ٤٠٩: قال العراقي في أماليه: حديث صحيح، وقال الذهبي: إسناده قوي، وعلى هذا فعزو المصنف إلى الأربعة ليس كذلك؛ فإنه لم يروه أحد منهم، وأظنه تبع في ذلك الحافظ، فإنه عزاه في الفتح إلى أصحاب السنن والحاكم فوهم، ولعله أراد الذي قبله. وانظر: فتح الباري (٢١٧/١٠)، فيض القدير (٢٣/٦).

(٣) أخرجه الطبراني في الكبير (١٠٠٠٥)، والبخاري كما في كشف الأستار عن زوائد البزار (٤٤٣/٢). قال المنذري في الترغيب (٣٦/٤): رواه البزار وأبو يعلى بإسناد جيد موقوفا. وقال الهيثمي في المجمع (١١٨/٥): ورجال الكبير والبزار ثقات. وقال الحافظ في الفتح (٢١٧/١٠): إسناده جيد.

قوله: (صحيح على شرطهما): أي: شرط البخاري ومسلم، لكن هذا على ما يعتقد، وقد يكون الأمر على خلاف ذلك، فقد تكون فيه علة خفية خفيت على هذا القائل.

قوله: (من أتى عرافا أو كاهنا) (أو) يحتمل أن تكون للشك، ويحتمل أن تكون للتنويع، فالحديث الأول بلفظ عراف، والثاني بلفظ كاهن، والثالث جمع بينهما، فتكون (أو) للتنويع.

وجاء المؤلف بهذا الحديث مع أن الأول والثاني مغنيان عنه لأن كثرة الأدلة مما يقوي المدلول.

وظاهر صنيع المؤلف: أن حديث أبي هريرة: (من أتى عرافا أو كاهنا) أنه موقوف، لكنه لما قال في الذي بعده: (موقوفا) ترجح عندنا أن الحديث الذي قبله مرفوع.

وعن عمران بن حصين مرفوعا: «ليس منا من تطير أو تطير له، أو تكهن أو تكهن له، أو سحر أو سحر له، ومن أتى كاهنا فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد ﷺ» رواه البزار بإسناد جيد<sup>(١)</sup>.

ورواه الطبراني في الأوسط بإسناد حسن من حديث ابن عباس، دون قوله: «ومن أتى...» إلى آخره<sup>(٢)</sup>.

قوله: (ليس منا): تقدم أن هذه الكلمة لا تدل على خروج الفاعل من الإسلام، بل على حسب الحال.

قوله: (تطير): التطير: هو التشاؤم بالمرئي أو المسموع أو المعلوم أو غير ذلك، وأصله من الطير، لأن العرب كانوا يتشاءمون أو يتفاءلون بها.

ومنه ما يحصل لبعض الناس إذا شرع في عمل ثم حصل له في أوله تعثر تركه وتشاءم، فهذا غير جائز، بل يعتمد على الله ويتوكل عليه، وكم من إنسان لم يوفق في العمل أول مرة، ثم وفق في ثاني مرة أو ثالث مرة.

قوله: (أو تُطَيَّر له): بالبناء للمفعول، أي: أمر من يتطير له.

وقوله: (من تَطَيَّر) يشمل من تطير لنفسه، أو تطير لغيره.

قوله: (أو تكهن أو تكهن له) سبق أن الكهانة ادعاء علم الغيب في المستقبل.

(١) أخرجه البزار كما في الترغيب (٣٣/٤)، ومجمع الزوائد للهيثمي (١١٧/٥). وقال المنذري: إسناده جيد. وقال الهيثمي: ورجاله رجال الصحيح، خلا إسحاق بن الربيع، وهو ثقة.

(٢) قال الهيثمي في مجمع الزوائد (١١٧/٥): رواه البزار والطبراني في الأوسط، وفيه زمعة بن صالح، وهو ضعيف. وقال المنذري في الترغيب (٣٣/٤): إسناده حسن.

ومن الغريب أنه شاع الآن في أسلوب الناس قولهم: تكهن بأن فلانا سيأتي، ويطلقون هذا اللفظ الدال على عمل محرم على أمر مباح، وهذا لا ينبغي، لأن العامي الذي لا يفرق بين الأمور يظن أن الكهانة كلها مباحة، بدليل إطلاق هذا اللفظ على شيء مباح معلوم إباحته.

قوله: (أو تكهن له) أي: طلب من الكاهن أن يتكهن له، كأن يقول للكاهن: ماذا يصيبني غدا.  
قوله: (أو سحر أو سحر له) أي طلب من الساحر أن يسحر له، ومنه النشرة عن طريق السحر، فهي داخلة فيه.

الشاهد من هذا الحديث: قوله: (ومن أتى كاهنا) إلخ.  
وقوله: (ورواه الطبراني في الأوسط بإسناد حسن من حديث ابن عباس...) إلخ، أي فيكون هذا مقويا للأول.

قال البغوي: العراف: الذي يدعي معرفة الأمور بمقدمات يستدل بها على المسروق ومكان الضالة ونحو ذلك.  
وقيل: هو الكاهن.  
والكاهن: هو الذي يخبر عن المغيبات في المستقبل. وقيل: الذي يخبر عما في الضمير.  
وقال أبو العباس ابن تيمية: العراف اسم للكاهن والمنجم والرمال ونحوهم ممن يتكلم في معرفة الأمور بهذه الطرق.

ظاهر كلام البغوي رحمه الله: أن العراف هو من يدعي معرفة الأمور الواقعة، كمكان المسروق والضالة، ولكن المسألة ليست اتفاقية بين أهل العلم، ولهذا قال المؤلف رحمه الله: (وقيل: هو الكاهن)، والكاهن: هو الذي يخبر عن المغيبات في المستقبل.

قوله: (وقيل: هو الذي يخبر عما في الضمير): أي: أن تضمّر شيئا فتقول: ما أضمرت؟ فيقول: أضمرت كذا وكذا.

أو المغيبات في المستقبل، تقول: ماذا سيحدث في الشهر الفلاني في اليوم الفلاني؟ ماذا ستلد امرأتي، متى يقدم ولدي؟

والخلاصة أن العلماء اختلفوا في تعريف العراف، هل هو مختص بمن يخبر عن المغيبات في المستقبل، أم يدخل فيه من يخبر عن أمور واقعة كمكان المسروق والضالة.

قوله: (وقال أبو العباس ابن تيمية: العراف اسم للكاهن والمنجم والرمال ونحوهم) شيخ الإسلام ساق هذا القول وارتضاه، ثم قال: ولو قيل: إن العراف اسم خاص ببعض هؤلاء، وباقيهم يدخلون فيه بالعموم المعنوي. لأن عندنا عموماً معنوياً، وهو ما ثبت عن طريق القياس، وعموماً لفظياً، وهو ما دل عليه اللفظ، بحيث يكون اللفظ شاملاً له.

وقال ابن عباس في قوم يكتبون (أبا جاد) وينظرون في النجوم: ما أرى من فعل ذلك له عند الله من خلاق<sup>(١)</sup>.

قوله: (يكتبون أبا جاد وينظرون في النجوم): الواو هنا ليست عطفاً، ولكنها للحال، يعني: والحال أنهم ينظرون، فيربطون ما يكتبون بسير النجوم وحركتها.  
قوله: (ما أرى من فعل ذلك): يجوز بفتح الهمزة بمعنى: أعلم، وبالضم بمعنى: ما أظن.  
وقوله: (أبا جاد): هي: أَبَجَدُ هَوَزٌ حُطِّي كِلْمُن سَعَفَصُ قَرَشْتُ تخذ ضغط.  
وتعلم أبا جاد ينقسم إلى قسمين:  
الأول: تعلم مباح، وهو تعلمها للهجاء والحساب والتأريخ.  
الثاني: محرم، وهو كتابة (أبا جاد) كتابةً مربوطة بسير النجوم وحركتها ليستدلوا بذلك على ما سيحدث في الأرض.

وقوله: (ما أرى من فعل ذلك له عند الله من خلاق)، الخلاق: النصيب.  
وظاهر كلام ابن عباس أنه يرى كفرهم، لأن الذي ليس له نصيب عند الله هو الكافر.  
ولم يبين المؤلف رحمه الله حكم الكاهن والمنجم والرمال من حيث العقوبة في الدنيا، فإن حكمنا بكفرهم فإنهم يستتابون، فإن تابوا وإلا قتلوا كفاراً.  
وإن حكمنا بعدم كفرهم فإنه يجب قتلهم أيضاً لدفع مفسدتهم، لأن أسباب القتل ليست مختصة بالكفر فقط، بل للقتل أسباب متعددة ومتنوعة، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَاداً أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ﴾، فكل من أفسد على الناس أمور دينهم أو دنياهم، فإنه يستتاب، فإن تاب وإلا قتل، ولا سيما إذا كانت هذه الأمور تصل إلى الإخراج من الإسلام.

(١) أخرجه عبد الرزاق في المصنف (٢٦/١١)، والبيهقي في السنن الكبرى (١٣٩/٨).

## باب ما جاء في النُشْرة

النُشْرة في اللغة التفريق.

وفي الاصطلاح: حل السحر عن المسحور.

لأن حل السحر عن المسحور يرفعه ويزيله ويفرقه.

أما حكمها، فهو يتبين مما قاله المؤلف رحمه الله، وهو من أحسن البيانات.

ولا ريب أن حل السحر عن المسحور من باب الدواء والمعالجة، وفيه فضل كبير لمن ابتغى به وجه الله واستعمل القسم المباح منها؛ لأن السحر له تأثير على بدن المسحور وعقله ونفسه وضيق الصدر، فالتسبب في رفع هذا البلاء عن المسحور من أفضل أعمال الإحسان.

عن جابر أن رسول الله ﷺ سئل عن النشرة فقال: «هي من عمل الشيطان» رواه أحمد بسند جيد وأبو داود<sup>(١)</sup> وقال: سئل أحمد عنها، فقال: ابن مسعود يكره هذا كله.

قوله: (عن النشرة): أل للعهد الذهني، أي: المعروفة في الجاهلية، وهي على نوعين:

الأول: أن تكون باستخدام الشياطين، فإن كان لا يصل إلى حاجته منهم إلا بالشرك كانت شركاً، وإن كان يتوصل لذلك بمعصية دون الشرك كان لها حكم تلك المعصية.

الثاني: أن تكون بالسحر، كالأدوية والرقى والعقد والنقث وما أشبه ذلك، فهذا له حكم السحر على ما سبق.

قوله: (من عمل الشيطان): هذا يغني عن قوله: إنها حرام، بل هو أشد، لأن نسبتها للشيطان أبلغ في تقييحها والتنفير منها.

ودلالة النصوص على التحريم لا تنحصر في لفظ التحريم أو نفي الجواز، بل إذا رتب العقوبات على الفعل كان دليلاً على تحريمه.

(١) أخرجه الإمام أحمد (٢٩٤/٣)، وأبو داود في الطب، باب في النشرة (٢٠١/٤)، وحسنه الحافظ في الفتح (٢٣٣/١٠)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠٢/٥): رواه البزار والطبراني في الأوسط، إلا أنه قال: ذكروا أنهما من عمل الشيطان، ورجال البزار رجال الصحيح.

قوله: (فقال: ابن مسعود يكره هذا كله): أجاز رحمه الله بقول الصحابي، وكأنه ليس عنده أثر صحيح عن النبي ﷺ في ذلك، وإلا لاستدل به.

والمشار إليه في قوله: (يكره هذا كله) كل أنواع النشرة، وظاهره: ولو كانت على الوجه المباح الذي سيأتي، لكنه غير مراد، لأن النشرة بالقرآن والتعوذات المشروعة لم يقل أحد بكرهاته؛ فالكلية في قول أحمد: (يكره هذا كله) يراد بها النشرة التي من عمل الشيطان، وهي النشرة بالسحر والنشرة التي من التمايم. وقوله: (يكره): الكراهة عند المتقدمين يراد بها التحريم غالباً.

وفي البخاري عن قتادة: قلت لابن المسيب: رجل به طب أو يؤخذ عن امرأته، أيجل عنه أو ينشر؟ قال: لا بأس به، إنما يريدون به الإصلاح، فأما ما ينفع، فلم ينه عنه<sup>(١)</sup>.

قوله: (رجل به طب): أي: سحر، ومن المعلوم أن الطب هو علاج المرض، لكن سمي السحر طباً من باب التفاضل.

قوله: (أو يؤخذ عن امرأته): أي: يجبس عن زوجته، فلا يتمكن من جماعها. و(أو) في قوله: (أو يؤخذ) يحتمل أنها للشك من الراوي، ويحتمل أن تكون للتنويع. قوله: (أيجل عنه أو ينشر): لا شك أن (أو) هنا للشك، لأن الحل هو النشرة. قوله: (لا بأس به، إنما يريدون به الإصلاح): كأن ابن المسيب رحمه الله قسم السحر إلى قسمين: ضار، ونافع.

فالضار محرم، قال تعالى: ﴿وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ﴾، والنافع لا بأس به، هذا ظاهر ما روي عنه، وبهذا أخذ أصحابنا الفقهاء، فقالوا: يجوز حل السحر بالسحر للضرورة.

فإن قلت: ما الجمع بين قول الفقهاء رحمهم الله هذا، وبين قولهم بوجوب قتل الساحر؟ قيل: الجمع أن مرادهم بقتل الساحر من يضر بسحره دون من ينفع فلا يقتل، أو أن مرادهم بيان حكم حل السحر بالسحر للضرورة، وأما الإبقاء على الساحر فله نظر آخر، والله أعلم.

وقال بعض أهل العلم: إنه لا يجوز حل السحر بالسحر، وحملوا ما روي عن ابن المسيب على أن المراد به: ما لا يعلم حاله: هل هو سحر، أم غير سحر؟ أما إذا علم أنه سحر فلا يجل، والله أعلم.

(١) أخرجه البخاري معلقاً بصيغة الجزم في الطب، باب هل يستخرج السحر (٤/٤٨)، وانظر: فتح الباري (١٠/٢٣٢).

وعلى كل حال فلو كان ابن المسيب ومن فوق ابن المسيب ممن ليس قوله حجة يرى أنه جائز، فلا يلزم من ذلك أن يكون جائزا في حكم الله حتى يعرض على الكتاب والسنة، وقد سئل الرسول ﷺ عن النشرة فقال: هي من عمل الشيطان.

وروي عن الحسن، أنه قال: لا يحل السحر إلا ساحر.

هذا الأثر إن صح فمراد الحسن: الحل المعروف غالبا، وأنه لا يقع إلا من السحرة.

قال ابن القيم: النشرة: حل السحر عن المسحور، وهي نوعان: أحدهما: حل بسحر مثله، وهو الذي من عمل الشيطان، وعليه يحمل قول الحسن، فيتقرب الناشر والمنتشر إلى الشيطان بما يجب فيبطل عمله عن المسحور. والثاني: النشرة بالرقية والتعوذات والأدوية والدعوات المباحة، فهذا جائز.

هذا الكلام جيد ولا مزيد عليه.

## باب ما جاء في التطير

التطير مأخوذ من الطير، لأن العرب يتشاءمون أو يتفاءلون بالطيور على الطريقة المعروفة عندهم بزجر الطير. أما في الاصطلاح فالتطير هو التشاؤم بمرئي أو مسموع، وإن شئت فقل: أو معلوم. بمرئي مثل من رأى طيرا فتشاءم لكونه موحشا.

أو مسموع مثل من هم بأمر فسمع أحدا يقول لآخر: يا خسران! أو يا خائب! فيتشاءم. أو معلوم، كالتشاؤم ببعض الأيام أو بعض الشهور أو بعض السنوات.

واعلم أن التطير ينافي التوحيد، ووجه منافاته له من وجهين:

الأول: أن المتطير قطع توكله على الله واعتمد على غير الله.

الثاني: أنه تعلق بأمر لا حقيقة له، بل هو وهم وتخيل.

المتطير لا يخلو من حالين:

الأول: أن يحجم ويستجيب لهذه الطيرة ويدع العمل، وهذا من أعظم التطير والتشاؤم.

الثاني: أن يمضي لكن في قلق وهم وترقب لوقوع المكروه.

وكلا الأمرين نقص في التوحيد وضرر على العبيد، بل انطلق إلى ما تريد بانشرح صدر وتيسر واعتماد على

الله عزوجل ولا تسئ الظن بالله عزوجل

وقد ذكر المؤلف رحمه الله في هذا الباب آيتين:

وقول الله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

هذه الآية نزلت في قوم موسى كما حكى الله عنهم في قوله: ﴿وَإِنْ تُصِيبُهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ﴾،

أي أنهم إذا جاءهم البلاء والجذب والقحط قالوا: هذا من موسى وأصحابه، فأبطل الله هذه العقيدة بقوله: ﴿أَلَا

إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ﴾، والمعنى: أما يصيبهم من الجذب والقحط ليس من موسى وقومه، ولكنه من الله، فهو

الذي قدره، ولا علاقة لموسى وقومه به، بل إن الأمر يقتضي أن موسى وقومه سبب للبركة والخير، ﴿وَلَكِنَّ

أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾، فلا يعلمون أن هناك إلها مدبرا، وأن ما أصابهم من الله وليس من موسى وقومه، بل إن

موسى سبب للبركة والخير لو اتبعوه.

وقوله: ﴿قَالُوا طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ﴾.

هذا جواب المرسلين لأصحاب القرية الذين قال الله فيهم: ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ﴾، فذكر الله تعالى أن أهل القرية قالوا للمرسلين: ﴿إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ﴾ أي: تشاءمنا بكم، فأجابهم الرسل بقولهم: ﴿طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ﴾ أي: مصاحب لكم، فما يحصل لكم من مكروه فإنه منكم ومن أعمالكم، فأنتم السبب في ذلك.

ولا منافاة بين هذه الآية والتي قبلها، لأن الأولى تدل على أن المقدر لذلك هو الله، والثانية تبين سببه، وهو أعمالهم السيئة.

ويستفاد من الآيتين: أن التطير كان معروفًا من قبل العرب وفي غير العرب، لأن الأولى في فرعون وقومه، والثانية في أصحاب القرية.

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لا عدوى ولا طيرة ولا هامة ولا صفر» أخرجه<sup>(١)</sup>.  
وزاد مسلم: «ولا نوء ولا غول»<sup>(٢)</sup>.

العدوى: انتقال المرض من المريض إلى الصحيح.

والطيرة: اسم مصدر تطير، وسبق تعريفها.

والهامة \_بتخفيف الميم\_ فسرت بتفسيرين:

الأول: أنها طير معروف يشبه البومة، أو هي البومة، تزعم العرب أنه إذا قتل القاتل صارت عظامه هامة تصيح حتى يؤخذ بثأره، وربما اعتقد بعضهم أنها روحه.

الثاني: أن الهامة طير يتشاءمون به، فإذا وقعت على بيت أحدهم رأى ذلك علامة على قرب أجله.  
وصفر: فيه ثلاثة أقوال:

قيل: إنه شهر صفر، كانت العرب يتشاءمون به ولا سيما في النكاح.

وقيل: إنه داء معدٍ يصيب الإبل، فيكون عطفه على العدوى من باب عطف الخاص على العام.

(١) أخرجه البخاري في الطب، باب لا هامة (٤٧/٤)، ومسلم في السلام، باب لا عدوى ولا طيرة (١٧٤٣/٤).

(٢) أخرجه مسلم في الموضوع السابق، فقد أخرج حديث أبي هريرة بزيادة: «ولا نوء»، ومن حديث جابر بزيادة: «ولا غول».

وقيل: إنه نهي عن النسب، وكانوا في الجاهلية ينسئون، فإذا أرادوا القتال في شهر المحرم استحلوه وأخروا الحرمه إلى شهر صفر، وهذا القول ضعيف، لأن الحديث في سياق التطير، وليس في النسب.

والأقرب أن صفر هو الشهر، وأن المراد نفي كونه مشؤوما، فهو كغيره من الأزمان يقدر فيه الخير والشر. وهذا النفي في هذه الأمور الأربعة ليس نفيًا للوجود، لأنها موجودة، لكن ما كان منها سببا معلوما فالنفي منصب على تأثيره بنفسه، وما كان منها سببا موهوما فالنفي منصب على كونه سببا.

فقلوه: (لا عدوى) العدوى موجودة، وهي سبب ثابت لانتقال المرض، فالمراد بنفيها نفي تأثيرها بنفسها، ويدل لثبوت العدوى قوله ﷺ «لا يورد ممرض على مصح» أي: لا يورد صاحب الإبل المريضة على صاحب الإبل الصحيحة، لئلا تنتقل العدوى، وقوله ﷺ «فر من المجذوم فرارك من الأسد» فالأمر بالفرار من المجذوم فيه إثبات لتأثير العدوى، لكن تأثيرها ليس أمرا حتميا بحيث تكون علة فاعلة، فالأسباب لا تؤثر بنفسها، لكن ينبغي لنا أن نتجنب الأسباب التي تكون سببا للبلاء، لقلوه تعالى: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾، ولا يمكن أن يقال: إن الرسول ﷺ ينكر تأثير العدوى، لأن هذا أمر يبطله الواقع والأحاديث الأخرى.

وأما قول الرسول ﷺ لما قال: «لا عدوى» فقال رجل: يا رسول الله! الإبل تكون صحيحة مثل الطباء، فيدخلها الجمل الأجر فتجرب؟ فقال النبي ﷺ: «فمن أعدى الأول؟!» فلا ينفي تأثير العدوى، وإنما معناه أن ذلك بأمر الله وإذنه، بدليل أن المرض نزل على الأول بدون عدوى، بل نزل من عند الله عزوجل فكذلك إذا انتقل بالعدوى.

فعلى الإنسان أن يعتمد على الله ويتوكل عليه، وقد روي أن النبي ﷺ جاءه رجل مجذوم، فأخذ بيده وقال له: كل. وذلك لقوة توكله ﷺ، فهذا التوكل مقاوم لهذا السبب المعدي.

وهذا الجمع الذي أشرنا إليه هو أحسن ما قيل في الجمع بين الأحاديث، وادعى بعضهم النسخ، واختلفوا في أيهما النسخ، والصحيح أنه لا نسخ، لأن من شروط النسخ تعذر الجمع، فإذا أمكن الجمع وجب الرجوع إليه.

وقوله: (لا صفر) سبق أن الراجح في معناه: نفي كون شهر صفر شهرا مشؤوما.

وبعض الناس إذا أرخ شيئا في صفر قال: صفر الخير! وهذا من مداواة البدعة ببدعة، فهو ليس شهر خير ولا شهر شر، وقد أنكر بعض السلف على من إذا سمع البومة تنعق قال: خير إن شاء الله! فلا يقال: خير ولا شر، بل هي تنعق كبقية الطيور.

أما شهر رمضان وقولنا: إنه شهر خير، فالمراد بالخير العبادة، ولا شك أنه شهر خير، وقولهم: رجب المعظم، بناء على أنه من الأشهر الحرم.

والمقصود أن هذه الأربعة التي نفاها الرسول ﷺ تبين وجوب التوكل على الله وصدق العزيمة. ومن التطيّر أيضا: فتح المصحف لطلب التفاؤل، فإذا نظر ذكر النار تشاءم، وإذا نظر ذكر الجنة تفاءل، فهذا مثل عمل الجاهلية الذين يستقسمون بالأزلام.

فالحاصل ألا تجعل على بالك مثل هذه الأمور إطلاقا، فالأسباب المعلومة الظاهرة تقي أسباب الشر، وأما الأسباب الموهومة التي لم يجعلها الشر سببا بل نفاها، فلا يجوز لك أن تتعلق بها، بل احمد الله على العافية، وقل: ربنا عليك توكلنا.

وقوله: (لا نوء) هو واحد الأنواء، والأنواء: هي منازل القمر، وهي ثمان وعشرون منزلة، كل منزلة لها نجم، تدور بمدار السنة، والعرب كانوا يتشاءمون بالأنواء ويتفاءلون بها، ولا شك أن هذا غاية الجهل، فالنوء لا تأثير له، وهو يدل على دخول الفصول فقط.

وفي عصرنا الحاضر يُعلّق المطر بالضغط الجوي والمنخفض الجوي، وهذا وإن كان قد يكون سببا حقيقيا \_ ولكن لا يُفتح هذا الباب للناس، بل الواجب أن يقال: هذا من رحمة الله، هذا من فضله ونعمه، قال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ فَتُثْبِتُ سُحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسْفًا فَنَزِلُ الرِّيحَ بِخُزْجٍ مِنْ خِلَالِهِ﴾، نعم، المنخفضات الجوية قد تكون سببا لنزول المطر، لكن ليست هي المؤثر بنفسها، وتعليق المطر بالمنخفضات الجوية مما يصرف الإنسان عن تعلقه بربه.

قوله: (ولا عُول): العرب كانوا إذا سافروا تلونت لهم الشياطين بألوان مفرعة مخيفة، وهذا الذي نفاه الرسول ﷺ هو تأثيرها، وليس المقصود بالنفي نفي الوجود، وأكثر ما يتلى الإنسان بهذه الأمور إذا كان قلبه معلقا بها، أما إن كان معتمدا على الله غير مبال بها، فلا تضره ولا تمنعه عن جهة قصده.

ولهما عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «لا عدوى ولا طيرة، ويعجبني الفأل». قالوا: وما الفأل؟ قال: «الكلمة الطيبة»<sup>(١)</sup>.

قوله: (لا عدوى ولا طيرة) تقدم الكلام على ذلك.

(١) أخرجه البخاري في الطب، باب الفأل (٤/٤٦٤)، ومسلم في السلام، باب الطيرة والفأل (٤/١٧٤٥-١٧٤٦)، من حديث أنس، وأخرجه أيضا من حديث أبي هريرة في المواضع السابقة رضي الله عنهما.

قوله: (ويعجبني الفأل) أي: يسرني، والفاأل بينه بقوله: (الكلمة الطيبة)، فالكلمة الطيبة تعجبه ﷺ لما فيها من إدخال السرور على النفس والانبساط، والمضي قدما لما يسعى إليه الإنسان، وليس هذا من الطيرة، بل هذا مما يشجع الإنسان، لأنها لا تؤثر عليه، بل تزيده طمأنينة وإقداما وإقبالا.

وظاهر الحديث: الكلمة الطيبة في كل شيء، لأن الكلمة الطيبة في الحقيقة تفتح القلب وتكون سببا لخيرات كثيرة، حتى إنها تدخل المرء في جملة ذوي الأخلاق الحسنة.

وهذا الحديث جمع النبي ﷺ فيه بين محذورين ومرغوب، فالمحذوران هما العدوى والطيرة، والمرغوب هو الفأل، وهذا من حسن تعليم النبي ﷺ فمن ذكر المرهوب ينبغي أن يذكر معه ما يكون مرغوبا، ولهذا كان القرآن مثاني إذا ذكر أوصاف المؤمنين ذكر أوصاف الكافرين، وإذا ذكر العقوبة ذكر المثوبة، وهكذا.

ولأبي داود بسند صحيح عن عقبة بن عامر قال: ذكرت الطيرة عند رسول الله ﷺ فقال: «أحسنها الفأل، ولا ترد مسلما، فإذا رأى أحدكم ما يكره، فليقل: اللهم لا يأتي بالحسنات إلا أنت، ولا يدفع السيئات إلا أنت، ولا حول ولا قوة إلا بك»<sup>(١)</sup>.

قوله: (عن عقبة بن عامر): صوابه عن عروة بن عامر، كما ذكره في التيسير، وقد اختلف في نسبه وصحبه.

قوله: (ذكرت الطيرة عند رسول الله) المراد: تحدث الناس بها عند رسول الله ﷺ.

قوله: (أحسنها الفأل): سبق أن الفأل ليس من الطيرة، لكنه شبيه بالطيرة من حيث الإقدام، فإنه يزيد الإنسان نشاطا فيما توجه إليه، فهو يشبه الطيرة من هذا الوجه، وإلا فبينهما فرق؛ لأن الطيرة توجب تعلق الإنسان بالمتطير به، وضعف توكله على الله، ورجوعه عما هم به من أجل ما رأى، لكن الفأل يزيده قوة وثباتا ونشاطا، فالشبه بينهما هو التأثير في كل منهما.

قوله: (فإذا رأى أحدكم ما يكره) فحينئذ قد ترد على قلبه الطيرة، ويتعد عما يريد، ولا يقدم عليه، فذكر النبي ﷺ دواء لذلك وقال: (فليقل: اللهم لا يأتي بالحسنات...) إلخ.

(١) أخرجه أبو داود في الطب، باب في الطيرة (٢٣٥/٤)، وابن السني (٢٩٤)، والبيهقي (١٣٩/٨)، وقال النووي في الرياض كما في دليل الفالحين ص ٨٠٦: رواه أبو داود بإسناد صحيح. وقال المنذري في مختصر سنن أبي داود (٣٧٩/٥): عروة هذا قيل فيه: القرشي، وقيل فيه: الجهني، وقال أبو القاسم الدمشقي: ولا صحبة له تصح. وذكر البخاري وغيره: أنه سمع من ابن عباس، فعلى هذا يكون الحديث مرسلا.

قوله: (اللهم لا يأتي بالحسنات إلا أنت) هذا هو حقيقة التوكل، فقوله: (لا يأتي بالحسنات إلا أنت) أي: لا يُقَدِّرها ولا يخلقها إلا الله وحده لا شريك له، وهذا لا ينافي أن تكون الحسنات بأسباب، لأن خالق هذه الأسباب هو الله، فإذا وجدت هذه الحسنات بأسباب خلقها الله، صار الموجد حقيقة هو الله. والمراد بالحسنات: ما يستحسن المرء وقوعه، ويشمل ذلك الحسنات الشرعية والدينية.

قوله: (ولا يدفع السيئات إلا أنت) السيئات: ما يسوء المرء وقوعه وينفر منه، فلا يدفعها إلا الله.

قوله: (ولا حول ولا قوة إلا بك) أي لا يوجد لنا حول ولا قوة إلا بالله، فالبراء للاستعانة أو للسببية، فلا نتحول من حال إلى حال، ولا نقوى على ذلك إلا بالله، فيكون في هذه الجملة كمال التفويض إلى الله، وأن الإنسان يبرأ من حوله وقوته إلا بما أعطاه الله من الحول والقوة، فإن صح الحديث فالرسول ﷺ أرشدنا إذا رأينا ما نكره مما يتشاءم به المشائم أن نقول: (اللهم لا يأتي بالحسنات إلا أنت، ولا يدفع السيئات إلا أنت، ولا حول ولا قوة إلا بك).

وعن ابن مسعود مرفوعا: «الطيرة شرك، الطيرة شرك»، وما منا إلا، ولكن الله يذهب بالتوكل. رواه أبو داود والترمذي وصححه وجعل آخره من قول ابن مسعود<sup>(١)</sup>.

قوله: (الطيرة شرك، الطيرة شرك) الجملة الثانية مؤكدة للأولى تأكيداً لفظياً.

وقوله: (شرك): هل المراد الشرك الأكبر المخرج عن الملة، أو أنها نوع من أنواع الشرك؟ الجواب: هي نوع من أنواع الشرك، كقوله ﷺ «اثنان في الناس هما بهم كفر» أي: ليس الكفر المخرج عن الملة، لكن في ترك الصلاة قال: «بين الرجل وبين الشرك والكفر ترك الصلاة» فقال: (الكفر)، فيجب أن نعرف الفرق بين (أل) المعرفة أو الدالة على الاستغراق، وبين خلو اللفظ منها، فإذا قيل: هذا كفر، فالمراد أنه نوع من الكفر لا يخرج من الملة، وإذا قيل: هذا الكفر، فهو المخرج من الملة.

فإذا تطير إنسان فإنه لا يعد مشركاً شركاً يخرج من الملة، لكنه أشرك من حيث إنه اعتمد على هذا السبب الذي لم يجعله الله سبباً، وهذا يضعف التوكل على الله، وبذلك يعتبر شركاً من هذه الناحية، والقاعدة إن كل من اعتمد على سبب لم يجعله الشرع سبباً، فإنه مشرك شركاً أصغر.

(١) أخرجه أحمد (٣٨٩/١، ٤٣٨، ٤٤٠)، وأبو داود في الطب، باب في الطيرة (٢٣٠/٤)، والترمذي في السير، باب ما جاء في الطيرة، (٣٣٦/٥) وقال: حسن صحيح، وابن ماجه في الطب، باب من كان يعجبه الفأل (١١٧٠/٢)، والطحاوي في شرح معاني الآثار (٣١٢/٤)، وابن حبان (١٤٢٧)، والحاكم (١٧/١)، والبيهقي (١٣٩/٨)، والبغوي في شرح السنة (١٧٧/١٢).

فهذا نوع من الإشراف مع الله، إما في التشريع إن كان هذا السبب شرعياً، وإما في التقدير إن كان هذا السبب كونياً، لكن لو اعتقد هذا المتطير أن هذا فاعل بنفسه دون الله فهو مشرك شركاً أكبر، لأنه جعل لله شريكاً في الخلق والإيجاد.

قوله: (وما منا إلا): أي: وما منا إلا متطير، والمعنى: ما منا إنسان يسلم من التطير.

قوله: (ولكن الله يذهب بالتوكل): التوكل: صدق الاعتماد على الله في جلب المنافع ودفع المضار مع الثقة بالله وفعل الأسباب التي جعلها الله تعالى أسباباً.

قوله: (وجعل آخره من قول ابن مسعود): وهو قوله: (وما منا إلا...) إلخ، وعلى هذا يكون موقوفاً، وهو مدرج في الحديث، والمدرج: أن يدخل أحد الرواة كلاماً في الحديث من عنده بدون بيان.

ولأحمد من حديث ابن عمرو: «من ردت الطيرة عن حاجته فقد أشرك». قالوا: فما كفارة ذلك؟ قال: «أن تقولوا: اللهم لا خير إلا خيرك، ولا طير إلا طيرك، ولا إله غيرك»<sup>(١)</sup>.

قوله: (فما كفارة ذلك) أي: ما كفارة هذا الشرك، أو ما هو الدواء الذي يزيل هذا الشرك؟ لأن الكفارة قد تطلق على كفارة الشيء بعد فعله، وقد تطلق على الكفارة قبل الفعل، وذلك لأن الاشتقاق مأخوذ من الكفر، وهو الستر، والستر واق، فكفارة ذلك إن وقع وكفارة ذلك إن لم يقع.

وقوله: (اللهم لا خير إلا خيرك) أي: فأنت الذي بيدك الخير المباشر، كالمطر والنبات، وغير المباشر، كالذي يجريه الله على يد مخلوق، مثل: أن يعطيك إنسان دراهم صدقة أو هدية.

وقوله: (لا طير إلا طيرك) أي: الطيور كلها ملكك، فهي لا تفعل شيئاً، وإنما هي مسخرة، تذهب يمينا وشمالاً، ولا علاقة لها بالحوادث، قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوْ السَّمَاءِ﴾.

ويحتمل أن المراد بالطير هنا ما يتشاءم به الإنسان، فما يحدث للإنسان من التشاؤم والحوادث المكروهة فإنه من الله كما أن الخير من الله، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ﴾، لكن سبق لنا أن الشر في فعل الله ليس بواقع، بل الشر في المفعول، وأما فعله تعالى فكله خير، إما خير لذاته، وإما لما يترتب عليه من المصالح العظيمة التي تجعله خيراً.

(١) أخرجه أحمد في المسند (٢/٢٢٠)، وابن وهب في الجامع ص ١١٠، والطبراني كما في المجمع (٥/١٠٥)، وابن السني في عمل اليوم والليلة (٢٩٣)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٥/١٠٥): فيه ابن لهيعة، وحديثه حسن، وبقية رجاله ثقات. وقال الشارح في تيسير العزيز الحميد ص ٤٣٩: فيه ابن لهيعة.

وله من حديث الفضل بن العباس: «إنما الطيرة ما أمضاك أو ردك»<sup>(١)</sup>.

قوله: (إنما الطيرة) هذا حصر، أي: ما الطيرة إلا ما أمضاك أو ردك لا ما حدث في قلبك ولم تلتفت إليه، ولا ريب أن السلامة منها حتى في تفكير الإنسان خير بلا شك، لكن إذا وقعت في القلب ولم ترده ولم يلتفت لها، فإنها لا تضره.

قوله: (ما أمضاك أو ردك) أما ما ردك فلا شك أنه من الطيرة، وأما ما أمضاك، فلا يخلو من أمرين: الأول: أن تكون من جنس التطير، وذلك بأن يستدل لنجاحه أو عدم نجاحه بالتطير، كما لو زجر الطير فذهب إلى اليمين، فمضى في عمله، فهذا لا شك أنه تطير، لأن التفاؤل يمثل انطلاق الطير عن اليمين غير صحيح، لأنه لا وجه له، فإذا اعتمد عليه، فقد اعتمد على سبب لم يجعله الله سببا. الثاني: أن يكون سبب المضي كلاما سمعه أو شيئا شاهده يدل على تيسير هذا الأمر له، فإن هذا فآل، وهو الذي يعجب النبي ﷺ، لكن إن اعتمد عليه وكان سببا لإقدامه فهذا حكمه حكم الطيرة، وإن لم يعتمد عليه ولكنه فرح ونشط وازداد نشاطا في طلبه، فهذا من الفأل المحمود. والحديث في سننه مقال، لكن على تقدير صحته هذا حكمه.

(١) أخرجه أحمد (٢١٣/١). وقال ابن مفلح في الآداب (٣٧٧/٣): رواه أحمد من رواية محمد بن عبد الله بن علاثة، وهو مختلف فيه، وفيه انقطاع. وقال الشيخ سليمان ص ٤٤٠: وهكذا رواه أحمد، وفي إسناده نظر.

## باب: ما جاء في التنجيم

التنجيم: مصدر نَجَّمَ بتشديد الجيم، أي: تعلم علم النجوم، أو اعتقد تأثير النجوم.

وعلم النجوم ينقسم إلى قسمين:

١- علم التأثير.

٢- علم التسيير.

فالأول: علم التأثير، وهذا ينقسم إلى ثلاثة أقسام:

أ\_ أن يعتقد أن هذه النجوم مؤثرة فاعلة، بمعنى أنها هي التي تخلق الحوادث والشور، فهذا شرك أكبر، لأن من ادعى أن مع الله خالقا فهو مشرك شركا أكبر.

ب\_ أن يجعلها سببا يدعي به علم الغيب، فيستدل بحركاتها على أنه سيكون كذا وكذا، فهذا ادعاء لعلم الغيب، ودعوى علم الغيب كفر مخرج عن الملة، لأن الله يقول: ﴿قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ﴾، فإذا ادعى أحد علم الغيب، فقد كذب القرآن.

ج\_ أن يعتقد سببا لحدوث الخير والشر، فهذا شرك أصغر.

فإن قيل: ينتقض هذا بما ثبت عن النبي ﷺ في قوله في الكسوف «إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله يخوف الله بهما عباده»؛ فمعنى ذلك أنهما علامة إنذار.

فالجواب من وجهين:

الأول: أنه لا يُسَلَّم أن للكسوف تأثيرا في الحوادث والعقوبات، وإنما يخوف الله بهما العباد لعلهم يرجعون. الثاني: أنه لو سلمنا أن لهما تأثيرا، فإن النص قد دل على ذلك، وما دل عليه النص يجب القول به، لكن يكون خاصا به.

لكن الوجه الأول هو الأقرب: أننا لا نسلم أصلا أن لهما تأثيرا في هذا، لأن الحديث لا يقتضيه، فالحديث ينص على التخويف، والمخوف هو الله تعالى، والمخوف عقوبته، ولا أثر للكسوف في ذلك، وإنما هو علامة فقط.

الثاني: علم التسيير، وهذا ينقسم إلى قسمين:

الأول: أن يستدل بسيرها على المصالح الدينية، فهذا مطلوب، وقد يكون واجبا، كاستدلال بالنجوم على جهة القبلة.

الثاني: أن يستدل بسيرها على المصالح الدنيوية، فهذا لا بأس به، وهو نوعان:

النوع الأول: أن يستدل بها على الجهات، فهذا جائز، قال تعالى: ﴿وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾

النوع الثاني: أن يستدل بها على الفصول، وهو ما يعرف بتعلم منازل القمر، فهذا كرهه بعض السلف، وأباحه آخرون، والذين كرهوه قالوا: يخشى إذا قيل: طلع النجم الفلاني، فهو وقت الشتاء أو الصيف: أن بعض العامة يعتقد أنه هو الذي يأتي بالبرد أو بالحر أو بالرياح. والصحيح عدم الكراهة، كما سيأتي إن شاء الله.

قال البخاري في صحيحه: قال قتادة: خلق الله هذه النجوم لثلاث: زينة للسماء، ورجوما للشياطين، وعلامات يهتدى بها، فمن تأول فيها غير ذلك أخطأ وأضاع نصيبه وتكلف ما لا علم له به<sup>(١)</sup>. انتهى.

أما كونها زينة للسماء ورجوما للشياطين فقد قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحٍ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ﴾.

وهل يلزم من كون النجوم زينة للسماء أن النجوم مرصعة في السماء؟

الجواب: لا يلزم، قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾، أي: يدورون، كل له فلك، فهي أفلاك متفاوتة في الارتفاع والنزول، ولا يلزم أن تكون مرصعة في السماء، ولا يلزم من تزيين الشيء بالشيء أن يكون ملاصقا له.

وأما كونها علامات يهتدى بها فيؤخذ من قوله تعالى: ﴿وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ، وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾، والنجم: اسم جنس يشمل كل ما يهتدى به، ولا يختص بنجم معين.

وكره قتادة تعلم منازل القمر، ولم يرخص ابن عيينة فيه، ذكره حرب عنهما، ورخص في تعلم المنازل أحمد وإسحاق.

قوله: (وكره قتادة تعلم منازل القمر): أي: كراهة تحريم؛ بناء على أن الكراهة في كلام السلف يراد بها التحريم غالبا.

(١) علقه بصيغة الجزم البخاري في بدء الخلق، باب في النجوم (٢/٤٢٠).

و(منازل القمر) يحتمل أمرين:

الأول: منازل القمر كل ليلة، لأن كل ليلة له منزلة حتى يتم ثمانيا وعشرين، وفي تسع وعشرين وثلاثين لا يظهر في الغالب.

الثاني: أن المراد به تعلم منازل النجوم، وهذه النجوم جعلها الله أوقاتا للفصول، وهي ثمانية وعشرون نجما، منها أربعة عشر نجما يمانية وأربعة عشر شمالية.

قوله: (ولم يرخص فيه ابن عيينة): هو سفيان بن عيينة، وهذا يوافق قول قتادة.

قوله: (ذكره حرب): من أصحاب أحمد، روى عنه مسائل كثيرة.

قوله: (إسحاق): هو إسحاق بن راهويه.

والصحيح أنه لا بأس بتعلم منازل القمر، لأنه لا شرك فيها، إلا إن تعلمها ليضيف إليها نزول المطر وحصول البرد، وأنها هي الجالبة لذلك، فهذا نوع من الشرك، أما مجرد معرفة الوقت بما فهذا لا بأس به.

وعن أبي موسى قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاثة لا يدخلون الجنة: مدمن الخمر، وقاطع الرحم، ومصدق بالسحر» رواه أحمد وابن حبان في صحيحه<sup>(١)</sup>.

قوله: (مدمن خمر): هو الذي يشرب الخمر كثيرا، والخمر ما يغطي العقل على وجه اللذة والطرب،

قوله: (قاطع الرحم): الرحم: هم القرابة، قال تعالى: ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾، وليس كما يظنه

العامة أنهم أقارب الزوجين، لأن هذه تسمية غير شرعية، والشرعية في أقارب الزوجين: أن يسموا أصهارا.

ومعنى قاطع الرحم أن لا يصله، والصلة جاءت مطلقة في الكتاب والسنة، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا

أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ﴾، وما جاء مطلقا غير مقيد، فإنه يتبع فيه العرف.

فالصلة في زمن الجوع والفقر: أن يعطيهم ويلاحظهم بالكسوة والطعام دائما، وفي زمن الغنى لا يلزم ذلك،

وكذلك الأقارب ينقسمون إلى قريب وبعيد، فأقربهم يجب له من الصلة أكثر مما يجب للأبعد، ثم الأقارب ينقسمون

إلى قسمين من جهة أخرى: قسم من الأقارب يرى أن لنفسه حقا لا بد من القيام به، ويريد أن تصله دائما،

وقسم آخر يقدر الظروف وينزل الأشياء منازلها، فهذا له حكم، وذلك له حكم.

(١) أخرجه أحمد (٣٣٩/٤)، وابن حبان (١٣٨٠، ١٣٨١)، وأبو يعلى، والطبراني، كما في المجموع (٧٤/٥). قال الهيثمي: رواه أحمد وأبو يعلى

والطبراني، ورجال أحمد وأبي يعلى ثقات. وأخرجه الحاكم أيضا (١٤٦/٤)، وقال: صحيح الإسناد، ولم يخرجاه.

والقطيعة يرجع فيها إلى العرف، إلا أنه يستثنى من ذلك ما لو كان العرف عدم الصلة مطلقاً، بأن كنا في أمة تشتت عرى صلتها كما يعرف الآن في البلاد الغربية، فإنه لا يعمل حينئذ بالعرف، ونقول: لا بد من صلة، فإذا كان هناك صلة في العرف اتبعناها، وإذا لم يكن هناك صلة، فلا يمكن أن نعطل هذه الشريعة التي أمر الله بها ورسوله.

والصلة ليس أن تصل من وصلك، لأن هذا مكافأة، إنما الواصل كما قال الرسول ﷺ «من إذا قطعت رحمه وصلها» هذا هو الذي يريد وجه الله والدار الآخرة.

وهل صلة الرحم حق لله أو للآدمي؟

الظاهر أنها حق للآدمي، وهي حق لله باعتبار أن الله أمر بها.

قوله: (ومصدق بالسحر): هذا هو شاهد الباب، ووجهه أن علم التنجيم نوع من السحر، فمن صدق به فقد صدق بنوع من السحر، فقد سبق أن من اقتبس شعبة من النجوم فقد اقتبس شعبة من السحر، والمصدق به هو المصدق بما يخبر به المنجمون، لأنه صدق بعلم الغيب لغير الله، قال تعالى: ﴿قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ﴾.

ومن التصديق بالسحر: التصديق بما يخبر به السحرة من علم الغيب، وكذا التصديق بأن السحر يؤثر في قلب الأعيان بحيث يجعل الخشب ذهباً ونحو ذلك، فلا شك في دخوله في الوعيد، لأن هذا لا يقدر عليه إلا الله عز وجل.

وقوله: (ثلاثة لا يدخلون الجنة) هل هؤلاء كفار لأن من لا يدخل الجنة كافر؟ اختلف أهل العلم في هذا الحديث وما يشبهه من أحاديث الوعيد على أقوال:

القول الأول: مذهب المعتزلة والخوارج الذين يأخذون بنصوص الوعيد، فيرون الخروج من الإيمان بهذه المعصية، لكن الخوارج يقولون: هو كافر، والمعتزلة يقولون: هو في منزلة بين المنزلتين، وتتفق الطائفتان على أنهم مخلدون في النار، فيجرون هذا الحديث ونحوه على ظاهره، ولا ينظرون إلى الأحاديث الأخرى الدالة على أن من في قلبه إيمان وإن قل، فإنه لا بد أن يدخل الجنة.

القول الثاني: أن هذا الوعيد فيمن استحل هذا الفعل؛ بدليل النصوص الكثيرة الدالة على أن من في قلبه إيمان وإن قل فلا بد أن يدخل الجنة، وهذا القول ليس بصواب، لأن من استحله كافر ولو لم يفعله، فمن استحل قطيعة الرحم أو شرب الخمر مثلاً فهو كافر وإن لم يقطع الرحم ولم يشرب الخمر.

القول الثالث: أن هذا من باب أحاديث الوعيد التي تمر كما جاءت ولا يتعرض لمعناها، بل يقال: هكذا قال الله وقال رسوله ونسكت.

وهذا مذهب كثير من السلف، كمالك وغيره، وهذا أبلغ في الزجر.

القول الرابع: أن هذا نفي مطلق، والنفي المطلق يحمل على المقيد، فيقال: لا يدخلون الجنة دخولا مطلقا يعني لا يسبقه عذاب، ولكنهم يدخلون الجنة دخولا يسبقه عذاب بقدر ذنوبهم، ثم مرجعهم إلى الجنة، وذلك لأن نصوص الشرع يُصدّق بعضها بعضا، ويلائم بعضها بعضا، وهذا أقرب إلى القواعد وأبين؛ حتى لا تبقى دلالة النصوص غير معلومة، فتفيد النصوص بعضها ببعض.

وهناك احتمال: أن من كانت هذه حاله حري أن يحتم له بسوء الخاتمة فيموت كافرا، فيكون هذا الوعيد باعتبار ما يؤول حاله إليه، وحينئذ لا يبقى في المسألة إشكال، لأن من مات على الكفر فلن يدخل الجنة، وهو مخلد في النار، فيكون هذا قولا خامسا.

## باب ما جاء في الاستسقاء بالأنواء

الاستسقاء: طلب السقيا.

والاستسقاء بالأنواء قسمان:

القسم الأول: شرك أكبر، وله صورتان:

الأولى: أن يدعو الأنواء بالسقيا، كأن يقول: يا نوء كذا! اسقنا أو أغثنا، فهذا شرك أكبر، لأنه دعا غير الله، ودعاء غير الله من الشرك الأكبر، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾، وقال تعالى: ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾.

الثانية: أن ينسب حصول الأمطار إلى هذه الأنواء على أنها هي الفاعلة بنفسها دون الله ولو لم يدعها، فهذا شرك أكبر في الربوبية، والأول في العبادة.

القسم الثاني: شرك أصغر، وهو أن يجعل هذه الأنواء سببا، مع اعتقاده أن الله هو الخالق الفاعل، لأن كل من جعل سببا لم يجعله الله سببا، لا بوحيه ولا بقدره، فهو مشرك شركا أصغر.

وقول الله تعالى: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنْكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾.

قوله: (رزقكم): الرزق هو العطاء، والمراد به هنا: ما هو أعم من المطر، فيشمل معينين:

الأول: أن المراد به رزق العلم، لأن الله قال: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ، وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ، إِنَّهُ لَفَرَّقَ كَرِيمٌ، فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ، لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ، تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ، أَفِيهِذَا الْحَدِيثِ أَنْتُمْ مُدْهِنُونَ، وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنْكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾، أي تجعلون شكر ما رزقكم الله به من العلم والوحي أنكم تكذبون به، وهذا هو ظاهر سياق الآية.

الثاني: أن المراد بالرزق المطر، وهذا صح عن ابن عباس رضي الله عنهما في تفسير الآية، وسيدكره المؤلف رحمه الله في آخر الباب: أن المراد بالرزق المطر، وأن التكذيب به نسبتته إلى الأنواء، وعليه يكون ما ساق المؤلف الآية من أجله مناسبا للباب تماما.

والقاعدة في التفسير: أن الآية إذا كانت تحتل المعنيين جميعا بدون منافاة تحمل عليهما جميعا، وإن حصل بينهما منافاة طلب المرجح.

ومعنى الآية: أن الله يوبخ هؤلاء الذين يجعلون شكر الرزق التكذيب والاستكبار والبعد؛ لأن شكر الرزق يكون بالتصديق والقبول والعمل بطاعة المنعم، سواء قلنا: المراد بالرزق المطر الذي به حياة الأرض، أو قلنا: إن المراد به القرآن الذي به حياة القلوب، فإن هذا من أعظم الرزق، فكيف يليق بالإنسان أن يقابل هذه النعمة بالتكذيب؟!

واعلم أن التكذيب نوعان:

أحدهما: التكذيب بلسان المقال، بأن يقول: هذا كذب، أو المطر من النوء، ونحو ذلك.  
والثاني: التكذيب بلسان الحال، بأن يعظم الأنواء والنجوم معتقدا أنها السبب.

وعن أبي مالك الأشعري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «أربع في أمي من أمر الجاهلية لا يتركوهن: الفخر بالأحساب، والطعن في الأنساب، والاستسقاء بالنجوم، والنياحة».  
وقال: «النياحة إذا لم تتب قبل موتها تقام يوم القيامة وعليها سربال من قطران ودرع من جرب» رواه مسلم<sup>(١)</sup>.

قوله: (أربع في أمي) ليس حصرا، وإنما يقول النبي ﷺ ذلك من باب جمع العلوم بالتقسيم والعدد، لأنه يقرب الفهم، ويثبت الحفظ.

قوله: (أمي): أي: أمة الإجابة.

قوله: (من أمر الجاهلية): أي من شأن الجاهلية، وإضافتها إلى الجاهلية الغرض منها التقييح والتنفير، وبيان كون هذه الخصال جهلا وحمقا بالإنسان.

قوله: (لا يتركوهن): المراد: لا يتركون كل واحد منها باعتبار المجموع بالمجموع، بأن يكون كل واحد منها عند جماعة، والثاني عند آخرين، والثالث عند آخرين، والرابع عند آخرين، وقد تجتمع هذه الأقسام في قبيلة، وقد تخلو بعض القبائل منها جميعا، إنما الأمة كمجموع لا بد أن يوجد فيها شيء من ذلك.  
والمراد بهذا الخبر التنفير عن هذه الخصال، لا الإقرار عليها.

قوله: (الفخر بالأحساب): الفخر: التعالي والتعاضم، والباء للسببية، والحسب: ما يحتسبه الإنسان من شرف وسؤدد.

(١) أخرجه مسلم في الجنائز، باب التشديد في النياحة (٦٤٤/٢).

قوله: (الطعن في الأنساب): الطعن: العيب، سمي طعنا لأنه وخز معنوي، والأنساب: جمع نسب، وهو أصل الإنسان وقرباته، فيطعن في نسبه كأن يقول: أنت ابن الدبّاغ.

قوله: (والاستسقاء بالنجوم): أي: نسبة المطر إلى النجوم مع اعتقاد أن الفاعل هو الله عز وجل، أما إن اعتقد أن النجوم هي التي تخلق المطر والسحاب أو دعاها من دون الله لتنزل المطر، فهذا شرك أكبر مخرج عن الملة.

قوله: (والنياحة على الميت): النياحة: رفع الصوت بالبكاء على الميت قصدا على سبيل النوح. والندب: تعداد محاسن الميت.

والنياحة تشمل ما إذا كانت من رجل أو امرأة، لكن الغالب وقوعها من النساء، ولهذا قال: (النائحة إذا لم تتب قبل موتها)، وظاهر الحديث أن هذا الذنب لا تكفره إلا التوبة، وأن الحسنات لا تمحوه، لأنه من كبائر الذنوب، والكبائر لا تمحى بالحسنات، فلا يمحوها إلا التوبة.

قوله: (تقام يوم القيامة وعليها سربال من قطران) أي: تقام من قبرها، والسربال: الثوب السابغ كالدرع، والقطران الزفت، وقيل.

قوله: (ودرع من جرب): الجرب: مرض معروف يكون في الجلد، والمعنى: إن كل جلدها يكون جربا بمنزلة الدرع، فإذا اجتمع قطران وجرب زاد البلاء.

ولهما عن زيد بن خالد رضي الله عنه قال: صلى لنا رسول الله ﷺ صلاة الصبح بالحديبية على إثر سماء كانت من الليل، فلما انصرف أقبل على الناس فقال: «هل تدرون ماذا قال ربكم؟» قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «قال: أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر، فأما من قال: مطرنا بفضل الله ورحمته فذلك مؤمن بي كافر بالكوكب، وأما من قال: مطرنا بنوء كذا وكذا فذلك كافر بي مؤمن بالكوكب»<sup>(١)</sup>.

قوله: (صلى لنا): أي: إماما، لأن الإمام يصلي لنفسه ولغيره.

قوله: (صلاة الصبح بالحديبية): الحديبية فيها لغتان: التخفيف، وهو أكثر، والتشديد، وهي اسم بئر سمي بها المكان، ويسمى الآن الشميسي.

قوله: (على إثر سماء كانت من الليل): السماء: المراد به المطر، والإثر معناه العقب.

قوله: (كانت من الليل): (من) لا ابتداء الغاية، هذا هو الظاهر، ويحتمل أن تكون بمعنى (في) للظرفية.

(١) أخرجه البخاري (٨٤٦)، ومسلم (٧١).

قوله: (فلما انصرف): أي: من صلاته، وليس من مكانه بدليل قوله: (أقبل على الناس).

قوله: (هل تدرون ماذا قال ربكم؟): الاستفهام يراد به التنبيه والتشويق.

قوله: (قالوا: الله ورسوله أعلم): لا بأس في هذا القول، ولا يخالف قوله ﷺ لمن قال له ما شاء الله وشئت:

«أجعلني لله ندا؟!»، لأن هذا أمر شرعي، وقد نزل على الرسول ﷺ، وأما إنكاره على من قال: ما شاء الله وشئت، فلأنه أمر كوني، والرسول ﷺ ليس له شأن في الأمور الكونية.

قوله: (فأما من قال: مطرنا بفضل الله ورحمته)، أي: قال بلسانه وقلبه.

قوله: (وأما من قال: مطرنا بنوء كذا وكذا) الباء للسببية، (فذلك كافر بي، مؤمن بالكوكب): وصار كافرا

بالله، لأنه أنكر نعمة الله ونسبها إلى سبب لم يجعله الله سببا، فتعلقت نفسه بهذا السبب، ونسي نعمة الله، وهذا الكفر لا يخرج من الملة، لأن المراد نسبة المطر إلى النوء على أنه سبب وليس إلى النوء على أنه فاعل؛ لأنه قال: (مطرنا بنوء كذا)، ولم يقل: أنزل علينا المطر نوء كذا.

والمراد بالكوكب: النجم، وكانوا ينسبون المطر إليه، ويقولون: إذا سقط النجم الفلاني جاء المطر، وإذا طلع

النجم الفلاني جاء المطر، وليسوا ينسبونه إلى هذا نسبة وقت، وإنما نسبة سبب.

فنسبة المطر إلى النوء تنقسم إلى ثلاثة أقسام:

١- نسبة إيجاد، وهذه شرك أكبر.

٢- نسبة سبب، وهذه شرك أصغر.

٣- نسبة وقت، وهذه جائزة، بأن يريد بقوله: مطرنا بنوء كذا، أي: جاءنا المطر في هذا النوء، فتكون الباء

ظرفية بمعنى في، ولكن الأقرب المنع ولو قصد الظرفية، لكن إذا كان المتكلم لا يعرف من الباء إلا الظرفية فهذا جائز، ومع ذلك فالأولى أن يقال: في نوء كذا.

والواجب على الإنسان إذا جاءته النعمة أن لا يضيفها إلى أسبابها مجردة عن الله، بل يعتقد أن هذا سبب

محض إن كان هذا سببا، مثال ذلك: رجل غرق، وكان عنده رجل قوي، فنزل وأنقذه، فإنه يجب على هذا الذي نجا أن يعرف نعمة الله عليه، ولولا أن الله أمر أمرا قديرا، وأمرا شرعيا أن ينقذك هذا الرجل ما حصل إنقاذ، فأنت تعتقد أن هذا سبب محض.

أما إن غرق ويسر الله له فخرج، فقال: إن الولي الفلاني أنقذني، فهذا شرك أكبر، لأنه سبب غير صحيح،

ثم إن إضافته إليه لا يظهر منها أنه يريد أنه سبب، بل يريد أنه منقذ بنفسه، لأن اعتقاد أنه سبب وهو في قبره غير وارد، ولذلك كان أصحاب الأولياء إذا نزلت بهم شدة يسألون الأولياء دون الله تعالى، فيقعون في الشرك الأكبر من حيث لا يعلمون أو من حيث يعلمون، ثم قد يفتنون فيحصل لهم ما يريدون عند دعاء الأولياء لا

به، لأننا نعلم أن هؤلاء الأولياء لا يستجيبون لهم، لقوله تعالى: ﴿إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾.

ولهما من حديث ابن عباس معناه، وفيه: قال بعضهم: لقد صدق نوء كذا وكذا، فأنزل الله هذه الآيات: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ • وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ • إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ • فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ • لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ • تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ • أَقْبَهُدَا الْحَدِيثِ أَنْتُمْ مُذْهِبُونَ • وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنْكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾<sup>(١)</sup>.

قوله: (ولهما): الظاهر أنه سبق قلم، فالحديث في مسلم وحده.  
ومعنى الحديث: أنه لما نزل المطر نسبه بعضهم إلى رحمة الله وبعضهم قال: لقد صدق نوء كذا وكذا، فكأنه جعل النوء هو الذي أنزل المطر أو نزل بسببه.  
ومنه ما يذكر في بعض كتب التوقيت: وقل أن يخلف نوؤه. أو: نوؤه صادق. فهذا لا يجوز، وهو شرك أصغر ولو قال بإذن الله؛ لأن كل الأسباب من الله، والنوء لم يجعله الله سببا.  
قوله: ﴿فَلَا أُقْسِمُ﴾، اختلف في (لا): فقيل: نافية، والمنفي محذوف، والتقدير: لا صحة لما تزعمون من أن القرآن كذب أو سحر وشعر وكهانة، أقسم بمواقع النجوم إنه لقرآن كريم.  
وقيل: إن المنفي القسم، فهي داخلة على أقسم، أي: لا أقسم، ولن أقسم على أن القرآن قرآن كريم، لأن الأمر أبين من أن يحتاج إلى قسم، وهذا ضعيف جدا.  
وقيل: إن (لا) للتنبيه، والجملة بعدها مثبتة، لأن (لا) بمعنى انتبه، أقسم بمواقع النجوم، وهذا هو الصحيح.  
فإن قيل: ما الفائدة من إقسامه سبحانه مع أنه صادق بلا قسم، ولأن القسم إن كان لقوم مؤمنين فلا حاجة إليه، وإن كان لقوم لا يؤمنون به فلا فائدة منه، قال تعالى: ﴿وَلَمَّا أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ؟﴾

أجيب: بأن فائدة القسم من وجوه:

الأول: أن هذا أسلوب عربي لتأكيد الأشياء بالقسم، والقرآن نزل بلسان عربي مبين.

الثاني: أن المؤمن يزداد يقينا من ذلك، ولا مانع من زيادة المؤكدات التي تزيد يقين العبد.

(١) أخرجه مسلم في الإيمان، باب بيان كفر من قال مطرنا بالنوء (١/٨٤).

الثالث: التنويه بحال المقسم به، لأنه لا يقسم إلا بشيء عظيم، وهذا الوجه لا يعود إلى تصديق الخبر، بل إلى التنويه بعظمة هذه الآيات.

الرابع: الاهتمام بالمقسم عليه، وأنه جدير بالعناية والإثبات.

وقوله: ﴿فَلَا أَقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ﴾، الله سبحانه يتحدث عن نفسه بضمير المفرد، لأنه يدل على الانفراد والتوحيد، فهو سبحانه واحد لا شريك له، ويتحدث عين نفسه بضمير الجمع، لأنه يدل على العظمة، كقوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾، ولا يتحدث عن نفسه بالمتنى، لأن المتنى محصور باثنين. و(الباء): حرف قسم، والمواقع جمع موقع.

واختلف في النجوم، فقيل: إنها النجوم المعروفة، فيكون المراد بمواقعها؛ مطالعها ومغاربها، وأقسم الله بها لما فيها من الدلالة على كمال القدرة في هذا الانتظام البديع، وما فيها من مناسبة المقسم به، والمقسم عليه، وهو القرآن المحفوظ بواسطة الشهب، فإن السماء عند نزول الوحي ملئت حرساً شديداً وشهباً. وقيل: إن المراد آجال نزول القرآن، ومنه قولهم: نزل القرآن منجماً. وقول الفقهاء: يجب أن يكون دين المكاتب مؤجلاً بنجمين فأكثر. فيكون الله أقسم بمواقع نزول القرآن.

وقد سبقت لنا قاعدة مفيدة: أنه إذا كان المعنيان لا يتنافيان تحمل الآية على كل منهما، وإلا طلب المرجح. وقوله: ﴿وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ (قسم): خبر إن، وهذا القسم أكد الله عظمته بإن واللام؛ تنويهاً بالمقسم عليه، وتعظيمه.

وقوله: (لو تعلمون): مؤكد ثالث، كأنه قال: ينبغي أن تعلموا هذا الأمر ولا تجهلوه، فهو أعظم من أن يكون مجهولاً، فإنه يحتاج إلى علم وانتباه، فلو تعلمون حق العلم لعرفتم عظمته، فانتبهوا.

قوله: (قرآن): مصدر مثل الغفران والشكران، بمعنى اسم فاعل، وبمعنى اسم المفعول، فعلى الأول يكون المراد أنه جامع للمعاني التي تضمنتها الكتب السابقة، من المصالح والمنافع، قال تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيِّمًا عَلَيْهِ﴾، وعلى الثاني يكون بمعنى المجموع، لأنه مجموع مكتوب.

قوله: (كريم): يطلق على كثير العطاء، وهذا كمال في العطاء متعدد للغير، ويطلق على الشيء البهي الحسن، ومنه قول النبي ﷺ «إياك وكرائم أموالهم»، وهذا كمال في الذات، وهذان المعنيان موجودان في القرآن، فالقرآن لا أحسن منه بذاته، قال تعالى: ﴿وَوَدَّعَدْلًا﴾، والقرآن يعطي أهله من الخيرات الدينية والدينية والجسمية والقلبية.

قوله: ﴿فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ﴾، كتاب فعال بمعنى مفعول، مثل: فراش بمعنى مفروش، وغراس بمعنى مغروس، وكتاب بمعنى مكتوب. والمكنون: المحفوظ، قال تعالى: ﴿كَأَنَّهنَّ بَيِّضٌ مَّكْنُونٌ﴾.

واختلف المفسرون في هذا الكتاب على قولين:

الأول: أنه اللوح المحفوظ الذي كتب الله فيه كل شيء.

الثاني - وإليه ذهب ابن القيم-: أنه الصحف التي في أيدي الملائكة، قال تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ، فَمَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ، فِي صُحُفٍ مُّكْرَمَةٍ، مَرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ، بِأَيْدِي سَفَرَةٍ﴾، فقوله: ﴿بِأَيْدِي سَفَرَةٍ﴾ يرجح أن المراد الكتب التي في أيدي الملائكة، لأنه يوازن قوله: ﴿لَا يَمْسُهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾، وعلى هذا يكون المراد بالكتاب الجنس لا الواحد.

قوله: ﴿لَا يَمْسُهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾، الضمير يعود إلى الكتاب المكنون، لأنه أقرب شيء، وهو بالرفع ﴿لَا يَمْسُهُ﴾ باتفاق القراء، وإنما نبهنا على ذلك، لدفع قول من يقول: إنه خبر بمعنى النهي، والضمير يعود على القرآن، أي: نهي أن يمس القرآن إلا طاهر، والآية ليس فيها ما يدل على ذلك، بل هي ظاهرة في أن المراد به اللوح المحفوظ، لأنه أقرب مذكور، ولأنه خبر، والأصل في الخبر أن يبقى على ظاهره خبراً لا أمراً ولا نهيًا حتى يقوم الدليل على خلاف ذلك، ولم يرد ما يدل على خلاف ذلك، بل الدليل على أنه يعود إلى الكتاب المكنون، ولهذا قال الله: ﴿إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾ باسم المفعول، ولم يقل: إلا المطهرون، ولو كان المراد المطهرين لقال ذلك، أو قال: إلا المتطهرون، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾، والمطهرون: هم الذين طهرهم الله تعالى، وهم الملائكة، طهروا من الذنوب وأدناسها.

وفي الآية إشارة إلى أن من طهر قلبه من المعاصي كان أفهم للقرآن، وأن من تنجس قلبه بالمعاصي كان أبعد فهما عن القرآن، لأنه إذا كانت الصحف التي في أيدي الملائكة لم يمكن الله من مسها إلا هؤلاء المطهرين، فكذلك معاني القرآن.

قوله: ﴿تَنْزِيلٌ﴾ خبر ثان لقوله: (إنه)، والخبر الأول: (القرآن).

وتنزيل، أي: منزل، فهي مصدر بمعنى اسم المفعول.

وقوله: ﴿مَنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أي: خالقهم.

قوله: ﴿أَفَبِهَذَا الْحَدِيثِ أَنْتُمْ مُدْهِنُونَ﴾، الاستفهام للإنكار والتوبيخ، والحديث: القرآن، والمدهن: الخائف من غيره الذي يحاييه بقوله وفعله. والمعنى: أتدهنون بهذا الحديث وتخافون وتستخفون؟! لا ينبغي لكم هذا، بل ينبغي لمن معه القرآن أن يصدع به وأن يبينه ويجاهد به.

قوله: ﴿وَيَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنْتُمْ تُكذِّبُونَ﴾ أكثر المفسرين على أنه على حذف مضاف، أي: أتجعلون شكر رزقكم، من المطر، ومن إنزال القرآن، ومن كل رزق، تجعلون شكر هذه النعمة العظيمة أن تكذبوا بها.

والنبي ﷺ وإن كان ذكرها في المطر، فإنها تشمل المطر وغيره.

وقيل: إنه ليس في الآية حذف، والمعنى: تجعلون شكركم تكديبا، وقال: إن الشكر رزق، وهذا هو الصحيح، بل هو من أكبر الأرزاق، قال الشاعر:

إذا كان شكري نعمةً الله نعمةً      علي له في مثلها يجب الشكر  
فكيف بلوغ الشكر إلا بفضلله      وإن طالت الأيام واتصل العمر

قوله: ﴿أَنْتُمْ تُكذِّبُونَ﴾ (أن) وما دخلت عليه؛ في تأويل مصدر، مفعول (تجعلون) الثاني، أي: تصيرون شكركم تكديبا، ولا شك أن هذا من السفه أن يقابل الإنسان نعمة ربه بالتكذيب، إن كانت وحيا كذب خبره ولم يمتثل أمره ولم يجتنب نهيه، وإن كانت عطاء تنمو به الأجسام نسبه إلى غير الله، قال: هذا من النوء أو هذا من عملي، كما قال قارون: ﴿إِنَّمَا أُوتِيْتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي﴾.

## باب قول الله تعالى ﴿ومن الناس من يتخذ من دون الله أندادا يحبونهم كحب الله﴾

جعل المؤلف رحمه الله تعالى الآية هي الترجمة، ويمكن أن يُعنى بهذه الترجمة: باب المحبة. وأصل الأعمال كلها هو المحبة، فالإنسان لا يعمل إلا لما يجب، إما لجلب منفعة، أو لدفع مضرة، فإذا عمل شيئاً، فلأنه يحبه إما لذاته كالطعام، أو لغيره كالدواء.

فعبادة الله تعالى مبنية على محبته، بل هي حقيقة العبادة.

والمحبة تنقسم إلى قسمين:

القسم الأول: محبة عبادة، وهي التي توجب التذلل والتعظيم، وأن يقوم بقلب الإنسان من إجلال المحبوب وتعظيمه ما يقتضي أن يمثل أمره، ويجتنب نهيه، وهذه خاصة بالله، فمن أحب مع الله غيره محبة عبادة فهو مشرك شركاً أكبر، ويعبر العلماء عنها بالمحبة الخاصة.

القسم الثاني: محبة ليست بعبادة في ذاتها، وهذه أنواع:

النوع الأول: المحبة لله، وذلك بأن يكون الجالب لها محبة الله، أي: كون الشيء محبوباً لله تعالى من أشخاص كالأنبياء والرسل، أو أعمال كالصلاة والزكاة، أو غير ذلك، وهذا النوع تابع للقسم الأول الذي هو محبة الله.

النوع الثاني: محبة إشفاق ورحمة، وذلك كمحبة الولد والصغار.

النوع الثالث: محبة إجلال لا عبادة، كمحبة الإنسان لوالده ومعلمه.

النوع الرابع: محبة طبيعية، كمحبة الطعام والشراب والملبس والمسكن.

وأشرف هذه الأنواع النوع الأول، والبقية من قسم المباح، إلا إذا اقترن بها ما يقتضي التعبد صارت عبادة، فالإنسان يحب والده محبة إجلال، وإذا اقترن بها أن يتعبد لله بهذا الحب من أجل أن يقوم ببر والده صارت عبادة، وكذلك يحب ولده محبة شفقة، وإذا اقترن بها ما يقتضي أن يقوم بأمر الله بإصلاح هذا الولد صارت عبادة.

وكذلك المحبة الطبيعية كالأكل والشرب والملبس والمسكن إذا قصد بها الاستعانة على عبادة صارت عبادة، ولهذا حب للنبي ﷺ النساء والطيب من هذه الدنيا، فحب إليه النساء، لأن ذلك مقتضى الطبيعة، ولما يترتب عليه من المصالح العظيمة، وحب إليه الطيب، لأنه ينشط النفس ويريحها ويشرح الصدر، ولأن الطيبات للطيبين، والله طيب لا يقبل إلا طيباً.

فهذه الأشياء إذا اتخذها الإنسان بقصد العبادة صارت عبادة.

وقد ذكر المؤلف رحمه الله في هذا الباب آيتين:

الأولى: التي ترجم بها، وهي قوله: (ومن الناس): (من) تبعية، هي ومجورها خبر مقدم، و(من يتخذ) مبتدأ مؤخر.

قوله: (أندادا): جمع ند، وهو الشبيه والنظير.

قوله: (يجبونهم كحب الله): أي: في كفيته ونوعه، فالنوع أن يجب غير الله محبة عبادة. والكيفية: أن يجب كمحبة الله أو أشد، حتى إن بعضهم يعظم محبوبه ويغار له أكثر مما يعظم الله ويغار له، فلو قيل: احلف بالله لحلف وهو كاذب ولم يبال، ولو قيل: احلف بالند لم يحلف وهو كاذب، وهذا شرك أكبر.

وقوله: (كحب الله): للمفسرين فيها قولان:

الأول: كحبهم لله، والثاني: كحب المؤمنين لله.

والصحيح الأول، أنهم يجعلونهم شركاء لله في المحبة، وأما القول الثاني فالسياق يأباه، لأنه مناقض لقوله تعالى فيما بعد: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾، وإنما كانت محبة المؤمنين لله أشد لأنها محبة خالصة ليس فيها شرك. ومناسبة الآية لباب المحبة: منع الإنسان أن يجب أحدا كمحبة الله، لأن هذا من الشرك الأكبر، المخرج عن الملة.

وقوله: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِينُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ﴾.

الأمر في قوله: (فتربصوا) يراد به التهديد: أي: انتظروا عقاب الله، ولهذا قال: ﴿حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ﴾ بإهلاك هؤلاء المؤثرين لمحبة هؤلاء الأصناف الثمانية، على محبة الله ورسوله، وجهاد في سبيله. فدللت الآية على أن محبة هؤلاء وإن كانت من غير محبة العبادة—إذا فضلت على محبة الله صارت سببا للعقوبة.

فإن قيل: المحبة في القلب، ولا يستطيع الإنسان أن يملكها، ولهذا يروي عن النبي ﷺ أنه قال: «اللهم إن هذا قسمي فيما أملك، فلا تلمني فيما لا أملك»، وكيف للإنسان أن يجب شيئا وهو يبغضه، وهل هذا إلا من محاولات جعل الممتنع ممكنا؟

أجيب: أن هذا إيراد ليس بوارد، فالإنسان قد تنقلب محبته لشيء كراهة، وبالعكس، إما لسبب ظاهر أو لإرادة صادقة، فمثلاً: لك صديق تحبه فيسرق منك وينتهك حرمتك فتكرهه لهذا السبب، أو لإرادة صادقة، كرجل يحب شرب الدخان، فصار عنده إرادة صادقة وعزيمة ثابتة، فكره الدخان، فأقلع عنه. وقال عمر للنبي ﷺ: إنك لأحب إلي من كل شيء إلا من نفسي. قال النبي ﷺ: «لا والذي نفسي بيده، حتى أكون أحب إليك من نفسك». قال: الآن والله لأنت أحب إلي من نفسي. فقال النبي ﷺ: «الآن يا عمر»، فقد ازدادت محبة عمر للنبي ﷺ، وأقره النبي ﷺ على أن الحب قد يتغير.

عن أنس أن رسول الله ﷺ قال: «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين» أخرجاه<sup>(١)</sup>.

(لا يؤمن): هذا نفي الإيمان، ونفي الإيمان تارة يراد به نفي الكمال الواجب، وتارة يراد به نفي الوجود، أي: نفي الأصل، والمنفي في هذا الحديث هو كمال الإيمان الواجب، إلا إذا خلا القلب من محبة الرسول إطلاقاً، فلا شك أن هذا نفي لأصل الإيمان.

قوله: (والناس أجمعين): يشمل إخوته وأعمامه وأبناءهم وأصحابه ونفسه، لأنه من الناس، فلا يتم الإيمان حتى يكون الرسول أحب إليه من جميع المخلوقين.

وإذا كان هذا في محبة رسول الله فكيف بمحبة الله تعالى!؟

ومحبة رسوله الله ﷺ تكون لأمر: أنه رسول الله، وإذا كان الله أحب إليك من كل شيء، فرسوله أحب إليك من كل مخلوق، ولما قام به من عبادة الله وتبليغ رسالته، ولما آتاه الله من مكارم الأخلاق، ومحاسن الأعمال، ولأنه سبب هدايتك وتعليمك، ولصبره على الأذى في تبليغ الرسالة، وبذله جهده بالمال والنفس لإعلاء كلمة الله.

ويستفاد من هذا الحديث:

- ١- وجوب تقديم محبة الرسول ﷺ على محبة النفس.
- ٢- فداء الرسول ﷺ بالنفس والمال؛ لأنه يجب أن تقدم محبته على نفسك ومالك.
- ٣- أنه يجب على الإنسان أن ينصر سنة رسول الله ﷺ ويبدل لذلك نفسه وماله وكل طاقته؛ لأن ذلك من كمال محبة رسول الله.

(١) أخرجه البخاري في الأيمان، باب كيف كانت يمين النبي صلى الله عليه وسلم (٢١٦/٤) من حديث عمر رضي الله عنه.

٤- وجوب تقديم قول الرسول على قول كل الناس، لأن من لازم كونه أحب من كل أحد أن يكون قوله مقدما على كل أحد من الناس، حتى على قولك، فتدع القول الذي تهواه وترد على نفسك بقول الرسول، وهذا عنوان تقديم محبته على محبة النفس.

فيؤخذ من هذا الحديث وجوب تقديم قول الرسول ﷺ على قول كل الناس، حتى على قول أبي بكر وعمر وعثمان، وعلى قول الأئمة الأربعة ومن بعدهم، قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾، لكن إذا وجدنا حديثا يخالف الأحاديث الأخرى الصحيحة، أو مخالفا لقول أهل العلم وجمهور الأمة، فالواجب التثبت والتأني في الأمر، فلا تتعجل في قبوله حتى يتبين لك الأمر، فإذا تبين فإنه لا بأس أن يخصص الأقوى بأضعف منه إذا كان حجة، وهذه القاعدة تنفعك في كثير من الأقوال التي ظهرت أخيرا وتركها الأقدمون، فيقال: أين الناس من هذه الأحاديث؟ ولو كانت هذه الأحاديث من شريعة الله لكانت منقولة باقية معلومة. مثل ما ذكر: أن الإنسان إذا لم يطف طواف الإفاضة قبل أن تغرب الشمس يوم العيد فإنه يعود محرما، فإن هذا الحديث وإن كان ظاهر سنده الصحة لكنه وشاذ، ولهذا لم يذكر أنه عمل به إلا رجل أو رجلان من التابعين، والأمة على خلافه، فمثل هذه الأحاديث يجب أن يتحرى الإنسان فيها ويتثبت. مناسبة هذا الحديث للباب ظاهرة، إذ محبة الرسول ﷺ من محبة الله، ولأنه إذا كان لا يكمل الإيمان حتى يكون الرسول أحب إلى الإنسان من نفسه والناس أجمعين، فمحبة الله أولى وأعظم.

ولهما عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف في النار»<sup>(١)</sup>.

وفي رواية: «لا يجد أحد حلاوة الإيمان حتى» إلى آخره<sup>(٢)</sup>.

قوله (ثلاث من كن فيه): أي: ثلاث خصال.

وقوله: (وجد بهن حلاوة الإيمان): حلاوة الإيمان: ما يجده الإنسان في نفسه وقلبه من الطمأنينة والراحة والانشراح، فهي حلاوة قلبية.

الخصلة الأولى: (أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما).

(١) أخرجه البخاري في الإيمان، باب حلاوة الإيمان (٢٢/١)، ومسلم في الإيمان، باب خصال من اتصف بهن وجد حلاوة الإيمان (١/٦٦).

(٢) أخرجه البخاري في الأدب، باب الحب في الله (٤/٩٨).

إن قيل: لماذا جاء الحديث بالواو (الله ورسوله) وجاء الخبر لهما جميعا (أحب إليه مما سواهما)؟  
فالجواب: لأن محبة الرسول من محبة الله، ولهذا جعل قوله: أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدا رسول الله ركنا واحدا، لأن الإخلاص لا يتم إلا بالمتابعة التي جاءت عن طريق النبي.

الخصلة الثانية: (وأن يحب المرء لا يحبه إلا الله)، اللام للتعليل، أي: من أجل الله، لأنه قائم بطاعة الله.  
الخصلة الثالثة: (وأن يكره أن يعود في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف في النار)، هذه الصورة في كافر أسلم، وإنما ذكر هذه الصورة لأن الكافر يألف ما كان عليه أولا فرمما يرجع إليه، بخلاف من لا يعرف الكفر أصلا.

وقوله: (وفي رواية: لا يجد أحد حلاوة الإيمان): أتى المؤلف بهذه الرواية لأن انتفاء وجدان حلاوة الإيمان بالنسبة للرواية الأولى عن طريق المفهوم، وهذه عن طريق المنطوق، ودلالة المنطوق أقوى من دلالة المفهوم.

وعن ابن عباس قال: من أحب في الله وأبغض في الله، ووالى في الله وعادى في الله، فإنما تنال ولاية الله بذلك، ولن يجد عبد طعم الإيمان \_ وإن كثرت صلواته وصومه \_ حتى يكون كذلك، وقد صارت عامة مؤاخاة الناس على أمر الدنيا، وذلك لا يجدي على أهله شيئا. رواه ابن جرير.

قوله: (وأبغض في الله): البغض الكره، أي: أبغض في ذات الله، فإذا رأى من يعصي الله كرهه.  
قوله: (ووالى في الله): الموالاتة: هي المحبة والنصرة وما أشبه ذلك.  
قوله: (وعادى في الله): المعاداة ضد الموالاتة، أي: يتعد عنهم ويبغضهم ويكرههم في الله.  
قوله: (فإنما تنال ولاية الله بذلك): هذا جواب الشرط، أي: يدرك الإنسان ولاية الله ويصل إليها، لأنه جعل محبته وبغضه وولايته ومعاداته لله.

وقوله: (ولاية): يجوز في الواو وجهان: الفتح والكسر، قيل: معناهما واحد، وقيل: بالفتح بمعنى النصر، قال تعالى: ﴿مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾، وبالكسر بمعنى الولاية على الشيء.  
قوله: (بذلك): المشار إليه الحب في الله والبغض فيه، والموالاتة فيه والمعاداة فيه.

ومعنى الأثر: أن الإنسان لا يجد طعم الإيمان وحلاوته ولذته حتى يكون كذلك، ولو كثرت صلواته وصومه، وكيف يستطيع عاقل فضلا عن مؤمن أن يوالي أعداء الله، فيرى أعداء الله يشركون به ويكفرون به ويصفونه بالنقائص والعيوب ثم يواليهم ويحبهم؟! فهذا لو صلى وقام الليل كله وصام الدهر كله فإنه لا يمكن أن ينال طعم

الإيمان، فلا بد أن يكون قلبك مملوءاً بمحبة الله وموالاته، ويكون مملوءاً ببغض أعداء الله ومعاداتهم، قال ابن القيم رحمه الله تعالى:

أحب أعداء الحبيب وتدعي حبا له ما ذاك في إمكان

هذا الذي يجد طعم الإيمان، أما - والعياذ بالله - الذي يرى أن اليهود أو النصارى على دين مرضي ومقبول عند الله بعد بعثة النبي ﷺ فهو خارج عن الإسلام، مكذب بقول الله: ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾، وقوله: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾، وقوله: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾، ولكثرة اليهود والنصارى والوثنيين صار في هذه المسألة خطر على المجتمع، وأصبح كثير من الناس الآن لا يفرق بين مسلم وكافر، ولا يدري أن غير المسلم عدو لله، بل هو عدو له أيضا، لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ﴾، فهم أعداء لنا ولو تظاهروا بالصدقة، قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾.

فالآن أصبحنا في محنة وخطر عظيم، لأنه يخشى على أبناء قومنا أن يركنوا إلى هؤلاء ويوادوهم ويحبوهم، ولذلك يجب أن تخلص هذه البلاد بالذات منهم، فهذه البلاد قال فيها الرسول ﷺ: «لأخرجن اليهود والنصارى من جزيرة العرب حتى لا أدع إلا مسلما»، وقال: «أخرجوا اليهود والنصارى من جزيرة العرب»، وهذا كله من أجل أن لا يشتهب الأمر على الناس، ويختلط أولياء الله بأعدائه. قوله: (وقد صارت عامة مؤاخاة الناس على أمر الدنيا، وذلك لا يجدي على أهله شيئا). قوله: (عامه): أي: أغلبية.

وقوله: (مؤاخاة الناس): أي: مودتهم ومصاحبتهم، وهذا قاله ابن عباس، وهو بعيد العهد منا قريب العهد من النبوة، فإذا كان الناس قد تغيروا في زمنه، فما بالك بالناس اليوم؟ قد صارت مؤاخاة الناس - إلا النادر - على أمر الدنيا.

ويستفاد من أثر ابن عباس رضي الله عنهما: أن الله تعالى أولياء، وهو ثابت بنص القرآن، قال تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾، فله أولياء يتولون أمره ويقيمون دينه، وهو يتولاهم بالمعونة والتسديد والحفظ والتوفيق، والميزان لهذه الولاية قوله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ، الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾، قال شيخ الإسلام: من كان مؤمنا تقيا كان الله وليا. فالولاية تنقسم إلى: ولاية من الله للعبد، وولاية من العبد لله، فمن الأولى قوله تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾، ومن الثانية قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾.

والولاية التي من الله للعبد تنقسم إلى عامة وخاصة، فالولاية العامة هي الولاية على العباد بالتدبير والتصريف، وهذه تشمل المؤمن والكافر وجميع الخلق، فالله هو الذي يتولى عباده بالتدبير والتصريف والسلطان وغير ذلك، ومنه قوله تعالى: ﴿ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ﴾.

والولاية الخاصة: أن يتولى الله العبد بعنايته وتوفيقه وهدايته، وهذه خاصة بالمؤمنين، قال تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُوهُمْ مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ﴾، وقال تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ، الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾.

وقال ابن عباس في قوله تعالى: ﴿وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ﴾، قال: المودة<sup>(١)</sup>.

الأسباب: جمع سبب، وهو كل ما يتوصل به إلى شيء.

وقوله: (المودة): هذا الأثر ضعفه بعضهم، لكن معناه صحيح، فإن جميع الأسباب التي يتعلق بها المشركون لتنجيهم تنقطع بهم، ومنها محبتهم لأصنامهم وتعظيمهم إياها، فإنها لا تنفعهم، ولعل ابن عباس رضي الله عنهما أخذ ذلك من سياق الآيات، فقد قال الله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَاداً يُحِبُّوهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾، ثم قال تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأُوا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ﴾. وقول المؤلف في المسائل: (الثالثة: وجوب محبته ﷺ على النفس والأهل والمال) لعل الصواب: وجوب تقديم محبته.

وقوله (الثامنة: تفسير قوله: ﴿وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ﴾) فسرهما بالمودة، وتفسير الصحابي إذا كانت الآية من صيغ العموم تفسير بالمثل، لأن العبرة في نصوص الكتاب والسنة بعموماتها، فإذا ذكر فرد من أفراد هذا العموم، فإنما يقصد به التمثيل، أي: مثل المودة، لكن حتى الأسباب الأخرى التي يتقربون بها إلى الله وليست بصحيحة، فإنها تنقطع بهم ولا ينالون منها خيراً.

(١) أخرجه ابن جرير (٢/ ٤٣)، والحاكم (٢/ ٢٧٢) وصححه، ووافقه الذهبي.

## باب قول الله تعالى ﴿إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونَ إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾

مناسبة الباب لما قبله:

أن المؤلف رحمه الله أعقب باب المحبة بباب الخوف، لأن العبادة تركز على شيئين: المحبة، والخوف، فبالمحبة يكون امتثال الأمر، وبالخوف يكون اجتناب النهي، وكل منهما ملازم للآخر. وهل الأفضل للإنسان أن يغلب جانب الخوف، أو يغلب جانب الرجاء؟ قيل: ينبغي أن يغلب جانب الخوف، ليحمله ذلك على اجتناب المعصية ثم فعل الطاعة. وقيل: يغلب جانب الرجاء، ليكون متفائلاً، والرسول ﷺ كان يعجبه الفأل. وقيل: إذا فعل الطاعة يغلب جانب الرجاء، فالذي مَنَّ عليه بفعل هذه الطاعة سيمن عليه بالقبول، وإذا فعل المعصية أو حدثته نفسه بفعلها يغلب جانب الخوف؛ لأجل أن يمنعه منها، أو يتوب منها إن كان وقع فيها.

وقيل: في حال المرض يغلب جانب الرجاء، وفي حال الصحة يغلب جانب الخوف. وقال الإمام أحمد: ينبغي أن يكون خوفه ورجاؤه واحداً، فأيهما غلب هلك صاحبه. فهذه خمسة أقوال.

والخوف العدل هو الذي يرد عن محارم الله، فإذا جاوز هذا، أوصل إلى اليأس من روح الله. والخوف أقسام:

الأول: خوف العبادة والتذلل والتعظيم والخضوع، وهو ما يسمى بخوف السر؛ وهذا لا يصلح إلا لله سبحانه، فمن أشرك فيه مع الله غيره فهو مشرك شركاً أكبر، وذلك مثل: من يخاف من الأصنام أو الأموات أو يعتقد نفعهم وضرهم، كما يفعله بعض عباد القبور.

الثاني: الخوف الطبيعي والجبلي، فهذا في الأصل مباح، لقوله تعالى عن موسى: ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ﴾، وقوله عنه أيضاً: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ﴾، لكن إن حمل على ترك واجب أو فعل محرم فهو محرم.

وهناك ما يسمى بالوهم، مثل أن يرى ظل شجرة تهمز فيظنه عدوا يتهدده، فهذا جن، ولا ينبغي للمؤمن أن يكون كذلك.

مناسبة الخوف للتوحيد: أن من أقسام الخوف ما يكون شركا منافيا للتوحيد.

وقد ذكر المؤلف فيه ثلاث آيات:

أولها ما جعلها ترجمة للباب، وهي قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ﴾، المشار إليه التخويف من المشركين، والمعنى: يوقع الخوف في قلوبكم منهم.

و(أولياءه) أي: أنصاره، الذين ينصرون الفحشاء والمنكر.

وقوله: (يخوف أولياءه) من ذلك ما وقع في الآية التي قبلها، حيث قالوا: ﴿إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ﴾، وذلك ليصدوهم عن واجب من واجبات الدين، وهو الجهاد، فيخوفونهم بذلك، وكذلك ما يحصل في نفس من أراد أن يأمر بالمعروف أو ينهى عن المنكر، فيخوفه الشيطان ليصدّه عن هذا العمل، وكذلك ما يقع في قلب الداعية إلى الله، والحاصل: أن الشيطان يخوف كل من أراد أن يقوم بواجب، وما دام الإنسان قائما بأمر الله، فليثق بأن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون، وحزب الله هم الغالبون.

قوله: (فلا تخافوهم): لا ناهية، وهذا النهي للتحريم بلا شك، أي: بل امضوا فيما أمرتكم به وفيما أوجبتة عليكم من الجهاد، ولا تخافوا هؤلاء، وإذا كان الله مع الإنسان فإنه لا يغلبه أحد، لكن نحتاج إلى صدق النية والإخلاص والتوكل التام، ولهذا قال تعالى: ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾.

وعلم من هذه الآية أن للشيطان وساوس يلقيها في قلب ابن آدم منها التخويف من أعدائه، وهذا ما وقع فيه كثير من الناس، وهو الخوف من أعداء الله فكانوا فريسة لهم، وإلا لو اتكلوا على الله وخافوه قبل كل شيء لخافهم الناس.

ويفهم من الآية أن الخوف من الشيطان وأوليائه مناف للإيمان، فإن كان الخوف يؤدي إلى الشرك فهو مناف لأصله، وإلا فهو مناف لكماله.

وقوله: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنِ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾.

المراد بالعمارة العمارة المعنوية، وهي عمارتها بالصلاة والذكر وقراءة القرآن ونحوها، وكذلك الحسية بالبناء الحسي، فإن عمارتها به حقيقة لا تكون إلا ممن ذكرهم الله، لأن من يعمرها وهو لم يؤمن بالله واليوم الآخر لم

يعمرها حقيقة، لعدم انتفاعه بهذه العمارة، فلما افتخر المشركون بعمارة المسجد الحرام، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مِنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾، وأضاف سبحانه المساجد إلى نفسه تشريفاً، لأنها موضع عبادته. قوله: (وأقام الصلاة): أي: أتى بها على وجه قويم لا نقص فيه. والإقامة نوعان:

إقامة واجبة، وهي التي يقتصر فيها على فعل الواجب من الشروط والأركان والواجبات. وإقامة مستحبة: وهي التي يزيد فيها على فعل ما يجب؛ فيأتي بالواجب والمستحب. قوله: ﴿فَعَسَىٰ أَوْلَتْكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ قال ابن عباس: عسى من الله واجبة. وجاءت بصيغة الترجي، لئلا يأخذ الإنسان الغرور بأنه حصل على هذا الوصف. الشاهد من الآية: قوله: ﴿وَمَنْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ﴾؛ ولهذا قال تعالى: ﴿فَلَا تَحْشَوْا النَّاسَ وَاحْشَوْا اللَّهَ﴾، ومن علامات صدق الإيمان أن لا يخشى إلا الله في كل ما يقول ويفعل، ومن أراد أن يصحح هذا فليتأمل قول الرسول ﷺ: «واعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك».

**وقوله: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ﴾.**

قوله تعالى: (ومن الناس): (من) تبعيضية. والمراد بهؤلاء: من لا يصل الإيمان إلى قرارة قلبه، فيقول: آمنا بالله، لكنه إيمان متطرف، كقوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ﴾ (على حرف) أي: على طرف، فإذا امتحنه الله بما يُقَدِّرُ عليه من إيذاء الأعداء في الله جعل فتنة الناس كعذاب الله. قوله: (جعل فتنة الناس كعذاب الله): ومعلوم أن الإنسان يفر من عذاب الله فيوافق أمره، فهذا يجعل فتنة الناس كعذاب الله، فيفر من إيذائهم بموافقة أهوائهم وأمرهم، فحينئذ يكون قد خاف من هؤلاء كخوفه من الله، فالآية موافقة للترجمة.

وفي هذه الآية من الحكمة العظيمة، وهي ابتلاء الله للعبد لأجل أن يمحص إيمانه، وذلك على قسمين: الأول: ما يقدره الله نفسه على العبد، كقوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ﴾. الثاني: ما يقدره الله على أيدي الخلق من الإيذاء امتحانا واختبارا، وذلك كالأية التي ذكر المؤلف.

فبعض الناس إذا أصابته مصائب لا يصبر، فيكفر ويرتد أحيانا والعياذ بالله، وكثير من الناس ينقص إيمانه بسبب المصائب نقصا عظيما، فليكن المسلم على حذر، فالله حكيم، يمتحن عباده بما يتبين به تحقق الإيمان، قال تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ﴾.

قوله: (الآية): أي: إلى آخر الآية، وهي قوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ جَاءَ نَصْرٌ مِنْ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوْلَىٰ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ﴾، كانوا يدعون أن ما يحصل لهم من الإيذاء بسبب الإيمان، فإذا انتصر المسلمون قالوا: نحن معكم نريد أن يصيبنا مثل ما أصابكم من غنيمة وغيرها، وقوله: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ﴾، فالله أعلم بنفسك منك ومن غيرك، ففي الآية تحذير من أن يقول الإنسان خلاف ما في قلبه. الشاهد من الآية: قوله ﴿فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةً لِلنَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ﴾ فخاف الناس مثل خوف الله تعالى.

عن أبي سعيد مرفوعا: إن من ضعف اليقين أن ترضي الناس بسخط الله، وأن تحمدهم على رزق الله، وأن تدمهم على ما لم يؤتكم الله، إن رزق الله لا يجره حرص حريص، ولا يرده كراهية كاره.

قوله: (وأن تحمدهم على رزق الله): أي: إذا أعطوك شيئا حمدتهم، ونسيت المسبب وهو الله، فالذي أعطاك سبب فقط، والمعطي هو الله، أما إن كان في قلبك أن الله هو الذي من عليك بسبب هذا الرزق، ثم شكرت الذي أعطاك، فليست هذا داخلا في الحديث، بل هو من الشرع، لقوله: «من صنع إليكم معروفا، فكافئوه، فإن لم تجدوا ما تكافئونه به، فادعوا له حتى تروا أنكم قد كافأتموه».

قوله: (وأن تدمهم على ما لم يؤتكم الله): هذه عكس الأولى، فمثلا: لو أن إنسانا جاء إلى شخص يوزع دراهم فلم يعطه فدمه، فهذا من الخطأ؛ لأن ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، لكن من قصر بواجب عليه فيدم لأجل أنه قصر بالواجب، لا لأجل أنه لم يعط، فلا يدم من حيث القدر، لأن الله لو قدر ذلك لوجدت الأسباب التي يصل بها إليك هذا العطاء.

قوله: (إن رزق الله لا يجره حرص حريص ولا يرده كراهية كاره)، هذا تعليل، لقوله: (أن تحمدهم، وأن تدمهم)، و(رزق الله): عطاؤه، لكن حرص الحريص من سببه بلا شك، لكنه ليس موجبا مستقلا، وإنما الذي يرزق هو الله تعالى، وكم من إنسان يفعل أسبابا كثيرة للرزق ولا يرزق، وكم من إنسان يفعل أسبابا قليلة فيرزق، وكم من إنسان يأتيه الرزق بدون سعي، كما لو وجد ركازا في الأرض أو مات له قريب غني يرثه، أو ما أشبه ذلك.

وعن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: «من التمس رضا الله بسخط الناس رضي الله عنه وأرضى عنه الناس، ومن التمسك رضا الناس بسخط الله، سخط الله عليه وأسخط عليه الناس» رواه ابن حبان في صحيحه<sup>(١)</sup>.

قوله: (التمس): طلب.

وقوله: (بسخط الناس): أي: طلب ما يرضي الله ولو سخط الناس به.

وقوله: (رضي الله عنه وأرضى عنه الناس): هذا ظاهر، فإذا التمس العبد رضا ربه بنية صادقة، رضي الله عنه؛ لأنه أكرم من عبده، وأرضى عنه الناس، وذلك بما يلقي في قلوبهم من الرضا عنه ومحبتة، لأن القلوب بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء.

قوله: (ومن التمس رضا الناس بسخط الله) فنتيجة ذلك أن يعامل بنقيض قصده: (سخط الله عليه وأسخط عليه الناس)، فألقى في قلوبهم سخطه وكرهيته. مناسبة الحديث للترجمة:

قوله: (ومن التمس رضا الناس بسخط الله)، أي: خوفا منهم حتى يرضوا عنه، فقدم خوفهم على مخافة الله تعالى.

وخلاصة الباب أنه يجب على المرء أن يجعل الخوف من الله فوق كل خوف، وأن لا يبالي بأحد في شريعة الله تعالى، وأن يعلم أن من التمس رضا الله تعالى وإن سخط الناس عليه، فالعاقبة له، وإن التمس رضا الناس وتعلق بهم وأسخط الله، انقلبت عليه الأحوال، ولم ينل مقصوده، بل حصل له عكس مقصوده، وهو أن يسخط الله عليه ويسخط عليه الناس.

(١) أخرجه ابن حبان بهذا اللفظ (١٥٤٢)، وأخرجه بنحوه: ابن المبارك في الزهد (١٩٩)، والترمذي في الزهد، باب من التمس رضا الله بسخط الناس (١٣٢/٧)، والبعوي في شرح السنة (٤١٠/١٤)، وأبو نعيم في الحلية (١١٨ / ٨)، وابن حبان (١٥٤١).

## باب قول الله تعالى ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾

التوكل: هو الاعتماد على الله - سبحانه وتعالى - في حصول المطلوب ودفع المكروه، مع الثقة به، وفعل الأسباب المأذون فيها، هذا أقرب تعريف له.

فلا بد من أمرين:

الأول: أن يكون الاعتماد على الله اعتمادا صادقا حقيقيا.

الثاني: فعل الأسباب المأذون فيها.

فمن جعل أكثر اعتماده على الأسباب نقص توكله على الله.

ومن جعل اعتماده على الله ملغيا للأسباب فقد طعن في حكمة الله، لأن الله جعل لكل شيء سببا، كمن يعتمد على الله في حصول الولد وهو لا يتزوج، والنبي ﷺ أعظم المتوكلين، ومع ذلك كان يأخذ بالأسباب، فكان يأخذ الزاد في السفر، ولما خرج إلى أحد ظاهر بين درعين، أي: لبس درعين اثنين، ولما خرج مهاجرا أخذ من يده الطريق.

والتوكل نصف الدين ولهذا نقول في صلاتنا: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، فنطلب من الله العون على عبادته، وقال تعالى: ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾، وقال تعالى: ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾، ولا يمكن تحقيق العبادة إلا بالتوكل، لأن الإنسان لو وكل إلى نفسه وكل إلى ضعف وعجز، ولم يتمكن من القيام بالعبادة.

ولكن الغالب عندنا ضعف التوكل، فلا نشعر حين نقوم بالعبادة أو العادة بالتوكل على الله والاعتماد عليه في أن ننال هذا الفعل، بل نعتمد في الغالب على الأسباب الظاهرة، فيفوتنا ثواب عظيم وهو ثواب التوكل، كما أننا لا نوفق إلى حصول المقصود في الغالب، سواء حصل لنا عوارض توجب انقطاعها أو عوارض توجب نقصها. والتوكل ينقسم إلى ثلاثة أقسام:

الأول: توكل عبادة وخضوع، وهو الاعتماد المطلق على من توكل عليه، بحيث يعتقد أن بيده جلب النفع ودفع الضر، فيعتمد عليه اعتمادا كاملا، مع شعوره بافتقاره إليه، فهذا يجب إخلاصه لله تعالى، ومن صرفه لغير الله، فهو مشرك شركا أكبر، كالذين يعتمدون على الصالحين من الأموات والغائبين، وهذا لا يكون إلا ممن يعتقد أن هؤلاء تصرفا خفيا في الكون، فيعتمد عليهم في جلب المنافع ودفع المضار.

الثاني: الاعتماد على شخص في رزقه ومعاشه وغير ذلك، وهذا من الشرك الأصغر، مثل اعتماد كثير من الناس على وظيفته في حصول رزقه.

الثالث: أن يعتمد على شخص فيما فوض إليه التصرف فيه، كما لو وكلت شخصا في بيع شيء أو شرائه، وهذا لا شيء فيه، وقد وكل النبي ﷺ علي بن أبي طالب أن يذبح ما بقي من هديه، ووكل أبا هريرة على الصدقة، ووكل عروة بن الجعد أن يشتري له أضحية.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: ولا يكون للمعطلة أن يتوكلوا على الله ولا للمعتزلة القدرية، لأن المعطلة يعتقدون انتفاء الصفات عن الله تعالى، والإنسان لا يعتمد إلا على من كان كامل الصفات المستحقة لأنه يعتمد عليه.

وكذلك القدرية، لأنهم يقولون: إن العبد مستقل بعمله، والله ليس له تصرف في أعمال العباد. ومن ثم نعرف أن طريق السلف هو خير الطرق، وبه تكمل جميع العبادات وتتم به جميع أحوال العابدين. وقد ذكر المؤلف في هذا الباب أربع آيات، أولها ما جعله ترجمة للباب، وهي قوله تعالى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا﴾، وتقديم المعمول يدل على الحصر، أي: على الله لا على غيره، (فتوكلوا)، أي: اعتمدوا. قوله: ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ هذا يفيد أن التوكل من الإيمان ومن مقتضياته، كما لو قلت: إن كنت كريما فأكرم الضيف.

وهذه الآية تقتضي انتفاء كمال الإيمان بانتفاء التوكل على الله، إلا إن حصل اعتماد كلي على غير الله، فهو شرك أكبر ينتفي له الإيمان كله.

وقوله: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ الآية.

(إنما): أداة حصر، والحصر هو إثبات الحكم في المذكور ونفيه عما عداه، والمعنى: ما المؤمنون إلا هؤلاء، وذكر الله في هذه الآية وما بعدها خمسة أوصاف:

أحدها: قوله: ﴿الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾، أي: خافت؛ لما فيها من تعظيم الله تعالى. الوصف الثاني: قوله: ﴿وَإِذَا تُلِيتَ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾، أي: تصديقا وامثالها، وفي هذا دليل على أن الإنسان قد ينتفع بقراءة غيره أكثر مما ينتفع بقراءة نفسه كما أمر النبي ﷺ عبد الله بن مسعود أن يقرأ عليه، فقال: كيف أقرأ عليك وعليك أنزل؟ فقال: «إني أحب أن أسمع من غيري».

الوصف الثالث: قوله: ﴿وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾، أي: يعتمدون على الله لا على غيره، وهم مع ذلك يعملون الأسباب، وهذا هو الشاهد.

الوصف الرابع: قوله ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾ أي: يأتون بها مستقيمة كاملة، والصلاة: اسم جنس تشمل الفرائض والنوافل.

الوصف الخامس: قوله: ﴿وَمَا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾.

وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ﴾ الآية.

يخاطب الله رسوله بوصف النبوة أحيانا وبوصف الرسالة أحيانا، فحينما يأمره أن يبلغ يناديه بوصف الرسالة، وأما في الأحكام الخاصة فالغالب أن يناديه بوصف النبوة، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ﴾، وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ﴾.

و(النبوي): فعيل بمعنى مفعّل بفتح العين، ومفعّل بكسرهما، أي: منبأ، ومنبئ، فالرسول منبأ من قبل الله، ومنبئ لعباد الله.

قوله: (حسبك الله): أي: كافيك، والحسب: الكافي.

قوله: ﴿وَمَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (من): اسم موصول مبنية على السكون، معطوف على الكاف في قوله: (حسبك)، أي: وحسب من اتبعك من المؤمنين، فتوكلوا عليه جميعا أنت ومن اتبعك. وقيل: إنه معطوف على (الله)، فيكون المعنى: حسبك الله وحسبك من اتبعك من المؤمنين، وهذا ضعيف؛ لأوجه عدة<sup>(١)</sup>.

وقوله: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ الآية.

جملة شرطية تفيد بمنطوقها أن من يتوكل على الله فإن الله يكفيه مهماته ويسر له أمره، وتفيد بمفهومها أن من توكل على غير الله خذل، لأن غير الله لا يكون حسبا كما تقدم، فمن توكل على غير الله تخلى الله عنه، وصار موكولا إلى هذا الشيء ولم يحصل له مقصوده، وابتعد عن الله بمقدار توكله على غير الله.

(١) انظرها في الأصل (٢/٩٤ - ٩٥).

وعن ابن عباس قال: ﴿حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ قالها إبراهيم عليه السلام حين ألقى في النار، وقالها محمد ﷺ حين قالوا له: ﴿إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا﴾ الآية. رواه البخاري والنسائي.

قوله (قالها محمد ﷺ...) هذا في نص القرآن، لما انصرف أبو سفيان من أحد أراد أن يرجع إلى النبي ﷺ وأصحابه ليقضي عليهم بزعمه، فلقي ركبا متجها إلى المدينة، فقال لهم: بلغوا محمدا وأصحابه أنا راجعون إليهم فقاضون عليهم، فجاء الركب إلى المدينة فبلغوهم، فقال رسول الله ﷺ ومن معه: حسبنا الله ونعم الوكيل. وخرجوا في نحو سبعين راكبا حتى بلغوا حمراء الأسد، ثم إن أبا سفيان تراجع عن رأيه وانصرف إلى مكة، وهذا من كفاية الله لرسوله وللمؤمنين، حيث اعتمدوا عليه تعالى.

قوله: (قال لهم الناس): أي: الركب، (إن الناس): أي: أبا سفيان ومن معه.

قوله: (حسبنا): أي: كافينا.

قوله: (ونعم الوكيل): الوكيل: المعتمد عليه.

وقول ابن عباس رضي الله عنهما: (إن إبراهيم قالها حين ألقى في النار) قول لا مجال للرأي فيه، فيكون له حكم الرفع، وابن عباس وإن كان ممن يروي عن بني إسرائيل فجزمه بهذا، وقرنه لما قاله الرسول ﷺ مما يبعد أن يكون أخذه من بني إسرائيل.

الشاهد من الآية، قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾، حيث جعلوا حسبهم الله وحده.

## باب قول الله تعالى ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾

هذا الباب اشتمل على موضوعين:

الأول: الأمان من مكر الله.

الثاني: القنوط من رحمة الله. وكلاهما طرفا نقيض.

واستدل المؤلف للأول بقوله تعالى: (أفأمنوا)، الضمير يعود على أهل القرى، لأن ما قبلها قوله تعالى: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتاً وَهُمْ نَائِمُونَ، أَوْ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ، أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾، وقوله: (وهم نائمون) يدل على كمال الأمان؛ لأنهم في بلادهم، ولأن الخائف لا ينام، وقوله: (ضحى وهم يلعبون) يدل على كمال رخاء العيش، لأنه لو كان عندهم ضيق في العيش لذهبوا يطلبون الرزق، وما صاروا في الضحى يلعبون.

والاستفهامات هنا كلها للإنكار والتعجب من حال هؤلاء، فهم نائمون، وفي رغد، وهم مع ذلك مقيمون على معاصي الله، فبين الله أن هذا من مكره بهم، ولهذا قال: ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ﴾، ثم ختم الآية بقوله: ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾، فالذي يمن الله عليه بالنعم والرغد والترف وهو مقيم على معصيته يظن أنه رابح وهو في الحقيقة خاسر.

وفي الآية دليل على أن الله مكر، والمكر هو: التوصل إلى الإيقاع بالخصم من حيث لا يشعر.

فإن قيل: كيف يوصف الله بالمكر وهي صفة ذم؟

قيل: إن المكر في محله محمود، يدل على قوة الماكر، وأنه غالب على خصمه، ولذلك لا يوصف الله به على الإطلاق، فلا يجوز أن تقول: إن الله ماكر، وإنما تذكر هذه الصفة في مقام تكون فيه مدحا، وهكذا جاءت في القرآن، مثل قوله تعالى: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ﴾، وقال تعالى: ﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾، ومثل قوله تعالى: ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ﴾، وفي المقام الذي لا تكون مدحا لا يوصف بها، وكذلك لا يسمى الله بها، فلا يقال: إن من أسماء الله الماكر.

وأما الخيانة، فلا يوصف الله بها مطلقا؛ لأنها ذم بكل حال، لأنها مكر في موضع الائتمان، وهو مذموم، قال تعالى: ﴿وَإِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ﴾، ولم يقل: فخانهم.

وأما الخداع، فهو كالمكر يوصف الله به حيث يكون مدحا، لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ﴾، والمكر من الصفات الفعلية، لأنها تتعلق بمشيئة الله - سبحانه -.

ويستفاد من هذه الآية الحذر من النعم التي يجلبها الله للعبد لئلا تكون استدراجا، لأن كل نعمة فله عليك وظيفه شكرها، وهي القيام بطاعة المنعم، فإذا لم تقم بها مع توافر النعم، فاعلم أن هذا من مكر الله.

وقوله: ﴿وَمَنْ يَقْنُطْ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ﴾.

هذا هو الموضوع الثاني مما اشتمل عليه هذا الباب، وهو القنوط من رحمة الله. والقنوط: أشد اليأس، ومعنى الآية: لا يقنط من رحمة الله إلا الضالون، والضال: فاقد الهداية، التائه الذي لا يدري ما يجب لله سبحانه، فالقنوط من رحمة الله لا يجوز؛ لأنه سوء ظن بالله، وذلك من وجهين: الأول: أنه طعن في قدرته سبحانه، لأن من علم أن الله على كل شيء قدير لم يستبعد شيئا على قدرة الله. الثاني: أنه طعن في رحمته سبحانه، لأن من علم أن الله رحيم لا يستبعد أن يرحمه الله سبحانه. ولهذا كان القانط من رحمة الله تعالى ضالا.

فلا ينبغي للإنسان إذا وقع في كربة أن يستبعد حصول مطلوبه أو كشف مكروبه، وكم من إنسان وقع في كربة وظن أن لا نجاة منها فنجاه الله سبحانه، إما بعمل صالح سابق، مثل ما وقع ليونس عليه السلام، قال تعالى: ﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ، لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾، أو بعمل لاحق، كدعاء الرسول ﷺ يوم بدر، وليلة الأحزاب، وكأصحاب الغار.

وتبين مما سبق أن المؤلف رحمه الله أراد أن يجمع الإنسان في سيره إلى الله تعالى بين الخوف فلا يأمن مكر الله، وبين الرجاء فلا يقنط من رحمته، فالأمن من مكر الله ثلم في جانب الخوف، والقنوط من رحمته ثلم في جانب الرجاء.

وعن ابن عباس أن رسول الله ﷺ سئل عن الكبائر فقال: «الشرك بالله، واليأس من روح الله، والأمن من مكر الله»<sup>(١)</sup>.

(١) أخرجه البزار كما في كشف الأستار (١٠٦)، وابن أبي حاتم كما في تفسير ابن كثير (٤٨٥/٤)، والطبراني كما في المجمع (١٠٤/١)، وفي الدر المنثور (١٤٧/٢). وقال الهيثمي (١٠٤/١): رواه البزار والطبراني، ورجاله موثقون.

قوله (سئل عن الكبائر): هذا السؤال يدل على أن الذنوب تنقسم إلى صغائر وكبائر، وقد دل على ذلك القرآن، قال تعالى: ﴿إِنَّ يَحْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾، وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَحْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشِ﴾، والكبائر ليست على درجة واحدة، فبعضها أكبر من بعض.

واختلف العلماء: هل هي معدودة أو محدودة؟

فقال بعض أهل العلم: إنها محدودة، وقد حدها شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله، فقال: كل ما رتب عليه عقوبة خاصة، سواء كانت في الدنيا أو الآخرة، وسواء كانت بفوات محبوب أو بحصول مكروه. وهذا واسع جدا يشمل ذنوبا كثيرة.

ووجه ما قاله أن المعاصي قسمان: قسم نهي عنه فقط ولم يذكر عليه وعيد، فعقوبة هذا تأتي بالمعنى العام للعقوبات، وقسم رتب عليه عقوبة خاصة، كاللعن أو الغضب أو التبرؤ من فاعله أو الحد في الدنيا أو نفي الإيمان وما أشبه ذلك فهذه كبيرة تختلف في مراتبها.

قوله: (الشرك بالله): ظاهر الإطلاق: أن المراد به الشرك الأصغر والأكبر، وهو الظاهر، لأن الشرك الأصغر أكبر من الكبائر، قال ابن مسعود: لأن أحلف بالله كاذبا أحب إلي من أن أحلف بغيره صادقا. قوله: (اليأس من روح الله): اليأس: فقد الرجاء، والروح بفتح الراء قريب من معنى الرحمة، وهو الفرج والتنفيس.

قوله: (الأمن من مكر الله): بأن يعصي الله مع استدراجه بالنعم، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ، وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾.

وعن ابن مسعود قال: أكبر الكبائر الإشراف بالله، والأمن من مكر الله، والقنوط من رحمة الله، واليأس من روح الله. رواه عبد الرزاق<sup>(١)</sup>.

قوله: (القنوط من رحمة الله واليأس من روح الله): المراد بالقنوط: أن يستبعد رحمة الله ويستبعد حصول المطلوب، والمراد باليأس هنا أن يستبعد الإنسان زوال المكروه، وإنما قلنا ذلك، لئلا يحصل تكرار في كلام ابن مسعود.

(١) أخرجه عبد الرزاق (١٠/٤٥٩، ٤٦٠)، وابن جرير (٢٦/٥)، والطبراني في الكبير (٨٧٨٣، ٨٧٨٤)، وصحح الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠٤/١) إسناد الطبراني.

## باب من الإيمان بالله الصبر على أقدار الله

الصبر في اللغة: الحبس.

وفي الاصطلاح: حبس النفس على أشياء وعن أشياء.

وهو ثلاثة أقسام:

الأول: الصبر على طاعة الله، كما قال تعالى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾، وقال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا، فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾، وقال تعالى: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾.

الثاني: الصبر عن معصية الله، كصبر يوسف عليه السلام عن إجابة امرأة العزيز حيث دعته إلى نفسها.

الثالث: الصبر على أقدار الله، ومنه قوله ﷺ لرسول إحدى بناته: «مرها فلتصبر ولتحتسب».

وأعلاها الصبر على طاعة الله، ثم الصبر عن معصية الله، ثم الصبر على أقدار الله.

وهذا الترتيب من حيث هو لا باعتبار ما يتعلق به، فقد يكون الصبر على المعصية أشق على الإنسان من

الصبر على الطاعة، وقد يصاب الإنسان بمصيبة يكون الصبر عليها أشق من الصبر على الطاعة، فنحن نذكر

المراتب من حيث هي بقطع النظر عن الصابر.

وحصَّ المؤلف رحمه الله في هذا الباب الصبر على أقدار الله، لأنه مما يتعلق بتوحيد الربوبية، لأن تدبير الخلق

والتقدير عليهم من مقتضيات ربوبية الله تعالى.

قوله: (على أقدار الله): جمع قَدَر، وتطلق على المقدور وعلى فعل المُقَدِّر وهو الله تعالى، أما بالنسبة لفعل

المُقَدِّر فيجب على الإنسان الرضا به والصبر، وبالنسبة للمقدور فيجب عليه الصبر ويستحب له الرضا، مثال

ذلك: قدر الله على سيارة شخص أن تحترق، فكون الله قدر أن تحترق هذا قدر يجب على الإنسان أن يرضى

به، لأنه من تمام الرضا بالله ربا.

وأما بالنسبة للمقدور الذي هو احتراق السيارة، فالصبر عليه واجب، والرضا به مستحب وليس بواجب.

والمقدور قد يكون طاعات، وقد يكون معاصي، وقد يكون من أفعال الله المحضة، فالطاعات يجب الرضا

بها، والمعاصي لا يجوز الرضا بها من حيث هي مقدور، أما من حيث كونها قدر الله فيجب الرضا بتقدير الله بكل

حال، ولهذا قال ابن القيم:

مقضي حين يكون بالعصيان

فلذاك نرضى بالقضاء ونسخط ال

فمن نظر بعين القضاء والقدر إلى رجل يعمل معصية، فعليه الرضا لأن الله هو الذي قدر هذا، وله الحكمة في تقديره، وإذا نظر إلى فعله فلا يجوز له أن يرضى به لأنه معصية، وهذا هو الفرق بين القدر والمقدور.

وقول الله تعالى: ﴿وَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ﴾.

قال علقمة: هو الرجل تصيبه المصيبة، فيعلم أنها من عند الله، فيرضى ويسلم.

قوله: تعالى: ﴿وَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ﴾ المراد بالإيمان بالله هنا الإيمان بقدره.

قوله: ﴿يَهْدِ قَلْبَهُ﴾ يرزقه الطمأنينة.

قوله: (قال علقمة): هو من أكابر التابعين.

قوله: (هو الرجل تصيبه المصيبة...) تفسير علقمة هذا من لازم الإيمان، لأن من آمن بالله علم أن التقدير من الله فيرضى ويسلم، فإذا علم أن المصيبة من الله اطمأن القلب وارتاح، ولهذا كان من أكبر الراحة والطمأنينة الإيمان بالقضاء والقدر.

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «اثنان في الناس هما بهم كفر: الطعن في النسب، والنياحة على الميت»<sup>(١)</sup>.

قوله: (بهم كفر): الباء يحتمل أن تكون بمعنى (من)، أي: هما منهم كفر، ويحتمل أن تكون بمعنى (في)، أي: هما فيهم كفر.

ولا يلزم من وجود خصلتين من الكفر في المؤمن أن يكون كافراً، كما لا يلزم من وجود خصلتين في الكافر من خصال الإيمان كالحياء والشجاعة والكرم أن يكون مؤمناً.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: بخلاف قول رسول الله: «بين الرجل والشرك والكفر ترك الصلاة»، فإنه هنا أتى بأل الدالة على الحقيقة، فالمراد بالكفر هنا الكفر المخرج عن الملة، بخلاف مجيء (كفر) نكرة، فلا يدل على الخروج عن الإسلام.

قوله: (الطعن في النسب): أي: العيب فيه أو نفيه.

(١) أخرجه مسلم في الإيمان، باب إطلاق اسم الكفر على الطعن في النسب والنياحة (٨٢/١).

قوله: (النياحة على الميت): وهي البكاء على الميت على صفة نوح الحمام، لأن هذا مناف للصبر الواجب، وهذه الجملة هي الشاهد للباب.

والناس حال المصيبة على مراتب أربع:

الأولى: التسخط: وهو إما أن يكون بالقلب، كأن يسخط على ربه، وقد يكون باللسان، كالدعاء بالويل والثبور وما أشبه ذلك، وقد يكون بالجوارح، كلطم الحدود وشق الجيوب وبتف الشعور.  
الثانية: الصبر، فيرى الإنسان أن هذا الشيء ثقيل عليه ويكرهه، لكنه يتحملة ويتصبر، فإيمانه يحميه من السخط.

الثالثة: الرضا، وهو أعلى من ذلك، وهو أن يكون الأمران عنده سواء بالنسبة لقضاء الله وقدره، لتمام رضاه بربه سبحانه وتعالى، وإن كان قد يجزن من المصيبة.

الرابعة: الشكر، وهو أعلى المراتب، حين يرى أن هناك مصائب أعظم منها، وأن مصائب الدنيا أهون من مصائب الدين، وأن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة، وأن هذه المصيبة سبب لتكفير سيئاته، وربما لزيادة حسناته؛ فيشكر الله على ذلك.

ولهما من حديث ابن مسعود مرفوعاً: «ليس منا من ضرب الحدود وشق الجيوب ودعا بدعوى الجاهلية»<sup>(١)</sup>.

قوله: (من ضرب الحدود): العموم يراد به الخصوص، أي: من أجل المصيبة.

قوله: (من شق الجيوب): هو طوق القميص الذي يدخل منه الرأس، وذلك عند المصيبة تسخطاً.

قوله: (ودعا بدعوى الجاهلية): دعوى مضاف والجاهلية مضاف إليه، وتنازع هنا أمران: صيغة العموم

(دعوى الجاهلية)، لأنه مفرد مضاف فيعم، والثاني: القرينة، لأن ضرب الحدود وشق الجيوب يفعلان عند المصيبة

فيكون دعا بدعوى الجاهلية عند المصيبة، مثل قولهم: واويلاه! وانقطع ظهراه!

والأولى أن ترجح صيغة العموم، والقرينة لا تخصصه، فيكون المقصود بالدعوى كل دعوى منشؤها الجهل.

وذكر هذه الأصناف الثلاثة لأنها غالباً ما تكون عند المصائب، ومثله هدم البيوت، وكسر الأواني، وتخريب

الطعام، ونحوه مما يفعله بعض الناس عند المصيبة.

وهذه الثلاثة من الكبائر، لأن النبي ﷺ تبرأ من فاعلها.

(١) أخرجه البخاري (١٢٢٦)، ومسلم (١/٩٩).

وعن أنس أن رسول الله ﷺ قال: «إذا أراد الله بعبده الخير عجل له بالعقوبة في الدنيا، وإذا أراد بعبده الشر أمسك عنه بذنبه حتى يوافي به يوم القيامة»<sup>(١)</sup>.

قوله: (عجل له بالعقوبة في الدنيا): كان ذلك خيرا من تأخيرها للآخرة لأنه يزول وينتهي، ولهذا قال النبي للمتلاعنين: إن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة. وهناك خير من ذلك وهو العفو عن الذنب، ولكن الرسول ﷺ جعل تعجيل العقوبة خيرا باعتبار أن تأخير العقوبة إلى الآخرة أشد، كما قال تعالى: ﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى﴾. قوله: (وإذا أراد بعبده الشر أمسك عنه بذنبه): أمسك عنه أي: ترك عقوبته. والإمسك فعل من أفعال الله، وليس معناه تعطيل الله عن الفعل، لكنه يمسك عن الفعل في شيء ما لحكمة بالغة. قوله: (حتى يوافي به يوم القيامة): أي: يوافيه الله به: أي: يجازيه به يوم القيامة. ويوم القيامة سمي بذلك لثلاثة أمور: لقيام الناس من قبورهم، لقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، ولقيام الأشهاد، لقوله تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾، ولقيام العدل، لقوله تعالى: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾. والغرض من سياق المؤلف لهذا الحديث: تسلية الإنسان إذا أصيب بالمصائب لئلا يجزع، فإن ذلك قد يكون خيرا، فعذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة، فيحمد الله على أنه لم يؤخر عقوبته إلى الآخرة. ومن أصيب بمصيبة فحدثته نفسه أن مصائبه أعظم من معاييه فإنه يدل على ربه بعمله ويمن عليه به، فليحذر هذا، فإن كانت المصائب أكبر من المعاييب حقا فالابتلاء ليصل المرء بصبره أعلى درجات الصابرين، والصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد.

(١) أخرجه الترمذي في الزهد، باب ما جاء في الصبر على البلاء (١٢٣/٧)، وقال: حسن غريب، والبيهقي في الأسماء والصفات ص ١٥٤، والبغوي في شرح السنة (٥/ ٢٤٥). والحديث له شاهد من حديث عبد الله بن مغفل وابن عباس وعمار بن ياسر رضي الله عنهم، فهو صحيح بمجموع طرقه. وانظر: سلسلة الأحاديث الصحيحة (١٢٢٠).

وقال النبي ﷺ: «إن عظم الجزاء مع عظم البلاء، وإن الله تعالى إذا أحب قوما ابتلاهم، فمن رضي فله الرضا، ومن سخط فله السخط» حَسَنَةُ الترمذي<sup>(١)</sup>.

قوله: (إن عظم الجزاء) إلى آخره: هذا الحديث رواه الترمذي عن أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي ﷺ، فصحايبه صحابي الحديث الذي قبله.

(إن عظم الجزاء مع عظم البلاء) هذا دليل على كمال عدل الله، وأنه لا يظلم أحدا، وفيه تسلية المصاب. قوله: (وإن الله إذا أحب قوما ابتلاهم) أي: اختبرهم بما يقدر عليهم من الأمور الكونية، كالأمرض وفقدان الأهل، أو بما يكلفهم به من الأمور الشرعية، قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا، فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾.

قوله: (فمن رضي): المراد بالرضا: الرضا بقضاء الله من حيث إنه قضاء الله، وهذا واجب بدليل قوله: (ومن سخط)، فقابل الرضا بالسخط.

والجواب: (فله الرضا)، أي: فله الرضا من الله، وإذا رضي الله عن شخص أرضى الناس عنه جميعا.

(١) أخرجه الترمذي في الزهد، باب ما جاء في الصبر على البلاء (١٢٣/٧) وقال: حسن غريب. وابن ماجه في الفتن، باب الصبر على البلاء، (١٣٣٨/٢)، والبغوي في شرح السنة (٢٤٥/٥). وإسناده حسن. انظر: المشكاة (٤٩٣/١)، وسلسلة الأحاديث الصحيحة (١٤٦).

## باب ما جاء في الرياء

المؤلف رحمه الله تعالى لم يفصح بحكم الرياء لأجل أن يحكم الإنسان بنفسه على الرياء على ما جاء فيه. والرياء مصدر راءى يرأى رياء ومرأاة، أي: عمل عملا ليراه الناس، ويدخل في ذلك من عمل العمل ليسمعه الناس، ويقال له: مُسَمِّع، وفي الحديث عن النبي ﷺ أنه قال: «من راءى راءى الله به، ومن سمع سمع الله به».

والرياء خلق ذميم، وهو من صفات المنافقين، قال تعالى: ﴿وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَأَوْنَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾.

والرياء يبحث في مقامين:

المقام الأول: في حكمه.

فنقول: الرياء من الشرك الأصغر، لأن الإنسان قصد بعبادته غير الله، وقد يصل إلى الأكبر، وقد مثل ابن القيم للشرك الأصغر، فقال: مثل يسير الرياء. وهذا يدل على أن الرياء الكثير قد يصل إلى الأكبر.

المقام الثاني: في حكم العبادة إذا خالطها الرياء، وهو على ثلاثة أوجه:

الأول: أن يكون الباعث على العبادة مراعاة الناس من الأصل، كمن قام يصلي من أجل مراعاة الناس ولم يقصد وجه الله، فهذا شرك والعبادة باطلة.

الثاني: أن يكون طارئا على العبادة في أثنائها، بأن يكون الحامل له في أول أمره الإخلاص لله، ثم يطرأ الرياء في أثناء العبادة.

أ\_ فإن كانت العبادة لا يبنني آخرها على أولها، فأولها صحيح بكل حال، والباطل آخرها. مثال ذلك: رجل عنده مئة ريال قد أعدها للصدقة فتصدق بخمسين مخلصا وراءى في الخمسين الباقية، فالأولى حكمها صحيح، والثانية باطلة.

ب\_ أما إذا كانت العبادة يبنني آخرها على أولها، فهي على حالين:

الأول: أن يدافع الرياء ولا يسكن إليه، بل يعرض عنه ويكرهه، فإنه لا يؤثر عليه شيئا، لقول النبي ﷺ «إن الله تجاوز عن أمتي ما حدثت به أنفسها ما لم تعمل أو تتكلم».

الثاني: أن يطمئن إلى هذا الرياء ولا يدافعه، فحينئذ تبطل جميع العبادة؛ لأن آخرها مرتبط بأولها.

الثالث: ما يطرأ بعد انتهاء العبادة، فلا يؤثر عليها شيئاً، اللهم إلا أن يكون فيه عدوان، كالمن والأذى بالصدقة، فإن هذا العدوان يكون إثمه مقابلاً لأجر الصدقة فيبطلها، لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَبْطُلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى﴾.

وليس من الرياء أن يفرح الإنسان بعلم الناس بعبادته، لأن هذا إنما طرأ بعد الفراغ من العبادة.

وقول الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهُ وَاحِدٌ﴾ الآية.

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ قَصْرٌ للنبي ﷺ على البشرية، وأنه ليس ربا ولا ملكا، وأكد هذه البشرية بقوله: (مثلكم).

قوله: (يُوحَىٰ إِلَيَّ) الوحي في اللغة: الإعلام بسرعة وخفاء، وفي الشرع: إعلام الله بالشرع. قوله: ﴿أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهُ وَاحِدٌ﴾ فإذا ثبت ذلك، فإنه لا يليق بك أن تشرك معه غيره في العبادة التي هي خالص حقه، ولذلك قال تعالى بعد هذا: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾.

فقوله تعالى: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ﴾، المراد بالرجاء: الطلب والأمل، أي: من كان يؤمل أن يلقي ربه، والمراد باللقيا هنا الملاقاة الخاصة، لأن اللقيا على نوعين:

الأول: عامة لكل إنسان، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ﴾.

الثاني: الخاصة بالمؤمنين، وهو لقاء الرضا والنعيم كما في هذه الآية.

فقوله: ﴿فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا﴾ العمل الصالح: ما كان خالصا صوابا، وهذا وجه الشاهد من الآية.

فالخالص: ما قصد به وجه الله، والصواب: ما كان على شريعة الله.

قوله: (وَلَا يُشْرِكْ): لا: ناهية، والمراد بالنهاي الإرشاد.

قوله: (بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا): خص العبادة لأنها خالص حق الله، ولذلك أتى بكلمة (رب) إشارة إلى العلة،

فكما أن ربك خلقتك ولا يشاركه أحد في خلقتك، فيجب أن تكون العبادة له وحده،

والشاهد من الآية: أن الرياء من الشرك، فيكون داخلا في النهي عنه.

وعن أبي هريرة مرفوعا: «قال الله تعالى: أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملا أشرك معي فيه غيري تركته وشركه» رواه مسلم<sup>(١)</sup>.

قوله: (أنا أغنى الشركاء عن الشرك): يعني: إذا كان بعض الشركاء يستغني عن شركته مع غيره، فالله أغنى الشركاء عن المشاركة، فالله لا يقبل عملا له فيه شريك أبدا، ولا يقبل إلا العمل الخالص له وحده، فكما أنه الخالق وحده، فكيف تصرف شيئا من حقه إلى غيره؟! فهذا ليس عدلا، ولهذا قال الله عن لقمان: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾، فالله الذي خلقك وأعدك إعدادا كاملا بكل مصالحك وأمدك بما تحتاج إليه، ثم تذهب وتصرف شيئا من حقه إلى غيره؟! فلا شك أن هذا من أظلم الظلم.

قوله: (عملا): نكرة في سياق الشرط، فتعم أي عمل من صلاة أو صيام أو حج أو جهاد أو غيره.

قوله: (تركته وشركه): أي: لم أثبه على عمله الذي أشرك فيه.

وقد يصل هذا الشرك إلى حد الكفر، فيترك الله جميع أعماله، لأن الشرك يحبط الأعمال إذا مات عليه.

وعن أبي سعيد مرفوعا: «ألا أخبركم بما هو أخوف عليكم عندي من المسيح الدجال؟» قالوا: بلى. قال: «الشرك الخفي، يقوم الرجل فيصلي فيزين صلاته لما يرى من نظر رجل إليه» رواه أحمد<sup>(٢)</sup>.

قوله: (أخوف عليكم عندي من المسيح الدجال): إنما كان كذلك لأن التخلص منه صعب جدا، ولذلك

قال بعض السلف: ما جاهدت نفسي على شيء مجاهدتها على الإخلاص

قوله: (الشرك الخفي): الشرك قسمان خفي وجلي، فالجلي: ما كان بالقول أو بالفعل، والخفي: ما كان في

القلب، مثل الرياء، لأنه لا يبين، إذ لا يعلم ما في القلوب إلا الله، ويسمى أيضا شرك السرائر، وهذا هو الذي

بينه الله بقوله: ﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ﴾؛ لأن الحساب يوم القيامة على السرائر، قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا

فِي الْقُبُورِ، وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ﴾.

(١) أخرجه مسلم في الزهد، باب من أشرك في عمله غير الله (٢٢٨٩/٤).

(٢) أخرجه أحمد (٣٠/٣)، وابن ماجه في الزهد، باب الرياء والسمعة (١٤٠٦/٢)، وقال في الزوائد: إسناده حسن، وكثير بن زيد وريح بن عبد الرحمن مختلف فيهما. وأخرجه الحاكم (٣٢٩/٤) وصححه.

## باب من الشرك إرادة الإنسان بعمله الدنيا

عنوان الباب له ثلاثة احتمالات:

الأول: أن يكون مكررا مع ما قبله، وهذا بعيد أن يكتب المؤلف ترجمتين متتابعتين لمعنى واحد.

الثاني: أن يكون الباب الذي قبله أخص من هذا الباب، لأنه خاص في الرياء، وهذا أعم، وهذا محتمل.

الثالث: أن يكون هذا الباب نوعا مستقلا عن الباب الذي قبله، وهذا هو الظاهر، لأن الإنسان في الباب

السابق يعمل رياء، يريد أن يمدح في العبادة، ولا يريد النفع المادي، وفي هذا الباب لا يريد أن يمدح بعبادته،

ولكنه يريد شيئا من الدنيا، كالمال والمرتبة والصحة في نفسه وأهله وولده وما أشبه ذلك، فهو يريد بعمله نفعا في

الدنيا، غافلا عن ثواب الآخرة، كمن أذن ليأخذ راتب المؤذن، أو حج ليأخذ المال، ومن تعلم في كلية ليأخذ

الشهادة فترتفع مرتبته، ومن تعبد لله كي يجزيه الله بهذا في الدنيا بمحبة الخلق له ودفع السوء عنه.

فإن قيل: هل يدخل فيه من يتعلمون في الكليات أو غيرها يريدون شهادة أو مرتبة بتعلمهم؟

فالجواب: أنهم يدخلون في ذلك؛ إذا لم يريدوا غرضا شرعيا.

فنقول لهم: لا تقصدوا بذلك المرتبة الدنيوية، بل اتخذوا هذه الشهادات وسيلة للعمل في الحقول النافعة

للخلق، لأن الأعمال في الوقت الحاضر مبنية على الشهادات، والناس لا يستطيعون الوصول إلى منفعة الخلق إلا

بهذه الوسيلة، وأيضا فمن أراد العلم لذاته قد لا يجده إلا في الكليات، فيدخل الكلية أو نحوها لهذا الغرض،

وبذلك تكون النية سليمة.

ثم إن الإنسان إذا أراد بعمله الحسنيين: حسنى الدنيا وحسنى الآخرة فلا شيء عليه؛ لأن الله يقول: ﴿وَمَنْ

يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾، فرغبه في التقوى بذكر المخرج من كل ضيق والرزق من

حيث لا يحتسب، لكن من قصد هذين الأمرين ليس إخلاصه كاملا، ولكن ليس حكمه كالمرائي، فالرياء محبط

للعمل.

وننبه هنا إلى أن بعض الناس عندما يتكلمون على فوائد العبادات يحولونها إلى فوائد دنيوية، فالصلاة رياضة،

وإفادة للأعصاب، والصيام فائدة إزالة الرطوبة وترتيب الوجبات. والمفروض ألا نجعل الفوائد الدنيوية هي الأصل،

لأن الله لم يذكر ذلك في كتابه، بل ذكر أن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، وعن الصوم أنه سبب للتقوى،

فالفوائد الدينية في العبادات هي الأصل، والدنيوية ثانوية، لكن عندما نتكلم عند من لا يقتنع إلا بشيء مادي،

فإننا نخاطبه بالنواحي الدينية والدنيوية، ولكل مقام مقال.

وقول الله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا﴾ الآية.

قوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا نُوفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا﴾ المعنى: أنهم يعطون ما يريدون في الدنيا. قوله ﴿وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْحَسُونَ﴾، البخس: النقص، أي: لا ينقصون مما يجازون فيه، لأن الله عدل لا يظلم، فيعطون ما أرادوه.

والآية مخصوصة بقوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ﴾. واختلف فيمن نزلت فيه آية هود:

فقيل: نزلت في الكفار، لأن الكافر لا يريد إلا الحياة الدنيا، وعليه يكون وجه مناسبتها للترجمة أنه إذا كان عمل الكافرين يراد به الدنيا، فكل من شاركهم في شيء من ذلك ففيه شيء من شركهم وكفرهم. وقيل: نزلت في المرأين، لأنهم لا يعملون إلا للدنيا، فلا ينفعهم يوم القيامة.

٣- وقيل: نزلت فيمن يريد مالا بعمله الصالح.

والسياق يدل للقول الأول، لقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾، وهذا لا ينطبق إلا على الكفار.

وفي الصحيح عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ (تعس عبد الدينار، تعس عبد الدرهم، تعس عبد الخميصة، تعس عبد الحميلة، إن أعطي رضي، وإن لم يعط سخط، تعس وانتكس، وإذا شيك فلا انتقش، طوبى لعبد آخذ بعنان فرسه في سبيل الله، أشعث رأسه، مغبرة قدماه، إن كان في الحراسة كان في الحراسة، وإن كان في الساقية كان في الساقية، إن استأذن لم يؤذن له، وإن شفع لم يشفع)<sup>(١)</sup>.

قوله: (تعس): بفتح العين وكسرهما، أي: خاب وهلك.

قوله: (عبد الدينار) سماه عبد الدينار، لأنه تعلق به تعلق العبد بالرب، فكان أكبر همه، وقدمه على طاعة ربه، وكذا عبد الدرهم.

(١) أخرجه البخاري في الجهاد، باب الحراسة في الغزو (٣٢٧/٢).

وقد أراد المؤلف بهذا الحديث أن يبين أن من الناس من يعبد الدنيا، أي يتذلل لها ويخضع لها، وتكون مناه وغايته، فيغضب إذا فقدت ويرضى إذا وجدت، ولهذا سمي النبي ﷺ من هذا شأنه عبدا لها، وهذا من يعنى بجمع المال من الذهب والفضة، فيكون مريدا بعمله الدنيا.

قوله: (تعس عبد الخميصة، تعس عبد الخمييلة): وهذا من يُعنى بمظهره وأثائه، لأن الخميصة كساء جميل، والخمييلة فراش وثير، ليس له هم إلا هذا الأمر، فإذا كان عبدا لهذه الأمور لأنه صرف لها جهوده وهمته، فكيف بمن أراد بالعمل الصالح شيئا من الدنيا فجعل الدين وسيلة للدنيا؟! فهذا أعظم.

قوله: (إن أعطي رضي، وإن لم يعط سخط)، يحتمل أن يكون المعطي هو الله فيكون الإعطاء قدريا، أي: إن قدر الله له الرزق والعطاء رضي وانشرح صدره، وإن منع وحرّم المال سخط بقلبه وقوله، كأن يقول: لماذا كنت فقيرا وهذا غنيا؟ وما أشبه ذلك، فيكون ساخطا على قضاء الله وقدره لأن الله منعه.

والله - سبحانه وتعالى - يعطي ويمنع لحكمة، والواجب على المؤمن أن يرضى بقضاء الله وقدره، إن أعطي شكر، وإن منع صبر.

ويحتمل أن يراد بالإعطاء هنا الإعطاء الشرعي، أي: إن أعطي من مال يستحقه من الأموال الشرعية رضي، وإن لم يعط سخط، وكلا المعنيين حق، وهما يدلان على أن هذا الرجل لا يرضى إلا للمال ولا يسخط إلا له، ولهذا سماه الرسول ﷺ عبدا له.

قوله: (تعس وانتكس): انتكس أي: انتكست عليه الأمور بحيث لا تتيسر له، فكلما أراد شيئا انقلبت عليه الأمور خلاف ما يريد، ولهذا قال: (وإذا شيك فلا انتكس): أي: إذا أصابته شوكة، فلا يستطيع أن يزيل ما يؤذيه عن نفسه.

وهذه الجمل الثلاث؛ يحتمل أن تكون خبرا منه ﷺ عن حال هذا الرجل، وأنه في تعاسة، وانتكاس، وعدم خلاص من الأذى، ويحتمل أن تكون من باب الدعاء على من هذه حاله، لأنه لا يهتم إلا للدنيا، فدعا عليه أن يهلك، وأن لا يصيب من الدنيا شيئا، وأن لا يتمكن من إزالة ما يؤذيه، وقد يصل إلى الشرك عندما يصدده ذلك عن طاعة الله؛ حتى أصبح لا يرضى إلا للمال ولا يسخط إلا له.

قوله: (طوبى لعبد آخذ بعنان فرسه في سبيل الله): هذا عكس الأول، فهو لا يهتم للدنيا، وإنما يهتم للآخرة، فهو في استعداد دائم للجهاد في سبيل الله.

و(طوبى) فُعلى من الطيب، وهي اسم تفضيل، فأطيب للمذكر وطوبى للمؤنث، والمعنى: أطيب حال تكون لهذا الرجل، وقيل: إن طوبى شجرة في الجنة، والأول أعم، كما قالوا في ويل: كلمة وعيد، وقيل: واد في جهنم، والأول أعم.

وقوله: (أخذ بعنان فرسه): أي: ممسك بمقود فرسه الذي يقاتل عليه.

قوله: (في سبيل الله): ضابطه أن يقاتل لتكون كلمة الله هي العليا، لا للحمية أو الوطنية أو ما أشبه ذلك، لكن إن قاتل وطنية وقصد حماية وطنه لكونه بلدا إسلاميا يجب الذود عنه فهو في سبيل الله، وكذلك من قاتل دفاعا عن نفسه أو ماله أو أهله، فإن النبي ﷺ قال: من قتل دون ذلك، فهو شهيد، فأما من قاتل للوطنية المحضة فليس في سبيل الله؛ لأن هذا قتال عصبية يستوي فيه المؤمن والكافر، فإن الكافر يقاتل من أجل وطنه. قوله: (أشعث رأسه، مغبرة قدماه): أي: رأسه أشعث من الغبار في سبيل الله، فهو لا يهتم بحاله ولا بدنه، ما دام هذا الأمر ناتجا عن طاعة الله عز وجل، وقدماه مغبرة من السير في سبيل الله، وهذا دليل على أن أهم شيء عنده هو الجهاد في سبيل الله.

قوله: (إن كان في الحراسة فهو في الحراسة، وإن كان في الساقية فهو في الساقية): الحراسة والساقية ليست من مقدم الجيش، فالحراسة أن يحرس الإنسان الجيش، والساقية أن يكون في مؤخرته، وللمجملتين معنيان: أحدهما: أنه لا يبالي أين وضع، إن قيل له: احرس حرس، وإن قيل له: كن في الساقية كان فيها، فلا يطلب مرتبة أعلى من هذا المحل كمقدم الجيش مثلا.

الثاني: إن كان في الحراسة أدى حقها، وكذا إن كان في الساقية، والحديث صالح للمعنيين، فيحمل عليهما جميعا إذا لم يكن بينهما تعارض، ولا تعارض هنا. قوله: (إن استأذن لم يؤذن له، وإن شفع لم يشفع) أي: هو عند الناس ليس له جاه ولا شرف، ولكنه وجيه عند الله، وله المنزلة العالية، لأنه يقاتل في سبيله.

والشفاعة: هي التوسط للغير بجلب منفعة أو دفع مضرة.

والاستئذان: طلب الإذن بالشيء.

والحديث قسم الناس إلى قسمين:

الأول: ليس له هم إلا الدنيا، إما لتحصيل المال، أو لتجميل الحال، فقد استعبدت قلبه حتى أشغلته عن ذكر الله وعبادته.

الثاني: أكبر همه الآخرة، فهو يسعى لها في أعلى ما يكون مشقة وهو الجهاد في سبيل الله، ومع ذلك أدى ما يجب عليه من جميع الوجوه.

وأفاد الحديث أن الذي ليس له هم إلا الدنيا قد تتقلب عليه الأمور، ولا يستطيع الخلاص من أدنى أذية وهي الشوكة، بخلاف الحازم الذي لا تمه الدنيا، بل أراد الآخرة ولم ينس نصيبه من الدنيا، وقنع بما قدره الله له.

وفيه: أنه ينبغي لمن جاهد في سبيل الله ألا تكون همه المراتب، بل يكون همه القيام بما يجب عليه، إما في الحراسة، أو الساقاة، أو القلب، أو الجنب، حسب المصلحة.

## باب من أطاع العلماء والأمرء في تحريم ما أحل الله أو تحليل ما حرمه فقد اتخذهم أربابا

قوله: (من أطاع العلماء): (من) يحتمل أن تكون شرطية، بدليل قوله (فقد اتخذهم)، لأنها جواب الشرط، ويحتمل أن تكون موصولة، أي: (باب الذي أطاع العلماء) وقوله: (فقد اتخذهم): خبر المبتدأ، وقرنت بالفاء، لأن الاسم الموصول كالشرط في العموم، وعلى الأول تقرأ (باب) بالتثنية، وعلى الثاني بدون تنوين، والأول أحسن.

والمراد بالعلماء: العلماء بشرع الله، وبالأمراء: أولو الأمر المنفذون له، وهذان الصنفان هما المذكوران في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾، فجعل الله طاعته مستقلة، وطاعة رسوله مستقلة، وطاعة أولي الأمر تابعة، ولهذا لم يكرر الفعل (أطيعوا)، فلا طاعة لمخلوق في معصية الخالق. وأولو الأمر هم أولو الشأن، وهم العلماء، لأنه يستند إليهم في أمر الشرع والعلم به، والأمراء، لأنه يستند إليهم في تنفيذ الشرع وإمضائه.

قوله: (في تحريم ما أحل الله): أي: في جعله حراما، عقيدة أو عملا، (أو تحليل ما حرم الله): أي: في جعله حلالا عقيدة أو عملا.

قوله: (أربابا). جمع رب، وهو المتصرف المالك.

والتصرف نوعان: تصرف قدري، وتصرف شرعي.

فمن أطاع العلماء في مخالفة أمر الله ورسوله، فقد اتخذهم أربابا من دون الله باعتبار التصرف الشرعي، لأنه اعتبرهم مشرعين، واعتبر تشريعهم شرعا يعمل به، وبالعكس الأمراء.

وقال ابن عباس: يوشك أن تنزل عليكم حجارة من السماء، أقول: قال رسول الله (،) وتقولون: قال أبو بكر وعمر؟!

قوله: (أقول: قال رسول الله ﷺ وتقولون: قال أبو بكر وعمر؟! ) أبو بكر وعمر أفضل هذه الأمة وأقربها إلى الصواب، قال النبي ﷺ: «إن يطيعوا أبا بكر وعمر يرشدوا»، وروي عنه أنه قال: «اقتدوا بالذين من بعدي

أبي بكر وعمر»، وقال: «عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي، تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ»، ولم يعرف عن أبي بكر وعمر أنهما خالفا نضا برأيهما، فإذا كان قول أبي بكر وعمر إذا عارض الإنسان بقولهما قول الرسول ﷺ فإنه يوشك أن تنزل عليه حجارة من السماء! فما بالك بمن يعارض قوله ﷺ بمن هو دون أبي بكر وعمر؟!

وفي الأثر التحذير عن التقليد الأعمى والتعصب المذهبي الذي ليس مبنيا على أساس سليم.

وقال أحمد بن حنبل: عجبت لقوم عرفوا الإسناد وصحته يذهبون إلى رأي سفيان، والله تعالى يقول: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، أتدري ما الفتنة؟ الفتنة الشرك، لعله إذا رد بعض قوله أن يقع في قلبه شيء من الزيغ فيهلك.

قول أحمد رحمه الله: (عجبت): العجب نوعان: عجب استحسان، وعجب إنكار، والمراد هنا عجب الإنكار.

قوله: (يذهبون إلى رأي سفيان): أي: سفيان الثوري، أي ويتركون ما جاء به الحديث! قوله: (والله يقول: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ﴾) إن قيل: لماذا عدي الفعل بـ (عن) مع أن (يخالف) يتعدى بنفسه؟

أجيب: أن الفعل ضمن معنى الإعراض، أي: يعرضون عن أمره زهدا فيه، وعدم مبالاة به.

وعن عدي بن حاتم أنه سمع النبي ﷺ يقرأ هذه الآية: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ الآية، فقلت له: إنا لسنا نعبدهم. قال: «أليس يكرمون ما أحل الله فتحرمونه، ويحلون ما حرم الله فتحلونونه؟» فقلت: بلى. قال: «فتلك عبادتهم» رواه أحمد والترمذي وحسنه<sup>(١)</sup>.

قوله في حديث عدي بن حاتم: (اتخذوا): الضمير يعود لليهود والنصارى جميعا، ويختص النصارى باتخاذ المسيح ابن مريم ربا.

(١) أخرجه الترمذي في تفسير القرآن، تفسير سورة التوبة (٢٤٨/٨) وقال: غريب، لا نعرفه إلا من حديث عبد السلام بن حرب، وغطيف بن أعين ليس بمعروف في الحديث، وابن جرير (٨٠، ٨١/١٠)، والبيهقي (١١٦/١٠)، والمزي في تهذيب الكمال (١٠٩/٢). وانظر: الدر المنثور للسيوطي (٢٣٠/٣)، وقد حسنه شيخ الإسلام في الإيمان ص ٦٤.

قوله: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَابَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ﴾ الأحابار: جمع حبر، وحبر بفتح الحاء وكسرها، وهو العالم الواسع العلم، والرهبان: جمع راهب، وهو العابد الزاهد.

قوله: ﴿أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أي: مشاركين لله في التشريع، لأنهم يحلون ما حرم الله فيحله هؤلاء الأتباع، ويحرمون ما أحل الله فيحرمه الأتباع.

قوله: ﴿وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ﴾ أي: اتخذوه إلهًا مع الله، بدليل قوله تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا﴾، والعبادة: التذلل والخضوع، واتباع الأوامر، واجتناب النواهي.

قوله: (إلهًا واحدًا): هو الله سبحانه وتعالى.

قوله: ﴿سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ سبحان: مفعول مطلق عاملها محذوف وجوبا وهي ملازمة للإضافة: إما إلى مضمرة، كما في الآية: (سبحانه)، أو إلى مظهر، كما في (سبحان الله).

والتسبيح: التنزيه، أي: تنزيه الله عن كل نقص، ولا يحتاج أن نقول: ومماثلة المخلوقين، لأن المماثلة نقص، ولكن إذا قلناها، فذلك من باب زيادة الإيضاح.

وقوله: (عما يشركون): عن كل شرك، وعن كل مشرك به، وهذا من البلاغة في القرآن، لأن (ما) جاءت محتملة أن تكون مصدرية، فيكون المعنى عن شركهم، أو موصولة، ويكون المعنى: سبحان الله عن الذين يشركون به، وهي صالحة للأمرين، فتكون شاملة لهما؛ لأن الصحيح جواز استعمال المشترك في معنييه إذا لم يكن بينهما تعارض، فيكون التنزيه عن الشرك وعن المشرك به.

قوله: (إنا لسنا نعبدهم): أي: لا نعبد الأحابار والرهبان، ولا نسجد لهم، ولا نركع ولا نذبح ولا ننذر لهم، وهذا صحيح بالنسبة للأحابار والرهبان، أما عيسى ابن مريم فالمعروف أنهم يعبدونه.

قوله: (أليس يحرمون ما أحل الله فتحرمونه، ويحلون ما حرم الله فتحلونونه؟! )، هذا الوصف لا ينطبق على عيسى، لأنه رسول الله، فما أحله فقد أحله الله، وما حرمه فقد حرمه الله.

قوله: (فتلك عبادتهم): وجه كونها عبادة: أن من معنى العبادة الطاعة، وطاعة غير الله عبادة للمطاع، ولكن بشرط إن تكون في غير طاعة الله، أما إذا كانت في طاعة الله فهي عبادة لله، كما لو أمرك أبوك بالصلاة فصليت. ويستفاد من الحديث: أن الطاعة بمعنى العبادة عبودية مقيدة، وأن الطاعة في مخالفة شرع الله من عبادة المطاع، أما في عبادة الله فهي عبادة لله، وأن اتباع العلماء والعباد في مخالفة شرع الله من اتخاذهم أربابا.

واعلم أن اتباع العلماء أو الأمراء، في تحليل ما حرم الله أو العكس، ينقسم إلى ثلاثة أقسام:

الأول: أن يتابعهم في ذلك راضيا بقولهم، مقدما له، ساخطا لحكم الله، فهو كافر لأنه كره ما أنزل الله،

فأحبط الله عمله، ولا تحبط الأعمال إلا بالكفر، فكل من كره ما أنزل الله، فهو كافر.

الثاني: أن يتابعهم في ذلك راضيا بحكم الله وعالما بأنه أمثل وأصلح للعباد والبلاد، ولكن لهوى في نفسه اختاره، كأنه يريد مثلا وظيفة، فهذا لا يكفر، ولكنه فاسق، وله حكم غيره من العصاة، لا يكفر لأننا لو قلنا بكفرهم لزم من ذلك تكفير كل صاحب معصية يعرف أنه عاص لله ويعلم أنه حكم الله.

الثالث: أن يتابعهم جاهلا، فيظن أن ذلك حكم الله، فينقسم إلى قسمين:

أ- أن يمكنه أن يعرف الحق بنفسه، فهو مفرط أو مقصر، فهو آثم، لأن الله أمر بسؤال أهل العلم عند عدم العلم.

ب- أن لا يكون عالما ولا يمكنه التعلم فيتابعهم تقليدا ويظن أن هذا هو الحق، فهذا لا شيء عليه لأنه فعل ما أمر به وكان معذورا بذلك، ولذلك ورد عن رسول الله ﷺ أنه قال: إن من أفتي بغير علم، فإنما إثمه على من أفتاه. ولو قلنا: إنه يآثم بخطأ غيره للزم من ذلك الحرج والمشقة، ولم يثق الناس بأحد لاحتمال خطئه. فائدة:

وصف الله الحاكمين بغير ما أنزل الله بثلاثة أوصاف:

١- قال تعالى: ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾.

٢- وقال تعالى: ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾.

٣- وقال تعالى: ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾.

واختلف أهل العلم في ذلك:

فقيل: إن هذه الأوصاف لموصوف واحد، لأن الكافر ظالم، لقوله تعالى: ﴿وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾،

وفاسق، لقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ﴾، أي: كفروا.

وقيل: إنها لموصوفين متعددين، وإنما على حسب الحكم، وهذا هو الراجح.

فيكون كافرا في ثلاثة أحوال:

أ- إذا اعتقد جواز الحكم بغير ما أنزل الله، بدليل قوله تعالى: ﴿أَفَحُكْمَ الجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾، فكل ما خالف

حكم الله فهو من حكم الجاهلية، بدليل الإجماع القطعي على أنه لا يجوز الحكم بغير ما أنزل الله، فالمحل والمبيح للحكم بغير ما أنزل الله مخالف لإجماع المسلمين القطعي، وهذا كافر مرتد، وذلك كمن اعتقد حل الزنا أو الخمر أو تحريم الخبز أو اللبن.

ب- إذا اعتقد أن حكم غير الله مثل حكم الله.

ج- إذا اعتقد أن حكم غير الله أحسن من حكم الله. بدليل قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾، فمن ادعى أن حكم غير الله مثل حكم الله أو أحسن فهو كافر لأنه مكذب للقرآن.

ويكون ظلماً: إذا اعتقد أن الحكم بما أنزل الله أحسن الأحكام، وأنه أنفع للعباد والبلاد، وأنه الواجب تطبيقه، ولكن حمله البغض والحقد للمحكوم عليه حتى حكم بغير ما أنزل الله، فهو ظالم.

ويكون فاسقاً: إذا كان حكمه بغير ما أنزل الله لهوى في نفسه مع اعتقاده أن حكم الله هو الحق، لكن حكم بغيره لهوى في نفسه، أي: محبة لما حكم به، لا كراهة لحكم الله ولا ليضر أحداً به، مثل: أن يحكم لشخص لرشوة رشي إياها، أو لكونه قريباً أو صديقاً، أو يطلب من ورائه حاجة، فهذا فاسق، وإن كان أيضاً ظلماً، لكن وصف الفسق في حقه أولى من وصف الظلم.

أما بالنسبة لمن وضع قوانين تشريعية مع علمه بحكم الله وبمخالفة هذه القوانين لحكم الله، فهذا قد بدل الشريعة بهذه القوانين، فهو كافر لأنه لم يرغب بهذا القانون عن شريعة الله إلا وهو يعتقد أنه خير للعباد والبلاد من شريعة الله.

وعندما نقول بأنه كافر فنعني بذلك أن هذا الفعل يوصل إلى الكفر، ولكن قد يكون الواضع له معذوراً، مثل أن يغرر به، كأن يقال: إن هذا لا يخالف الإسلام، أو هذا من المصالح المرسلّة، أو هذا مما رده الإسلام إلى الناس.

فيوجد بعض العلماء—وإن كانوا مخطئين— يقولون: إن مسألة المعاملات لا تعلق لها بالشرع، بل ترجع إلى ما يصلح الاقتصاد في كل زمان بحسبه، فإذا اقتضى الحال أن نضع بنوكاً للربا أو ضرائب على الناس، فهذا لا شيء فيه.

وهذا لا شك في خطئه، فإن كانوا مجتهدين غفر الله لهم، وإلا فهم على خطر عظيم، واللائق بهؤلاء أن يلقبوا بأنهم من علماء الدولة لا علماء الملة.

ومما لا شك فيه أن الشرع جاء بتنظيم العبادات التي بين الإنسان وربه والمعاملات التي بين الإنسان مع الخلق في العقود والأنكحة والمواثيق وغيرها، فالشرع كامل من جميع الوجوه، قال تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾، وكيف يقال: إن المعاملات لا تعلق لها بالشرع وأطول آية في القرآن نزلت في المعاملات، ولولا نظام الشرع في المعاملات لفسد الناس؟!!

وليعلم أنه يجب على الإنسان أن يتقي ربه في جميع الأحكام، فلا يتسرع في البت بها خصوصاً في التكفير الذي صار بعض أهل الغيرة والعاطفة يطلقونه بدون تفكير ولا روية، مع أن الإنسان إذا كفر شخصاً ولم يكن الشخص أهلاً له، عاد ذلك إلى قائله، وتكفير الشخص يترتب عليه أحكام كثيرة، فيكون مباح الدم والمال، ويترتب عليه جميع أحكام الكفر، وكما لا يجوز أن نطلق الكفر على شخص معين حتى يتبين شروط التكفير في

حقه يجب أن لا نجنب عن تكفير من كفره الله ورسوله، ولكن يجب أن نفرق بين المعين وغير المعين، فالمعين يحتاج الحكم بتكفيره إلى أمرين:

١- ثبوت أن هذه الخصلة التي قام بها مما يقتضي الكفر.

٢- انطباق شروط التكفير عليه، وأهمها العلم بأن هذا مكفر، فإن كان جاهلاً، فإنه لا يكفر، ولهذا ذكر العلماء أن من شروط إقامة الحد: أن يكون عالماً بالتحريم، هذا وهو إقامة حد وليس بتكفير، والتحرز من التكفير أولى وأحرى. قال تعالى: ﴿رُسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾، وقال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾، وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ﴾.

ولا بد مع توفر الشروط من عدم الموانع، فلو قام الشخص بما يقتضي الكفر إكراهاً أو ذهولاً لم يكفر، لقوله تعالى: ﴿مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾، ولقول الرجل الذي وجد دابته في مهلكه: اللهم! أنت عبدي وأنا ربك، أخطأ من شدة الفرح! فلم يؤخذ بذلك.

## باب قوله تعالى ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا نُزِّلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ الآيات

هذا الباب له صلة قوية بما قبله، لأن ما قبله فيه حكم من أطاع العلماء والأمرء في تحليل ما حرم الله أو تحريم ما أحل الله، وهذا فيه الإنكار على من أراد التحاكم إلى غير الله ورسوله.

وقد ذكر الشيخ رحمه الله فيه أربع آيات، الآية الأولى ما جعلها ترجمة للباب، وهي قوله تعالى: قوله: ﴿يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ لم يقل: الذين آمنوا، لأنهم لم يؤمنوا، بل يزعمون ذلك وهم كاذبون، والذي أنزل إلى النبي ﷺ الكتاب والحكمة، قال تعالى: ﴿وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾، قال المفسرون: الحكمة السنة، فهم يزعمون أنهم آمنوا بذلك لكن أفعالهم تكذب أقوالهم، إذ يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت لا إلى الله ورسوله.

قوله: (إلى الطاغوت): صيغة مبالغة من الطغيان، والمراد به هنا كل حكم خالف حكم الله ورسوله، وكل حاكم يحكم بغير ما أنزل الله على رسوله.

قوله: ﴿وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ﴾، أي: أمرهم الله بالكفر بالطاغوت أمرا ليس فيه لبس ولا خفاء، فمن أراد التحاكم إليه فهذه الإرادة على بصيرة، إذ الأمر قد بين لهم.

قوله: (ويريد الشيطان): جنس يشمل شياطين الإنس والجن.

قوله: ﴿أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾، أي: يوقعهم في الضلال البعيد عن الحق، ولكن لا يلزم من ذلك أن ينقلهم إلى الباطل مرة واحدة، ولكن بالتدرج.

قوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ﴾ إلى نفسه في حياته، وسنته بعد وفاته، والمراد هنا الرسول ﷺ نفسه في حياته.

قوله: ﴿رَأَيْتَ الْمُنافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا﴾، الرؤية هنا رؤية حال، لا رؤية بصر، بدليل قوله: (تعالوا)، فهي تدل على أنهم ليسوا حاضرين عنده، والمعنى: كأنما تشاهدهم.

وقوله: (يصدون عنك صدودا): يعرضون عنك إعراضا.

وقوله: (رأيت المنافقين): إظهار في موضع الإضمار لثلاث فوائد:

الأولى: أن هؤلاء الذين يزعمون الإيمان كانوا منافقين.

الثانية: أن هذا لا يصدر إلا من منافق، لأن المؤمن حقا لا بد أن ينقاد لأمر الله ورسوله بدون صدود.

الثالثة: التنبيه، لأن الكلام إذا كان على نسق واحد قد يغفل الإنسان عنه، فإذا تغير حصل له انتباه.

وقوله: ﴿فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيَهُمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا﴾،

الاستفهام هنا يراد به التعجب، أي: كيف حالهم إذا أصابتهم مصيبة، والمصيبة هنا تشمل المصيبة الشرعية والدينية؛ لعدم تضاد المعنيين، فالدينية مثل: الفقر، والجذب، وما أشبه ذلك، فيأتون يشكون إلى النبي ﷺ فيقولون: أصابتنا هذه المصائب ونحن ما أردنا إلا الإحسان والتوفيق.

والشرعية: إذا أظهر الله رسوله على أمرهم، خافوا وقالوا: يا رسول الله! ما أردنا إلا الإحسان والتوفيق.

وقوله: ﴿بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيَهُمْ﴾، الباء: هنا للسببية، وفي اللغة العربية يطلق هذا التعبير باليد ويراد به نفس

الفاعل، أي: بما قدموه من الأعمال السيئة.

وقوله: ﴿إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا﴾، أي: ما أردنا إلا إحسانا بكوننا نسلم من الفضيحة والعار، وتوفيقا

بين المؤمنين والكافرين، أو بين طريق الكفر وطريق الإيمان، وهذه حال المنافقين.

وقوله: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ توعدهم الله بأنه يعلم ما في قلوبهم من النفاق والمكر والخداع،

فالله علام الغيوب.

وقوله: (فأعرض عنهم): وهذا من أبلغ ما يكون من الإهانة والاحتقار.

وقوله: (وعظهم): أي: ذكرهم وخوفهم، لكن لا تجعلهم أكبر همك، فلا تخفهم، وقم بما يجب عليك من

الموعظة لتقوم عليهم الحجة.

وقوله: ﴿وَقُلْ هُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا﴾، اختلف المفسرون فيها على ثلاثة أقوال:

الأول: أن الجار والمجرور في أنفسهم متعلق ببلغ، أي: قل لهم قولا بليغا في أنفسهم، أي: يبلغ في أنفسهم

مبلغا مؤثرا.

الثاني: أن المعنى: انصحهم سرا في أنفسهم.

الثالث: أن المعنى: قل لهم في أنفسهم (أي: في شأنهم وحالهم) قولا بليغا في قلوبهم يؤثر عليها، والصحيح

أن الآية تشمل المعاني الثلاثة، لأن اللفظ صالح لها جميعا، ولا منافاة بينها، وهذه قاعدة في التفسير: أن المعاني

المحملة للآية والتي قال بها أهل العلم إذا كانت الآية تحتملها وليس بينها تعارض فإنه يؤخذ بجميع المعاني.

وقوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾.

الإفساد في الأرض نوعان:

الأول: إفساد حسي مادي، وذلك مثل هدم البيوت وإفساد الطرق وما أشبه ذلك.

الثاني: إفساد معنوي، وذلك بالمعاصي، فهي من أكبر الفساد في الأرض.

قوله: (إنما نحن مصلحون): وهذه دعوى من أبطل الدعاوى، حيث قالوا: ما حالنا وما شأننا إلا الإصلاح،

ولهذا قال تعالى: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ﴾، فالله قابل حصرهم بأعظم منه، فهؤلاء الذين يفسدون في الأرض ويدعون الإصلاح هم المفسدون حقيقة لا غيرهم.

ومناسبة الآية للباب ظاهرة، وذلك أن التحاكم إلى غير ما أنزل الله من أكبر أسباب الفساد في الأرض.

وقوله ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾.

الإفساد يشمل الفساد المادي والمعنوي كما سبق.

قوله: (بعد إصلاحها): من قبل المصلحين، ومن ذلك الوقوف ضد دعوة أهل العلم، والوقوف ضد دعوة

السلف، وضد من ينادي بأن يكون الحكم بما في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

وقوله: (بعد إصلاحها): من باب تأكيد اللوم والتوبيخ، إذ كيف يفسد الصالح وهذا غاية ما يكون من

الوقاحة، والخبث، والشر! فالإفساد بعد الإصلاح أعظم وأشد من أن يمضي الإنسان في فساده قبل الإصلاح، وإن كان المطلوب هو الإصلاح بعد الفساد.

ومناسبة الآية للباب: أن التحاكم إلى ما أنزل الله هو الإصلاح، وأن التحاكم إلى غيره هو الإفساد.

وقوله: ﴿أَفْحَكَمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾ الآية.

قوله تعالى: ﴿أَفْحَكَمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾، الاستفهام للتوبيخ.

والإضافة في قوله: (أفحكم الجاهلية) تحتل معنيين:

أحدهما: أن يكون المعنى: أفحكم أهل الجاهلية الذين سبقوا الرسالة يبعون.

ثانيها: أن يكون المعنى: أفحكم الجهل الذي لا يبني على العلم يبعون، سواء كانت عليه الجاهلية السابقة

أم لم تكن، وهذا أعم.

والإضافة للجاهلية تقتضي التقييح والتنفير، وكل حكم يخالف حكم الله، فهو جهل وجاهالة، فإن كان مع العلم بالشرع فهو جهالة، وإن كان مع خفاء الشرع فهو جهل.

قوله: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا﴾، (من): اسم استفهام بمعنى النفي، أي: لا أحد أحسن من الله حكما، وهذا النفي مشرب معنى التحدي، فهو أبلغ من قول: لا أحسن من الله حكما، لأنه متضمن للنفي وزيادة. وقوله: (حكما): يشمل الحكم الكوني والشرعي.

فإن قيل: يوجد في الأحكام الكونية ما هو ضار مثل الزلازل والفيضانات وغيرها، فأين الحسن في ذلك؟ أجيب: أن الغايات المحمودة في هذه الأمور تجعلها حسنة، كما يضرب الإنسان ولده تربية له، فيعد هذا الضرب فعلا حسنا، فكذلك الله يصيب بعض الناس بهذه المصائب لتربيتهم، قال تعالى في القرية التي قلب الله أهلها قردة خاسئين: ﴿فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾.

وهذا الحسن في حكم الله ليس بينا لكل أحد، ولذا قال تعالى: (لقوم يوقنون)، فكلما ازداد العبد يقينا وإيمانا ازداد معرفة بحسن أحكام الله، وكلما نقص إيمانه ويقينه ازداد جهلا بحسن أحكام الله، ولذلك تجد أهل العلم الراسخين فيه إذا جاءت الآيات المتشابهات بينوا وجه ذلك بأكمل بيان ولا يرون في ذلك تناقضا، وعلى هذا، فإنه يتبين قوة الإيمان واليقين بحسب ما حصل للإنسان من معرفته بحسن أحكام الله الكونية والشرعية.

وعن عبد الله بن عمرو أن رسول الله ﷺ قال: «لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعا لما جئت به» قال النووي: حديث صحيح، رويناه في كتاب الحججة بإسناد صحيح<sup>(١)</sup>.

قوله: (لا يؤمن أحدكم): أي: إيمانا كاملا، إلا إذا كان لا يهوى ما جاء به النبي ﷺ بالكلية، فإنه ينتفي عنه الإيمان بالكلية، لأنه إذا كره ما أنزل الله فقد حبط عمله لكفره، قال تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾.

قوله: (حتى يكون هواه تبعا لما جئت به): وإذا كان هواه تبعا لما جاء به النبي ﷺ لزم من ذلك أن يوافقه تصديقا بالأخبار، وامتنالا للأوامر، واجتنابا للنواهي.

وأما من لم يكن هواه تبعا لما جاء به النبي ﷺ فإن كان كارها له فهو كافر، وإن لم يكن كارها ولكن أثر محبة الدنيا على ذلك فليس بكافر، لكن يكون ناقص الإيمان.

(١) أخرجه ابن أبي عاصم في السنة (١٥)، والخطيب في التاريخ (٣٦٩/٤)، والبغوي في شرح السنة (٢١٢/١)، وابن الجوزي في ذم الهوى ص ١٨. وانظر: كلام ابن رجب على سند الحديث في جامع العلوم والحكم، حديث رقم (٤١).

قوله: (قال النووي: حديث صحيح): صححه النووي وغيره، وضعفه جماعة من أهل العلم، منهم ابن رجب في كتابه (جامع العلوم والحكم)، ولكن معناه صحيح.

وقال الشعبي: كان بين رجل من المنافقين ورجل من اليهود خصومة، فقال اليهودي: نتحاكم إلى محمد. عرف أنه لا يأخذ الرشوة، وقال المنافق: نتحاكم إلى اليهود. لعلمه أنهم يأخذون الرشوة، فاتفقا أن يأتيا كاهنا في جهينة فيتحاكما إليه، فنزلت: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ﴾ الآية. وقيل: نزلت في رجلين اختصما، فقال أحدهما: نترافع إلى النبي ﷺ. وقال الآخر: إلى كعب بن الأشرف. ثم ترافعا إلى عمر، فذكر له أحدهما القصة، فقال للذي لم يرض برسول الله ﷺ: أكذلك؟ قال: نعم. فضربه بالسيف فقتله.

قوله: (وقيل): ذكر هذه القصة بصيغة التمریض، لكن ذكر في (تيسير العزيز الحميد) أنها رويت من طرق متعددة، وأنها مشهورة متداولة بين السلف والخلف تداولاً يغني عن الإسناد. وهذه القصة والتي قبلها تدل على أن من لم يرض بحكم رسول الله ﷺ كافر يجب قتله، ولهذا قتله عمر رضي الله عنه.

فإن قيل: كيف يقتله عمر رضي الله عنه والأمر إلى الإمام وهو النبي ﷺ؟ أجيب: أن الظاهر أن عمر لم يملك نفسه لقوة غيرته فقتله، لأنه عرف أن هذا ردة عن الإسلام، وقد قال النبي ﷺ «من بدل دينه فاقتلوه».

## باب من جحد شيئا من الأسماء والصفات

الجحد: الإنكار، والإنكار نوعان:

الأول: إنكار تكذيب، وهذا كفر بلا شك، فلو أن أحدا أنكر اسما من أسماء الله أو صفة من صفاته الثابتة في الكتاب والسنة، مثل أن يقول: ليس لله يد، أو أن الله لم يستو على عرشه، أو ليس له عين، فهو كافر بإجماع المسلمين، لأن تكذيب خبر الله ورسوله كفر مخرج عن الملة بالإجماع.

الثاني: إنكار تأويل، وهو أن لا ينكرها، ولكن يتأولها إلى معنى يخالف ظاهرها، وهذا نوعان:

١- أن يكون للتأويل مسوغ في اللغة العربية، فهذا لا يوجب الكفر.

٢- أن لا يكون له مسوغ في اللغة العربية، فهذا حكمه الكفر؛ لأنه إذا لم يكن له مسوغ صار في الحقيقة

تكذيبا، مثل أن يقول في قوله تعالى: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ المراد بيديه: السماوات والأرض، فهو كفر أيضا لأنه لا مسوغ له في اللغة العربية، ولا هو مقتضى الحقيقة الشرعية، فهو منكر ومكذب، لكن إن قال: المراد باليد النعمة أو القوة، فلا يكفر لأن اليد في اللغة تطلق بمعنى النعمة.

قوله: (من الأسماء): جمع اسم، واختلف في اشتقاقه، فقيل: من السمو، وهو الارتفاع، ووجه هذا أن المسمى يرتفع باسمه ويتبين ويظهر. وقيل: من السمة وهي العلامة، ووجهه: أنه علامة على مسماه. والراجح أنه مشتق من كليهما.

وفي أسماء الله تعالى مباحث:

### المبحث الأول<sup>(١)</sup>:

أن أسماء الله أعلام وأوصاف، وليست أعلاما محضة، فهي من حيث دلالتها على ذات الله تعالى أعلام، ومن حيث دلالتها على الصفة التي يتضمنها هذا الاسم أوصاف، لأنها متضمنة للمعاني، فالله هو العلي لعلو ذاته وصفاته، والعزيم يدل على العزة، والحكيم يدل على الحكمة، وهكذا.

أما أسماؤنا نحن فيراد بها الدلالة على الذات فقط، فقد يسمى محمدا وهو من أشد الناس ذما، وقد يسمى عبد الله وهو من أفجر عباد الله، أما أسماء الله عز وجل فإنها أسماء متضمنة للأوصاف، وكذا أسماء الرسول ﷺ وأسماء القرآن وأسماء اليوم الآخر.

ودلالة الاسم من أسماء الله على الصفة تنقسم إلى ثلاثة أقسام:

(١) انظر: (باب احترام أسماء الله تعالى).

الأول: دلالة مطابقة، وهي دلالة على جميع معناه المحيط به.

الثاني: دلالة تضمن، وهي دلالة على جزء معناه.

الثالث: دلالة التزام، وهي دلالة على أمر خارج لازم.

### المبحث الثاني:

أن أسماء الله مترادفة متباينة.

والمترادف: ما اختلف لفظه واتفق معناه، والمتباين: ما اختلف لفظه ومعناه، فأسماء الله مترادفة باعتبار دلالتها على ذات الله عز وجل لأنها تدل على مسمى واحد، فالسميع، البصير، العزيز، الحكيم، كلها تدل على شيء واحد هو الله، ومتباينة باعتبار معانيها، لأن معنى الحكيم غير معنى السميع، وغير معنى البصير، وهكذا.

### المبحث الثالث:

أسماء الله ليست محصورة بعدد معين، والدليل على ذلك قوله ﷺ في حديث ابن مسعود الحديث الصحيح المشهور: «اللهم! إني عبدك، ابن عبدك، ابن أمتك» إلى أن قال «أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك، أو أنزلته في كتابك، أو علمته أحدا من خلقك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك»، وما استأثر الله به في علم الغيب لا يمكن أن يُعلم به، وما ليس بمعلوم فليس بمحصور.

وأما قوله ﷺ: «إن لله تسعة وتسعين اسما من أحصاها دخل الجنة»، فليس معناه أنه ليس له إلا هذه الأسماء، لكن معناه أن من أحصى من أسمائه هذه التسعة والتسعين فإنه يدخل الجنة.

وهذه التسعة والتسعين غير معينة، بل موكولة لنا لنبحث حتى نحصل على التسعة والتسعين، وهذا من حكمة إبهامها؛ لأجل البحث حتى نصل إلى هذه الغاية، ولهذا نظائر، منها: أن الله أخفى ليلة القدر، وساعة الإجابة يوم الجمعة، وساعة الإجابة في الليل؛ ليجتهد الناس في الطلب.

ومعنى إحصاء هذه التسعة والتسعين الذي يترتب عليه دخول الجنة:

أولا: الإحاطة بها لفظا.

ثانيا: فهمها معنى

ثالثا: التعبد لله بمقتضاها، ولذلك وجهان.

الوجه الأول: أن تدعو الله بها؛ لقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا﴾، بأن تجعلها وسيلة إلى

مطلوبك، وتختار الاسم المناسب لمطلوبك.

الوجه الثاني: أن تتعرض في عبادتك لما تقتضيه هذه الأسماء؛ فمقتضى الرحيم الرحمة، فاعمل العمل الصالح الذي يكون جالبا لرحمة الله، ومقتضى الغفور المغفرة، إذن افعل ما يكون سببا في مغفرة ذنوبك.

### المبحث الرابع:

الاسم من أسماء الله يدل على الذات وعلى المعنى كما سبق، فيجب علينا أن نؤمن به اسما من الأسماء، ونؤمن بما تضمنه من الصفة، ونؤمن بما تدل عليه هذه الصفة من الأثر والحكم؛ إن كان الاسم متعديا. فمثلا: السميع نؤمن بأن من أسمائه تعالى السميع، وأنه دال على صفة السمع، وأن لهذا السمع حكما وأثرا وهو أنه يسمع به، كما قال تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ نَحْوَرُكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾، أما إن كان الاسم غير متعد، كالعظيم، والحلي، والجليل، فنثبت الاسم والصفة، ولا حكم له يتعدى إليه.

### المبحث الخامس:

هل أسماء الله تعالى غيره، أو أسماء الله هي الله؟ إن أريد بالاسم اللفظ الدال على المسمى، فهي غير الله عز وجل، وإن أريد بالاسم مدلول ذلك اللفظ، فهي المسمى.

وفي صفات الله عزوجل مباحث:

### المبحث الأول:

تنقسم صفات الله إلى ثلاثة أقسام:

الأول: ذاتية ويقال معنوية.

الثاني: فعلية.

الثالث: خبرية.

فالصفات الذاتية: هي الملازمة لذات الله، والتي لم يزل ولا يزال متصفا بها، مثل: السمع والبصر، وهي معنوية، لأن هذه الصفات معاني.

والفعلية: هي التي تتعلق بمشيتها؛ إن شاء فعلها وإن لم يشأ لم يفعلها، مثل: النزول إلى السماء الدنيا، والاستواء على العرش، والكلام من حيث آحاده، والخلق من حيث آحاده، لا من حيث الأصل، فأصل الكلام صفة ذاتية، وكذلك الخلق.

والخبرية: هي أبعاد وأجزاء بالنسبة لنا، أما بالنسبة لله، فلا يقال هكذا، بل يقال: صفات خبرية ثبت بها الخبر من الكتاب والسنة، وهي ليست معنى ولا فعلا، مثل: الوجه، والعين، والساق، واليد.

### المبحث الثاني:

الصفات أوسع من الأسماء، لأن كل اسم متضمن لصفة، وليس كل صفة تكون اسما، وهناك صفات كثيرة تطلق على الله وليست من أسمائه، فيوصف الله بالكلام والإرادة، ولا يسمى بالمتكلم أو المرید.

### المبحث الثالث:

أن كل ما وصف الله به نفسه، فهو حق على حقيقته، لكن ينزه عن التمثيل والتكييف، أما التمثيل، فلقوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾، وقوله: ﴿فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾. والتعبير بنفي التمثيل أحسن من التعبير بنفي التشبيه، لوجوه ثلاثة: أحدها: أن التمثيل هو الذي جاء به القرآن.

الثاني: أن نفي التشبيه على الإطلاق لا يصح، لأن كل موجودين فلا بد أن يكون بينهما قدر مشترك يشتبهان فيه ويتميز كل واحد بما يختص به، ف (الحياة) مثلا وصف ثابت في الخالق والمخلوق، فبينهما قدر مشترك، ولكن حياة الخالق تليق به وحياة المخلوق تليق به.

الثالث: أن الناس اختلفوا في مسمى التشبيه، حتى جعل بعضهم إثبات الصفات التي أثبتها الله لنفسه تشبيها، فإذا قلنا من غير تشبيه، فهم هذا البعض من هذا القول نفي الصفات التي أثبتها الله لنفسه. وأما التكييف، فلا يجوز أن نكيف صفات الله، فمن كيف صفة من الصفات فهو كاذب عاص، كاذب لأنه قال بما لا علم عنده فيه، عاص لأنه واقع فيما نهي الله عنه وحرمه في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، ولأنه لا يمكن إدراك الكيفية، لقوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾، وقوله: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ﴾.

وسواء كان التكيف باللسان تعبيرا أو بالجنان تقديرا، أو بالبنان تحريرا، ولهذا قال مالك رحمه الله حين سئل عن كيفية الاستواء: (الكيف مجهول، والسؤال عنه بدعة)، وليس معنى هذا أن لا نعتقد أن لها كيفية، بل لها كيفية، ولكنها ليست معلومة لنا، لأن ما ليس له كيفية ليس بموجود.

### وقول الله تعالى: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ﴾ الآية.

المراد: أنهم يكفرون بهذا الاسم لا بالمسمى فهم يقرون به، قال تعالى: ﴿وَلَعِنَّا سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾، وفي حديث سهيل بن عمرو: لما أراد النبي ﷺ أن يكتب الصلح في غزوة الحديبية قال للكاتب: اكتب بسم الله الرحمن الرحيم، قال سهيل: أما الرحمن، فوالله ما أدري ما هي ولكن اكتب باسمك اللهم، وهذا من الأمثلة التي يراد بها الاسم دون المسمى. وفي الآية دليل على أن من أنكر اسما من أسمائه تعالى فإنه يكفر، ولأنه مكذب لله ولرسوله، وهذا كفر، وهذا وجه استشهاد المؤلف بهذه الآية.

### وفي صحيح البخاري: قال علي: حدثوا الناس بما يعرفون، أتريدون أن يكذب الله ورسوله؟! (١)

قوله (حدثوا الناس): أي: كلموهم بالمواعظ وغير المواعظ. قوله: (بما يعرفون): أي: بما يمكن أن يعرفوه وتبلغه عقولهم؛ حتى لا يفتنوا، ولهذا جاء عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: إنك لن تحدث قوما حديثا لا تبلغه عقولهم إلا كان لبعضهم فتنة، ولهذا كان من الحكمة في الدعوة ألا تباغت الناس بما لا يمكنهم إدراكه، بل تدعوهم رويدا رويدا، حتى تستقر عقولهم، وليس معنى (بما يعرفون) أي: بما يعرفونه من قبل، لأن الذي يعرفونه من قبل يكون التحديث به من تحصيل الحاصل. قوله: (أتريدون أن يكذب الله ورسوله؟!): الاستفهام للإنكار، أي: أتريدون إذا حدثتم الناس بما لا يعرفون أن يكذب الله ورسوله، لأنك إذا قلت: قال الله وقال رسوله كذا وكذا، قالوا: هذا كذب؛ وهم لا يكذبون الله ورسوله، ولكن يكذبونك بحديث تنسبه إلى الله ورسوله، فيكونون مكذبين لله ورسوله، لا مباشرة ولكن بواسطة الناقل.

فإن قيل: هل ندع الحديث بما لا تبلغه عقول الناس، وإن كانوا محتاجين لذلك؟

(١) أخرجه البخاري في العلم، باب من خص بالعلم قوما دون قوم (٦٢/١).

أجيب: لا ندعه، ولكن نحدثهم بطريق تبلغه عقولهم، وذلك بأن نقلهم رويدا رويدا؛ حتى يتقبلوا هذا الحديث ويطمئنوا إليه، ولا ندع ما لا تبلغه عقولهم ونقول: هذا شيء مستنكر لا نتكلم به.

ومثل ذلك: العمل بالسنة التي لا يعتادها الناس ويستكرونها، فإننا نعمل بها ولكن بعد أن نخبرهم بها، حتى تقبلها نفوسهم ويطمئنوا إليها.

ويستفاد من هذا الأثر أهمية الحكمة في الدعوة إلى الله عز وجل، وأنه يجب على الداعية أن ينظر في عقول المدعوين وينزل كل إنسان منزلته.

ومناسبة هذا الأثر لباب الصفات ظاهرة، لأن بعض الصفات لا تحملها أفهام العامة، فيمكن إذا حدثهم بها كان لذلك أثر سيئ عليهم، كحديث النزول إلى السماء الدنيا مع ثبوت العلو، فلو حدثت العامي بأنه تعالى نفسه ينزل إلى السماء الدنيا مع علوه على عرشه فقد يفهم أنه إذا نزل صارت السماوات فوقه وصار العرش خاليا منه، وحينئذ لا بد في هذا من حديث تبلغه عقولهم، فتبين لهم أن الله عز وجل ينزل نزولا لا يماثل نزول المخلوقين مع علوه على عرشه، وأنه لكمال فضله ورحمته يقول: «من يدعوني فأستجيب له...» الحديث.

وروى عبد الرزاق عن معمر عن ابن طاووس عن أبيه عن ابن عباس أنه رأى رجلا انتفض لما سمع حديثا عن النبي ﷺ في الصفات استنكارا لذلك، فقال: ما فرق هؤلاء، يجدون رقة عند محكمه، ويهلكون عند متشابهه؟! انتهى<sup>(١)</sup>.

قوله (انتفض): أي: اهتز جسمه، فانتفض استنكارا لهذه الصفة لا تعظيما لله، وهذا أمر عظيم صعب، لأن الواجب على المرء إذا صح عنده شيء عن الله ورسوله أن يقر به ويصدق؛ ليكون طريقه الراسخين في العلم حتى وإن لم يسمعه من قبل، أو يتصوره.

قوله: (ما فرق): فيها: ثلاث روايات:

١- (فَرَّقَ)، بفتح الراء، وضم القاف.

٢- (فَرَّقَ): بفتح الراء مشددة، وفتح القاف.

٣- (فَرَّقَ)، بفتح الراء مخففة، وفتح القاف.

فالمعنى على الرواية الأولى: ما خوف هؤلاء من إثبات الصفة التي تليت عليهم وبلغتهم، لماذا لا يثبتونها لله

عز وجل كما أثبتها الله لنفسه وأثبتها له رسوله ﷺ؟

(١) أخرجه عبد الرزاق (٢٠٨٩٥)، وابن أبي عاصم في (السنة) (٤٨٥).

وهذا ينصبّ تماماً على أهل التعطيل والتحريف الذين ينكرون الصفات فما الذي يخوفهم من إثباتها والله تعالى قد أثبتنا لنفسه؟

وعلى الرواية الثانية والثالثة تكون فعلاً ماضياً، و(ما) يحتمل أن تكون نافية، والمعنى: ما فرق هؤلاء بين الحق والباطل، فجعلوا هذا من المتشابه وأنكروه ولم يحملوه على المحكم، ويحتمل أن تكون استفهامية والمعنى: أي شيء فرقهم فجعلهم يؤمنون بالمحكم ويهلكون عند المتشابه؟

قوله: (يجدون رقة عند محكمه): الرقة: اللين والقبول، و (محكمه)، أي: محكم القرآن، قوله: (ويهلكون عند متشابهه): أي: متشابه القرآن، والمحكم: الذي اتضح معناه وتبين، والمتشابه هو الذي يخفى معناه. والتشابه نوعان: تشابه نسبي، وتشابه مطلق، فالمطلق يخفى على كل أحد، والنسبي يخفى على أحد دون أحد.

[وهل آيات الصفات من المحكم أم من المتشابه؟]

أما معاني الصفات فمحكم، وأما كيفيتها فمتشابه؛ لأنه لا يعلم كيفيتها إلا الله تعالى].

وبعض أهل العلم يظنون أن في القرآن ما لا يمكن الوصول إلى معناه، فيكون من المتشابه المطلق، ويحملون آيات الصفات على ذلك، وهذا من الخطأ العظيم، إذ ليس من المعقول أن يقول تعالى: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ﴾، ثم تستثنى آيات الصفات وهي أعظم وأشرف موضوعاً وأكثر من آيات الأحكام، ولو قلنا بهذا القول، لكان مقتضاه أن أشرف ما في القرآن موضوعاً يكون خفياً، ويكون معنى قوله تعالى: ﴿لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ﴾، أي: آيات الأحكام فقط، وهذا غير معقول، بل جميع القرآن يفهم معناه، إذ لا يمكن أن تكون هذه الأمة من رسول الله ﷺ إلى آخرها لا تفهم معنى القرآن، وعلى رأيهم يكون الرسول ﷺ وأبو بكر وعمر وجميع الصحابة يقرءون آيات الصفات وهم لا يفهمون معناها، بل هي عندهم بمنزلة الحروف الهجائية أ، ب، ت... والصواب أنه ليس في القرآن شيء متشابه على جميع الناس من حيث المعنى، ولكن الخطأ في الفهم، فقد يقصر الفهم عن إدراك المعنى أو يفهمه على معنى خطأ، وأما بالنسبة للحقائق، فما أخبر الله به من أمر الغيب، فمتشابه على جميع الناس.

ولما سمعت قريش رسول الله ﷺ يذكر الرحمن، أنكروا ذلك، فأنزل الله فيهم: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ

بِالرَّحْمَنِ﴾.

قوله: (ولما سمعت قريش رسول الله يذكر الرحمن): أصل ذلك أن سهيل بن عمرو أحد الذين أرسلتهم قريش لمفاوضة النبي ﷺ في صلح الحديبية، وأمر النبي ﷺ أن يكتب: (بسم الله الرحمن الرحيم)، فقال: (أما الرحمن، فلا والله ما أدري ما هي، وقالوا: إننا لا نعرف إلا رحمن اليمامة. فأنكروا الاسم دون المسمى، فأنزل الله: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ﴾، أي: بهذا الاسم من أسماء الله.

وفي الآية دليل على أن من أنكر اسما من أسماء الله الثابتة في الكتاب أو السنة، فهو كافر لقوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ﴾.

وقوله: (ولما سمعت قريش): الظاهر - والله أعلم - أنه من باب العام الذي أريد به الخاص، وليس كل قريش تنكر ذلك، بل طائفة منهم، ولكن إذا أقرت الأمة الطائفة على ذلك ولم تنكر، صح أن ينسب لهم جميعا، بل إن الله نسب إلى اليهود في زمن النبي ﷺ ما فعله أسلافهم في زمن موسى عليه السلام، قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ﴾، وهذا لم يكن في عهد المخاطبين.

## باب قول الله تعالى ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا﴾ الآية

قوله تعالى: (يعرفون): أي: يدركون بحواسهم أن النعمة من عند الله.  
قوله: (نعمة الله): واحدة والمراد بها الجمع، قال تعالى: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾، والقاعدة الأصولية: أن المفرد المضاف يعم.  
قوله: (ثم ينكرونها): أي: ينكرون إضافتها إلى الله لكونهم يضيفونها إلى السبب متناسين المسبب الذي هو الله سبحانه، وليس المعنى أنهم ينكرون حصول هذه النعمة، مثل أن يقولوا: ما جاءنا مطر أو ولد أو صحة.  
قوله: (الآية): أي: إلى آخر الآية، وهي منصوبة بفعل محذوف تقديره: أكمل الآية.  
قوله: (وأكثرهم الكافرون): أي أكثر العارفين بأن النعمة من الله الكافرون، أي: الجاحدون كونها من الله أو الكافرون بالله عز وجل.

مناسبة هذا الباب للتوحيد:

أن من أضاف نعمة الخالق إلى غيره فقد جعل معه شريكا في الربوبية؛ لأنه أضافها إلى السبب على أنه فاعل، هذا من وجه، ومن وجه آخر: أنه لم يقم بالشكر الذي هو عبادة من العبادات، وترك الشكر مناف للتوحيد، لأن الواجب أن يُشكر الخالق المنعم سبحانه وتعالى، فصارت لها صلة بتوحيد الربوبية وبتوحيد العبادة، فمن حيث إضافتها إلى السبب على أنه فاعل هذا إخلال بتوحيد الربوبية، ومن حيث ترك القيام بالشكر الذي هو العبادة هذا إخلال بتوحيد الألوهية.

قال مجاهد ما معناه: هو قول الرجل: هذا مالي ورثته عن آبائي.

قوله: (هذا مالي ورثته عن آبائي): ظاهر هذه الكلمة في ذاتها ليس فيه شيء، فلو قال لك قائل: من أين لك هذا البيت؟ فقلت: ورثته عن آبائي. فليس فيه شيء؛ لأنه خبر محض، لكن مراد مجاهد: أن يضيف القائل تملكه للمال إلى السبب الذي هو الإرث، متناسيا المسبب الذي هو الله، فبتقدير الله عز وجل أنعم على آبائك وملكوا هذا البيت، وبشرع الله عز وجل انتقل هذا البيت إلى ملكك عن طريق الإرث، فكيف تتناسى المسبب للأسباب القدرية والشرعية فتضيف الأمر إلى ملك آبائك وإرثك إياه بعدهم؟! فمن هنا صار هذا القول نوعا من كفر النعمة.

أما إذا كان قصد الإنسان مجرد الخبر كما سبق، فلا شيء في ذلك.

**وقال عون بن عبد الله: يقولون: لولا فلان لم يكن كذا.**

وهذا القول من قائله فيه تفصيل:

- إن أراد به الخبر وكان الخبر صدقا مطابقا للواقع، فهذا لا بأس به.
- وإن أراد بها السبب، فلذلك ثلاث حالات:

الأولى: أن يكون سببا خفيا لا تأثير له إطلاقا، كأن يقول: لولا الولي الفلاني ما حصل كذا وكذا، فهذا شرك أكبر؛ لأنه يعتقد بهذا القول أن لهذا الولي تصرفا في الكون، مع أنه ميت، فهو تصرف سري خفي.

الثانية: أن يضيفه إلى سبب صحيح ثابت شرعا أو حسا، فهذا جائز بشرط أن لا يعتقد أن السبب مؤثر بنفسه، وأن لا يتناسى المنعم بذلك.

الثالثة: أن يضيفه إلى سبب ظاهر، لكن لم يثبت كونه سببا لا شرعا ولا حسا، فهذا نوع من الشرك الأصغر، وذلك مثل: التَّوَلَّى، والقلائد التي يقال: إنها تمنع العين، وما أشبه ذلك، لأنه أثبت سببا لم يجعله الله سببا، فكان مشاركا لله في إثبات الأسباب.

ويدل لهذا التفصيل أنه ثبت إضافة (لولا) إلى السبب وحده بقول النبي ﷺ في عمه أبي طالب: «لولا أنا لكان في الدرك الأسفل من النار»، ولا شك أن النبي ﷺ أبعد الناس عن الشرك، وقد أضاف الشيء إلى سببه، لكنه شرعي حقيقي.

**وقال ابن قتيبة: يقولون: هذا بشفاعة آلهتنا.**

قوله: (وقال ابن قتيبة: يقولون هذا بشفاعة آلهتنا): هؤلاء أخبت ممن سبقهم، لأنهم مشركون يعبدون غير الله، ثم يقولون: إن هذه النعم حصلت بشفاعة آلهتهم، فالعزى مثلا شفعت عند الله أن ينزل المطر، فهؤلاء أثبتوا سببا من أبطل الأسباب لأن الله عز وجل لا يقبل شفاعة آلهتهم، لأن الشفاعة لا تنفع إلا من أذن له الرحمن ورضي له قولا، والله عز وجل لا يأذن لهذه الأصنام بالشفاعة، فهذا أبطل من الذي قبله لأن فيه محذورين:

١- الشرك بهذه الأصنام.

٢- إثبات سبب غير صحيح.

وقال أبو العباس بعد حديث زيد بن خالد الذي فيه أن الله تعالى قال: أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر. الحديث، وقد تقدم: وهذا كثير في الكتاب والسنة، يذم سبحانه من يضيف إنعامه إلى غيره ويشرك به، قال بعض السلف: هو كقولهم: كانت الريح طيبة، والملاح حاذقا، ونحو ذلك مما هو جار على السنة كثيرة.

قوله: (وهذا كثير في الكتاب والسنة يذم سبحانه من يضيف إنعامه إلى غيره...): وذلك مثل الاستسقاء بالأنواء، وإنما كان هذا مذموما، لأنه لو أتى إليك عبد فلان بهدية من سيده فشكرت العبد دون السيد كان هذا سوء أدب مع السيد وكفرانا لنعمته، وأقبح من هذا لو أضفت النعمة إلى السبب دون الخالق، لما يأتي:

١- أن الخالق لهذه الأسباب هو الله، فكان الواجب أن يشكر وتضاف النعمة إليه.

٢- أن السبب قد لا يؤثر.

٣- أن السبب قد يكون له مانع يمنع من تأثيره.

وبهذا عرف بطلان إضافة الشيء إلى سببه دون الالتفات إلى المسبب جل وعلا.

## باب قول الله تعالى ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَاداً وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾

لما ذكر سبحانه ما يقر به هؤلاء من أفعاله التي لم يفعلها غيره: ﴿الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾، الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ فِرَاشاً وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَكُمْ﴾، فكل من أقر بذلك لزمه أن لا يعبد إلا المقرَّ له، لأنه لا يستحق العبادة من لا يفعل ذلك، ولا ينبغي أن يُعبد إلا من فعل ذلك، ولذلك أتى بالفاء الدالة على التفريع والسببية، أي: فبسبب ذلك لا تجعلوا لله أندادا.

قوله: (أندادا): جمع ند، وهو الشبيه والنظير، والمراد هنا: أندادا في العبادة.

قوله: (وأنتم تعلمون): الجملة في موضع نصب حال من فاعل ﴿تجعلوا﴾، أي: والحال أنكم تعلمون أنه لا ند له في الربوبية.

وقال ابن عباس في الآية: الأنداد هو الشرك، أخفى من ديب النمل على صفاة سوداء في ظلمة الليل، وهو أن تقول: والله وحياتك يا فلان، وحياتي، وتقول: لولا كلبية هذا لأتانا اللصوص، ولولا البط في الدار لأتى اللصوص، وقول الرجل لصاحبه: ما شاء الله وشئت، وقول الرجل: لولا الله وفلان، لا تجعل فيها فلانا، هذا كله به شرك. رواه ابن أبي حاتم.

قوله: (هو الشرك): هذا تفسير بالمراد، لأن التفسير تفسيران:

١- تفسير بالمراد، وهو المقصود بسياق الجملة بقطع النظر عن مفرداتها.

٢- تفسير بالمعنى، وهو الذي يسمى تفسير الكلمات، وهو التفسير اللفظي.

فإذا قلنا: الأنداد الأشباه والنظراء، فهو تفسير بالمعنى، وإذا قلنا: الأنداد الشركاء أو الشرك، فهو تفسير بالمراد.

وقوله: (ديب): أي: أثر ديب النمل.

وقوله: (على صفاة): هي الصخرة الملساء.

وقوله: (سوداء): وليس على بيضاء، إذ لو كان على بيضاء، لبان أثر السير أكثر.

وقوله: (في ظلمة الليل): وهذا أبلغ ما يكون في الخفاء.

فإذا كان الشرك في قلوب بني آدم أخفى من هذا، فنسأل الله أن يعين على التخلص منه، ولهذا قال بعض السلف: (ما عاجلت نفسي معالجتها على الإخلاص)، ويروى عن النبي ﷺ أنه لما قال مثل هذا؟ قيل له: كيف نتخلص منه؟ قال: «قولوا: اللهم! إنا نعوذ بك من أن نشرك بك شيئاً نعلمه، ونستغفرك لما لا نعلم».

وقوله: (والله وحياتك): فيها نوعان من الشرك:

الأول: الحلف بغير الله.

الثاني: الإشراف مع الله بقوله: والله وحياتك! فضمها إلى الله بالواو المقتضية للتسوية فيه نوع من الشرك. والقسم بغير الله إن اعتقد الحالف أن المقسم به بمنزلة الله في العظمة فهو شرك أكبر، وإلا فهو شرك أصغر. وقوله: (وحياتي): فيه حلف بغير الله، فهو شرك.

وقوله: (لولا كلبية هذا لأتانا اللصوص): يكون فيه شرك إذا نظر إلى السبب دون المسبب، وهو الله عز وجل، أما الاعتماد على السبب الشرعي أو الحسي المعلوم فقد تقدم أنه لا بأس به، وأن النبي ﷺ قال: «لولا أنا، لكان في الدرك الأسفل من النار»، لكن قد يقع في قلب الإنسان إذا قال: لولا كذا لحصل كذا أو ما كان كذا، قد يقع في قلبه شيء من الشرك؛ بالاعتماد على السبب بدون نظر إلى المسبب، وهو الله عز وجل. وقوله: (لولا البط في الدار لأتى اللصوص): البط طائر معروف، وإذا دخل اللص البيت وفيه بط، فإنه يصرخ، فينتبه أهل البيت ثم يجتنبه اللصوص.

وقوله: (وقول الرجل لصاحبه: ما شاء الله وشئت): فيه شرك، لأنه شرك غير الله مع الله بالواو، فإن اعتقد أنه يساوي الله عز وجل في التدبير والمشيئة فهو شرك أكبر، وإن لم يعتقد ذلك واعتقد أن الله - سبحانه وتعالى - فوق كل شيء فهو شرك أصغر، وكذلك قوله: (لولا الله وفلان).

وقوله: (هذا كله به شرك): المشار إليه ما سبق، وهو شرك أكبر أو أصغر حسب ما يكون في قلب الشخص من نوع هذا التشريك.

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك» رواه الترمذي وحسنه، وصححه الحاكم<sup>(١)</sup>.

(١) أخرجه الطيالسي (١٨٩٦)، وأحمد (٣٤، ٨٦/٢)، وأبو داود في الإيمان، باب كراهة الحلف بالآباء (٥٧٠/٣)، والترمذي في الأيمان، باب ما جاء في كراهة الحلف بغير الله (٢٥٣/٥) وحسنه، وابن حبان (١١٧٧)، والحاكم (١٨/١)، (٢٩٧/٤) وصححه على شرط الشيخين، والبيهقي (٢٩/١٠). وقال الزين العراقي في أماليه: إسناده ثقات، كما في التيسير ص ٥٨٩.

قوله: (وعن عمر): صوابه عن ابن عمر، نبه عليه في تيسير العزيز الحميد.  
 قوله: (من حلف بغير الله): يشمل كل مخلوف به سوى الله، سواء بالكعبة أو الرسول ﷺ أو السماء أو غير ذلك، ولا يشمل الحلف بصفات الله، لأن الصفة تابعة للموصوف.  
 والحلف: تأكيد الشيء بذكر معظم بصيغة مخصوصة بالباء أو التاء أو الواو.  
 قوله: (أو أشرك): شك من الراوي، والظاهر أن صواب الحديث (أشرك).  
 والحلف بغير الله شرك أكبر؛ إن اعتقد أن المخلوف به مساو لله تعالى في التعظيم والعظمة، وإلا فهو شرك أصغر.

وهل يغفر الله الشرك الأصغر؟ قال بعض العلماء: إن قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾ أي: الشرك الأكبر، ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ يعني: الشرك الأصغر والكبائر.  
 وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: إن الشرك لا يغفره الله ولو كان أصغر؛ لأن قوله: ﴿أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾ مصدر مؤوّل، فهو نكرة في سياق النفي، فيعم الأصغر والأكبر، والتقدير: لا يغفر شركا به أو إشراكا به.  
 وقوله: (بغير الله): ليس المراد بغير هذا الاسم، بل المراد بغير المسمى بهذا الاسم، فإذا حلف بالله أو بالرحمن أو بالسميع، فهو حلف بالله.

وأما قوله تعالى: ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا﴾ وقوله: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى﴾ وما أشبه ذلك من المخلوقات التي أقسم الله بها، فالجواب عنه من وجهين:  
 الأول: أن هذا من فعل الله، والله لا يُسأل عما يفعل، وله أن يقسم سبحانه بما شاء من خلقه، وهو سائل غير مسؤول، وحاكم غير محكوم عليه.  
 الثاني: أن قسم الله بهذه الآيات دليل على عظمته وكمال قدرته وحكمته، فيكون القسم بها الدال على تعظيمها ورفع شأنها متضمنا للثناء على الله عز وجل بما تقتضيه من الدلالة على عظمته.  
 وأما نحن، فلا نقسم بغير الله أو صفاته، لأننا منهيون عن ذلك.  
 وأما ما ثبت في (صحيح مسلم) من قوله ﷺ «أفجح وأبيه إن صدق» فالجواب عنه من وجوه:  
 الأول: أن بعض العلماء أنكروا هذه اللفظة، وقال: إنها لم تثبت في الحديث، فقد انفرد مسلم بها عن البخاري مع مخالفة راويها للثقات، ولأنها مناقضة للتوحيد، وما كان كذلك، فلا تصح نسبته إلى رسول الله ﷺ، فيكون باطلا.

الثاني: أنها تصحيف من الرواة، والأصل: «أفلح والله إن صدق»، وكانوا في السابق لا يشكلون الكلمات، و (أبيه) تشبهه، (الله) إذا حذفت النقط السفلى.

الثالث: أن هذا مما يجري على الألسنة بغير قصد، وقد قال تعالى: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ﴾، وهذا لم ينو فلا يؤاخذ.

وهذا غير صحيح؛ لأن النهي وارد مع أنه كان يجري على ألسنتهم، كما جرى على لسان سعد فنهاه النبي ﷺ، ولو صح هذا لصح أن يقال لمن فعل شركا اعتاده لا ينهى، لأن هذا من عادته، وهذا باطل.

الرابع: أنه وقع من النبي ﷺ، وهو أبعد الناس عن الشرك، فيكون من خصائصه، وأما غيره، فهم منهيون عنه لأنهم لا يساؤون النبي ﷺ في الإخلاص والتوحيد.

الخامس: أنه على حذف مضاف، والتقدير: أفلح ورب أبيه.

السادس: أن هذا منسوخ، وأن النهي هو الناقل من الأصل، وهذا أقرب الوجوه.

وقال ابن مسعود: لأن أحلف بالله كاذبا أحب إلي من أن أحلف بغيره صادقا.

ابن مسعود رضي الله عنه لا يجب لا هذا ولا هذا، ولكن الحلف بالله كاذبا أهون عليه من الحلف بغيره صادقا، فالحلف كاذبا بالله محرم من وجهين:

١- أنه كذب، والكذب محرم لذاته.

٢- أن هذا الكذب قُرِنَ باليمين، واليمين تعظيم لله عز وجل، فإذا كان على كذب صار فيه تنقص لله عز وجل؛ حيث جعل اسمه مؤكدا لأمر كذب.

وأما الحلف بغير الله صادقا فهو محرم من وجه واحد وهو الشرك، لكن سيئة الشرك أعظم من سيئة الكذب، وأعظم من سيئة الحلف بالله كاذبا، لأن الشرك لا يغفر، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾، وما أرسل الله الرسل وأنزل الكتب إلا لإبطال الشرك، فهو أعظم الذنوب، ولأنه متضمن للكذب، فإن الذي جعل غير الله شريكا لله كاذب، لأن الله لا شريك له.

وعن حذيفة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لا تقولوا: ما شاء الله وشاء فلان، ولكن قولوا: ما شاء الله ثم شاء فلان» رواه أبو داود بسند صحيح<sup>(١)</sup>.

العلة في ذلك أن الواو تقتضي تسوية المعطوف بالمعطوف عليه، فيكون القائل: ما شاء الله وشئت مسويا مشيئة الله بمشيئة المخلوق، وهذا شرك، ثم إن اعتقد أن المخلوق أعظم من الخالق أو أنه مساو له فهو شرك أكبر، وإن اعتقد أنه أقل فهو شرك أصغر.  
قوله: (ولكن قولوا: ما شاء الله ثم شاء فلان): لما نهى عن اللفظ المحرم بيّن اللفظ المباح، لأن (ثم) للترتيب والتراخي، فتفيد أن المعطوف أقل مرتبة من المعطوف عليه.

وجاء عن إبراهيم النخعي أنه يكره: أعوذ بالله وبك، ويجوز أن يقول: بالله ثم بك، ويقول: لولا الله ثم فلان، ولا تقولوا: لولا الله وفلان.

قوله: (عن إبراهيم النخعي): من فقهاء التابعين.  
قوله: (يكره أعوذ بالله وبك): هذا محرم، لأنه جمع بين الله والمخلوق بحرف يقتضي التسوية، وهو الواو. ويجوز (بالله ثم بك)، لأن (ثم) تدل على الترتيب والتراخي.

(١) أخرجه: أحمد (٥ / ٣٨٤، ٣٩٤، ٣٩٨)، وأبو داود في الأدب، باب لا يقال: خبثت نفسي (٥/٢٥٩)، والطيالسي (٤٣٠)، والنسائي في عمل اليوم والليلة (٩٩١)، وابن السني في عمل اليوم والليلة (٦٧١)، وابن أبي الدنيا في الصمت (٣٤١)، والطحاوي في المشكل (٩٠/١)، والبيهقي في السنن (٣/٢١٦)، وفي الأسماء والصفات ص ١٤٤، وفي الاعتقاد ص ١٥٦، والحديث صححه النووي في الأذكار (٣٠٨)، وفي الرياض (١٧٤٨)، وقال الشيخ محمد بن عبد الوهاب: بسند صحيح.

## باب ما جاء فيمن لم يقنع بالحلف بالله

مناسبة هذا الباب لكتاب التوحيد أن الاقتناع بالحلف بالله من تعظيم الله، لأن الحالف أكد ما حلف عليه بالتعظيم باليمين، فيكون من تعظيم المحلوف به أن يصدق ذلك الحالف، ويكون عدم الاقتناع بالحلف بالله فيه شيء من نقص تعظيم الله، وهذا ينافي كمال التوحيد.

والاقتناع بالحلف بالله لا يخلو من أمرين:

الأول: أن يكون ذلك من الناحية الشرعية، فإنه يجب الرضا بالحلف بالله، فيما إذا توجهت اليمين على المدعى عليه فحلف، فيجب الرضا بهذا اليمين بمقتضى الحكم الشرعي.

الثاني: أن يكون ذلك من الناحية الحسية، فإن كان الحالف موضع صدق وثقة، فإنك ترضى بيمينه، وإن كان غير ذلك، فلك أن ترفض الرضا بيمينه، ولهذا لما قال النبي ﷺ لحويصة ومحيصة: «تبرئكم يهود بخمسين يمينا». قالوا: كيف نرضى يا رسول الله بأيمان اليهود؟ فأقرهم النبي ﷺ على ذلك.

والمسألة لا تخلو من أحوال خمس:

الأولى: أن يعلم كذبه؛ فلا أحد يقول: إنه يلزم تصديقه.

الثانية: أن يترجح كذبه؛ فكذلك لا يلزم تصديقه.

الثالثة: أن يتساوى الأمران؛ فهذا يجب تصديقه.

الرابعة: أن يترجح صدقه؛ فيجب أن يصدق.

الخامسة: أن يعلم صدقه؛ فيجب أن يصدق.

وهذا في الأمور الحسية، أما الأمور الشرعية في باب التحاكم فيجب أن يرضى باليمين ويلتزم بمقتضاها؛ لأن هذا من باب الرضا بالحكم الشرعي، وهو واجب.

عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «لا تحلفوا بآبائكم، من حلف بالله فليصدق، ومن حلف له بالله فليرض، ومن لم يرض فليس من الله» رواه ابن ماجه بسند حسن<sup>(١)</sup>.

(١) أخرجه ابن ماجه في الكفارات، باب من حلف له بالله فليرض (١/ ٦٧٩)، وقال في الزوائد: رجال إسناده ثقات. وحسنه الحافظ في الفتح (١١/ ٥٣٦)، وحسنه أيضا الشيخ الإمام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله، وصححه الشيخ سليمان رحمه الله في التيسير ص ٩٥٦ على شرط مسلم.

في الحديث أمران: أمر الخالف بالصدق في حلفه، وأمر المحلوف له بالرضا بيمين الخالف له؛ فإذا قرنت هذين الأمرين بعضهما ببعض تبين لك أن الأمر الثاني يُنَزَّل على ما إذا كان الخالف صادقاً قوله: (ومن لم يرض فليس من الله) هذا تبرؤ منه؛ يدل على أن عدم الرضا من كبائر الذنوب، ولكن لا بد من ملاحظة ما سبق.

## باب قول ما شاء الله وشئت

مناسبة الباب لكتاب التوحيد أن قول: (ما شاء الله وشئت) من الشرك الأكبر أو الأصغر؛ لأنه إن اعتقد أن المعطوف مساو لله فهو شرك أكبر، وإن اعتقد أنه دونه لكن أشرك به في اللفظ فهو أصغر، وقد ذكر بعض أهل العلم: أن من جملة ضوابط الشرك الأصغر أن ما كان وسيلة للأكبر فهو أصغر.

عن قتيلة أن يهوديا أتى للنبي ﷺ فقال: إنكم تشركون، تقولون: ما شاء الله وشئت، وتقولون: والكعبة. فأمرهم النبي ﷺ إذا أرادوا أن يحلفوا أن يقولوا: ورب الكعبة، وأن يقولوا: ما شاء الله ثم شئت. رواه النسائي وصححه<sup>(١)</sup>.

قوله: (ما شاء الله وشئت): الشرك هنا أنه جعل المعطوف مساويا للمعطوف عليه، وهو الله عز وجل؛ حيث كان العطف بالواو المفيدة للتسوية.

قوله: (والكعبة): الشرك هنا أنه حلف بغير الله.

قوله: (فأمرهم النبي ﷺ إذا أرادوا أن يحلفوا أن يقولوا: ورب الكعبة، وأن يقولوا: ما شاء الله ثم شئت): أما الأول؛ فلأن الحلف صار بالله، وأما الثاني؛ فلأنه جعل بلفظ يتبين به تأخر مشيئة العبد عن مشيئة الله، وأنه لا مساواة بينهما.

ويستفاد من الحديث:

١- أن النبي ﷺ لم يرد قول اليهودي، مع أن ظاهر قصده الذم واللوم للنبي ﷺ وأصحابه؛ لأن ما قاله

حق.

٢- مشروعية الرجوع إلى الحق وإن كان من نبه عليه ليس من أهل الحق.

٣- أنه ينبغي عند تغيير الشيء أن يغير إلى شيء قريب منه؛ لأن النبي ﷺ أمرهم أن يقولوا: (رب الكعبة)،

ولم يقل: احلفوا بالله، وأمرهم أن يقولوا: (ما شاء الله ثم شئت).

(١) أخرجه الإمام أحمد (٣٧١/٦، ٣٧٢)، والنسائي في الأيمان، باب الحلف بالكعبة (٦/٧)، والطحاوي في المشكل (٩١/١، ٣٥٧)، والحاكم

(٢٩٧/٤) وصححه، والبيهقي (٢١٦/٣)، والمزي في تهذيب الكمال (٣/١٦٩٤)، وصححه الحافظ في الإصابة (٣٨٩/٤).

وله أيضا عن ابن عباس أن رجلا قال للنبي ﷺ: ما شاء الله وشئت، فقال: «أجعلني لله ندا؟! بل ما شاء الله وحده»<sup>(١)</sup>.

الظاهر أن الرجل قال للنبي ﷺ هذا القول تعظيما له، وأنه جعل الأمر مفوضا لمشيئة الله ومشيئة رسوله. قوله: (بل ما شاء الله وحده) أرشده النبي ﷺ إلى ما يقطع عنه الشرك، ولم يرشده إلى أن يقول ما شاء الله ثم شئت؛ حتى يقطع عنه كل ذريعة عن الشرك وإن بُعدت. ويستفاد من الحديث: أن تعظيم النبي ﷺ بلفظ يقتضي مساواته للخالق شرك، فإن كان يعتقد المساواة فهو شرك أكبر، وإن كان يعتقد أنه دون ذلك فهو أصغر، وإذا كان هذا شركا فكيف بمن يجعل حق الخالق للرسول ﷺ؟!.

وفي الحديث إنكار المنكر وإن كان في أمر يتعلق بالمنكر؛ لقوله ﷺ: (أجعلني لله ندا؟!)، مع أنه فعل ذلك تعظيما للنبي ﷺ، وعلى هذا إذا انحى لك شخص عند السلام؛ فالواجب عليك الإنكار.

ولابن ماجه عن الطفيل أخي عائشة لأمها قال: رأيت كأني أتيت على نفر من اليهود، قلت: إنكم لأنتم القوم لولا أنكم تقولون: عزيز ابن الله. قالوا: وأنتم لأنتم القوم لولا أنكم تقولون: ما شاء الله وشاء محمد. ثم مررت بنفر من النصارى فقلت: إنكم لأنتم القوم لولا أنكم تقولون: المسيح ابن الله. قالوا: وإنكم لأنتم القوم لولا أنكم تقولون: ما شاء الله وشاء محمد. فلما أصبحت أخبرت بها من أخبرت ثم أتيت النبي ﷺ فأخبرته. قال: «هل أخبرت بها أحدا؟» قلت: نعم. قال: فحمد الله، وأثنى عليه، ثم قال: «أما بعد، فإن طفيلاً رأى رؤيا أخبر بها من أخبر منكم، وإنكم قلتم كلمة يمنعني كذا وكذا أن أنهاكم عنها؛ فلا تقولوا: ما شاء الله وشاء محمد، ولكن قولوا: ما شاء الله وحده»<sup>(٢)</sup>.

(١) رواه أحمد (٢١٤/١)، وابن ماجه (كتاب الكفارات، باب النهي أن يقال: ما شاء الله وشئت ٦٨٤/١)، وقال البوصيري في الزوائد: وفي إسناده الأجلح بن عبد الله، مختلف فيه، ضعفه الإمام أحمد وأبو حاتم والنسائي وأبو داود وابن سعد، ووثقه ابن معين ويعقوب بن سفيان والعجلي، وباقي الإسناد ثقات. اهـ ورواه أيضا: الطبراني في الكبير (١٣٠٠٥)، والبيهقي في السنن (٢١٧/٣).

(٢) أخرجه ابن ماجه في الكفارات، باب النهي أن يقال: ما شاء الله وشئت (٦٨٥/١). وقال البوصيري: رجال الإسناد ثقات على شرط البخاري. وهو عند ابن ماجه من طريق أبي عوانة اليشكري، وقد تابعه شعبة عند الدارمي (٢٩٥/٢)، والخطيب في الموضح (٣٠٣/١)، وحماد بن سلمة عند أحمد (٧٢/٥)، والطبراني في الكبير (٨٢١٤)، والمزي في تهذيب الكمال (٦٢٦، ٦٢٧)، وزيد بن أبي أنيسة عند الطبراني في الكبير (٨٢١٥). وخالف سفيان بن عيينة؛ فأخرجه أحمد (٣٩٣/٥)، وابن ماجه (٦٨٥/١) من طريقه عن حذيفة بن

قوله في حديث الطفيل: (رأيت كأني أتيت على نفر من اليهود): أي: رؤيا في المنام.  
وقوله: (على نفر): من الثلاثة إلى التسعة.

قوله: (لأنتم القوم): كلمة مدح؛ كقولك: هؤلاء هم الرجال.

قوله: (ما شاء الله وشاء محمد): هذا شرك أصغر؛ لأن الصحابة الذين قالوا هذا لا شك أنهم لا يعتقدون أن مشيئة الرسول ﷺ مساوية لمشيئة الله، فانتقدوا عليهم تسوية مشيئة الرسول ﷺ بمشيئة الله عز وجل باللفظ، مع عظم ما قاله هؤلاء اليهود في حق الله جل وعلا.

قوله: (هل أخبرت بها أحدا؟): سأل النبي ﷺ هذا السؤال؛ لأنه لو قال: لم أخبر أحدا؛ فلمتوقع أن الرسول عليه الصلاة والسلام سيقول له: لا تخبر أحدا، هذا هو الظاهر، ثم يبين له الحكم عليه الصلاة والسلام، لكن لما قال: إنه أخبر بها؛ صار لا بد من بيانها للناس عموماً؛ لأن الشيء إذا انتشر يجب أن يعلن عنه، بخلاف ما إذا كان خاصاً؛ فهذا يخبر به من وصله الخبر.

قوله: (يمنعني كذا وكذا): أي: يمنعني الحياء كما في رواية أخرى، ولكن ليس الحياء من إنكار الباطل، ولكن من أن ينهى عنها دون أن يأمره الله بذلك، هذا الذي يجب أن تحمل عليه هذه اللفظة إن كانت محفوظة؛ لأن الرسول ﷺ لا يستحي من الحق.

---

اليمان. وكذا معمر بن راشد؛ فأخرجه الطحاوي في المشكل (١/ ٩٠) من طريقه عن جابر بن سمرة رضي الله عنهم، وقد رجح الحافظ أن الحديث من رواية الطفيل. انظر: فتح الباري (١١/ ٥٤٠).

## باب من سب الدهر فقد آذى الله

السب: الشتم والذم.

الدهر: هو الزمان والوقت.

وسب الدهر ينقسم إلى ثلاثة أقسام:

الأول: أن يقصد الخبر المحض دون اللوم؛ فهذا جائز، مثل أن يقول: تعبنا من شدة حر هذا اليوم أو برده، ومنه قول لوط عليه الصلاة والسلام: ﴿هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾.

الثاني: أن يسب الدهر على أنه هو الفاعل، كأن يعتقد بسبه الدهر أن الدهر هو الذي يقلب الأمور إلى الخير والشر، فهذا شرك أكبر لأنه اعتقد أن مع الله خالقا.

الثالث: أن يسب الدهر لا لاعتقاده أنه هو الفاعل، بل يعتقد أن الله هو الفاعل، لكن يسبه لأنه محل لهذا الأمر المكروه عنده؛ فهذا محرم، وهو من السفه في العقل والضلال في الدين؛ لأن حقيقة سبه تعود إلى الله سبحانه؛ لأن الله تعالى هو الذي يصرف الدهر، وليس هذا السب يُكفّر؛ لأنه لم يسب الله تعالى مباشرة.

قوله: (فقد آذى الله): لا يلزم من الأذية الضرر؛ فالإنسان يتأذى بسماع القبيح أو مشاهدته، ولكنه لا يتضرر بذلك، ولهذا أثبت الله الأذية في القرآن، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا﴾ وفي هذا الحديث القدسي: (يؤذيني ابن آدم، يسب الدهر)، ونفى عن نفسه أن يضره شيء، قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا﴾، وفي الحديث القدسي: «يا عبادي! إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني».

وقول الله تعالى ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾ الآية.

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾ المراد بذلك المشركون الموافقون للدهرية، بضم الدال على الصحيح عند النسبة؛ لأنه مما تُغَيَّرُ فيه الحركة، والمعنى: وما الحياة والوجود إلا هذا؛ فليس هناك آخرة، بل يموت بعض ويحيا آخرون، هذا يموت فيدفن وهذا يولد فيحيا، ولا شيء سوى هذا.

قوله: ﴿وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾ أي: ليس هلاكنا بأمر الله وقدره، بل بطول السنين لمن طالت مدته، وبالأفراض والهموم والغموم لمن قصرت مدته؛ فالمهلك لهم هو الدهر.

قوله: ﴿وَمَا هُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ﴾ أكد النفي بمن فيكون للعموم: أي ما لهم علم لا قليل ولا كثير.  
 قوله: ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ أي: ما هم إلا يظنون، والظن هنا بمعنى الوهم؛ وفي هذا دليل على أن الظن يستعمل بمعنى الوهم، وأيضا يستعمل بمعنى العلم واليقين؛ كقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ﴾.  
 مناسبة الآية للباب:

أن في الآية نسبة الحوادث إلى الدهر، ومن نسبتها إلى الدهر؛ فسوف يسب الدهر إذا وقع فيه ما يكرهه.

وفي الصحيح عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «قال الله تعالى: يؤذيني ابن آدم يسب الدهر، وأنا الدهر، أقلب الليل والنهار»، وفي رواية: «لا تسبوا الدهر؛ فإن الله هو الدهر»<sup>(١)</sup>.

قوله: (يسب الدهر): الجملة تعليل للأذية، أو تفسير لها، أي: بكونه يسب الدهر، أي: يشتمه ويلومه، وربما يلعنه والعياذ بالله، وقد سبق بيان أقسام سب الدهر.  
 قوله: (وأنا الدهر): أي: مدبر الدهر، لأنه فسره بقوله: (أقلب الليل والنهار)، والليل والنهار هما الدهر، ولقوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾، ولا يقال بأن الله هو الدهر نفسه، ومن قال ذلك فقد جعل الخالق مخلوقا، والمقلَّب مقلَّبًا، وبهذا عرف خطأ من قال: إن الدهر من أسماء الله، كابن حزم رحمه الله؛ فإنه قال: (إن الدهر من أسماء الله)، وهذا غفلة عن مدلول هذا الحديث، وغفلة عن الأصل في أسماء الله.  
 فأما مدلول الحديث؛ فإن السابين للدهر لم يريدوا سب الله، وإنما أرادوا سب الزمن؛ فالدهر هو الزمن في مرادهم.

وأما الأصل في أسماء الله؛ فالأصل في أسماء الله أن تكون حسني؛ أي: بالغة في الحسن أكمله، فلا بد أن تشتمل على وصف ومعنى، هو أحسن ما يكون من الأوصاف والمعاني في دلالة هذه الكلمة، ولهذا لا تجد في أسماء الله تعالى اسما جامدا؛ لأن الاسم الجامد ليس فيه معنى أحسن أو غير أحسن، لكن أسماء الله كلها حسني؛ فيلزم من ذلك أن تكون دالة على معان، والدهر اسم من أسماء الزمن ليس فيه معنى إلا أنه اسم زمن.  
 قوله: (أقلب الليل والنهار) أي: ذواتهما وما يحدث فيهما؛ فالليل والنهار يُقلبان من طول إلى قصر إلى تساو، والحوادث تتقلب فيه في الساعة، وفي اليوم، وفي الأسبوع، وفي الشهر، وفي السنة، قال تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكِ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

(١) أخرجه البخاري في التفسير، تفسير سورة الجاثية (٢٩١/٣)، ومسلم في الأدب، باب النهي عن سب الدهر (١٧٦٢/٤).

وهذا التقليل له حكمة قد تظهر لنا وقد لا تظهر؛ لأن حكمة الله أعظم من أن تحيط بها عقولنا.  
قوله: (وفي رواية: «لا تسبوا الدهر؛ فإن الله هو الدهر») وفائدة هذه الرواية: أن فيها التصريح في النهي عن  
سب الدهر.

وقوله: (فإن الله هو الدهر) هذا تعليل للنهي، ومن بلاغة كلام الله ورسوله قرن الحكم بالعلة؛ لبيان الحكمة،  
وزيادة الطمأنينة، ولأجل أن تتعدى العلة إلى غيرها فيما إذا كان المعلل حكماً، فهذه ثلاث فوائد في قرن العلة  
بالحكم.

## باب التسمي بقاضي القضاة ونحوه

قوله: (قاضي القضاة): قاضي: بمعنى حاكم، والقضاة؛ أي: الحكام، و (أل) للعموم. (ونحوه) مثل ملك الأملاك، وسلطان السلاطين وما أشبه ذلك، مما يدل على النفوذ والسلطان. مناسبة الباب لكتاب التوحيد أن من تسمى بهذا الاسم فقد جعل نفسه شريكا مع الله فيما لا يستحقه إلا الله؛ لأنه لا أحد يستحق أن يكون قاضي القضاة، أو حاكم الحكام، أو ملك الأملاك، إلا الله سبحانه وتعالى. فإن أضفنا القضاة وحصرناها بطائفة معينة، أو ببلد معين، أو بزمان معين، مثل أن يقال: قاضي قضاة مصر أو الشام فهذا جائز؛ لأنه مقيد، ومعلوم أن قضاء الله لا يتقيد، فحينئذ لا يكون فيه مشاركة لله عز وجل، على أنه لا ينبغي أيضا أن يتسمى الإنسان بذلك، أو يسمى به، وإن كان جائزا؛ لأن النفس قد تصعب السيطرة عليها، فقد يأخذ الإنسان الإعجاب بالنفس والغرور، حتى لا يقبل الحق إذا خالف قوله، وهذه مسألة عظيمة لها خطرهما.

وأما التسمي بشيخ الإسلام، فإن أريد أنه الشيخ المطلق الذي يرجع إليه الإسلام فهذا لا يصح؛ وإن قصد بهذا الوصف أنه جدد في الإسلام وحصل له أثر طيب في الدفاع عنه؛ فلا بأس بإطلاقه. وأما بالنسبة للتسمي بالإمام فهو أهون بكثير من التسمي بشيخ الإسلام؛ لأن النبي ﷺ سمي إمام المسجد إماما، ولو لم يكن عنده إلا اثنان، لكن ينبغي أن لا يتسامح في إطلاق كلمة إمام إلا على من كان قدوة وله أتباع وأثر في الإسلام؛ لأن وصف الإنسان بما لا يستحق هضم للأمة؛ لأن الإنسان إذا تصور أن هذا إمام، وهذا إمام، هان الإمام الحق في عينه.

ومن ذلك أيضا: آية الله، حجة الله، حجة الإسلام؛ فإنها ألقاب حادثة، لا ينبغي؛ لأنه لا حجة لله على عباده إلا الرسل.

وأما آية الله فإن أريد به المعنى الأعم فلا مدح فيه؛ لأن كل شيء آية لله، وإن أريد المعنى الأخص، أي أن هذا الرجل آية خارقة؛ فهذا في الغالب يكون مبالغا فيه، والعبارة السليمة أن يقال: عالم، مفتي، قاضي، حاكم، إمام، لمن كان مستحقا لذلك.

في الصحيح عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «إن أخنع اسم عند الله رجل تسمى ملك الأملاك، لا مالك إلا الله».

قال سفيان: مثل شاهان شاه.

وفي رواية: «أغبط رجل على الله يوم القيامة وأخبثه»<sup>(١)</sup>.

قوله (أخنع) يعني: أوضع.

قوله: (إن أخنع اسم): أي: أوضع اسم، والمراد بالاسم المسمى، فأوضع اسم عند الله رجل تسمى ملك الأملاك؛ لأنه جعل نفسه في مرتبة عليا، فالملوك أعلى طبقات البشر من حيث السلطة؛ فجعل مرتبته فوق مرتبتهم، وهذا لا يكون إلا لله عز وجل، ولهذا عوقب بنقيض قصده؛ فصار أوضع اسم عند الله، ولهذا كان أحب اسم عند الله ما دل على التذلل والخضوع، مثل: عبد الله، وعبد الرحمن، وأبغض اسم عند الله ما دل على الجبروت والتعظيم.

قوله: (لا مالك إلا الله): أي: لا مالك على الحقيقة الملك المطلق إلا الله تعالى.

قوله: (قال سفيان) هو ابن عيينة (مثل شاهان شاه): وهذا باللغة الفارسية؛ فشاهان: جمع بمعنى أملاك، وشاه مفرد بمعنى ملك، أي: ملك الأملاك.

قوله: (أغبط رجل على الله يوم القيامة وأخبثه) أغبط: من الغبط وهو الغضب؛ وإذا كان سببا لغضب الله وخبيثا فإن التسمي به من الكبائر.

وقوله: (أغبط): فيه إثبات الغبط لله عز وجل، فهي صفة تليق بالله عز وجل، كغيرها من الصفات، والظاهر أنها أشد من الغضب.

(١) أخرجه البخاري في الأدب، باب أبغض الأسماء إلى الله تعالى (١٢٩/٤)، ومسلم في الآداب، باب تحريم التسمي بملك الأملاك (١٦٨٨/٣).

## باب احترام أسماء الله وتغيير الاسم لأجل ذلك

قوله: (باب احترام أسماء الله): أي: وجوب احترام أسماء الله؛ لأن احترامها احترام لله عز وجل. وأسماء الله عز وجل هي التي سمي بها نفسه، أو سماه بها رسوله ﷺ. وأسماء الله تنقسم إلى قسمين:

الأول: ما لا يصح إلا لله؛ فهذا لا يسمى به غيره، وإن سمي وجب تغييره؛ مثل: الله، الرحمن، رب العالمين، وما أشبه ذلك.

الثاني: ما يصح أن يسمى به غير الله؛ مثل: الرحيم، والسميع، والبصير، قال تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾، وقال تعالى عن النبي ﷺ ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رُؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾، فإن لوحظت الصفة منع من التسمي به، وإن لم تلاحظ الصفة جاز التسمي به على أنه علم محض.

عن أبي شريح أنه كان يكنى أبا الحكم، فقال له النبي ﷺ: «إن الله هو الحكم، وإليه الحكم». فقال: إن قومي إذا اختلفوا في شيء أتوني فحكمت بينهم فرضي كلا الفريقين. فقال: «ما أحسن هذا! فما لك من الولد؟» قلت: شريح، ومسلم، وعبد الله. قال: «فمن أكبرهم؟» قلت: شريح. قال: «فأنت أبو شريح» رواه أبو داود وغيره<sup>(١)</sup>.

قوله: (عن أبي شريح): هو هانئ بن يزيد الكندي، جاء وافدا إلى النبي ﷺ مع قومه.

قوله: (إن الله هو الحكم وإليه الحكم) حكم الله ينقسم إلى قسمين:

الأول: كوني، وهذا لا راد له.

الثاني: شرعي، وينقسم الناس فيه إلى قسمين: مؤمن، وكافر؛ فمن رضيه وحكم به فهو مؤمن، ومن لم يرض به ولم يحكم به فهو كافر.

(١) أخرجه البخاري في التاريخ الكبير (٢٢٧/٨) وفي الأدب المفرد (٨١١)، وأبو داود في الأدب، باب في تغيير الاسم القبيح (٢٤٠/٥)، والنسائي في القضاء، باب إذا حكموا رجلا ففضى بينهم (٢٢٦/٨)، والدولابي في الكنى (٧٤/١)، والبيهقي (١٤٥/١٠) عن يزيد بن مقدام بن شريح عن أبيه شريح عن أبيه هانئ أبي شريح الخزاعي. وأخرجه ابن سعد (٤٩/٦) والحاكم (٢٧٩/٤) من طريق قيس بن الربيع، وفي توثيقه خلاف، والحديث صححه الألباني في الإرواء (٢٣٧/٨)، وفي تعليقه على المشكاة (٤٧٦٦) وقال: إسناده جيد.

والحكم الشرعي يكون تابعا للمحبة والرضا والكراهة والسخط، والكوني عام في كل شيء. وفي الحديث دليل على أن من أسمائه تعالى: (الحكم).

قوله: (ما أحسن هذا): الإشارة تعود إلى إصلاحه بين قومه لا إلى تسميته بهذا الاسم؛ لأن النبي ﷺ غيره. قوله: (فأنت أبو شريح): غيره النبي ﷺ لأنه لوحظ فيه معنى الصفة وهي الحكم؛ فصار بذلك مطابقا لاسم الله، وليس لمجرد العلمية المحضة، وبهذا يكون مشاركا لله سبحانه وتعالى في ذلك. وقول المؤلف في المسألة الأولى: (ولو لم يقصد معناه): في النفس منه شيء؛ لأنه إذا لم يقصد معناه؛ فهو جائز، إلا إذا سمي بما لا يصح إلا لله، مثل: الله الرحمن، رب العالمين، وما أشبهه؛ فهذه لا تطلق إلا على الله مهما كان، وأما ما لا يختص بالله فإنه يسمى به غير الله إذا لم يلاحظ معنى الصفة، بل كان المقصود مجرد العلمية فقط؛ لأنه لا يكون مطابقا لاسم الله، ولذلك كان في الصحابة من اسمه الحكم، ولم يغيره النبي ﷺ؛ لأنه لم يقصد إلا العلمية، وفي الصحابة من اسمه حكيم وأقره النبي ﷺ.

## باب من هزل بشيء فيه ذكر الله أو القرآن أو الرسول

المراد بالرسول هنا: اسم الجنس، فيشمل جميع الرسل، وليس محمدا ﷺ وحده.

قوله: (من هزل): سخر واستهزأ.

فمن هزل بالله أو بآياته الكونية أو الشرعية أو برسله فهو كافر؛ لأن منافاة الاستهزاء للإيمان منافاة عظيمة،

فكيف يسخر ويستهزئ بأمر يؤمن به؟!

فمن استهزأ بالصلاة ولو نافلة أو بالزكاة أو الصوم أو الحج فهو كافر بإجماع المسلمين، كذلك من استهزأ

بالآيات الكونية، بأن قال مثلا: إن وجود الحر في أيام الشتاء سفه، أو قال: إن وجود البرد في أيام الصيف سفه؛

فهذا كفر مخرج عن الملة؛ لأن الرب عز وجل كل أفعاله مبنية على الحكمة، وقد لا نستطيع بلوغها، بل لا

نستطيع بلوغها.

وقول الله تعالى ﴿وَلَيْنِ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾ الآية.

قوله تعالى: ﴿وَلَيْنِ سَأَلْتَهُمْ﴾ الخطاب للنبي ﷺ، أي: سألت هؤلاء الذين يخوضون ويلعبون بالاستهزاء بالله

وكتابه ورسوله والصحابة.

قوله: ﴿إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾ أي: ما لنا قصد، ولكننا نخوض ونلعب، واللعب يقصد به الهزء، وأما

الخوض فهو كلام عائم لا زمام له، أي: ما شأننا وحالنا إلا أننا نخوض ونلعب.

قوله: ﴿قُلْ أِبَاهُ اللَّهِ وَأَيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ﴾ الاستفهام للإنكار والتعجب، فينكر عليهم أن يستهزئوا

بهذه الأمور العظيمة، ويتعجب كيف يكون أحق الحق محلا للسخرية؟

قوله: (لا تعتذروا): المراد بالنهي التئیس؛ أي: انهم عن الاعتذار تئيسا لهم بقبول اعتذارهم.

قوله: ﴿قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ أي: بالاستهزاء، وهم لم يكونوا منافقين خالصين، بل مؤمنين، ولكن إيمانهم

ضعيف؛ ولهذا لم يمنعهم من الاستهزاء بالله وآياته ورسوله ﷺ.

قوله: ﴿إِنْ نَعَفُ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ﴾ قال بعض أهل العلم: هؤلاء حضروا وصار عندهم كراهية لهذا الشيء،

لكنهم داهنوا فصاروا في حكمهم لجلوسهم إليه، لكنهم أخف لما في قلوبهم من الكراهة، ولهذا عفا الله عنهم،

وهذاهم للإيمان وتابوا.

ففي الآيتين: أن الاستهزاء بالله وآياته ورسوله من أعظم الكفر؛ بدليل الاستفهام والتوبيخ. والذين حضروا السب مثل الذين سبوا، قال تعالى: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذَا مِثْلَهُمْ﴾، وهم يستطيعون المفارقة.

عن ابن عمر ومحمد بن كعب وزيد بن أسلم وقتادة دخل حديث بعضهم في بعض: أنه قال رجل في غزوة تبوك: ما رأينا مثل قرائنا هؤلاء أرغب بطونا ولا أكذب ألسنا ولا أجبن عند اللقاء! يعني رسول الله ﷺ وأصحابه القراء. فقال له عوف بن مالك: كذبت، ولكنك منافق! لأخبرن رسول الله ﷺ. فذهب عوف إلى رسول الله ﷺ ليخبره فوجد القرآن قد سبقه، فجاء ذلك الرجل إلى رسول الله ﷺ وقد ارتحل وركب ناقته فقال: يا رسول الله! إنما كنا نخوض ونتحدث حديث الركب نقطع به عنا الطريق. قال ابن عمر: كأني أنظر إليه متعلقا بنسعة ناقة رسول الله ﷺ وإن الحجارة تنكب رجله وهو يقول: إنما كنا نخوض ونلعب. فيقول له رسول الله ﷺ: «أَبِاللَّهِ وَأَيَّاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ» ما يلتفت إليه وما يزيده عليه.

قوله: (محمد بن كعب وزيد بن أسلم وقتادة): الثلاثة تابعيون؛ فالرواية عن ابن عمر مرفوعة، وعن الثلاثة الآخرين مرسلة.

قوله: (دخل حديث بعضهم في بعض): أي: إن هذا الحديث مجموع من كلامهم.

قوله: (أرغب بطونا): أي: أوسع.

قوله: (فوجد القرآن قد سبقه): أي: بالوحي من الله تعالى، والله عليم بما يفعلون وبما يريدون وبما يبيتون، قال تعالى: ﴿يَسْتَحْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَحْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّنُونَ مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ﴾.

قوله: (وقد ارتحل وركب ناقته): الظاهر أن هذا من باب عطف التفسير؛ لأن ركوب الناقة هو الارتحال.

قوله: (بنسعة): هي الحزام الذي يربط به الرحل.

قوله: (والحجارة تنكب رجله): أي: يمشي والحجارة تضرب رجله، وكأنه يمشي بسرعة ولكنه لا يحس في

تلك الحال؛ لأنه يريد أن يعتذر.

## باب قول الله تعالى ﴿وَلَيْنُ أَدْقَنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضِرَاءٍ مَسَّتَهُ لِيَقُولَنَّ هَذَا لِي﴾ الآية

قال مجاهد: هذا بعلمي، وأنا محقوق به.

وقال ابن عباس: يريد: من عندي.

مناسبة الباب لكتاب التوحيد أن الإنسان إذا أضاف النعمة إلى عمله وكسبه ففيه نوع من الإشراك بالربوبية، وإذا أضافها إلى الله لكنه زعم أنه مستحق لذلك وأن ما أعطاه الله ليس محض تفضل لكن لأنه أهل؛ ففيه نوع من التعلّي والترفع في جانب العبودية.  
وقد ذكر الشيخ فيه آيتين:

الآية الأولى: ما ترجم به المؤلف، وهي قوله تعالى: ﴿وَلَيْنُ أَدْقَنَاهُ﴾ الضمير يعود على الإنسان، والمراد به الجنس، قال تعالى قبلها: ﴿لَا يَسْأَمُ الْإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيَؤُوسٌ قَنُوطٌ﴾، هذه حال الإنسان من حيث هو إنسان، لكن الإيمان يمنع الخصال السيئة المذكورة.  
قوله: ﴿لِيَقُولَنَّ هَذَا لِي﴾ هذا كفر بنعمة الله وإعجاب بالنفس.  
وقول مجاهد: (وأنا محقوق به): أي: وأنا مستحق له.  
وقول ابن عباس: (يريد من عندي): أي: من حذقي وتصرفي، وليس من عند الله.

وقوله: ﴿إِنَّمَا أُوتِيْتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي﴾.

قال قتادة: على علم مني بوجوه المكاسب.

وقال آخرون: على علم من الله أني له أهل. وهذا معنى قول مجاهد: أوتيته على شرف.

ففي معنى الآية قولان:

الأول: قول قتادة: على علم مني بوجوه المكاسب، فيكون العلم عائدا على الإنسان؛ أي: إنني عالم بوجوه المكاسب، ولا فضل لأحد علي فيما أوتيته، وإنما الفضل لي، وعليه يكون هذا كفرا بنعمة الله، وإعجابا بالنفس.

الثاني: قال آخرون: على علم من الله أني له أهل؛ فيكون بذلك مدلا على الله، وأنه أهل ومستحق لأن ينعم الله عليه، والعلم هنا عائد على الله؛ أي: أوتيت هذا الشيء لعلم الله أني مستحق له وأهل له. فيكون على كلا الأمرين غير شاكر لله عز وجل، والحقيقة أن كل ما نؤتاه من النعم فهو من الله؛ فهو الذي يسرها حتى حصلنا عليها، بل كل ما نحصل عليه من علم أو قدرة أو إرادة فمن الله؛ فالواجب علينا أن نضيف هذه النعم إلى الله سبحانه، قال تعالى: ﴿وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾، حتى ولو حصلت لك هذه النعمة بعلمك أو مهارتك فالذي أعطاك هذا العلم أو المهارة هو الله عز وجل، ثم إن المهارة أو العلم قد لا يكون سببا لحصول الرزق؛ فكم من إنسان عالم أو ماهر حاذق، ومع ذلك لا يوفق بل يكون عاطلا؟!!

وشكر النعمة له ثلاثة أركان:

١- الاعتراف بها في القلب.

٢- الثناء على الله باللسان.

٣- العمل بالجوارح بما يرضي المنعم.

فمن كان عنده شعور في داخل نفسه أنه هو السبب لمهارته وجودته وحذقه فهذا لم يشكر النعمة، وكذلك لو أضاف النعمة بلسانه إلى غير الله، أو عمل بمعصية الله في جوارحه، فليس بشاكر لله تعالى.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أنه سمع النبي ﷺ يقول: إن ثلاثة من بني إسرائيل: أبرص وأقرع وأعمى، فأراد الله أن يتليهم، فبعث إليهم ملكا، فأتى الأبرص فقال: أي شيء أحب إليك؟ قال: لون حسن وجلد حسن ويذهب عني الذي قد قدرني الناس به. قال: فمسحه، فذهب عنه قدره، فأعطي لونا حسنا وجلدا حسنا. قال: فأي المال أحب إليك؟ قال: الإبل أو البقر. شك إسحاق. فأعطي ناقه عشراء، وقال: بارك الله لك فيها.

قال: فأتى الأقرع فقال: أي شيء أحب إليك؟ قال: شعر حسن، ويذهب عني الذي قدرني الناس به. فمسحه فذهب عنه قدره، وأعطي شعرا حسنا. فقال: أي المال أحب إليك؟ قال: البقر أو الإبل. فأعطي بقرة حاملا، قال: بارك الله لك فيها.

فأتى الأعمى فقال: أي شيء أحب إليك؟ قال: يرد الله إلي بصري فأبصر به الناس. فمسحه، فرد الله إليه بصره. قال: فأي المال أحب إليك؟ قال: الغنم. فأعطي شاة والدا. فأنج هذا ولد هذا فكان لهذا واد من الإبل، ولهذا واد من البقر، ولهذا واد من الغنم.

قال: ثم إنه أتى الأبرص في صورته وهيئته، فقال: رجل مسكين، وابن سبيل، قد انقطعت بي الحبال في سفري؛ فلا بلاغ لي اليوم إلا بالله ثم بك، أسألك بالذي أعطاك اللون الحسن والجلد الحسن والمال بعيرا أتبلغ به في سفري!

فقال: الحقوق كثيرة. فقال له: كأني أعرفك! ألم تكن أبرص يقدرك الناس فقيرا فأعطاك الله عز وجل المال؟! فقال: إنما ورثت هذا المال كائنا عن كائنا! فقال: إن كنت كاذبا فصيرك الله إلى ما كنت. قال: وأتى الأقرع في صورته، فقال له مثل ما قال لهذا، ورد عليه مثل ما رد عليه هذا، فقال: إن كنت كاذبا؛ فصيرك الله إلى ما كنت.

قال: وأتى الأعمى في صورته فقال: رجل مسكين وابن سبيل، قد انقطعت بي الحبال في سفري؛ فلا بلاغ لي اليوم إلا بالله ثم بك، أسألك بالذي رد عليك بصرك شاة أتبلغ بها في سفري. قال: قد كنت أعمى فرد الله عليّ بصري؛ فخذ ما شئت، فوالله لا أجهدك اليوم بشيء أخذته الله. فقال: أمسك مالك، فإنما ابتليتكم، فقد رضي الله عنك، وسخط على صاحبك» أخرجاه<sup>(١)</sup>.

جميع القصص الواردة في القرآن وصحيح السنة ليس المقصود منها مجرد الخبر، بل يقصد منها العبرة والعظة، مع ما تكسب النفس من الراحة والسرور، قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾. قوله: (ويذهب): يجوز فيه الرفع والنصب، والرفع أولى. قوله: (فذرني): أي: استقدرني وكرهوا مخالطتي من أجله. قوله: (فمسحه): ليتبين أن لكل شيء سببا، وبرئ بإذن الله عز وجل. قوله: (قال: الإبل أو البقر. شك إسحاق): والظاهر أنه الإبل كما يفيد السياق. قوله: (عشراء): قال في القاموس: هي التي بلغ حملها عشرة أشهر أو ثمانية. قوله: (قال: الغنم): هذا يدل على زهده كما يدل على أنه صاحب سكينه وتواضع؛ لأن السكينة في أصحاب الغنم.

قوله: (شاة والدا): قيل: إن المعنى قريبة الولادة، ويؤيده أن صاحبيه أعطيا أنثى حاملا، ولما يأتي من قوله: (فأنتج هذان وولد هذا). قوله: (فأنتج هذان): بالضم، وفيه رواية بالفتح: (فأنتج)، وفي رواية: (فنتج هذان).

(١) أخرجه البخاري في (الأنبياء، باب حديث أبرص وأقرع وأعمى في بني إسرائيل) (٢/٤٩٤)، ومسلم في (الزهد والرقائق)، (٤/ رقم ٢٩٦٤).

قوله: (وولد هذا): أي: صار لشاته أولاد.

قوله: (في صورته وهيئته): الصورة في الجسم، والهيئة في الشكل واللباس، وهذا هو الفرق بينهما.

قوله: (أسألك بالذي أعطاك اللون الحسن والجلد الحسن): إنما قال هذا ولم يقل: أسألك بالله؛ لأجل أن

يذكره بنعمة الله عليه؛ ففيه إغراء له.

قوله: (أتبلغ به في سفري): أي: ليس أطيب الإبل، وإنما ما يوصلني إلى أهلي فقط.

قوله: (الحقوق كثيرة): أي: هذا المال الذي عندي متعلق به حقوق كثيرة، ليس حقك أنت فقط، وتناسى

-والعياذ بالله- أن الله هو الذي منَّ عليه بالجلد الحسن واللون الحسن والمال.

قوله: (كأني أعرفك): كأن هنا للتحقيق لا للتشبيه، والمعنى: أني أعرفك معرفة تامة.

قوله: (كابرا عن كابر): أنكر أن المال من الله، لكنه لم يستطع أن ينكر البرص. و(كابرا) منصوبة على نزع

الخافض؛ أي: من كابر؛ أي: ممن يكبرني وهو الأب، عن كابر له وهو الجد، وقيل: المراد الكبر المعنوي؛ أي: إننا

شرفاء وسادة وفي نعمة من الأصل، وليس هذا المال مما تجدد، واللفظ يحتمل المعنيين جميعا.

قوله: (وأتى الأقرع في صورته): وفي الأول قال: (في صورته وهيئته) فالظاهر أنه تصرف من الرواة، وإلا

فالغالب أن الصورة قريبة من الهيئة، وإن كانت الصورة تكون خلقة، والهيئة تكون تصنعا في اللباس ونحوه، وقد

جاء في رواية البخاري: (في صورته وهيئته).

قوله: (فرد الله عليّ بصري) اعترف بنعمة الله، وهذا أحد أركان الشكر والركن الثاني: العمل بالجوارح في

طاعة المنعم، والركن الثالث: الاعتراف بالنعمة في القلب.

قوله: (فوالله؛ لا أجهدك بشيء أخذته لله) الجهد: المشقة، والمعنى: لا أشق عليك بمنع ولا منة.

قوله: (خذ ما شئت ودع ما شئت) هذا من الشكر بالجوارح؛ فيكون هذا الأعمى قد أتم أركان الشكر.

قوله: (إنما ابتليتكم): ظاهر الحديث أن قصتهم مشهورة معلومة بين الناس؛ لأن قوله: (إنما ابتليتكم) يدل على

أن عنده علما بما جرى لصاحبيه، وغالبا أن مثل هذه القصة تكون مشهورة بين الناس.

قوله: (فقد رضي الله عنك): يعني: لأنك شكرت نعمة الله بالقلب واللسان والجوارح.

قوله: (وسخط على صاحبيك) لأنهما كفّرا نعمة الله سبحانه، وأنكرا أن يكون الله من عليهما بالشفاء

والمال.

وفي الحديث من الفوائد: جواز التمثيل، وهو أن يتمثل الإنسان بحال ليس هو عليها في الحقيقة، مثل أن

يأتي بصورة مسكين وهو غني، وما أشبه ذلك، إذا كان فيه مصلحة، وأراد أن يختبر إنسانا بمثل هذا.

## باب قول الله تعالى ﴿فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا﴾ الآية

قوله: ﴿فَلَمَّا آتَاهُمَا﴾ الضمير يعود على ما سبق من النفس وزوجها، ولهذا ينبغي أن يكون الشرح من قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيًّا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْنَا صَالِحًا لَنُكَوِّنَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (١٨٩) فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

فقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾، النفس فيها قولان:

الأول: أن المراد بالنفس الواحدة العين الواحدة، أي من شخص معين، وهو آدم عليه السلام، وقوله: ﴿وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ أي: حواء؛ لأن حواء خلقت من ضلع آدم.

الثاني: أن المراد بالنفس الجنس، والنفس قد يراد بها الجنس؛ كما في قوله تعالى ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ أي: من جنسهم، فالمعنى: هو الذي خلق الذكر والأنثى من جنس واحد. قوله: ﴿فَلَمَّا تَغَشَّاهَا﴾ أي: جامعها، وتشبيهه علو الرجل المرأة بالغشيان أمر ظاهر، وعبارة القرآن والسنة التكنية عن الجماع، كقوله تعالى: ﴿أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ﴾، وقال: ﴿اللَّاتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ﴾، وقال تعالى: ﴿وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ﴾، إلا إذا دعت الحاجة إلى ذلك، فإنه قد يصرح به، كما في قوله لما عَزَّ وَقَدَّ أقرَّ عنده بالزنى: ﴿أُنكِتَهَا﴾؛ لأن الحاجة هنا داعية للتصريح.

قوله: ﴿حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيًّا﴾ الحمل في أوله خفيف: نطفة، ثم علقة، ثم مضغة.

قوله: ﴿فَمَرَّتْ بِهِ﴾: المرور بالشيء تجاوزه من غير تعب ولا إعياء، والمعنى: تجاوزت هذا الحمل الخفيف من غير تعب ولا إعياء.

قوله: ﴿فَلَمَّا أَثْقَلَتْ﴾: الإثقال في آخر الحمل.

قوله: ﴿لَئِنْ آتَيْنَا صَالِحًا﴾ أي بشرا سويا، ليس فيه عاهة ولا نقص.

فإن قيل: هذا الولد الذي آتاهما الله عز وجل كان واحدا؛ فكيف جعلنا في هذا الولد الواحد شركا بل شركاء؟

فالجواب: أن نقول هذا على ثلاثة أوجه:

الوجه الأول: أن يعتقد أن الذي أتى بهذا الولد هو الولي الفلاني، والصالح الفلاني، ونحو ذلك، فهذا شرك

أكبر؛ لأنهما أضافا الخلق إلى غير الله.

ومن هذا أيضا ما يوجد عند بعض الأمم الإسلامية الآن؛ فتجد المرأة التي لا يأتيها الولد تأتي إلى قبر الولي الفلاني، كما يزعمون أنه ولي الله -والله أعلم بولايته-، فتقول: يا سيدي فلان! ارزقني ولدا.

الوجه الثاني: أن يضيف سلامة المولود ووقايته إلى الأطباء وإرشاداتهم، وإلى القوابل وما أشبه ذلك، فهنا أضاف النعمة إلى غير الله، وهذا نوع من الشرك، ولا يصل إلى حد الشرك الأكبر؛ لأنه أضاف النعمة إلى السبب ونسي المسبب، وهو الله عز وجل.

الوجه الثالث: أن لا يشرك من ناحية الربوبية، بل يؤمن أن هذا الولد خرج سالما بفضل الله ورحمته، ولكن يشرك من ناحية العبودية؛ فيقدم محبته على محبة الله ورسوله ويلهيه عن طاعة الله ورسوله، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا

تقدم أن في معنى ﴿من نفس واحدة﴾ قولان، فالقول الثاني أصح، وهو أن النفس: الجنس؛ وبهذا يسلم الإنسان من إشكالات كثيرة.

أما على القول الأول فيكون معنى الآية: خلقكم من آدم وحواء، فلما جامع آدم حواء حملت حملا خفيفا فمرت به، فلما أثقلت دعوا -أي آدم وحواء- الله ربهما ﴿لَئِن آتَيْنَا صَالِحًا لَنُكَوِّنَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلْنَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا﴾، فأشرك آدم وحواء بالله. لكن قالوا: إنه إشراك طاعة لا إشراك عبادة، ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ وهذا التفسير منطبق على المروي عن ابن عباس رضي الله عنهما، وسنبين -إن شاء الله تعالى- وجه ضعفه وبطلانه.

وهناك قول ثالث: أن المراد بقوله تعالى: ﴿مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ أي: آدم وحواء، ﴿فَلَمَّا تَعَشَّاهَا﴾ انتقل من العين إلى النوع؛ أي: من آدم إلى النوع الذي هم بنوه، أي: فلما تغشى الإنسان الذي تسلسل من آدم وحواء، ولهذا قال تعالى: ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ بالجمع ولم يقل عما يشركان، ونظير ذلك في القرآن قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحٍ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ﴾ أي: جعلنا الشهب الخارجة منها رجوما للشياطين، وليست المصابيح نفسها، فأول الآية في آدم وحواء، ثم صار الكلام من العين إلى النوع. وهذا التفسير له وجه، وفيه تنزيه آدم وحواء من الشرك، لكن فيه شيء من الركاكة لتشتت الضمائر.

قال ابن حزم: اتفقوا على تحريم كل اسم معبد لغير الله؛ كعبد عمرو وعبد الكعبة وما أشبه ذلك، حاشا عبد المطلب.

قوله: (اتفقوا): أي: أجمعوا، والإجماع أحد الأدلة الشرعية التي تثبت بها الأحكام.

قوله: (وما أشبه ذلك): مثل: عبد الحسين وعبد الرسول وعبد المسيح وعبد علي.  
قوله: (حاشا عبد المطلب): فهو مختلف فيه، فقال بعض أهل العلم: لا يمكن أن نقول بالتحريم والرسول  
قال: ﷺ

أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب  
قالوا: فيجوز أن يعبد للمطلب، ولكن الصواب تحريم التعبيد للمطلب؛ وأما قوله ﷺ «أنا ابن عبد المطلب»  
فهو من باب الإخبار وليس من باب الإنشاء، وفرق بين الإخبار وبين الإنشاء والإقرار، وقد قال العلماء: إن  
حاكي الكفر ليس بكافر، ومن هذا قول النبي ﷺ: يا بني عبد مناف!

وعن ابن عباس في الآية قال: لما تغشاها آدم حملت، فأتاها إبليس فقال: إني صاحبكما الذي  
أخرجتكما من الجنة، لتطيعاني أو لأجعلن له قرني أيل فيخرج من بطنك فيشقه، ولأفعلن؛ يخوفهما، سمياه  
عبد الحارث. فأبيا أن يطيعاه، فخرج ميتا.

ثم حملت فأتاها فذكر لهما، فأدرکہما حب الولد فسمياه عبد الحارث؛ فذلك قوله ﴿جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ  
فِيمَا آتَاهُمَا﴾. رواه ابن أبي حاتم<sup>(١)</sup>.

وله بسند صحيح عن قتادة قال: شركاء في طاعته، ولم يكن في عبادته.

وله بسند صحيح عن مجاهد في قوله: ﴿لَيْنِ آتَيْتَنَا صَالِحاً﴾ قال: أشفقا أن لا يكون إنسانا.  
وذكر معناه عن الحسن وسعيد وغيرهما.

قوله: (لتطيعاني): جملة قسمية؛ أي: والله لتطيعاني.

قوله: (أيل): هو ذكر الأوعال.

قوله: (سمياه عبد الحارث): اختار هذا الاسم لأنه اسمه، فأراد أن يعبداه لنفسه.

قوله: (شركاء في طاعته) أي: أطعاه فيما أمرهما به، لا في العبادة، وفرق بين الطاعة والعبادة، فمن أطاع  
شخصا في معصية الله فلم يجعله شريكا مع الله في العبادة.

قوله: (أشفقا أن لا يكون إنسانا): أي: خاف آدم وحواء أن يكون حيوانا أو جنيا أو غير ذلك.

(١) أخرجه ابن أبي حاتم كما في تفسير ابن كثير (٢/٢٧٥)، وسعيد بن منصور (٢/١٣٨٧).

قوله: (وذكر معناه عن الحسن): لكن الصحيح أن الحسن -رحمه الله- قال: إن المراد بالآية غير آدم وحواء، وإن المراد بها المشركون من بني آدم كما ذكر ذلك ابن كثير رحمه الله في تفسيره.  
وهذه القصة باطلة من وجوه:

الوجه الأول: أنه ليس في ذلك خبر صحيح عن النبي ﷺ، وهذا من الأخبار التي لا تتلقى إلا بالوحي، وقد قال ابن حزم عن هذه القصة: إنها رواية خرافة مكذوبة موضوعة.

الوجه الثاني: أنه لو كانت هذه القصة في آدم وحواء لكان حالهما إما أن يتوبا من الشرك أو يموتا عليه، فإن قلنا: ماتا عليه؛ كان ذلك قولاً عظيماً، فمن جوز موت أحد من الأنبياء على الشرك فقد أعظم الفرية، وإن كان تابا من الشرك؛ فلا يليق بحكمة الله وعدله ورحمته أن يذكر خطأهما ولا يذكر توبتهما منه، والله تعالى لم يذكر لهما توبة من هذا الذنب؛ فدل على أنه واقع من غيرهما.

الوجه الثالث: أن الأنبياء معصومون من الشرك باتفاق العلماء.

الوجه الرابع: أنه ثبت في حديث الشفاعة أن الناس يأتون إلى آدم يطلبون منه الشفاعة، فيعتذر بأكله من الشجرة وهو معصية، ولو وقع منه الشرك لكان اعتذاره به أقوى وأولى وأحرى.

الوجه الخامس: أن في هذه القصة أن الشيطان جاء إليهما وقال: (أنا صاحبكما الذي أخرجتكما من الجنة)، وهذا لا يقوله من يريد الإغواء، وإنما يأتي بشيء يقرب قبول قوله.

الوجه السادس: أن في قوله في هذه القصة: (لأجعلن له قرني أيل): إما أن يصدقا أن ذلك ممكن في حقه؛ فهذا شرك في الربوبية؛ لأنه لا يقدر على ذلك إلا الله، أو لا يصدقا؛ فلا يمكن أن يقبلا قوله وهما يعلمان أن ذلك غير ممكن في حقه.

الوجه السابع: قوله تعالى: ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ بضمير الجمع، ولو كان آدم وحواء؛ لقال: عما يشركان.

فهذه الوجوه تدل على أن هذه القصة باطلة من أساسها، وأنه لا يجوز أن يعتقد في آدم وحواء أن يقع منهما شرك بأي حال من الأحوال، والأنبياء منزهون عن الشرك باتفاق أهل العلم، وعلى هذا يكون تفسير الآية كما أسلفنا أنها عائدة إلى بني آدم الذين أشركوا شركاً حقيقياً، فإن منهم مشركاً، ومنهم موحداً.

وقول المؤلف في المسائل: (الخامسة: ذكر السلف الفرق بين الشرك في الطاعة والشرك في العبادة) الطاعة إذا كانت منسوبة لله فلا فرق بينها وبين العبادة، فإن عبادة الله طاعته.

وأما الطاعة المنسوبة لغير الله فإنها غير العبادة، فنحن نطيع الرسول ﷺ لكن لا نعبد، والإنسان قد يطيع ملكاً من ملوك الدنيا وهو يكرهه، فالشرك بالطاعة: أنني أطعته لا حبا وتعظيماً وذلاً كما أحب الله وأتذلل له

وأعظمه، ولكن طاعته اتباع لأمره فقط، وبناء على القصة فإن آدم وحواء أطاعا الشيطان ولم يعبداه عبادة، وهذا مبني على صحة القصة.

## باب قول الله تعالى ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي

### أَسْمَائِهِ﴾ الْآيَةَ

هذا الباب يتعلق بتوحيد الأسماء والصفات؛ لأن هذا الكتاب جامع لأنواع التوحيد الثلاثة: توحيد العبادة، وتوحيد الربوبية، وتوحيد الأسماء والصفات.

وتوحيد الأسماء والصفات هو إفراد الله عز وجل بما ثبت له من صفات الكمال على وجه الحقيقة بلا تمثيل ولا تكييف ولا تعطيل؛ لأنك إذا عطلت لم تثبت، وإن مثلت لم توحد، والتوحيد مركب من إثبات ونفي؛ أي: إثبات الحكم للموحد ونفيه عما عداه، فمثلا إذا قلت: زيد قائم؛ لم توحد بالقيام؛ وإذا قلت: زيد غير قائم؛ لم تثبت له القيام، وإذا قلت: لا قائم إلا زيد؛ وحدته بالقيام، وإذا قلت: لا إله إلا الله؛ وحدته بالألوهية، وإذا أثبت لله الأسماء والصفات دون أن يماثله أحد؛ فهذا هو توحيد الأسماء والصفات، وإن نفيتها عنه فهذا تعطيل، وإن مثلت فهذا إشراك.

قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾ طريق التوحيد هنا تقديم الخبر؛ لأن تقديم ما حقه التأخير يفيد الحصر؛ ففي الآية توحيد الأسماء لله.

وقوله: (الحسنى): مؤنث أحسن؛ فهي اسم تفضيل، ومعنى الحسنى: البالغة في الحسن أكمله. وما يخبر به عن الله أوسع مما يسمى به الله؛ لأن الله يخبر عنه ب: الشيء، ويخبر عنه بالمتكلم والمريد، مع أن الشيء لا يتضمن مدحا، والمتكلم والمريد يتضمنان مدحا من وجه، وغير مدح من وجه، ولا يسمى الله بذلك؛ فلا يسمى بالشيء ولا بالمتكلم ولا بالمريد، لكن يخبر بذلك عنه. وقد سبق لنا مباحث قيمة في أسماء الله تعالى.

قوله: (فادعوه بها): الدعاء نوعان: دعاء عبادة، ودعاء مسألة. فدعاء العبادة: أن تتعبد لله تعالى بما تقتضيه هذه الأسماء، فمثلا: الرحيم يدل على الرحمة، وحينئذ تتطلع إلى أسباب الرحمة وتفعلها. والغفور يدل على المغفرة، وحينئذ تتعرض لمغفرة الله عز وجل بكثرة التوبة والاستغفار كذلك وما أشبه ذلك. والقريب: يقتضي أن تتعرض إلى القرب منه بالصلاة وغيرها، وأقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد. والسميع: يقتضي أن تتعبد لله بمقتضى السمع، بحيث لا تسمع الله قولا يغضبه ولا يرضاه منك. والبصير: يقتضي أن تتعبد لله بمقتضى ذلك البصر بحيث لا يرى منك فعلا يكرهه منك.

الثاني: دعاء المسألة، وهو أن تقدمها بين يدي سؤالك متوسلا بها إلى الله تعالى، مثلا: يا حي! يا قيوم! اغفر لي وارحمني، وقال ﷺ «فاغفر لي مغفرة من عندك وارحمني إنك أنت الغفور الرحيم»، والإنسان إذا دعا وعلل؛ فقد أثنى على ربه بهذا الاسم طالبا أن يكون سببا للإجابة، والتوسل بصفة المدعو المحبوبة له سبب للإجابة؛ فالثناء على الله بأسمائه من أسباب الإجابة.

والأمر بدعاء الله بها يتضمن الأمر بمعرفتها؛ لأنه لا يمكن دعاء الله بها إلا بعد معرفتها، وهذا خلافا لما قاله بعض المداهنيين في وقتنا الحاضر: إن البحث في الأسماء والصفات لا فائدة فيه، ولا حاجة إليه! أيريدون أن يعبدوا شيئا لا أسماء له ولا صفات؟! أم يريدون أن يداهنوا هؤلاء المحرفين حتى لا يحصل جدل ولا مناظرة معهم؟! مع أن الله أمرنا بدعائه بها، والأمر للوجوب، ويقتضي وجوب علمنا بأسماء الله، ومعلوم أيضا أننا لا نعلمها أسماء مجردة عن المعاني، بل لا بد أن لها معان، فلا بد أن نبحث فيها؛ لأن علمها ألفاظا مجردة لا فائدة فيه.

قوله تعالى: ﴿وَذُرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ﴾ المعنى: ذروهم، أي لا تسلكوا مسلكهم ولا طريقهم؛ فإنهم على ضلال وعدوان، وليس المعنى عدم مناصحتهم وبيان الحق لهم؛ إذ لا يترك الظالم على ظلمه، ويحتمل أن المراد بقوله: (ذروا) تهديدا للملحدين.

والإلحاد: الميل، ومنه سمي الحفر بالقبر لحدا؛ لأنه مائل إلى جهة القبلة.

والإلحاد في أسماء الله الميل بها عما يجب فيها، وهو أنواع:

الأول: أن ينكر شيئا من الأسماء، أو مما دلت عليه من الصفات أو الأحكام، ووجه كونه إلحادا أنه مال بها عما يجب لها؛ إذ الواجب إثباتها وإثبات ما تتضمنه من الصفات والأحكام.

الثاني: أن يثبت لله أسماء لم يسم الله بها نفسه؛ كقول الفلاسفة في الله: إنه علة فاعلة، وبعضهم يسميه العقل الفعال، وكذلك النصارى يسمون الله أبا.

الثالث: أن يجعلها دالة على التشبيه؛ فيقول: الله سميع بصير قدير، والإنسان سميع بصير قدير، اتفقت هذه الأسماء؛ فيلزم أن تتفق المسميات، ويكون الله - سبحانه وتعالى - مماثلا للخلق، فيتدرج بتوافق الأسماء إلى التوافق بالصفات.

الرابع: أن يشتق من هذه الأسماء أسماء للأصنام؛ كتسمية اللات من الإله أو من الله، والعزى من العزيز، ومناة من المنان، حتى يلقوا عليها شيئا من الألوهية؛ ليبرروا ما هم عليه.

ذكر ابن أبي حاتم عن ابن عباس: ﴿يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ﴾: يشركون.

وعنه: سمو اللات من الإله، والعزى من العزيز.

قول ابن عباس: (يشركون) تفسير للإلحاد، ويتضمن الإشراك بها من جهتين:  
أن يجعلوها دالة على المماثلة، أو يشتقوا منها أسماء للأصنام كما في الرواية الثانية عن ابن عباس (سموا اللات  
من الإله...)، فمن جعلها دالة على المماثلة؛ فقد أشرك لأنه جعل لله مثيلاً، ومن أخذ منها أسماء لأصنامهم؛ فقد  
أشرك لأنه جعل مسميات هذه الأسماء مشاركة لله عز وجل.

وعن الأعمش: يدخلون فيها ما ليس منها.

هذا أحد أنواع الإلحاد، وهو أن يسمى الله بما لم يسم به نفسه، لأن الواجب فيها الوقوف على ما جاء به  
السمع.

## باب لا يقال: السلام على الله

هذه الترجمة محتملة للكراهة والتحريم، لكن استدلاله بالحديث يقتضي أنه للتحريم، وهو كذلك. والسلام له عدة معان:

١. التحية؛ كما يقال: سلّم على فلان؛ أي: حياه بالسلام.

٢. السلامة من النقص والآفات؛ كقولنا: السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته.

٣. السلام: اسم من أسماء الله تعالى، قال تعالى: ﴿الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ﴾.

قوله: (لا يقال السلام على الله): أي: لا تقل: السلام عليك يا رب؛ لأن هذا الدعاء يوهم النقص في حقه، فتدعو الله أن يسلم نفسه من ذلك؛ إذ لا يدعى لشيء بالسلام من شيء إلا إذا كان قابلاً أن يتصف به، والله - سبحانه - منزّه عن صفات النقص.

ومناسبة الباب لتوحيد الصفات ظاهرة؛ لأن صفاته عليها كاملة كما أن أسماءه حسنى، والدليل على أن صفاته عليها قوله تعالى ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى﴾ وقوله تعالى ﴿وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ والمثل الأعلى: الوصف الأكمل.

في الصحيح عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: كنا إذا كنا مع النبي ﷺ في الصلاة قلنا: السلام على الله من عباده، السلام على فلان وفلان. فقال النبي ﷺ: «لا تقولوا: السلام على الله؛ فإن الله هو السلام»<sup>(١)</sup>.

قوله: (قلنا: السلام على الله من عباده): أي: يطلبون السلامة لله من الآفات، يسألون الله أن يسلم نفسه من الآفات، أو أن اسم السلام على الله من عباده.

قوله: (السلام على فلان وفلان): جاء في لفظ آخر: (السلام على جبريل وميكال).

فقال النبي ﷺ (لا تقولوا: السلام على الله؛ فإن الله هو السلام) وهذا نهي تحريم، والسلام لا يحتاج إلى سلام، هو نفسه عز وجل سلام سالم من كل نقص ومن كل عيب.

(١) أخرجه البخاري في الأذان، باب ما يتخير من الدعاء بعد التشهد (٢٦٩/١)، وفي باب التشهد في الآخرة (٢٦٨/١)، ومسلم في الصلاة، باب التشهد في الصلاة، بلفظ: إن الله هو السلام، فإذا صلى أحدكم فليقل: التحيات لله... (٣٠١/١).

## باب قول اللهم اغفر لي إن شئت

عقد المؤلف هذا الباب لما تضمنه هذا الحديث من كمال سلطان الله وكمال جوده وفضله، وذلك من صفات الكمال.

في الصحيح عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «لا يقل أحدكم: اللهم اغفر لي إن شئت. اللهم ارحمني إن شئت. ليعزم المسألة؛ فإن الله لا مكروه له» ولمسلم: «وليعظم الرغبة؛ فإن الله لا يتعاضمه شيء أعطاه»<sup>(١)</sup>.

قوله: (ليعزم المسألة): اللام لام الأمر، ومعنى عزم المسألة: أن يسأل الله جازما بدون تردد ولا تعليق. قوله: (فإن الله لا مكروه له): تعليق للنهي عن قول: (اللهم اغفر لي إن شئت، اللهم ارحمني إن شئت)؛ أي: لا أحد يكرهه على ما يريد فيمنعه منه، أو ما لا يريد فيلزمه بفعله؛ لأن الأمر كله لله وحده. والمحذور في هذا التعليق من وجوه ثلاثة:

الأول: أنه يشعر بأن الله له مكروه على الشيء، فكأن الداعي بهذه الكيفية يقول: أنا لا أكرهك، إن شئت فاغفر، وإن شئت فلا تغفر.

الثاني: أن قول القائل (إن شئت) كأنه يرى أن هذا أمر عظيم على الله، فقد لا يشاؤه لكونه عظيما عنده، والله عز وجل لا يتعاضمه شيء أعطاه، ولهذا قال عليه الصلاة والسلام: (وليعظم الرغبة؛ فإن الله لا يتعاضمه شيء أعطاه)، أي: ليسأل ما شاء من قليل وكثير، ولا يقل: هذا كثير لا أسأل الله إياه.

الثالث: أنه يشعر بأن الطالب مستغن عن الله، كأنه يقول: إن شئت فافعل، وإن شئت فلا تفعل فأنا لا يهمني، والإنسان ينبغي أن يدعو الله تعالى وهو يشعر أنه مفتقر إليه غاية الافتقار. وهل يجزم الداعي بالإجابة؟

الجواب: إذا كان الأمر عائدا إلى قدرة الله فهذا يجب أن تجزم بأن الله قادر على ذلك، قال الله تعالى: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾، أما من حيث دعائك أنت باعتبار ما عندك من الموانع أو عدم توافر الأسباب فإنك

(١) أخرجه البخاري في الدعوات، باب ليعزم المسألة (٤/١٦٠)، ومسلم في الذكر والدعاء، باب العزم بالدعاء (٤/٢٠٦٣).

قد تتردد في الإجابة، ومع ذلك ينبغي أن تحسن الظن بالله؛ لأن الله عز وجل قال: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾، فالذي وفقك لدعائه أولاً سيمن عليك بالإجابة آخراً.

مناسبة الباب للتوحيد من وجهين:

١- من جهة الربوبية، فإن من أتى بما يشعر بأن الله له مكره لم يقدّم بتمام ربوبيته تعالى؛ لأن من تمام الربوبية أنه لا مكره له، وكذلك فيه نقص من ناحية الربوبية من جهة أخرى، وهو أن الله يتعاضم الأشياء التي يعطيها؛ فكان فيه قدح في جوده وكرمه.

٢- من ناحية العبد؛ فإنه يشعر باستغناؤه عن ربه، وهذا نقص في توحيد الإنسان، سواء من جهة الألوهية أو الربوبية أو الأسماء والصفات، ولهذا ذكره المصنف في الباب الذي يتعلق بالأسماء والصفات.

فإن قلت: ما الجواب عما ورد في دعاء الاستخارة: «اللهم! إن كنت تعلم أن هذا الأمر خير لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري؛ فاقدره لي ويسره لي...»، وكذا ما ورد في الحديث المشهور: «اللهم! أحيني ما كانت الحياة خيراً لي، وتوفني إذا كانت الوفاة خيراً لي»؟

فالجواب: أنني لم أعلق هذا بالمشيئة، ما قلت: فاقدره لي إن شئت، لكن لا أعلم أن هذا خير لي أو شر، والله يعلم؛ فأقول: إن كنت تعلم أن هذا الأمر خير لي فاقدره لي؛ فالتعليق فيه لأمر مجهول عندي، وكذا بالنسبة للحديث الآخر؛ لأن الإنسان لا يعلم هل طول حياته خير أو شر؟ وعلى هذا؛ فلا يكون في حديث الباب معارضة لحديث الاستخارة ولا حديث «اللهم! أحيني ما كانت الحياة خيراً لي»؛ لأن الدعاء مجزوم به وليس معلقاً بالمشيئة.

## باب لا يقول عبدي وأمتي

هذه الترجمة تحمل كراهة هذا القول وتحريمه، وقد اختلف العلماء في ذلك، وسيأتي التفصيل فيه.

في الصحيح عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «لا يقل أحدكم: أطعم ربك، وضئ ربك. وليقل: سيدي ومولاي، ولا يقل أحدكم: عبدي وأمتي، وليقل: فتاي وفتاتي وغلامي»<sup>(١)</sup>.

إضافة الرب إلى غير الله تعالى تنقسم إلى أقسام:

القسم الأول: أن تكون الإضافة إلى ضمير المخاطب؛ مثل: أطعم ربك، وضئ ربك؛ فيكره ذلك للنهي عنه؛ لأن فيه محذورين:

الأول: من جهة الصيغة، أنه يوهم معنى فاسدا بالنسبة لكلمة رب؛ لأن الرب من أسمائه سبحانه، وهو سبحانه يطعم ولا يطعم، وإن كان بلا شك أن الرب هنا غير رب العالمين الذي يطعم ولا يطعم، ولكن من باب الأدب في اللفظ.

الثاني: من جهة المعنى، أنه يشعر العبد أو الأمة بالذل؛ لأنه إذا كان السيد ربا كان العبد أو الأمة مربوبا. القسم الثاني: أن تكون الإضافة إلى ضمير الغائب؛ فهذا لا بأس به؛ كقوله ﷺ في حديث أشراط الساعة «أن تلد الأمة رهما»، وفي حديث الضالة وهو متفق عليه: «حتى يجدها رهما».

القسم الثالث: أن تكون الإضافة إلى ضمير المتكلم، بأن يقول العبد: هذا ربي، فقد يقول قائل: إن هذا جائز؛ لأن هذا من العبد لسيدته، وقد قال تعالى عن صاحب يوسف ﴿إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ﴾ أي: سيدي، ولأن المحذور من قوله (ربي) إذلال العبد، وهذا منتف؛ لأنه هو بنفسه يقول: هذا ربي.

القسم الرابع: أن يضاف إلى الاسم الظاهر، فيقال: هذا رب الغلام؛ فظاهر الحديث الجواز، وهو كذلك، ما لم يوجد محذور فيمنع.

قوله: (وليقل: سيدي ومولاي): المتوقع أن يقول: وليقل سيدك ومولاك؛ لأن مقتضى الحال أن يرشد إلى ما يكون بدلا عن اللفظ المنهي عنه بما يطابقه، ففهم المؤلف رحمه الله - كما سيأتي في المسائل - أن فيه إشارة

(١) أخرجه البخاري في العتق، باب كراهة التطاول على الرقيق (٢/٢٢١)، ومسلم في الأدب، باب حكم إطلاق لفظ العبد والأمة (٤/١٧٦٥).

إلى أنه إذا كان الغير قد نهي أن يقول للعبد: أطعم ربك؛ فالعبد من باب أولى أن ينهي عن قول: أطعمت ربي، وضأت ربي، بل يقول: سيدي ومولاي.

وأما إذا قلنا بأن (أطعم ربك) خاص بمن يخاطب العبد؛ لما فيه من إذلال العبد بخلاف ما إذا قال هو بنفسه: أطعمت ربي، فإنه ينتفي الإذلال؛ فإنه يقال: إن الرسول ﷺ لما وجه الخطاب لمن يخاطب العبد، وجه الخطاب إلى العبد نفسه، فقال: (وليقل: سيدي ومولاي)، أي بدلا عن قوله: أطعمت ربي، وضأت ربي. قوله: (سيدي): سيدي هنا مضافة إلى ياء المتكلم، وليست على وجه الإطلاق؛ فالسيد على وجه الإطلاق لا يقال إلا لله عز وجل، قال ﷺ: «السيد الله» وأما السيد مضافة فإنها تكون لغير الله، قال تعالى: ﴿وَأَلْفِيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ﴾، وقال ﷺ: «أنا سيد ولد آدم يوم القيامة». تنبيه:

اشتهر عند بعض الناس إطلاق السيدة على المرأة، فيقولون مثلا: هذا خاص بالرجال، وهذا خاص بالسيدات، وهذا قلب للحقائق؛ لأن السادة هم الرجال، قال تعالى: ﴿وَأَلْفِيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ﴾، وقال: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ﴾، وقال ﷺ: «إن النساء عوان عندكم. أي: بمنزلة الأسير، وقال في الرجل: راع في أهله ومستول عن رعيته. فالصواب أن يقال للواحدة امرأة، وللجماعة منهن نساء.

قوله: (ومولاي): أي: وليقل مولاي، والولاية تنقسم إلى قسمين: ولاية مطلقة، وهذه لله عز وجل، لا تصلح لغيره؛ كالسيادة المطلقة، وهي نوعان: عامة، وهي الشاملة لكل أحد، قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ﴾، وخاصة بالمؤمنين، قال تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ﴾.

والقسم الثاني من الولاية: ولاية مقيدة مضافة؛ فهذه تكون لغير الله، ولها في اللغة معان كثيرة، منها: الناصر، والمتولي للأمر، والسيد، والعتيق.

قوله ﷺ: (ولا يقل أحدكم عبدي وأمتي).

هذا القول ينقسم إلى قسمين:

الأول: أن يضيفه إلى غيره، مثل أن يقول: عبد فلان أو أمة فلان؛ فهذا جائز، قال تعالى: ﴿وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَى مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ﴾، وقال النبي ﷺ: «ليس على المسلم في عبده ولا فرسه صدقة». الثاني: أن يضيفه إلى نفسه، وله صورتان:

الأولى: أن يكون بصيغة الخبر، مثل: أطعمت عبدي، كسوت عبدي، أعتقت عبدي، فإن قاله في غيبة العبد أو الأمة؛ فلا بأس به، وإن قاله في حضرة العبد أو الأمة؛ فإن ترتب عليه مفسدة تتعلق بالعبد أو السيد منع، وإلا؛ فلا لأن قائل ذلك لا يقصد العبودية التي هي الذل، وإنما يقصد أنه مملوك.

الثانية: أن يكون بصيغة النداء، فيقول السيد: يا عبدي! هات كذا؛ فهذا منهي عنه، وأقل أحواله الكراهة؛ لأننا جميعا عباد الله، ونساؤنا إماء الله، فالسيد إذا قال: عبدي وأمتي فقد تشبه بالله عز وجل، ولو من حيث ظاهر اللفظ، والعلة من النهي: أن فيه إشعارا بالعبودية، وكل هذا من باب حماية التوحيد، والبعد عن التشريك حتى في اللفظ.

## باب لا يرد من سأل بالله

وقيل هذا: هل يجوز للإنسان أن يسأل بالله أم لا؟ هذه المسألة لم يتطرق إليها المؤلف رحمه الله؛ فنقول: أولاً السؤال من حيث هو مكروه، ولا ينبغي للإنسان أن يسأل أحداً شيئاً، إلا إذا دعت الحاجة إلى ذلك، ولهذا كان مما بايع النبي ﷺ أصحابه أن لا يسألوا الناس شيئاً، حتى إن عصا أحدهم ليسقط منه وهو على راحلته فلا يقول لأحد ناولنيه، بل ينزل ويأخذه، والمعنى يقتضيه؛ لأنك إذا أعززت نفسك ولم تذللها لسؤال الناس بقيت محترماً عند الناس، وصار لك منعة من أن تذلل وجهك لأحد؛ لأن من أذل وجهه لأحد؛ فإنه ربما يحتاجه ذلك الأحد لأمر يكره أن يعطيه إياه، ولكنه إذا سأله اضطر إلى أن يجيبه، ولهذا روي عن النبي ﷺ أنه قال: «ازهد فيما عند الناس يحبك الناس»، فالسؤال أصلاً مكروه أو محرم إلا لحاجة أو ضرورة، فسؤال المال محرم، فلا يجوز أن يسأل من أحد مالا إلا إذا دعت الضرورة إلى ذلك، وقال الفقهاء رحمهم الله في باب الزكاة: (إن من أبيع له أخذ شيء أبيع له سؤاله)، ولكن فيما قالوه نظر؛ فإن الرسول ﷺ حذر من السؤال، وقال: (إن الإنسان لا يزال يسأل الناس حتى يأتي يوم القيامة وما في وجهه مزعة لحم)، وهذا يدل على التحريم إلا للضرورة. وأما سؤال المعونة بالجاه أو المعونة بالبدن؛ فهذه مكروهة، إلا إذا دعت الحاجة إلى ذلك. وأما إجابة السائل؛ فهو موضوع بابنا هذا.

عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «من سأل بالله، فأعطوه، ومن استعاذ بالله فأعيذوه، ومن دعاكم فأجيبوه، ومن صنع إليكم معروفا فكافئوه، فإن لم تجدوا ما تكافئونه فادعوا له حتى تروا أنكم قد كافأتموه» رواه أبو داود والنسائي بسند صحيح<sup>(١)</sup>.

(١)

(١) أخرجه أحمد (٢/ ٦٨، ٩٩، ١٢٧)، والبخاري في الأدب المفرد (٢١٦)، وأبو داود في (الزكاة، باب عطية من سأل بالله/٣١٠/٢)، والنسائي في (الزكاة، باب من سأل بالله/٥/٨٢)، والطبراني في الكبير (١٣٤٦٥، ١٣٤٦٦)، وابن حبان (٢٠٧١)، والحاكم (١/ ٤١٢) - وصححه على شرطهما ووافقه الذهبي-، وأبو نعيم في "الحلية" (٩/ ٥٦)، والبيهقي (٤/ ١٩٩). والحديث صححه الحافظ في "تخريج الأذكار"; كما في "الفتوحات الربانية" (٥/ ٢٥٠)، وحسنه السخاوي في "الفتوحات" (٧/ ١٢١).

قوله: (فأعطوه): الأمر هنا للوجوب، ما لم يتضمن السؤال إثماً أو ضرراً على المسئول؛ لأن في إعطائه إجابة لحاجته، وتعظيماً لله عز وجل الذي سأل به.

قوله: (ومن استعاذ بالله فأعيذوه) أي قال: أعوذ بالله منك؛ فإنه يجب عليك أن تعيذه؛ لأنه استعاذ بعظيم، ولهذا لما قالت ابنة الجون للرسول ﷺ: أعوذ بالله منك! قال لها: «لقد عدت بعظيم» أو «بمعاذ. الحقي بأهلك»، لكن يستثنى من ذلك لو استعاذ من أمر واجب عليه فلا تعذه، مثل أن تلزمه بصلاة الجماعة، فقال: أعوذ بالله منك. وكذلك لو ألزمته بالإقلاع عن أمر محرم، فاستعاذ بالله منك؛ فلا تعذه لما فيه من التعاون على الإثم والعدوان.

وكذلك من استعاذ بملجأ صحيح يقتضي الشرع أن يعيذه وإن لم يقل أستعيذ بالله فإنه يجب عليك أن تعيذه كما قال أهل العلم: لو جنى أحد جناية ثم لجأ إلى الحرم؛ فإنه لا يقام عليه الحد ولا القصاص في الحرم، ولكنه يضيق عليه؛ فلا يبايع، ولا يشتري منه، ولا يؤجر حتى يخرج، بخلاف من انتهك حرمة الحرم بأن فعل الجناية في نفس الحرم؛ فإن الحرم لا يعيذه لأنه انتهك حرمة الحرم.

قوله: (ومن دعاكم فأجيبوه): الظاهر أن المراد بالدعوة هنا الدعوة للإكرام، وليس المقصود بالدعوة هنا النداء.

وظاهر الحديث وجوب إجابة الدعوة في كل دعوة، وهو مذهب الظاهرية، وجمهور أهل العلم على أنها مستحبة إلا دعوة العرس فإنها واجبة؛ لقوله ﷺ فيها «شر الطعام طعام الوليمة، يدعى إليها من ياباها ويمنعها من يأتيها، ومن لم يجب فقد عصى الله ورسوله».

قوله: (من صنع إليكم معروفا فكافئوه): المعروف: الإحسان، فمن أحسن إليك بهدية أو غيرها فكافئه، لكن إذا كان كبير الشأن ولم تجر العادة بمكافأته فلا يمكن أن تكافئه، كالملك والرئيس، فمثل هذا يدعى له؛ لأنك لو كافأته لرأى أن في ذلك غصاً من حقه. وللمكافأة فائدتان:

١- تشجيع ذوي المعروف على فعل المعروف.

٢- أن الإنسان يكسر بها الذل الذي حصل له بصنع المعروف إليه، لأن من صنع إليك معروفاً فلا بد أن يكون في نفسك رق له، فإذا كافأته زال عنك ذلك، وهذه فائدة عظيمة لمن صنع له معروف؛ لئلا يرى لأحد عليه منة إلا الله عز وجل.

لكن بعض الناس يكون كريماً جداً، فإذا كافأته بدل هديته أعطاك أكثر مما أعطيته؛ فهذا لا يريد مكافأة، ولكن يدعى له؛ لقوله ﷺ: (فإن لم تجدوا ما تكافئونه فادعوا له)، وكذلك الفقير إذا لم يجد مكافأة الغني فإنه

يدعو له، ويكون الدعاء بعد الإهداء مباشرة؛ لأنه من باب المسارعة إلى أمر الرسول ﷺ ولأن به سرور صانع المعروف.

قوله: (حتى تروا أنكم قد كافأتموه): (تروا)؛ بفتح التاء بمعنى تعلموا، وتجاوز بالضم بمعنى تظنوا؛ أي: حتى تعلموا أو يغلب على ظنكم أنك قد كافأتموه، ثم أمسكوا.

## باب لا يسأل بوجه الله إلا الجنة

مناسبة هذا الباب للتوحيد أن فيه تعظيم وجه الله عز وجل بحيث لا يسأل به إلا الجنة.

عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ «لا يسأل بوجه الله إلا الجنة» رواه أبو داود<sup>(١)</sup>.

اختلف في المراد بذلك على قولين:

القول الأول: أن المراد لا تسألوا أحدا من المخلوقين بوجه الله، فإذا أردت أن تسأل أحدا من المخلوقين؛ فلا تسأله بوجه الله؛ لأنه لا يسأل بوجه الله إلا الجنة، والخلق لا يقدر على إعطاء الجنة، فإذا لا يسألون بوجه الله مطلقا.

القول الثاني: أنك إذا سألت الله، فإن سألت الجنة وما يستلزم دخولها فلا حرج أن تسأل بوجه الله، وإن سألت شيئا من أمور الدنيا فلا تسأله بوجه الله؛ لأن وجه الله أعظم من أن يسأل به لشيء من أمور الدنيا. فأمر الآخرة تسأل بوجه الله، كقولك: أسألك بوجهك أن تنجيني من النار، والنبى ﷺ استعاذ بوجه الله لما نزل قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ﴾ قال: أعوذ بوجهك، ﴿مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ قال: أعوذ بوجهك.

ولو قيل: إنه يشمل المعنيين جميعا، لكان له وجه.

وقوله: (بوجه الله): فيه إثبات الوجه لله عز وجل وهو ثابت بالقرآن والسنة وإجماع السلف.

(١) أخرجه أبو داود في الزكاة، باب كراهية المسألة بوجه الله (٣٠٩/٢)، وابن منده في الرد على الجهمية ص ٩٨، والبيهقي في سننه (١٩٩/٤) وفي الأسماء والصفات ص ٣٠٦، والخطيب في الموضح (٣٥٢/١، ٣٥٣) عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما. وقال المنذري في مختصر السنن (٢٥٣/٢): سليمان بن قرم تكلم فيه غير واحد. والحديث ضعفه عبد الحق وابن القطان كما في الفيض (٤٥١/٦)، والمنوي في التيسير (٥٠٥/٢)، لكن يشهد لعموم النهي حديث أبي موسى رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «ملعون من سأل بوجه الله، وملعون من سئل بوجهه الله ثم منع سائله ما لم يسأل هجرا» أخرجه الطبراني كما في المجمع (١٠٣/٣)، وحسنه العراقي كما في الفيض (٤/٦) والتيسير (٤٧٨/٢) للمنوي.

## باب ما جاء في اللو

دخلت (أل) على (لو) وهي لا تدخل إلا على الأسماء لأن المقصود بها اللفظ، أي: باب ما جاء في هذا اللفظ.

والمؤلف رحمه الله جعل الترجمة مفتوحة ولم يجزم بشيء لأن (لو) تستعمل على عدة أوجه:  
الوجه الأول: أن تستعمل في الاعتراض على الشرع، وهذا محرم، كقول المنافقين فيما حكاه الله عنهم: ﴿لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا﴾ وذلك في غزوة أحد، فهذا محرم وقد يصل إلى الكفر.

الثاني: أن تستعمل في الاعتراض على القدر، وهذا محرم أيضا، قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًى لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا﴾.

الثالث: أن تستعمل للندم والتحسر، وهذا محرم أيضا؛ لأن كل شيء يفتح الندم عليك فإنه منهي عنه؛ لأن الندم يكسب النفس حزنا وانقباضا، والله يريد منا أن نكون في انشراح وانبساط، قال ﷺ: «وإن أصابك شيء فلا تقل: لو أني فعلت كذا لكان كذا؛ فإن لو تفتح عمل الشيطان». مثال ذلك: رجل حرص أن يشتري شيئا يظن أن فيه ربحا فخرس، فقال: لو أني ما اشتريته ما حصل لي خسارة! فهذا ندم وتحسر، وقد نهي عنه.

الرابع: أن تستعمل في الاحتجاج بالقدر على المعصية؛ كقول المشركين: ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا﴾ وقولهم: ﴿لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ﴾ وهذا باطل.

الخامس: أن تستعمل في التمني، وحكمه حسب التمني: إن كان خيرا فخير، وإن كان شرا فشر، وفي الصحيح عن النبي ﷺ في قصة نفر الأربعة قال أحدهم: لو أن لي مالا لعملت بعمل فلان. فهذا تمنى خيرا، وقال الثاني: لو أن لي مالا لعملت بعمل فلان. فهذا تمنى شرا. فقال النبي ﷺ في الأول: فهو بنيتة، فأجرهما سواء. وقال في الثاني: فهو بنيتة، فوزرهما سواء.

السادس: أن تستعمل في الخبر المحض. وهذا جائز، مثل: لو حضرت الدرس لاستفدت. ومنه قوله ﷺ: «لو استقبلت من أمري ما استدبرت ما سقت الهدى ولأحللت معكم» أخبر النبي ﷺ أنه لو علم أن هذا الأمر سيكون من الصحابة ما ساق الهدى ولأحل.

وقول الله تعالى: ﴿يَقُولُونَ لَوْ كَان لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا﴾.

قوله تعالى: (يقولون): الضمير للمنافقين.

قوله: (مَا قُتِلْنَا): أي: ما قتل بعضنا.

قوله: (ها هنا): أي: في أحد.

قوله: ﴿قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ﴾ هذا رد عليهم؛ فلا يمكن أن يتخلفوا عما أراد الله بهم.

وقولهم هذا من الاعتراض على الشرع؛ لأنهم عتبوا على الرسول ﷺ حيث خرج بدون موافقتهم، ويمكن أن يكون اعتراضا على القدر أيضا.

وقوله: ﴿الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا﴾.

قوله: (وقعدوا): الواو إما أن تكون عاطفة، والجملة معطوفة على (قالوا)، أو تكون الواو للحال والجملة حالية، أي: والحال أنهم قد قعدوا؛ ففيه توبيخ لهم حيث قالوا مع قعودهم، ولو كان فيهم خير لخرجوا مع الناس، لكن فيهم الاعتراض على المؤمنين، وعلى قضاء الله وقدره.

قوله: (لإخوانهم): قيل: في النسب لا في الدين، وقيل: في الدين ظاهرا؛ لأن المنافقين يتظاهرون بالإسلام، ولو قيل إنه شامل للأمرين لكان صحيحا.

قوله: ﴿لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا﴾ هذا غير صحيح، ولهذا رد الله عليهم بقوله: ﴿قُلْ فَادْرَأُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ وإن كنتم قاعدين فلا تستطيعون أيضا أن تدرءوا عن أنفسكم الموت. فهذه الآية والتي قبلها تدل على أن الإنسان محكوم بقدر الله كما أنه يجب أن يكون محكوما بشرع الله. مناسبة الباب للتوحيد:

أن من جملة أقسام (لو) الاعتراض على القدر، ومن اعترض على القدر فإنه لم يرض بالله ربا، ومن لم يرض بالله ربا فإنه لم يحقق توحيد الربوبية.

والواجب أن ترضى بالله ربا، ولا يمكن أن تستريح إلا إذا رضيت بالله ربا تمام الرضا، ولهذا قال ﷺ «عجبا لأمر المؤمن، إن أمره كله خير، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن: إن أصابته سراء شكر فكان خيرا له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له».

ومهما كان فلا بد من وقوع القدر، فلو خرجت مثلا في سفر ثم أصبت في حادث فلا تقل: لو أني ما خرجت من السفر ما أصبت؛ لأن هذا مقدر لا بد منه.

وفي الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «أحرص على ما ينفعك، واستعن بالله، ولا تعجزن، وإن أصابك شيء فلا تقل: لو أني فعلت كذا لكان كذا وكذا، ولكن قل: قَدَرُ الله وما شاء فعل؛ فإن (لو) تفتح عمل الشيطان»<sup>(١)</sup>.

قوله: (وفي الصحيح): أي صحيح مسلم.

قوله: (أحرص على ما ينفعك): الحرص: بذل الجهد لنيل ما ينفع من أمر الدين أو الدنيا. وما ينفع إما أن يكون نافعاً لذاته أو لغيره، فحديثنا العام قد لا يكون فيه نفع ولا ضرر، لكن قد يتكلم الإنسان ويتحدث لأجل إدخال السرور على غيره، فيكون نفعاً. والنبي ﷺ أمرنا بالحرص على النافع، ومعناه أن نقدم الأنفع على النافع؛ لأن الأنفع مشتمل على أصل النفع وعلى الزيادة، وهذه الزيادة لا بد أن نحرص عليها؛ لأن الحكم إذا علق بوصف كان تأكيد ذلك الحكم بحسب ما يشتمل عليه تأكيد ذلك الوصف.

ويؤخذ من الحديث وجوب الابتعاد عن الضار؛ لأن الابتعاد عنه انتفاع وسلامة.

قوله: (واستعن بالله): الواو تقتضي الجمع؛ فتكون الاستعانة مقرونة بالحرص، والاستعانة: طلب العون بلسان المقال؛ كقولك: (اللهم أعني)، أو: (لا حول ولا قوة إلا بالله)، أو بلسان الحال، وهي أن تشعر بقلبك أنك محتاج إلى ربك عز وجل أن يعينك على هذا الفعل، وأنه إن وكلك إلى نفسك وكلك إلى ضعف وعجز وعورة.

ولو احتاج الإنسان إلى الاستعانة بالمخلوق كحمل صندوق مثلاً فهذا جائز، ولكن لا تشعر نفسك أنها كاستعانتك بالخالق، وإنما عليك أن تشعر أنها كمعونة بعض أعضائك لبعض، فلا ينافي قوله ﷺ (استعن بالله). قوله: (ولا تعجزن): المعنى: لا تفعل فعل العاجز، من التكاسل وعدم الحزم والعزيمة، وليس المعنى: لا يصيبك عجز؛ لأن العجز بغير اختيار الإنسان ولا طاقة له به، فلا يتوجه عليه نهي.

قوله: (وإن أصابك شيء): أي: مما لا تحبه ولا تريده.

قوله: (قَدَرُ الله): خبر لمبتدأ محذوف؛ أي: هذا قدر الله. وقدر بمعنى مقدور.

والمعنى: إن هذا الذي وقع قدر الله وليس إلي، وهذا فيه التسليم التام لقضاء الله عز وجل، وأن الإنسان إذا فعل ما أمر به على الوجه الشرعي؛ فإنه لا يلام على شيء، ويفوض الأمر إلى الله.

(١) أخرجه مسلم في القدر، باب في الأمر بالقوة وترك العجز (٢٠٥٢/٤) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

قوله: (وما شاء فعل): أي: ما شاء الله أن يفعله فعله؛ لأن الله لا راد لقضائه ولا معقب لحكمه.  
فأفاد الحديث أن ما لا قدرة للإنسان فيه فله أن يحتج عليه بالقدر؛ لقوله: (ولكن قل: قدر الله وما شاء  
فعل)، وأما الذي يمكنك فليس لك أن تحتج بالقدر.  
قوله: (فإن لو تفتح عمل الشيطان): (لو): اسم إن قصد لفظها؛ أي: فإن هذا اللفظ يفتح عمل الشيطان.  
وعمله: ما يلقيه في قلب الإنسان من الحسرة والندم والحزن؛ فإن الشيطان يحب ذلك، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا  
النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئًا إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾.  
فإذا رضي الإنسان بالله ربا، وقال: هذا قضاء الله وقدره، اطمأنت نفسه وانشرح صدره.

## باب النهي عن سب الريح

عن أبي بن كعب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لا تسبوا الريح، فإذا رأيتم ما تكرهون فقولوا: اللهم إنا نسألك من خير هذه الريح وخير ما فيها وخير ما أمرت به، ونعوذ بك من شر هذه الريح وشر ما فيها وشر ما أمرت به» صححه الترمذي<sup>(١)</sup>.

قوله: (لا تسبوا الريح): (لا): ناهية، والسب: الشتم والعيب واللعن وما أشبه ذلك، وإنما نهى عن سبها لأن سب المخلوق سب لخالقه، فلو وجدت قصرا مبنيا وفيه عيب فسببته فهذا السب ينصب على من بناه، وكذلك سب الريح؛ لأنها مدبرة مسخرة على ما تقتضيه حكمة الله عز وجل، والنهي عن سب الريح للتحريم. ولكن إذا كانت الريح مزعجة فقد أرشد النبي ﷺ إلى ما يقال حينئذ في قوله ﷺ: (ولكن قولوا: اللهم إنا نسألك... إلخ).

قوله: (من خير هذه الريح): الريح نفسها فيها خير وشر؛ فقد تكون عاصفة تقلع الأشجار، وتهدم الديار، وتفيض البحار والأنهار، وقد تكون هادئة تبرد الجو وتكسب النشاط. قوله: (وخير ما فيها): أي: ما تحمله؛ لأنها قد تحمل خيرا؛ كتلقيح الثمار، وقد تحمل رائحة طيبة الشم. قوله: (وخير ما أمرت به): مثل إثارة السحاب، وسوقه إلى حيث شاء الله. قوله: (ونعوذ بك من شر هذه الريح): أي: شرها بنفسها؛ كقلع الأشجار، ودفن الزروع، وهدم البيوت. قوله: (وشر ما فيها): أي: ما تحمله من الأشياء الضارة، كالأتان والأوبئة. قوله: (وشر ما أمرت به): كالإهلاك والتدمير وتبييس الأرض من الأمطار ودفن الزروع، فقد تؤمر بشر لحكمة بالغة قد نعجز عن إدراكها.

وقوله: (ما أمرت به): هذا الأمر حقيقي؛ أي: يأمرها الله أن تهب ويأمرها أن تتوقف، وكل شيء من المخلوقات فيه إدراك بالنسبة إلى أمر الله، قال الله تعالى للأرض والسماء: ﴿أَتَيْنَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾، وقال للقلم: اكتب قال: ربي وماذا أكتب؟ قال: اكتب ما هو كائن إلى قيام الساعة.

(١) أخرجه أحمد (١٢٣/٥)، والترمذي في الفتن، باب ما جاء في النهي عن سب الريح (٣٣/٧) وقال: حسن صحيح، والنسائي في عمل اليوم والليلة (٩٣٣، ٩٣٤)، وابن السني في عمل اليوم والليلة (٢٩٩)، والطحاوي في المشكل (٣٩٨/١). وأخرجه النسائي (٩٣٥، ٩٣٦، ٩٣٧)، والخرائطي في مكارم الأخلاق ص ٨٣، والطحاوي في المشكل (٣٩٨/١) عن أبي بن كعب موقوفا. والحديث له شاهد مرفوع عن أبي هريرة وعائشة رضي الله عنهما.

والحاصل: أنه يجب على الإنسان أن لا يعترض على قضاء الله وقدره، وأن لا يسبه، وأن يكون مستسلماً لأمره الكوني كما يجب أن يكون مستسلماً لأمره الشرعي؛ لأن هذه المخلوقات لا تملك أن تفعل شيئاً إلا بأمر الله سبحانه وتعالى.

## باب قول الله تعالى ﴿يُظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ﴾ الآية

قوله تعالى: (يظنون): الضمير يعود على المنافقين، والأصل في الظن: أنه الاحتمال الراجح، وقد يطلق على اليقين؛ كما في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ﴾.

قوله: ﴿ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ﴾ عطف بيان لقوله: ﴿غَيْرَ الْحَقِّ﴾، و(الجاهلية): الحال الجاهلية، والمعنى: يظنون بالله ظن الملة الجاهلية التي لا يعرف الظان فيها قدر الله وعظمته، فهو ظن باطل مبني على الجهل. والظن بالله عز وجل على نوعين:

الأول: أن يظن بالله خيرا.

الثاني: أن يظن بالله شرا.

والأول له متعلقان:

١- متعلق بالنسبة لما يفعله في هذا الكون؛ فهذا يجب عليك أن تحسن الظن بالله عز وجل فيما يفعله - سبحانه وتعالى - في هذا الكون، وأن تعتقد أن ما فعله إنما هو لحكمة بالغة، قد تصل العقول إليها وقد لا تصل، وبهذا تتبين عظمة الله وحكمته في تقديره؛ فلا يظن أن الله إذا فعل شيئا في الكون فعله لإرادة سيئة، حتى الحوادث والنكبات لم يحدثها الله لإرادة السوء المتعلق بفعله، أما المتعلق بغيره بأن يحدث ما يريد به أن يسوء هذا الغير؛ فهذا واقع؛ كما قال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً﴾.

٢- متعلق بالنسبة لما يفعله بك؛ فهذا يجب أن تظن بالله أحسن الظن، لكن بشرط أن يوجد لديك السبب الذي يوجب الظن الحسن، وهو أن تعبد الله على مقتضى شريعته مع الإخلاص، فإذا فعلت ذلك فعليك أن تظن أن الله يقبل منك، وأما إن كان الإنسان مفرطا في الواجبات فاعلا للمحرمات وظن بالله ظنا حسنا؛ فهذا هو ظن المتهاون المتهالك في الأماني الباطلة، بل هو من سوء الظن بالله؛ إذ إن حكمة الله تأتي مثل ذلك.

النوع الثاني: وهو أن يظن بالله سوء، مثل أن يظن في فعله سفها أو ظلما أو نحو ذلك؛ فإنه من أعظم المحرمات وأقبح الذنوب، كما ظن هؤلاء المنافقون وغيرهم ممن يظن بالله غير الحق.

قوله: ﴿هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ﴾ مرادهم بذلك أمران: رفع اللوم عن أنفسهم، والاعتراض على القدر.

قوله: ﴿إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ﴾ أي: فإذا كان كذلك؛ فلا وجه لاحتجاجكم على قضاء الله وقدره، فالله عز

وجل يفعل ما يشاء من النصر والخذلان.

وقوله: ﴿الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوِّءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوِّءِ﴾ الآية.

قوله تعالى: (الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوِّءِ) المراد بهم: المنافقون والمشركون، قال تعالى: ﴿وَيُعَذِّبُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوِّءِ﴾ أي: ظن العيب، وهو كقوله فيما سبق: ﴿ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ﴾ ومنه ما نقله المؤلف عن ابن القيم رحمهما الله: أنهم يظنون أن أمر الرسول ﷺ سيضمحل، وأنه لا يمكن أن يعود، وما أشبه ذلك.

قوله: ﴿عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوِّءِ﴾ أي: أن السوء محيط بهم جميعا من كل جانب، كما تحيط الدائرة بما في جوفها، فهم وإن ظنوا أنه تعالى تخلى عن رسوله وأن أمره سيضمحل؛ فإن الواقع خلاف ظنهم، ودائرة السوء راجعة عليهم.

قال ابن القيم في الآية الأولى: فسر هذا الظن بأنه سبحانه لا ينصر رسوله، وأن أمره سيضمحل، وفسر بأن ما أصابه لم يكن بقدر الله وحكمته، ففسر بإنكار الحكمة، وإنكار القدر، وإنكار أن يتم أمر رسوله ﷺ وأن يظهره على الدين كله، وهذا هو ظن السوء الذي ظنه المنافقون والمشركون في سورة الفتح، وإنما كان هذا ظن السوء لأنه ظن غير ما يليق به سبحانه وما يليق بحكمته وحمده ووعد الصادق، فمن ظن أنه يدبيل الباطل على الحق إدالة مستقرة يضمحل معها الحق، أو أنكر أن يكون ما جرى بقضائه وقدره، أو أنكر أن يكون قدره لحكمة بالغة يستحق عليها الحمد، بل زعم أن ذلك لمشيئة مجردة، فذلك ظن الذين كفروا، فويل للذين كفروا من النار.

وأكثر الناس يظنون بالله ظن السوء فيما يختص بهم، وفيما يفعله بغيرهم، ولا يسلم من ذلك إلا من عرف الله وأسماءه وصفاته وموجب حكمته وحمده؛ فليعتن اللبيب الناصح لنفسه بهذا، وليتب إلى الله وليستغفره من ظنه بربه ظن السوء.

ولو فتشت من فتشت لرأيت عنده تعنتا على القدر وملامة له، وأنه كان ينبغي أن يكون كذا وكذا، فمستقل ومستكثر، وفتش نفسك هل أنت سالم؟

وإلا فإني لا إخالك ناجيا

فإن تنج منها تنج من ذي عزيمة

قوله: (قال ابن القيم): ذكره في زاد المعاد عقيب غزوة أحد تحت بحث الحكم والغايات المحمودة التي كانت فيها.

قوله: (ولا يسلم من ذلك): أي: من الظن السوء (إلا من عرف الله وأسماءه وصفاته وموجب حكمته وحمده): صدق رحمه الله، لا يسلم من ظن السوء إلا من عرف الله عز وجل وما له من الحكم والأسرار فيما يقدره ويشعره، وكذلك عرف أسماءه وصفاته معرفة حق لا معرفة تحريف وتأويل؛ ولهذا حُجِبَ المحرِّفون والمؤولون عن معرفة أسماء الله وصفاته؛ فتجد قلوبهم مظلمة غالبا.

وقوله: (موجب): بفتح الجيم، هو المسبب الناتج عن السبب بمعنى المقتضى،

وقوله: (من ذي عظمة): أي: من ذي بلية عظيمة.

مناسبة الباب للتوحيد:

أن ظن السوء ينافي كمال التوحيد، وينافي الإيمان بالأسماء والصفات؛ لأن الله قال في الأسماء: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا﴾ فإذا ظن بالله ظن السوء لم تكن الأسماء حسنى، وقال في الصفات: ﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ﴾ وإذا ظن بالله ظن السوء، لم يكن له المثل الأعلى.

## باب ما جاء في منكري القدر

قوله: (القدر): هو تقدير الله عز وجل للكائنات، وهو سر مكتوم لا يعلمه إلا الله أو من شاء من خلقه. والقدر يطلق على معنيين:

الأول: التقدير؛ أي: إرادة الله عز وجل الشيء.

الثاني: المقدر؛ أي: ما قدره الله عز وجل.

والإيمان بالقدر يتعلق بتوحيد الربوبية خصوصا، وله تعلق بتوحيد الأسماء والصفات؛ لأنه من صفات الكمال لله عز وجل.

والناس في القدر ثلاث طوائف:

الأولى: الجبرية الجهمية، أثبتوا قدر الله تعالى وغلوا في إثباته حتى سلبوا العبد اختياره وقدرته، وقالوا: ليس للعبد اختيار ولا قدرة في ما يفعله أو يتركه.

الطائفة الثانية: القدرية المعتزلة، أثبتوا للعبد اختيارا وقدرة في عمله وغلوا في ذلك حتى نفوا أن يكون لله تعالى في عمل العبد مشيئة أو خلق، ونفى غلاتهم علم الله به قبل وقوعه؛ فأكل العبد وشربه ونومه ويقظته وطاعته ومعصيته كلها واقعة باختياره التام وقدرته التامة وليس لله تعالى في ذلك مشيئة ولا خلق، بل ولا علم قبل وقوعه عند غلاتهم.

استدل الأولون الجبرية: بقوله تعالى: ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ والعبد وفعله من الأشياء، وبقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ وبقوله تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾ فنفى الله الرمي عن نبيه حين رمى وأثبتته لنفسه، وبقوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ﴾، ولهم شبه أخرى تركناها خوف الإطالة.

والرد على شبهاتهم بما يلي:

أما قوله تعالى: ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ فاستدلواهم بها معارض بالنصوص الكثيرة التي فيها إثبات إرادة العبد وإضافة عمله إليه وإثابته عليه كرامة أو إهانة، وكلها من عند الله، ولو كان مجبرا عليها ما كان لإضافة عمله إليه وإثابته عليه فائدة.

وأما قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ فهو حجة عليهم؛ لأنه أضاف العمل إليهم، وأما كون الله تعالى خالقه؛ فلأن عمل العبد حاصل بإرادته الجازمة وقدرته التامة، والإرادة والقدرة مخلوقان لله عز وجل فكان الحاصل بهما مخلوقا لله.

وأما قوله تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾ فهو حجة عليهم؛ لأن الله تعالى أضاف الرمي إلى نبيه ﷺ لكن الرمي في الآية له معنيان:

أحدهما: حذف المرمي، وهو فعل النبي ﷺ الذي أضافه الله إليه.

والثاني: إيصال المرمي إلى أعين الكفار الذين رماهم النبي ﷺ بالتراب يوم بدر فأصاب عين كل واحد منهم، وهذا من فعل الله؛ إذ ليس بمقدور النبي ﷺ أن يوصل التراب إلى عين كل واحد منهم.

وأما قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ﴾ فلعمرك الله إنه لحجة على هؤلاء الجبرية، فقد أبطل الله تعالى حجة هؤلاء المشركين الذين احتجوا بالقدر على شركهم حين قال في الآية نفسها: ﴿كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا﴾ وما كان الله ليذيقهم بأسه وهم على حق فيما احتجوا به.

ثم نقول: القول بالجبر باطل بالكتاب والسنة والعقل والحس وإجماع السلف، ولا يقول به من قدر الله حق قدره وعرف مقتضى حكمته ورحمته.

فمن أدلة الكتاب: قوله تعالى: ﴿مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الآخِرَةَ﴾ فأثبت للعبد إرادة. وقال تعالى: ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾.

وقال: ﴿إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾.

وقال: ﴿وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ فأثبت للعبد إرادة قولاً وفعلاً وعملاً.

ومن أدلة السنة قول النبي ﷺ (إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى) وقوله ﷺ: (ما نهيتكم عنه؛ فاجتنبوه، وما أمرتكم به؛ فأتوا منه ما استطعتم) ولهذا إذا أكره المرء على قول أو فعل وقلبه مطمئن بخلاف ما أكره عليه؛ لم يكن لقوله أو فعله الذي أكره عليه حكم فاعله اختياراً.

وأما إجماع السلف على بطلان القول بالجبر فلم ينقل عن أحد منهم أنه قال به، بل رد من أدرك منهم بدعته موروث معلوم.

وأما دلالة العقل على بطلانه فلأنه لو كان العبد مجبراً على عمله؛ لكانت عقوبة العاصي ظلماً ومثوبة الطائع عبثاً، والله تعالى منزّه عن هذا وهذا، ولأنه لو كان العبد مجبراً على عمله لم تقم الحجة بإرسال الرسل؛ لأن القدر باق مع إرسال الرسل، وما كان الله ليقيم على العباد حجة مع انتفاء كونها حجة.

وأما دلالة الحس على بطلانه؛ فإن الإنسان يدرك الفرق بين ما فعله باختياره كأكله وشربه وقيامه وقعوده، وبين ما فعله بغير اختياره؛ كارتعاشه من البرد والخوف ونحو ذلك.

واستدل الطائفة الثانية (القدرية) بقوله تعالى: ﴿مَنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمَنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الآخِرَةَ﴾ فأثبت للعبد إرادة، وبقوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا﴾ ونحوها من النصوص القرآنية والنبوية الدالة على أن للعبد إرادة، وأنه هو العامل الكاسب الراكع الساجد ونحو ذلك. والرد عليهم من وجوه:

الأول: أن الآيات والأحاديث التي استدلو بها نوعان: نوع مقيد لإرادة العبد وعمله بأنه بمشيئة الله؛ كقوله تعالى: ﴿لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ وقوله: ﴿إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا. وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ وكقوله تعالى في العمل: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَقْتَلْنَا الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنْ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَقْتَلْتُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾.

والنوع الثاني: مطلق؛ كقوله تعالى: ﴿فَأَنْتُمْ حَرَّتْكُمْ أَنْتُمْ﴾ وقوله: ﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ﴾ وقوله: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ﴾ إلى قوله: ﴿وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا﴾ وهذا النوع المطلق يحمل على المقيد كما هو معلوم عند أهل العلم.

الثاني: أن إثبات استقلال العبد بعمله مع كونه مملوكا لله تعالى يقتضي إثبات شيء في ملك الله لا يريده الله، وهذا نوع إشراك به، ولهذا سمي النبي ﷺ القدرية مجوس هذه الأمة.

الثالث: أن نقول لهم: هل تقولون بأن الله تعالى عالم بما سيقع من أفعال العباد؟ فسيقول غير الغلاة منهم: نعم، نقر بذلك، فنقول: هل وقع فعلهم على وفق علم الله أو على خلافه؟ فإن قالوا: على وفقه، قلنا: إذن قد أَرَادَهُ، وإن قالوا: على خلافه، فقد أنكروا علمه، وقد قال الأئمة رحمهم الله في القدرية: ناظروهم بالعلم، فإن أقروا به، خصموا، وإن أنكروه، كفروا.

وهاتان الطائفتان -الجبرية والقدرية- ضالتان طريق الحق؛ لأنهما بين مفراط غال ومفراط مقصر؛ فالجبرية غلوا في إثبات القدر وقصروا في إرادة العبد وقدرته، والقدرية غلوا في إثبات إرادة العبد وقدرته وقصروا في القدر. ولهذا كان الأسعد بالدليل والأوفق للحكمة والتعليل هم:

الطائفة الثالثة: أهل السنة والجماعة، الطائفة الوسط، الذين جمعوا بين الأدلة وسلکوا في طريقهم خير ملة؛ فأمنوا بقضاء الله وقدره، وبأن للعبد اختيارا وقدرة؛ فكل ما كان في الكون من حركة أو سكون أو وجود أو عدم؛ فإنه كائن بعلم الله تعالى ومشيئته، وكل ما كان في الكون فمخلوق لله تعالى، لا خالق إلا الله، ولا مدبر

للخلق إلا الله عز وجل، وآمنوا بأن للعبد مشيئة وقدرة، لكن مشيئته مربوطة بمشيئة الله تعالى؛ كما قال تعالى: ﴿لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾، فإذا شاء العبد شيئاً وفعله؛ علمنا أن مشيئة الله تعالى قد سبقت تلك المشيئة.

وهؤلاء هم الذين جمعوا بين الدليل المنقول والمعقول؛ فأدلتهم على إثبات القدر هي أدلة المثبتين له من الجبرية، لكنهم استدلوا بها على وجه العدل والجمع بينها وبين الأدلة التي استدل بها نفاة القدر. وأدلتهم على إثبات مشيئة العبد وقدرته هي أدلة المثبتين لذلك من القدرية، لكنهم استدلوا بها على وجه العدل والجمع بينها وبين الأدلة التي استدل بها نفاة مشيئة العبد وقدرته.

ومراتب القدر أربع يجب الإيمان بها كلها:

المرتبة الأولى: العلم، وذلك بأن تؤمن بأن الله تعالى علم كل شيء جملة وتفصيلاً، فعلم ما كان وما يكون؛ فكل شيء معلوم لله، سواء كان دقيقاً أم جليلاً من أفعاله أو أفعال خلقه، وأدلة ذلك في الكتاب كثيرة منها: قوله تعالى: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾، ومنها قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾، ففي الآية أيضاً إثبات العلم وإثبات الكتابة. المرتبة الثانية: الكتابة، وقد دلت عليها الآيتان السابقتان.

المرتبة الثالثة: المشيئة، وهي عامة، ما من شيء في السماوات والأرض إلا وهو كائن بإرادة الله ومشيئته؛ فلا يكون في ملكه ما لا يريد، سواء كان ذلك فيما يفعله بنفسه أو يفعله المخلوق، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ وقال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ﴾ وقال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَقْتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمُ﴾ الآية.

المرتبة الرابعة: الخلق؛ فما من شيء في السماوات والأرض إلا الله خالقه ومالكة ومدبره وذو سلطانه، قال تعالى: ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ وهذا العموم لا مخصص له، حتى فعل المخلوق مخلوق لله؛ لأن فعل المخلوق من صفاته، وهو وصفاته مخلوقان، ولأن فعله ناتج عن أمرين: إرادة جازمة، وقدرة تامة، والله هو الذي خلق في الإنسان الإرادة الجازمة والقدرة التامة.

والعبد يتعلق بفعله شيئان:

١- خلق، وهذا يتعلق بالله.

٢- مباشرة، وهذا يتعلق بالعبد وينسب إليه، قال تعالى: ﴿جَزَاءٌ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ وقال تعالى: ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾، ولولا نسبة الفعل إلى العبد ما كان للثناء على المؤمن المطيع وإثابته فائدة، وكذلك عقوبة العصي وتوبيخه.

فإن قيل: هل الإيمان بالقدر ينافي ما علم بالضرورة من أن الإنسان يفعل الشيء باختياره؟  
الجواب: لا ينافيه؛ لأن ما يفعله الإنسان باختياره من قدر الله؛ كما قال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه لما أقبل على الشام، وقالوا له: إن في الشام طاعونا يفتك بالناس، فجمع الصحابة وشاورهم، فقال بعضهم: نرجع. فعزم على الرجوع، فجاء أمين هذه الأمة أبو عبيدة عامر بن الجراح، فقال: يا أمير المؤمنين! أفرارا من قدر الله؟ فأجاب عمر: نفر من قدر الله إلى قدر الله! يعني: أن مضينا في السفر بقدر الله، ورجوعنا بقدر الله، ثم ضرب له مثلا، قال: رأيت لو كان لك إبل فهبطت واديا له شعبتان إحداها خصبة والأخرى جدبة؛ ليس إن رعيت الخصبة بقدر الله، وإن رعيت الجدبة فبقدر الله. وقال أيضا: رأيت لو رعى الجدبة وترك الخصبة أكنت مُعَجِّزَه؟ (أي: ناسبا إياه إلى العجز) قال: نعم. قال: فسر إذن. فالإنسان وإن كان يفعل؛ فإنما يفعل بقدر الله.

فإن قيل: إذا تقرر ذلك لزم أن يكون العصي معذورا بمعصيته؛ لأنه عصى بقدر الله؟  
أجيب: إن احتجاج العصي بالقدر باطل بالشرع والنظر. أما بطلانه بالشرع: فقد قال الله تعالى: ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ﴾ فهم قالوا هذا على سبيل الاحتجاج بالقدر على معصية الله، فرد الله عليهم بقوله: ﴿كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا﴾ ولو كانت حجتهم صحيحة ما أذاقهم الله بأسه، وهذا دليل واضح على بطلان احتجاجهم بالقدر على معصية الله، وقال تعالى: ﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ فأبطل الله الحجة على الناس بإرسال الرسل، ولو كان القدر حجة ما انتفت بإرسال الرسل؛ لأن القدر باق حتى مع إرسال الرسل، وهذا يدل على بطلان احتجاج العصي على معصيته بقدر الله.

وأما بطلانه بالنظر؛ فنقول: لو فرض أنه نشر في جريدة ما عن وظيفة مرتبها كذا وكذا، ووظيفة أخرى أقل منها؛ فإنك سوف تطلب الأعلى، فإن لم يكن؛ طلبت الأخرى، فإذا لم يحصل له شيء منها؛ فإنه يلوم نفسه على تفريطه بعدم المسارعة إليها مع أول الناس. وعندنا وظائف دينية الصلوات الخمس كفارة لما بينها، وهي كنهز على باب أحدنا يغتسل منه في كل يوم خمس مرات، وصلاح الجماعة أفضل من صلاة الفذ بسبع وعشرين درجة؛ فلماذا تترك هذه الوظائف وتحتج بالقدر وتذهب إلى الوظائف الدنيوية الرفيعة؛ فكيف لا تحتج بالقدر فيما يتعلق بأمور الدنيا وتحتج به فيما يتعلق بأمور الآخرة؟!!

مثال آخر: رجل قال: عسى ربي أن يرزقني بولد صالح عالم عابد، وهو لم يتزوج؛ فنقول: تزوج حتى يأتيك. فقال: لا؛ فلا يمكن أن يأتيه الولد، لكن إذا تزوج؛ فإن الله بمشيئته قد يرزقه الولد المطلوب. وكذلك من يسأل الله الفوز بالجنة والنجاة من النار، ولا يعمل لذلك؛ فلا يمكن أن ينجو من النار ويفوز بالجنة لأنه لم يعمل لذلك. فبطل الاحتجاج بالقدر على معاصي الله بالأثر والنظر، ولهذا قال النبي ﷺ كلمة جامعة مانعة نافعة: (ما منكم من أحد إلا وقد كتب مقعده من الجنة ومقعده من النار. قالوا: يا رسول الله! أفلا ندع العمل ونتكل؟ قال: اعملوا؛ فكل ميسر لما خلق له) فالنبي ﷺ أعطانا كلمة واحدة، فقال: (اعملوا...)، وهذا فعل أمر، (فكل ميسر لما خلق له).

وللإيمان بالقدر فوائد عظيمة منها:

١- أنه من تمام توحيد الربوبية.

٢- أنه يوجب صدق الاعتماد على الله عز وجل لأنك إذا علمت أن كل شيء بقضاء الله وقدره صدق اعتمادك على الله.

٣- أنه يوجب للقلب الطمأنينة، إذا علمت أن ما أصابك لم يكن ليخطئك وما أخطأك لم يكن ليصيبك؛ اطمأنتت بما يصيبك بعد فعل الأسباب النافعة.

٤- منع إعجاب المرء بعمله إذا عمل عملاً يشكر عليه؛ لأن الله هو الذي من عليه وقدره له، قال تعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾ أي: فرح بطر وإعجاب بالنفس.

٥- عدم حزنه على ما أصابه؛ لأنه من ربه، فهو صادر عن رحمة وحكمة.

٦- أن الإنسان يفعل الأسباب؛ لأنه يؤمن بحكمة الله عز وجل وأنه لا يقدر الأشياء إلا مربوطة بأسبابها.

وقال ابن عمر: والذي نفس ابن عمر بيده لو كان لأحدهم مثل أحد ذهباً ثم أنفقه في سبيل الله ما قبله الله منه حتى يؤمن بالقدر. ثم استدل بقول النبي ﷺ «الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره» رواه مسلم<sup>(١)</sup>.

قوله: (لو كان لأحدهم مثل أحد ذهباً ثم أنفقه في سبيل الله ما قبله الله منه حتى يؤمن بالقدر): ابن عمر رضي الله عنه وعن أبيه - ذكر حكمهم بالنسبة لقبول عملهم، ولم يقل هم كفار، لكن حكمه بأن إنفاقهم في

(١) أخرجه مسلم في الإيمان، باب بيان الإيمان والإسلام (١/٣٦).

سبيل الله لا يقبل يستلزم الحكم بكفرهم، وإنما قال ابن عمر ذلك جواباً على ما نقل إليه من أن أناساً من البصرة يقولون: إن الله عز وجل لم يقدر فعل العبد، وإن الأمر أنف، وأنه لا يعلم بأفعال العبد حتى يعملها وتقع منه؛ فابن عمر حكم بكفرهم اللازم من قوله: (ما قبله الله منه حتى يؤمن بالقدر)، والذي لا تقبل منه النفقات هو الكافر؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾، ثم استدل ابن عمر بقول النبي ﷺ (الإيمان: أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسوله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره) فتؤمن بالجميع، فإن كفرت بواحد من هذه الستة؛ فأنت كافر بالجميع لأن الإيمان كل لا يتجزأ؛ كما قال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ نُوْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا﴾، ووجه استدلال ابن عمر: أن النبي ﷺ جعل الإيمان مبنياً على هذه الأركان الستة، وإذا فات ركن من الأركان؛ سقط البنيان، فإذا أنكر الإنسان شيئاً واحداً من هذه الأركان الستة؛ صار كافراً، وإذا كان كافراً؛ فإن الله لا يقبل منه.

قوله: (أن تؤمن بالله): الإيمان بالله عز وجل يتضمن أربعة أمور:

١- الإيمان بوجوده.

٢- وبربوبيته.

٣- وبألوهيته.

٤- وبأسمائه وصفاته.

قوله: (وملائكته): الإيمان بالملائكة يتضمن أربعة أمور:

١- الإيمان بوجودهم.

٢- الإيمان باسم من علمنا اسمه منهم.

٣- الإيمان بأفعالهم.

٤- الإيمان بصفاتهم.

قوله: (وكتبه): أي: الكتب التي أنزلها على رسله، والإيمان بالكتاب يتضمن ما يلي:

١- الإيمان بأنها حق من عند الله.

٢- تصديق أخبارها.

٣- التزام أحكامها ما لم تنسخ، وعلى هذا، فلا يلزمنا أن نلتزم بأحكام الكتب السابقة؛ لأنها كلها منسوخة

بالقرآن، إلا ما أقره القرآن. وكذلك لا يلزمنا العمل بما نسخ في القرآن؛ لأن القرآن فيه أشياء منسوخة.

٤- الإيمان بما علمناه معيناً منها، مثل: التوراة، والإنجيل، والقرآن، والزيور، وصحف إبراهيم وموسى.

٥- الإيمان بأن كل رسول أرسله الله معه كتاب؛ كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ﴾ وقال عيسى: ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِي الْكِتَابَ﴾ وقال عن يحيى كذلك.  
 قوله: (ورسله): هم الذين أوحى الله إليهم وأرسلهم إلى الخلق؛ ليلبغوا شريعة الله، والإيمان بالرسول يتضمن ما يلي:

- ١- أن نؤمن بأنهم حق صادقون مصدقون.
- ٢- أن نؤمن بما صح عنهم من الأخبار، وبما ثبت عنهم من الأحكام؛ ما لم تنسخ.
- ٣- أن نؤمن بأعيان من علمنا أعيانهم، وما لم نعلمه؛ فنؤمن بهم على سبيل الإجمال، ونعلم أنه ما من أمة إلا خلا فيها نذير، وأن الله - سبحانه وتعالى - أرسل لكل أمة رسولا تقوم به الحجة عليهم؛ كما قال تعالى: ﴿رُسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾.

قوله: (واليوم الآخر): أي: اليوم النهائي الأبدي الذي لا يوم بعده، وهو يوم القيامة الكبرى. قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: يدخل في الإيمان باليوم الآخر الإيمان بكل ما أخبر به النبي ﷺ مما يكون بعد الموت، وعلى هذا فالإيمان بفتنة القبر وعذابه ونعيمه من الإيمان باليوم الآخر، والإيمان بالنفخ في الصور وقيام الناس من قبورهم لرب العالمين حفاة عراة غرلا بهما من الإيمان باليوم الآخر، والإيمان بالموازين والصحف والصراف والحوض والشفاعة والجنة وما فيها من النعيم والنار وما فيها من العذاب الأليم؛ كل هذا من الإيمان باليوم الآخر. ومنه ما هو معلوم بالقرآن، ومنه ما هو معلوم بالسنة بالتواتر وبالأحاديث فكل ما صحت به الأخبار عن رسول الله ﷺ من أمر اليوم الآخر، فإنه يجب علينا أن نؤمن به.

قوله: (وتؤمن بالقدر خيره وشره): تقديم الكلام عن الإيمان بالقدر. والخير: ما يلائم العبد، والشر: ما لا يلائمه.

ولكن هاهنا أمر يجب معرفته، وهو أن الخيرية والشرية ليست باعتبار قضاء الله - سبحانه وتعالى -؛ فقضاء الله تعالى كله خير، حتى ما يقضيه الله من شر هو في الواقع خير، وإنما الشر في المقضي، أما قضاء الله نفسه؛ فهو خير، والدليل قول النبي ﷺ (الخير بيدك، والشر ليس إليك) ولم يقل: والشر بيدك؛ فلا ينسب الشر إلى الله أبدا، فضلا عن أن يكون بيديه، فلا ينسب الشر إلى الله لا إرادة ولا قضاء؛ فالله لا يريد بقضاء الشر شرا، لكن الشر يكون في المقضي، وقد يلائم الإنسان وقد لا يلائمه، وقد يكون طاعة وقد يكون معصية؛ فهذا في المقضي، ومع ذلك؛ فهو وإن كان شرا في محله فهو خير في محل آخر، ولا يمكن أن يكون شرا محضا، حتى المقضي وإن كان شرا ليس شرا محضا، بل هو شر من وجه خير من وجه، أو شر في محل خير في محل آخر.

ولنضرب لذلك مثلا: الجذب والفقير شر، لكنهما خير باعتبار ما ينتج عنهما، قال تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمَلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ والرجوع إلى الله عز وجل من معصيته إلى طاعته لا شك أنه خير وينتج خيرا كثيرا؛ فألم الفقير وألم الجذب وألم المرض وألم فقد الأنفس كله ينقلب إلى لذة إذا كان يعقبه الصلاح، ولهذا قال: ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ وكم من أناس طغوا بكثرة المال وزادوا ونسوا الله عز وجل واشتغلوا بالمال، فإذا أصيبوا بفقير؛ رجعوا إلى الله، وعرفوا أنهم ضالون؛ فهذا الشر صار خيرا باعتبار آخر.

وعن عبادة بن الصامت أنه قال لابنه: يا بني! إنك لن تجد طعم الإيمان حتى تعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك، وما أخطأك لم يكن ليصيبك. سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن أول ما خلق الله القلم، فقال له: اكتب. فقال: رب! وماذا أكتب؟ قال: اكتب مقادير كل شيء حتى تقوم الساعة»، يا بني! سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من مات على غير هذا فليس مني»<sup>(١)</sup>.

قوله: (لن تجد طعم الإيمان): هذا يفيد أن للإيمان طعما كما جاءت به السنة.  
قوله: (حتى تعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك): مثال ذلك: رجل خرج بأولاده للزهوة، فدب بعض الأولاد إلى بركة عميقة فسقط فغرق فمات، فلا يقول: لو أنني ما خرجت لما مات الولد. بل لا بد أن تجري الأمور على ما جرت عليه، ولا يمكن أن تتغير؛ فما أصابك لم يكن ليخطئك، فحينئذ يطمئن الإنسان ويرضى، ويعرف أنه لا مفر، وأن كل التقديرات والتخيلات التي تقع في ذهنه كلها من الشيطان؛ فلا تقل: لو أي فعلت كذا لكان كذا، فإن (لو) تفتح عمل الشيطان، وحينئذ يرضى ويسلم، وقد أشار الله إلى هذا المعنى في قوله: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾.

(١) أخرجه أبو داود في السنة، باب في القدر (٧٦/٤) وفيه حبيش بن شريح، وهو مقبول. ومن طريق آخر أخرجه الترمذي في القدر (٣٢٥/٦)، والطيالسي (٥٥٧)، وابن أبي عاصم في السنة (١٠٥)، وفيه عبد الواحد بن سليم، ومن طريق آخر أخرجه ابن أبي عاصم (١٠٤) في السنة، والأوائل (٢)، وفيه بقية بن الوليد ومعاوية بن سليم. ومن طريق آخر أخرجه أحمد (٣١٧/٥)، وابن أبي عاصم (١٠٧)، والأجري ص ١٧٧، ١٧٨، وفيه أيوب بن زياد الحمصي. وأخرجه أيضا ابن أبي عاصم في السنة (١٠٣)، وفيه ابن لهيعة. والحديث صححه الألباني؛ كما في تعليقه على المشكاة (٣٤/١).

فأنت إذا علمت هذا العلم وتيقنته بقلبك؛ ذقت حلاوة الإيمان، واطمأنت، واستقر قلبك، وعرفت أن الأمر جار على ما هو عليه لا يمكن أن يتغير.

قوله: (سمعت رسول الله ﷺ يقول: إن أول ما خلق الله القلم) القلم بالرفع، وروي بالنصب. فعلى رواية الرفع يكون المعنى: أن أول ما خلق الله هو القلم، لكن ليس من كل المخلوقات، كما سنبينه إن شاء الله تعالى. وأما على رواية النصب فيكون المعنى: أن الله أمر القلم أن يكتب عند أول خلقه له؛ يعني: حَلَقَهُ ثم أمره أن يكتب، وعلى هذا المعنى لا إشكال فيه، لكن على المعنى الأول الذي هو الرفع: هل المراد أن أول المخلوقات كلها هو القلم؟

الجواب: لا؛ لأننا لو قلنا: إن القلم أول المخلوقات، وإنه أمر بالكتابة عندما خلق، لكننا نعلم ابتداء خلق الله للأشياء، وأن أول بدء خلق الله كان قبل خلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة، ونحن نعلم أن الله عز وجل خلق أشياء قبل هذه المدة بأزمنة لا يعلمها إلا الله عز وجل؛ لأن الله عز وجل لم يزل ولا يزال خالقا، وعلى هذا؛ فيكون: إن أول ما خلق الله القلم يحتاج إلى تأويل ليُطابق ما علم بالضرورة من أن الله تعالى له مخلوقات قبل هذا الزمن.

قال أهل العلم: وتأويله إن أول ما خلق الله القلم بالنسبة لما نشاهده فقط من المخلوقات؛ كالسماوات والأرض... فهي أولية نسبية.

قوله: (فقال له: اكتب): القائل هو الله عز وجل يخاطب القلم، والقلم جماد، لكن كل جماد أمام الله مدرك وعاقل ومريد، والدليل على هذا قوله تعالى في سورة فصلت: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَيْلَ الْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ أي: لا بد أن تنقادا لأمر الله طوعا أو كرها؛ فكان الجواب: ﴿قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾، فدل قوله: (طائعين) على أن لها إرادة وأنها تطيع؛ فكل شيء أمام الله؛ فهو مدرك ومريد ويجب ويمتثل.

قوله: (سمعت رسول الله ﷺ يقول: (من مات على غير هذا): أي: الإيمان بأن الله كتب مقادير كل شيء. (فليس مني): تبرأ منه الرسول ﷺ لأنه كافر، والرسول ﷺ بريء من كل كافر.

وفي رواية لأحمد: «إن أول ما خلق الله تعالى القلم، فقال له: اكتب، فجرى في تلك الساعة بما هو كائن إلى يوم القيامة»

قوله: (وفي رواية لأحمد): هذه الرواية تفيد أمرا زائدا على ما سبق، وهو قوله: (فجرى في تلك الساعة)؛ فإنه صريح في أن القلم امتثل، والحديث الأول ليس فيه أنه كتب إلا عن طريق اللزوم.

فيستفاد منه ما سبق من كتابة الله - سبحانه وتعالى - كل شيء إلى قيام الساعة، وهذا مذكور في القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ وقال تعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا﴾ أي: من قبل أن نبرأ الخليقة، ﴿إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾.

وفي رواية لابن وهب: قال رسول الله ﷺ «فمن لم يؤمن بالقدر خيره وشره أحرقه الله بالنار».

قوله: (فمن لم يؤمن بالقدر خيره وشره أحرقه الله بالنار): في هذا دليل على أن الإيمان بالقدر واجب ولا يتم الإيمان إلا به، وأما من لم يؤمن به؛ فإنه يحرق بالنار.

وفي المسند والسنن عن ابن الدليمي قال: أتيت أبي بن كعب فقلت: في نفسي شيء من القدر؛ فحدثني بشيء لعل الله أن يذهب من قلبي. فقال: لو أنفقت مثل أحد ذهبا ما قبله الله منك حتى تؤمن بالقدر، وتعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك، وما أخطأك لم يكن ليصيبك، ولو مت على غير هذا لكنت من أهل النار. قال: فأتيت عبد الله بن مسعود وحذيفة بن اليمان وزيد بن ثابت فكلهم حدثني بمثل ذلك عن النبي ﷺ. حديث صحيح رواه الحاكم في صحيحه<sup>(١)</sup>.

قوله: (في نفسي شيء من القدر): لم يفصح عن هذا الشيء، لكن لعله لما حدثت بدعة القدر - وهي أول البدع حدوثاً - صار الناس يتشككون فيها ويتكلمون فيها، وإلا فإن الناس قبل حدوث هذه البدعة كانوا على الحق.

قوله: (فحدثني بشيء لعل الله أن يذهب من قلبي): أي: يذهب هذا الشيء، وهكذا يجب على الإنسان إذا أصيب بمرض أن يذهب إلى أطباء ذلك المرض، وأطباء مرض القلوب هم العلماء، ولا سيما مثل الصحابة رضي الله عنهم؛ كأبي بن كعب؛ فلكل داء طبيب.

(١) أخرجه أحمد (١٨٥/٥، ١٨٩)، وأبو داود في السنة، باب في القدر (٧٥/٥)، وابن ماجه في المقدمة، باب في القدر (٢٩/١)، وعبد الله ابن الإمام أحمد في السنة ص ١٠٧، وابن أبي عاصم في السنة (٢٤٥)، والطبراني في الكبير (٤٩٤٠)، وابن حبان (١٨١٧)، والخطيب في الموضح (١٨٤/١). وأخرجه من طريق آخر: الآجري في الشريعة ص ١٨٧. وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٩٨/٧): رواه الطبراني بإسنادين، ورجال هذه الطريق ثقات.

قوله: (لو أنفقت مثل أحد ذهباً ما قبله الله منك حتى تؤمن بالقدر): هذا يدل على أن من لم يؤمن بالقدر فهو كافر؛ لأن الذي لا تقبل منه النفقات هم الكفار، وسبق نحوه عن ابن عمر رضي الله عنهما.  
قوله: (ولو مات على غير هذا لكنت من أهل النار): جزم أبي بن كعب رضي الله عنه بأنه إذا مات على غير هذا كان من أهل النار؛ لأن من أنكر القدر فهو كافر، والكافر يكون من أهل النار الذين هم أهلها المخلدون فيها.

وقوله: (فأتيت عبد الله بن مسعود وحذيفة بن اليمان وزيد بن ثابت؛ فكلهم حدثني بمثل ذلك): المشار إليه الإيمان بالقدر، وأن يعلم الإنسان أن ما أصابه لم يكن ليخطئه وما أخطأه لم يكن ليصيبه.  
والحاصل أن هذا الباب يدل على وجوب الإيمان بالقضاء والقدر بمراتبه الأربع.

وقول المؤلف في المسائل: (الخامسة: ذكر أول ما خلق الله): ظاهر كلام المؤلف: الميل إلى أن القلم أول مخلوقات الله، ولكن الصحيح خلافه، وأن القلم ليس أول مخلوقات الله، لأنه ثبت في صحيح البخاري: «كان الله ولم يكن شيء قبله، وكان عرشه على الماء، ثم خلق السماوات والأرض وكتب في الذكر مقادير كل شيء»، وهذا واضح في الترتيب، ولهذا كان الصواب بلا شك أن خلق القلم بعد خلق العرش، وسبق لنا تخريج الروايتين، وأنه على الرواية التي ظاهرها أن القلم أول ما خلق تحمل على أنه أول ما خلق بالنسبة لما يتعلق بهذا العالم المشاهد؛ فهو قبل خلق السماوات والأرض، فتكون أوليته نسبية.

## باب ما جاء في المصورين

يعني: من الوعيد الشديد.

ومناسبة هذا الباب للتوحيد أن في التصوير خلقا وإبداعا يكون به المصور مشاركا لله في ذلك الخلق والإبداع.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «قال الله تعالى: ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقي، فليخلقوا ذرة، أو ليخلقوا حبة، أو ليخلقوا شعيرة» أخرجاه<sup>(١)</sup>.

قوله: (ومن أظلم): (من): اسم استفهام والمراد به النفي؛ أي: لا أحد أظلم، وإذا جاء النفي بصيغة الاستفهام كان أبلغ من النفي المحض؛ لأنه يكون مشربا معنى التحدي والتعجيز.

فإن قيل: كيف يجمع بين هذا الحديث وبين قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ﴾ وقوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ وغير ذلك من النصوص؟

فالجواب من وجهين:

الأول: أن المعنى أنها مشتركة في الأظلمية، أي أنها في مستوى واحد في كونها في قمة الظلم.

الثاني: أن الأظلمية نسبية، أي أنه لا أحد أظلم من هذا في نوع هذا العمل لا في كل شيء، فيقال مثلا: من أظلم في مشابحة أحد في صنعه ممن ذهب يخلق كخلق الله، ومن أظلم في منع حق ممن منع مساجد الله، ومن أظلم في افتراء الكذب ممن افترى على الله كذبا.

قوله: (يخلق كخلقي): فيه جواز إطلاق الخلق على غير الله، وقد سبق الكلام على هذا والجواب عنه في أول الكتاب.

قوله: (فليخلقوا ذرة): اللام للأمر، والمراد به التحدي والتعجيز. والذرة: واحدة الدر، وهي النمل الصغار، وأما من قال: بأن الذرة هي ما تتكون منها القنبلة الذرية فقد أخطأ؛ لأن النبي ﷺ يخاطب الصحابة بلغة العرب وهم لا يعرفون القنبلة الذرية، وذكر الله الذرة لأن فيها روحا، وهي من أصغر الحيوانات.

(١) البخاري التوحيد (٧٥٥٩)، ومسلم اللباس والزينة (٢١١١)، وأحمد (٢/٢٣٢، ٢/٢٥٩، ٢/٣٩١، ٢/٤٥١، ٢/٥٢٧).

قوله: (أو ليخلقوا حبة): (أو) للتنوع؛ أي: انتقل من التحدي بخلق الحيوان ذي الروح إلى خلق الحبة التي هي أصل الزرع من الشعير وغيره وليس لها روح.

قوله: (أو ليخلقوا شعيرة): هذا من باب ذكر الخاص بعد العام؛ لأن حبة الشعير أخص من الحب.

فإن قيل: يوجد رز أمريكي مصنوع.

أجيب: إن هذا المصنوع لا ينبت كالطبيعي، لأن الحبة إذا بُذرت في الأرض فلحقها الله فأنبتت، والصناعي ليس كذلك.

ويستفاد من هذا الحديث، وهو ما ساقه المؤلف من أجله: تحريم التصوير لأن المصور ذهب يخلق كخلق الله ليكون مضاهيا لله في صنعه، والتصوير له أحوال:

### الحال الأولى:

أن يصور الإنسان ما له ظل كما يقولون؛ أي: ما له جسم على هيكل إنسان أو بغير أو أسد أو ما أشبهها؛ فهذا أجمع العلماء فيما أعلم على تحريمه، فإن قلت: إذا صور الإنسان لا مضاهاة لخلق الله، ولكن صور عبثا، أو وضعه لصبي ليهده به؛ فهل يدخل في الحديث؟

فالجواب: نعم، يدخل في الحديث؛ لأنه خلق كخلق الله، ولأن المضاهاة لا يشترط فيها القصد، وهذا هو سر المسألة، فمتى حصلت المضاهاة ثبت حكمها، ولهذا لو أن إنسانا لبس لبسا يختص بالكفار ثم قال: أنا لا أقصد التشبه بهم؛ نقول: التشبه منك بهم حاصل أردته أم لم ترده.

### الحال الثانية:

أن يصور صورة ليس لها جسم بل بالتلوين والتخطيط، فهذا محرم لعموم الحديث، ويدل عليه حديث النمرقة حيث أقبل النبي ﷺ إلى بيته، فلما أراد أن يدخل رأى نمرقة فيها تصاوير، فوقف وتأثر، وعرفت الكراهة في وجهه، فقالت عائشة رضي الله عنها: ما أذنت يا رسول الله؛ فقال: «إن أصحاب هذه الصور يعذبون يوم القيامة، يقال لهم: أحيوا ما خلقتم»، فالصور بالتلوين كالصور بالتجسيم، وقوله في صحيح البخاري: «إلا رقما في ثوب» إن صحت الرواية هذه فالمراد بالاستثناء ما يحل تصويره من الأشجار ونحوها.

### الحال الثالثة:

أن تلتقط الصور التقاطا بأشعة معينة بدون أي تعديل أو تحسين من الملتقط؛ فهذا محل خلاف بين العلماء المعاصرين:

فالقول الأول: أنه تصوير، وإذا كان كذلك؛ فإن حركة هذا الفاعل للآلة يعد تصويراً؛ إذ لولا تحريكه إياها ما انطبعت هذه الصورة على هذه الورقة، ونحن متفقون على أن هذه صورة؛ فحركته تعتبر تصويراً، فيكون داخلاً في العموم.

القول الثاني: أنها ليست بتصوير؛ لأن التصوير فعل المصور، وهذا الرجل ما صورها في الحقيقة وإنما التقطها بالآلة، والتصوير من صنع الله، ويوضح ذلك لو أدخلت كتاباً في آلة التصوير ثم خرج من هذه الآلة فإن رسم الحروف من الكاتب الأول لا من المحرك، بدليل أنه قد يشغلها شخص أعمى لا يعرف الكتابة إطلاقاً أو أعمى في ظلمة، وهذا القول أقرب؛ لأن المصور بهذه الطريقة لا يعتبر مبدعاً ولا مخطئاً، ولكن يبقى النظر: هل يحل هذا الفعل أو لا؟

والجواب: إذا كان لغرض محرم صار حراماً، وإذا كان لغرض مباح صار مباحاً؛ لأن الوسائل لها أحكام المقاصد، وعلى هذا؛ فلو أن شخصاً صور إنساناً لما يسمونه بالذكري فإن ذلك محرم ولا يجوز؛ لما فيه من اقتناء الصور؛ لأنه لا شك أن هذه صورة ولا أحد ينكر ذلك.

وإذا كان لغرض مباح كما يوجد في التابعة والرخصة والجواز وما أشبهه فهذا يكون مباحاً.

#### الحال الرابعة:

أن يكون التصوير لما لا روح فيه وهذا على نوعين:

**النوع الأول:** أن يكون مما يصنعه الآدمي؛ فهذا لا بأس به بالاتفاق؛ لأنه إذا جاز الأصل جازت الصورة؛ مثل أن يصور الإنسان سيارته؛ فهذا يجوز؛ لأن صنع الأصل جائز، فالصورة التي هي فرع من باب أولى.

**النوع الثاني:** ما لا يصنعه الآدمي وإنما يخلقه الله، فهذا نوعان: نوع نام، ونوع غير نام.

**فغير النامي كالجبال والأودية والبحار والأنهار؛ فهذه لا بأس بتصويرها بالاتفاق.**

**وأما النوع الذي ينمو فاختلف في ذلك أهل العلم، فجمهور أهل العلم على جواز تصويره لما سيأتي في الأحاديث.**

وذهب بعض أهل العلم من السلف والخلف إلى منع تصويره، واستدل بأن هذا من خلق الله عز وجل والحديث عام: (ومن أظلم ممن ذهب ممن يخلق كخلقى)، ولأن الله عز وجل تحدى هؤلاء بأن يخلقوا حبة أو يخلقوا شعيرة، والحبة أو الشعيرة ليس فيها روح، لكنها نامية، وعلى هذا يكون تصويرها حراماً، لكن جمهور أهل العلم على الجواز، وأجابوا بالأحاديث التالية، وهي أن قوله: (أحيوا ما خلقتهم) وقوله: (كلف أن ينفخ فيها الروح) يدل على أن المراد تصوير ما فيه روح، وأما قوله: (أو ليخلقوا حبة أو ليخلقوا شعيرة)؛ فذكر على سبيل التحدي؛ أي: أن أولئك المصورين عاجزون حتى عن خلق ما لا روح فيه.

ولهما عن عائشة رضي الله عنها؛ أن رسول الله ﷺ قال: «أشد الناس عذابا يوم القيامة الذين يضاهئون بخلق الله»<sup>(١)</sup>.

قوله: (الذين يضاهئون): يشابهون، والذين يضاهئون بخلق الله هم المصورون، سواء كانت هذه المضاهاة جسمية أو وصفية؛ فالجسمية أن يصنع صورة بجسمها، والوصفية أن يصنع صورة ملونة؛ لأن التلوين والتخطيط باليد وصف للخلق.

هذا الحديث يدل على أن المصورين يعذبون، وأنهم أشد الناس عذابا، وأن الحكمة من ذلك مضاهاتهم خلق الله عز وجل، وليست الحكمة كما يدعيه كثير من الناس أنهم يصنعونها لتعبد من دون الله؛ فذلك شيء آخر، فمن صنع شيئا ليعبد من دون الله؛ فإنه حتى ولو لم يصور كما لو أتى بخشبة وقال: اعبدوها؛ فقد دخل في التحريم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ لأنه أعان على الإثم والعدوان.

هذا، والمضاهاة حاصلة سواء كانت بنية أو بغير نية؛ لأن العلة هي المشابهة، وليست العلة قصد المشابهة، كما قلنا فيمن لبس لباسا خاصا بالكفار؛ إنه يجرم عليه هذا اللباس، ولو قال: إنه لم يقصد المشابهة، نقول: لكن حصل التشبه، فالحكم المقرون بعللة لا يشترط فيه القصد، فمتى وجدت العلة ثبت الحكم. فيستفاد من الحديث:

١- تحريم التصوير، وأنه من الكبائر لثبوت الوعيد عليه، وأن الحكمة من تحريمه المضاهاة بخلق الله عز وجل.  
٢- وجوب احترام جانب الربوبية وأن لا يطمع أحد في أن يخلق كخلق الله عز وجل لقوله: (يضاهئون بخلق الله)، ومن أجل هذا حرم الكبر؛ لأن فيه منازعة للرب عز وجل، وحرمة التعاضم على الخلق؛ لأن فيه منازعة للرب - سبحانه وتعالى -، وكذلك هذا الذي يصنع ما يصنع فيضاهي خلق الله فيه منازعة لله عز وجل في ربوبيته في أفعاله ومخلوقاته ومصنوعاته؛ فيستفاد من هذا الحديث وجوب احترام جانب الربوبية.

وقوله: (أشد الناس عذابا): فيه إشكال؛ لأن فيهم من هو أشد من المصورين ذنبا؛ كالمشركين والكفار، فيلزم أن يكونوا أشد عذابا، وقد أجيب عن ذلك بوجوه:

الأول: أن الحديث على تقدير (من)؛ أي: من أشد الناس عذابا بدليل أنه قد جاء ما يؤيده بلفظ: (إن من أشد الناس عذابا).

(١) أخرجه البخاري في اللباس، باب ما وطئ من التصاوير (٨٢/٤)، ومسلم في اللباس، باب تحريم تصوير صورة الحيوان (١٦٦٨/٣).

الثاني: أن الأشدية لا تعني أن غيرهم لا يشاركونهم، بل يشاركونهم غيرهم، قال تعالى: ﴿أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ ولكن يشكل على هذا أن المصور فاعل كبيرة فقط؛ فكيف يسوى مع من هو خارج عن الإسلام ومستكبر؟

الثالث: أن الأشدية نسبية، يعني أن الذين يصنعون الأشياء ويدعونها أشدهم عذابا الذين يضاهئون بخلق الله، وهذا أقرب.

الرابع: أن هذا من باب الوعيد الذي يطلق لتنفير النفوس عنه، ولم أر من قال بهذا، ولو قيل بهذا لسلمنا من هذه الإيرادات، وعلى كل حال ليس لنا أن نقول إلا كما قال النبي ﷺ (أشد الناس عذابا يوم القيامة الذين يضاهئون بخلق الله).

ولهما عن ابن عباس: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «كل مصور في النار، يجعل له بكل صورة صورها نفس يعذب بها في جهنم»<sup>(١)</sup>.

قوله: (كل مصور في النار): يشمل من صور الإنسان أو الحيوان أو الأشجار أو البحار، لكن قوله: (يجعل له بكل صورة صورها نفسا) يدل على أن المراد صورة ذوات النفوس؛ أي: ما فيه روح. قوله: (يعذب بها): كيفية التعذيب ستأتي في الحديث الذي بعده: أنه يكلف أن ينفخ فيها الروح وليس بنافخ.

وقوله: (كل مصور في النار): أي: كائن في النار. وهذه الكينونة عند المعتزلة والخوارج كينونة خلود؛ لأن فاعل الكبيرة عندهم مخلد في النار، وعند المرجئة أن المراد بالمصور الكافر؛ لأن المؤمن عندهم لا يدخل النار أبدا، وعند أهل السنة والجماعة أنه مستحق لدخول النار وقد يدخلها وقد لا يدخلها، وإن دخلها لم يخلد فيها. وقوله: (بكل صورة صورها): يقتضي أنه لو صور في اليوم عشر صور ولو من نسخة واحدة؛ فإنه يجعل له في النار عشر صور يقال له: انفخ فيها الروح، وظاهر الحديث أنه يبقى في النار معذبا حتى تنتهي هذه الصور.

ولهما عنه مرفوعا: «من صور صورة في الدنيا كلف أن ينفخ فيها الروح، وليس بنافخ»<sup>(٢)</sup>.

(١) أخرجه البخاري (٥٩٦٣) ومسلم (٢١١٠).

(٢) أخرجه البخاري في اللباس، باب من لعن المصور (٨٣/٤)، ومسلم في اللباس، باب تحريم تصوير صورة الحيوان (١٦٧١/٣).

قوله: (وليس بنافخ): أي: كلف بأمر لا يتمكن منه زيادة في تعذيبه.

وقوله: (كلف أن ينفخ فيها الروح وليس بنافخ) يقتضي أن المراد التصوير تصوير الجسم كاملا وعلى هذا؛ فلو صور الرأس وحده بلا جسم أو الجسم وحده بلا رأس فالظاهر الجواز، ويؤيده ما في الحديث: (مر برأس التمثال فليقطع)، ولم يقل: فليكسر، لكن تصوير الرأس وحده عندي فيه تردد، أما بقية الجسم بلا رأس؛ فهو كالشجرة لا تردد فيه عندي.

ومسلم عن أبي الهياج؛ قال: قال لي علي: ألا أبعثك على ما بعثني عليه رسول الله ﷺ، أن لا تدع صورة إلا طمسها، ولا قبرا مشرفا إلا سويته<sup>(١)</sup>.

قوله: (عن أبي الهياج): هو من التابعين.

قوله: (صورة): نكرة في سياق النفي فتعم، وجمهور أهل العلم: أن المحرم هو صور الحيوان فقط؛ لما ورد في السنن من حديث جبريل أن النبي ﷺ قال: «فمر برأس التمثال يقطع، فيصير كهيئة الشجرة»، وسبق بيان ذلك قريبا.

قوله: (إلا طمسها): إن كانت ملونة فطمسها بوضع لون آخر يزيل معالمها، وإن كانت تمثالا فإنه يقطع رأسه، كما في حديث جبريل السابق، وإن كانت محفورة فيحفر على وجهه حتى لا تتبين معالمه؛ فالطمس يختلف، وظاهر الحديث سواء كانت تعبد من دون الله أو لا.

قوله: (ولا قبرا مشرفا): أي: عاليا.

قوله: (إلا سويته) له معنيان: الأول: أي سويته بما حوله من القبور. الثاني: جعلته حسنا على ما تقتضيه الشريعة، قال تعالى: ﴿الذي خلق فسوى﴾ أي: سوى خلقه أحسن ما يكون، وهذا أحسن، والمعنيان متقاربان. والإشراف له وجوه:

الأول: أن يكون مشرفا بكبر الأعلام التي توضع عليه، وتسمى عند الناس (نصائب).

الثاني: أن يبني عليه، وهذا من كبائر الذنوب؛ لأن النبي ﷺ لعن المتخذين عليها المساجد والسرر.

الثالث: أن تشرف بالتلوين، وذلك بأن يوضع على أعلامها ألوان مزخرفة.

الرابع: أن يرفع تراب القبر عما حوله فيكون بينا ظاهرا.

(١)

فكل شيء مشرف، أي: ظاهر على غيره متميز عن غيره يجب أن يسوى بغيره، لئلا يؤدي ذلك إلى الغلو في القبور والشرك.

ومناسبة ذكر القبر المشرف مع الصور: أن كلا منهما قد يتخذ وسيلة إلى الشرك، فإن أصل الشرك في قوم نوح أنهم صوروا صور رجال صالحين، فلما طال عليهم الأمد عبدوها، وكذلك القبور المشرفة قد يزداد فيها الغلو حتى تجعل أوثانا تعبد من دون الله.

وقوله: (أن لا تدع صورة إلا طمستها) يؤخذ منه أنه لا يجوز اقتناء الصور، وهذا محل تفصيل؛ فإن اقتناء الصور على أقسام:

القسم الأول: أن يقتنيها لتعظيم المصور؛ لكونه ذا سلطان أو جاه أو علم أو عبادة أو أبوه أو نحو ذلك؛ فهذا حرام بلا شك، ولا تدخل الملائكة بيتا فيه هذه الصورة؛ لأن تعظيم ذوي السلطة باقتناء صورهم ثلم في جانب الربوبية، وتعظيم ذوي العبادة باقتناء صورهم ثلم في جانب الألوهية.

القسم الثاني: اقتناء الصور للتمتع بالنظر إليها أو التلذذ بها؛ فهذا حرام أيضا؛ لما فيه من الفتنة المؤدية إلى سفاسف الأخلاق.

القسم الثالث: أن يقتنيها للذكرى حنانا أو تطفئا، كالذين يصورون صغار أولادهم لتذكرهم حال الكبر فهذا أيضا حرام للحق الوعيد به في قوله ﷺ (إن الملائكة لا تدخل بيتا فيه صورة).

القسم الرابع: أن يقتني الصور لا لرغبة فيها ولكن تأتي تبعا لغيرها؛ كالتى تكون في المجلات والصحف ولا يقصدها المقتني، وإنما يقصد ما في هذه المجلات والصحف من الأخبار والبحوث العلمية ونحو ذلك؛ فالظاهر أن هذا لا بأس به؛ لأن الصور فيها غير مقصودة، لكن إن أمكن طمسها بلا حرج ولا مشقة؛ فهو أولى.

القسم الخامس: أن يقتني الصور على وجه تكون فيه مهانة ملقاة في الزبل، أو مفترشة، أو موطوءة؛ فهذا لا بأس به عند جمهور العلماء.

وهل يلحق بذلك لباس ما فيه صورة لأن في ذلك امتهاننا للصورة ولا سيما إن كانت الملابس داخلية؟  
الجواب: نقول: لا يلحق بذلك، بل لباس ما فيه الصور محرم على الصغار والكبار، ولا يلحق بالمفروش ونحوه؛ لظهور الفرق بينهما، وقد صرح الفقهاء رحمهم الله بتحريم لباس ما فيه صورة، سواء كان قميصا أو سراويل أم عمامة أم غيرها.

وقد ظهر أخيرا ما يسمى بالحفائظ، وهي خرقة تلف على الفرجين للأطفال والحائض لئلا يتسرب النجس إلى الجسم أو الملابس؛ فهل تلحق بما يلبس أو بما يمتتن؟ هي إلى الثاني أقرب، لكن لما كان امتهاننا خفيا وليس كالمفترش والموطوء صار استحباب التحرز منها أولى.

القسم السادس: أن يلجأ إلى اقتنائها إلقاء، كالصور التي تكون في بطاقة إثبات الشخصية والشهادات والدرهم فلا إثم فيه لعدم إمكان التحرز منه، وقد قال الله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾.

## باب: ما جاء في كثرة الحلف

الحلف: هو اليمين والقسم، وهو تأكيد الشيء بذكر معظم بصيغة مخصوصة بأحد حروف القسم، وهي: الباء، والواو، والتاء.

ومناسبة الباب لكتاب التوحيد: أن كثرة الحلف بالله يدل على أنه ليس في قلب الحالف من تعظيم الله ما يقتضي هيبة الحلف بالله، وتعظيم الله تعالى من تمام التوحيد.

وقول الله تعالى: ﴿وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ﴾ هذه الآية ذكرها الله في سياق كفارة اليمين، وكل يمين لها ابتداء وانتهاء ووسط؛ فالابتداء الحلف، والانتهاء الكفارة، والوسط الحنث، وهو أن يفعل ما حلف على تركه، أو يترك ما حلف على فعله، فما المراد بحفظ اليمين: هل هو الابتداء أو الانتهاء أو الوسط؛ أي: هل المراد: لا تكثروا الحلف بالله؟ أو المراد: إذا حلفتكم فلا تحنثوا؛ أو المراد: إذا حلفتكم فحنثتم فلا تتركوا الكفارة؟ إليك قاعدة مهمة في هذا، وهي أن النص من قرآن أو سنة إذا كان يحتمل عدة معاني لا ينافي بعضها بعضا ولا مرجح لأحدها؛ وجب حمله على المعاني كلها.

لذا نقول: المراد كلها؛ فتشمل أحوال اليمين الثلاثة، ولهذا جاء المؤلف بها في هذا الباب. فمن معنى حفظ اليمين عدم كثرة الحلف، والمراد بعدم كثرة الحلف: ما كان معقودا ومقصودا، أما ما يجري على اللسان بلا قصد، مثل: لا والله؛ وبلى والله؛ في عرض الحديث فلا مؤاخذه فيه، لقوله تعالى: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ﴾.

وكذلك من حفظ اليمين عدم الحنث فيها، وهذا فيه تفصيل؛ لأن النبي ﷺ قال لعبد الرحمن بن سمرة: (إذا حلفت على يمين، فرأيت غيرها خيرا منها؛ فكفر عن يمينك، واثت الذي هو خير)، فحفظ اليمين في الحنث أن لا يحنث إلا إذا كان خيرا، وإلا فالأحسن حفظ اليمين وعدم الحنث. ومن حفظ اليمين إخراج الكفارة بعد الحنث، والكفارة واجبة فورا؛ لأن الأصل في الواجبات هو الفورية، وهو قيام بما تقتضيه اليمين.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الحلف منفقة للسلعة، محقة للكسب»  
أخرجاه<sup>(١)</sup>.

قوله: (الحلف): المراد به الحلف الكاذب؛ كما بينته رواية أحمد: «اليمين الكاذبة»، أما الصادقة فليس فيها عقوبة، لكن لا يكثر منها كما سبق.

قوله: (منفقة للسلعة): أي: ترويح للسلعة.

قوله: (محقة للكسب): أي: متلفة له، والإتلاف يشمل الإتلاف الحسي بأن يسلط الله على ماله شيئاً يتلفه من حريق أو نهب أو مرض يلحق صاحب المال فيتلفه في العلاج، والإتلاف المعنوي بأن ينزع الله البركة من ماله فلا ينتفع به لا دينا ولا دنيا.

وعن سلمان أن رسول الله ﷺ قال: «ثلاثة لا يكلمهم الله ولا يزكيهم وهم عذاب أليم: أشيمط زان، وعائل مستكبر، ورجل جعل الله بضاعته، لا يشتري إلا بيمينه، ولا يبيع إلا بيمينه» رواه الطبراني بسند صحيح<sup>(٢)</sup>.

قوله: (لا يكلمهم الله): أي لا يكلمهم كلام الرضا، أما كلام الغضب والتوبيخ فإن هذا الحديث لا يدل على نفيه.

وقوله: (ولا يزكيهم): التزكية بمعنى التعديل؛ فيوم القيامة لا يعدلهم الله ولا يشهد لهم بالإيمان.

وقوله: (أشيمط): تصغير أشمط، والأشمط هو الذي اختلط سواد شعره ببياضه لكبر سنه، وكبير السن قد ضعفت شهوته، وبلغ أشده واستوى وغلبت عليه الحكمة، ولكنه زنا مما يدل على خبث في إرادته، وسوء نية، وضعف إيمان بالله.

قوله: (عائل مستكبر): العائل الفقير، قال تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى﴾.

والاستكبار: الترفع والتعاضم، وهو نوعان:

• استكبار عن الحق بأن يرده أو يترفع عن القيام به.

(١) أخرجه البخاري في البيوع، باب يحق الله الربا (٤٨/٢)، ومسلم في المساقاة، باب النهي عن الحلف في البيع (١٢٢٨/٣).

(٢) أخرجه الطبراني في الكبير (٦١١١)، والصغير (٢١/٢)، والأوسط؛ كما في المجمع. وقال المنذري في الترغيب (٥٨٧/٢)، والهيثمي في المجمع

(٧٨/٤): رواه محتج بهم في الصحيح.

• واستكبار على الخلق باحتقارهم واستذلالهم، كما قال النبي ﷺ «الكبر بטר الحق وغمط الناس». فالفقيه داعي الاستكبار عنده ضعيف، فيكون استكباره دليلاً على ضعف إيمانه وخبث طويته، ولذلك كانت عقوبته أشد.

قوله: (ورجل جعل الله بضاعته؛ لا يشتري إلا بيمينه، ولا يبيع إلا بيمينه): أي: جعل الحلف بالله بضاعة له، فكلما اشترى حلف، وكلما باع حلف طلباً للكسب، واستحق هذه العقوبة لأنه إن كان صادقاً؛ فكثرة إيمانه تشعر باستخفافه واستهانتة باليمين ومخالفته قوله تعالى: ﴿وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ﴾، وإن كان كاذباً جمع بين أربعة أمور محذورة:

١- استهانتة باليمين ومخالفته أمر الله بحفظ اليمين.

٢- كذبه.

٣- أكله المال بالباطل.

٤- أن يمينه يمين غموس، وقد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «من حلف على يمين هو فيها فاجر يقطع بها مال امرئ مسلم لقي الله وهو عليه غضبان». ومناسبة الحديث للباب أن من جعل الله بضاعته فإن الغالب أنه يكثر الحلف بالله عز وجل.

وفي الصحيح عن عمران بن حصين رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «خير أمتي قرني ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم» قال عمران: فلا أدري أذكر بعد قرنه مرتين أو ثلاثاً؟ «ثم إن بعدكم قوم يشهدون ولا يستشهدون، ويخونون ولا يؤتمنون، وينذرون ولا يوفون، ويظهر فيهم السمن»<sup>(١)</sup>.

قوله: (خير أمتي قرني): وفي حديث ابن مسعود الآتي: (خير الناس قرني)، وهذا هو المراد؛ إذ المراد بالخيرية هنا الخيرية المضافة إلى الناس عموماً وليس للأمة فقط، ولهذا ثبت عنه ﷺ أنه قال: «بعثت من خير قرون بني آدم»، وقد يقال: إن معنى اللفظين واحد، فإن هذه الأمة خير الأمم، فإذا كان الصحابة خير قرونها لزم أن يكونوا خير الناس.

والقرن مأخوذ من الاقتران، والمراد: الطائفة المقترنون بشيء من الأشياء، كالملة أو السن أو ما أشبه ذلك.

(١) أخرجه البخاري في الشهادات، باب لا يشهد على شهادة جور (٢/٢٥١)، ومسلم في فضائل الصحابة، باب فضل الصحابة ثم الذين يلونهم (٤/١٩٦٢).

فقوله: (خير أمتي قرني): أي خير أمتي الصحابة، سواء بلغوا مئة سنة أم لا، والمعروف أن آخر من مات من الصحابة مات سنة مئة وعشرة أو مئة وعشرين، أما التابعون فإن آخرهم مات سنة مئة وثمانين، فيكون بينهم وبين الصحابة ستون سنة، وأما تابعو التابعين فإن آخرهم مات سنة مئتين وعشرين، وهذا منتهى القرن الثالث.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: إن القرن معتبر بمعظم الناس، فإذا كان معظم الناس الصحابة؛ فالقرن قرنهم، وإذا كان معظم الناس التابعين؛ فالقرن قرنهم، وهكذا.

وهذه الأفضلية أفضلية من حيث العموم والجنس، لا من حيث الأفراد؛ فلا يعني أنه لا يوجد في تابعي التابعين من هو أفضل من التابعين، أو لا يوجد في التابعين من هو أعلم من بعض الصحابة، أما فضل الصحبة؛ فلا يناله أحد غير الصحابة ولا أحد يسبقهم فيه، وأما العلم والعبادة؛ فقد يكون فيمن بعد الصحابة من هو أكثر من بعضهم علما وعبادة.

قوله: (أمتي): المراد أمة الإجابة؛ لأن أمة الدعوة إذا لم يؤمنوا فليس فيهم خير.

قوله: (فلا أدري أذكر بعد قرنه مرتين أو ثلاثا): وإذا كان عمران لا يدري فالأصل أنه ذكر مرتين، فتكون القرون المفضلة ثلاثة، وهذا هو المشهور.

قوله: (ثم إن بعدكم قوم): في رواية البخاري: (ثم إن بعدكم قوما) بالنصب، وهذا لا إشكال فيه، لكن في هذه الرواية برفع (قوم) فيه إشكال؛ لأن (قوم) اسم إن، وحقها النصب، فالظاهر أن اسم (إن) ضمير الشأن محذوف، إلحاقا لها بإن المخففة، وعليه يكون (بعدكم): خبر مقدم، و(قوم): مبتدأ مؤخر، والجملة خبر (إن).

قوله: (يشهدون ولا يستشهدون): اختلف العلماء في معنى ذلك: فقيل: (لا يستشهدون)؛ أي: لا يطلب منهم تحمل الشهادة، فيكون المراد الذين يشهدون بغير علم فهم شهداء زور. وقيل: لا يطلب منهم أداء الشهادة؛ فيكون المراد أداء الشهادة قبل أن يدعى لأدائها فيكون ذلك دليلا على تسرعهم في أداء الشهادة وعدم اهتمامهم بها.

ولكن هذا القول يشكل عليه حديث زيد بن خالد الذي رواه مسلم أن النبي ﷺ قال: «ألا أخبركم بخير الشهداء: الذي يأتي بالشهادة قبل أن يسألها»، فهذا ترغيب في أداء الشهادة قبل أن يسألها، فجمع بعض العلماء بينهما بأن المراد بحديث زيد: من يشهد بحق لا يعلمه المشهود له.

وجمع بعض العلماء بأن المراد بحديث زيد: من يشهد بشيء من حقوق الله تعالى؛ لأن حقوق الله تعالى ليس لها مطالب. وجمع بعضهم: بأن المراد بحديث زيد بن خالد أنه كناية عن السرعة بأداء الشهادة، فكأنه لشدة إسرعه يؤديها قبل أن يسألها.

قوله: (يخونون ولا يؤتمنون): هذا هو الوصف الثاني لهم: أنهم أهل خيانة وليسوا أهل أمانة، فلا يأتمنهم الناس، فالخيانة طبيعة لهم. والخيانة: الغدر والخداع في موضع الائتمان، وهي من الصفات المذمومة بكل حال، بخلاف المكر والخديعة فهي مذمومة في حال دون حال، فقد تكون محمودة إذا كانت في مقابلة عدو ماكر خادع لدلالاتها على القوة والإيقاع بالعدو من حيث لا يشعر، ولهذا يوصف الله - سبحانه وتعالى - بالمكر والخداع في الحال التي يكون فيها مدحا، قال تعالى: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ وقال تعالى ﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ﴾، وأما الخيانة فلا يوصف الله بها أبدا؛ لأنها ذم بكل حال، ولهذا كان قول العامة: خان الله من خان، حراما؛ لأنهم وصفوا الله بما لا يصح أن يوصف به، قال الله تعالى: ﴿وَإِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ﴾ ولم يقل: فخانهم.

قوله: (وينذرون ولا يوفون): النذر: إلزام الإنسان نفسه بالشيء، وقد يكون للآدمي، وهذا بمعنى العهد الذي يوقعه الإنسان بينه وبين غيره، وقد يكون لله، كنذر العباداة يجب الوفاء به، فهم ينذرون لله ولا يوفون له، ويعاهدون المخلوق ولا يوفون له، وهذا من صفات النفاق.

قوله: (ويظهر فيهم السمن): السمن: كثرة الشحم واللحم، وهذا مشكل؛ لأن ظهور السمن ليس باختيار الإنسان؛ فكيف يكون صفة ذم؟!

قال أهل العلم: المراد أن هؤلاء يعتنون بأسباب السمن من المطاعم والمشارب والتترف، فيكون همهم إصلاح أبدانهم وتسمينها. أما السمن الذي لا اختيار للإنسان فيه؛ فلا يذم عليه، كما لا يذم الإنسان على كونه طويلا أو قصيرا أو أسود أو أبيض.

وفيه عن ابن مسعود أن النبي ﷺ قال: «خير الناس قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، ثم يجيء قوم تسبق شهادة أحدهم يمينه، ويمينه شهادته». قال إبراهيم: كانوا يضربوننا على الشهادة والعهد ونحن صغار<sup>(١)</sup>.

قوله: (خير الناس): دليل على أن قرنه خير الناس؛ فصحابته ﷺ أفضل من الحواريين الذين هم أنصار عيسى، وأفضل من النقباء السبعين الذين اختارهم موسى ﷺ.

قوله: (ثم يجيء قوم): أي: بعد القرون الثلاثة.

(١) أخرجه البخاري في الشهادات، باب لا يشهد على جور (٢/٢٥١)، وأيضاً أخرجه في فضائل الصحابة (٣٦٥١)، وفي الرقاق (٦٤٢٩)، وفي الأيمان (٦٦٥٨)، ومسلم في فضائل الصحابة، باب فضل الصحابة ثم الذين يلونهم (٤/١٦٩٢، ١٦٩٣).

قوله: (تسبق شهادة أحدهم يمينه، ويمينه شهادته): يحتمل ذلك وجهين:  
الأول: أنه لقلة الثقة بهم لا يشهدون إلا بيمين؛ فتارة تسبق الشهادة، وتارة تسبق اليمين.  
الثاني: أنه كناية عن كون هؤلاء لا يبالون بالشهادة ولا باليمين؛ حتى تكون الشهادة واليمين في حقهم  
كأنهما متساقتان.

والمعنيان لا يتنافيان؛ فيحمل عليهما الحديث جميعا.

قوله: (وقال إبراهيم): هو إبراهيم النخعي، من التابعين ومن فقهاءهم.

قوله: (كانوا يضربوننا على الشهادة والعهد ونحن صغار): الظاهر أن الذي يضربهم ولي أمرهم.

وقوله: (على الشهادة): أي: يضربوننا عليها إن شهدنا زورا، أو إذا شهدنا ولم نقم بأدائها، ويحتمل أن المراد

بذلك ضربهم على المبادرة بالشهادة والعهد، وبه فسر ابن عبد البر.

وقوله: (والعهد): أي: إذا تعاهدوا يضربونهم على الوفاء بالعهد.

قوله: (ونحن صغار): الجملة حالية، وإنما يضربونهم وهم صغار للتأديب.

وقول المؤلف في المسائل: (الخامسة: ذم الذين يخلفون ولا يستحلفون) لقوله ﷺ (ورجل جعل الله بضاعته،

لا يشتري إلا بيمينه...)، ولكن هذا ليس على إطلاقه، بل النبي ﷺ حلف ولم يستحلف في مواضع عديدة، بل

أمره الله - سبحانه - أن يخلف في ثلاثة مواضع من القرآن بدون أن يستحلف، وعليه فإن الحلف إذا دعت

الحاجة إليه أو اقتضته المصلحة فإنه جائز، بل قد يكون مندوبا إليه، كحلف النبي ﷺ في قصة المخزومية حيث

قال: «وأيم الله، لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها» فقد وقع هذا القسم موقعا عظيما من هؤلاء

القوم الذين أهمهم شأن المخزومية وممن يأتي بعدهم.

## باب ما جاء في ذمة الله وذمة نبيه ﷺ

الذمة: العهد، وسمي بذلك لأنه يلتزم به كما يلتزم صاحب الدين بدينه في ذمته.  
والمراد بالعهد هنا: ما يكون بين المتعاقدين في العهود كما كان بين النبي ﷺ وأهل مكة في صلح الحديبية.

وقوله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾ الآية.

قوله تعالى: (وأوفوا): الإيفاء إعطاء الشيء تاما.  
قوله: ﴿إِذَا عَاهَدْتُمْ﴾ فائدتها التوكيد والتنبيه على وجوب الوفاء؛ أي: إذا صدر منكم العهد؛ فإنه لا يليق بكم أن تدعوا الوفاء، ثم أكد ذلك بقوله: ﴿وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾ نقض الشيء هو حل إحكامه، وشبه العهد بالعقدة، لأنه عقد بين المتعاهدين.  
قوله: ﴿بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾ توكيد الشيء بمعنى تثبيته، والتوكيد مصدر وكّد، يقال: وكّد الأمر وأكّده تأكيدا وتوكيدا، والواو أفصح من الهمزة.  
قوله: ﴿وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا﴾ الجملة حالية فائدتها قوة التوبيخ على نقض العهد واليمين، ووجه جعل الله كفيلا: أن الإنسان إذا عاهد غيره قال: أعاهدك بالله، أي أنه جعل الله عليه كفيلا.  
قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ ختم الله الآية بالعلم تهديدا عن نقض العهد؛ لأن الإنسان إذا علم بأن الله يعلم كل ما يفعل؛ فإنه لا ينقض العهد.  
ومناسبة الآية للترجمة واضحة جدا؛ لأن الله قال: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ﴾ وقال: ﴿وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا﴾، والعهد: الذمة.  
ومناسبة الباب للتوحيد أن عدم الوفاء بعهد الله تنقّص له، وهذا محل بالتوحيد.

وعن بريدة قال: كان رسول الله ﷺ إذا أمر أميرا على جيش أو سرية أوصاه بتقوى الله وبمن معه من المسلمين خيرا، فقال: «اغزوا باسم الله، في سبيل الله، قاتلوا من كفر بالله. اغزوا ولا تغلوا، ولا تغدروا، ولا تمثلوا، ولا تقتلوا وليدا. وإذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلى ثلاث خصال (أو: خلال)، فأيتهن ما

أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم: ثم ادعهم إلى الإسلام، فإن أجابوك فأقبل منهم، ثم ادعهم إلى التحول من دارهم إلى دار المهاجرين، وأخبرهم أنهم إن فعلوا ذلك فلهم ما للمهاجرين وعليهم ما على المهاجرين، فإن أبوا أن يتحولوا منها فأخبرهم أنهم يكونون كأعراب المسلمين، يجري عليهم حكم الله تعالى ولا يكون لهم في الغنيمة والفية شيء إلا أن يجاهدوا مع المسلمين، فإن هم أبوا فأسألمهم الجزية، فإن هم أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم، فإن هم أبوا فاستعن بالله وقاتلهم.

وإذا حاصرت أهل حصن فأرادوك أن تجعل لهم ذمة الله وذمة نبيه فلا تجعل لهم ذمة الله وذمة نبيه، ولكن اجعل لهم ذمتك وذمة أصحابك؛ فإنكم أن تخفروا ذممكم وذمة أصحابكم أهون من أن تخفروا ذمة الله وذمة نبيه، وإذا حاصرت أهل حصن فأرادوك أن تنزلهم على حكم الله فلا تنزلهم على حكم الله، ولكن أنزلهم على حكمك؛ فإنك لا تدري أتصيب فيهم حكم الله أم لا» رواه مسلم<sup>(١)</sup>.

قوله: (إذا أمر): أي: جعله أميرا، والأمير في صدر الإسلام يتولى التنفيذ والحكم والفتوى والإمامة.

قوله: (أو سرية): (أو) للتنويع؛ فإن الجيش ما زاد على أربعمائة رجل والسرية ما دون ذلك.

قوله: (أوصاه): الوصية: العهد بالشيء إلى غيره على وجه الاهتمام به.

قوله: (بتقوى الله): التقوى: هي امتثال أوامر الله واجتناب نواهيه على علم وبصيرة.

قوله: (وبمن معه من المسلمين خيرا): أي: أوصاه أن يعمل بمن معه من المسلمين خيرا في أمور الدنيا والآخرة؛

فيسلك بهم الأسهل، ويطلب لهم الأخصب، ويمنع عنهم الظلم، ويأمرهم بالمعروف، وينهاهم عن المنكر، وغير ذلك مما فيه خيرهم.

ويستفاد من هذا الحديث: أنه يجب على من تولى أمرا من أمور المسلمين أن يسلك بهم الأخير، بخلاف

عمل الإنسان بنفسه؛ فإنه لا يلزم إلا بالواجب.

قوله: (اغزوا باسم الله): يحتمل أنه أراد أن يعلمهم أن يكونوا دائما مستعينين بالله، ويحتمل أنه أراد أن يفتح

الغزو باسم الله. والأول أظهر، والثاني أيضا محتمل، لأن بعث الجيوش من الأمور ذات البال، وكل أمر لا يبدأ فيه باسم الله فهو أبت.

قوله: (في سبيل الله): تشمل النية والعمل؛ فالنية بأن يقاتل لتكون كلمة الله هي العليا، لا لحمية أو شجاعة

أو ليرى مكانه أو لطلب دنيا. فإن قاتل لأجل الوطن: فمن قاتل لأنه وطن إسلامي تحب حمايته وحماية المسلمين فيه فهذه نية إسلامية صحيحة، وإن كان للقومية أو الوطنية فقط فهو حمية وليس في سبيل الله.

(١) أخرجه مسلم في الجهاد، باب تأمير الإمام الأمراء (١٣٥٦/٣).

والعمل: أن يكون الغزو في إطار دينه وشريعته، فيكون حسبما رسمه الشارع.

قوله: (قاتلوا من كفر بالله): أي: لكفره، فنحن لا نقاتل الناس عصبية أو قومية أو وطنية، بل نقاتلهم لكفرهم؛ لمصلحتهم وهي إنقاذهم من النار.

قوله: (اغزوا): تأكيد.

قوله: (ولا تغلوا): الغلول: أن يكتم شيئاً من الغنيمة فيختص به، وهو من كبائر الذنوب، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾.

قوله: (ولا تغدروا): الغدر الخيانة.

قوله: (ولا تمثلوا): التمثيل: التشويه بقطع بعض الأعضاء كالأنف واللسان وغيرها.

واختلف العلماء فيما لو كانوا يفعلون بنا ذلك.

ف قيل: لا يمثل بهم للعموم، ولأننا إذا مثلنا بواحد منهم فقد يكون لا يرضى بما فعل قومه.

وقيل: يمثل بهم كما مثلوا بنا؛ لأن هذا العموم مقابل بعموم آخر، وهو قوله تعالى: ﴿فَمَنْ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ﴾، وإذا لم يمثل بهم مع أنهم يمثلون بنا فقد يفسر هذا بأنه ضعف، وإذا مثلنا بهم في هذه الحال؛ عرفوا أن عندنا قوة ولم يعودوا للتمثيل بنا ثانية.

والظاهر القول الثاني.

فإن قيل: قد يمثل بواحد لم يمثل بنا ولا يرضى بالتمثيل؟ فيقال: إن الأمة الواحدة فعل الواحد منها كفعل الجميع، ولهذا كان الله عز وجل يخاطب اليهود في عهد الرسول ﷺ بأمر جرت في عهد موسى، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا﴾ وقال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ﴾.

قوله: (ولا تقتلوا وليداً): أي: لا تقتلوا صغيراً؛ لأنه لا يقاتل، ولأنه ربما يسلم. وورد في أحاديث أخرى: أنه لا يقتل راهب ولا شيخ فان ولا امرأة، إلا أن يقاتلوا أو يجرضوا على القتال، أو يكون لهم رأي في الحرب، كما قتل دريد بن الصمة في غزوة ثقيف مع كبره وعماه.

واستدل بهذا الحديث أن القتال ليس لأجل أن يسلموا، ولكنه لحماية الإسلام، بدليل أننا لا نقتل هؤلاء، ولو كان من أجل ذلك لقتلناهم إذا لم يسلموا.

قوله: (وإذا لقيت عدوك من المشركين): يدخل فيه كل الكفار، حتى اليهود والنصارى.

قوله: (خصال أو خلال): بمعنى واحد، ف (أو) للشك.

قوله: (ثم ادعهم): (ثم) زائدة؛ كما في رواية أبي داود، ولأنه ليس لها معنى<sup>(١)</sup>.

قوله: (ثم ادعهم إلى التحول من دارهم إلى دار المهاجرين): ليتعلموا دين الله؛ لأن الإنسان في باديته بعيد عن العلم؛ كما قال تعالى: ﴿الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ﴾.

قوله: (فإن لهم ما للمهاجرين وعليهم ما على المهاجرين): لهم ما للمهاجرين من الغنيمة والفبيء، وعليهم ما عليهم من الجهاد والنصرة.

قوله: (ولا يكون لهم في الغنيمة والفبيء شيء إلا أن يجاهدوا مع المسلمين): يعني: إذا لم يتحولوا إلى دار المهاجرين؛ فليس لهم في الغنيمة والفبيء شيء. والغنيمة: ما أخذ من أموال الكفار بقتال أو ما ألحق به. والفبيء: ما يصرف لبيت المال؛ كخمس خمس الغنيمة، والجزية، والخراج، وغيرها.

وقوله: (إلا أن يجاهدوا مع المسلمين): يفيد أنهم إن جاهدوا مع المسلمين استحقوا من الغنيمة ما يستحقه غيرهم. وأما الفبيء؛ فاختلف أهل العلم في ذلك: فعند الإمام أحمد: لهم حق في الفبيء مطلقاً، ولهم حق في الغنيمة إن جاهدوا. وقيل: لا حق لهم في الفبيء، إنما الفبيء يكون لأهل البلدان بدليل الاستثناء، فهو عائد على الغنيمة.

قوله: (فاسألهم الجزية): (الجزية) فعلة من جزى يجزي، وهي عبارة عن مال مدفوع من غير المسلم عوضاً عن حمايته وإقامته بدارنا.

قوله: (فاستعن بالله وقاتلهم): بدأ النبي ﷺ بطلب العون من الله لأنه إذا لم يعنك في جهاد أعدائه فإنك مخدول.

قوله: (وإذا حاصرت أهل حصن): الحصر: التضييق، أي: طوقتهم وضيقت عليهم بحيث لا يخرجون من حصنهم ولا يدخل عليهم أحد. والحصن: كل ما يتحصن به من قصور أو أحواش وغيرها.

قوله: (فلا تجعل لهم ذمة الله وذمة نبيه) علل النبي ﷺ ذلك بقوله: (فإنكم أن تخفروا ذمكم وذمة أصحابكم أهون من أن تخفروا ذمة الله وذمة نبيه): لأن الغدر بذمة الله وذمة نبيه أعظم

وقوله: (أن تخفروا): بضم التاء وكسر الفاء: من أخفر الرباعي؛ أي: تغدروا.

قوله: (أنزلهم على حكمك) ولم يقل: وحكم أصحابك كما قال في الذمة؛ لأن الحكم في الجيش أو السرية للأمر، وأما الذمة والعهد فهي من الجميع.

(١) قال النووي رحمه الله: «هكذا هو في جميع نسخ صحيح مسلم «ثم ادعهم» قال القاضي عياض رضي الله تعالى عنه: صواب الرواية: ادعهم. بإسقاط (ثم)، وقد جاء بإسقاطها على الصواب في كتاب أبي عبيد وفي سنن أبي داود وغيرها؛ لأنه تفسير للخصال الثلاث وليست غيرها. وقال المازري: ليست (ثم) هنا زائدة، بل دخلت لاستفتاح الكلام».

وقوله: (لا تدري): أي: لا تعلم (أتصيب فيهم حكم الله أم لا)، وذلك لأن الإنسان قد يخطئ حكم الله تعالى.

وهذه المسألة اختلف فيها العلماء:

ف قيل: إن أهل الحصن لا ينزلون على حكم الله؛ لأن قائد الجيش وإن اجتهد؛ فإنه لا يدري أيصيب فيهم حكم الله أم لا؟ فليس كل مجتهد مصيبا.

وقيل: بل ينزلون على حكم الله، والنهي عن ذلك خاص في عهد النبي ﷺ فقط؛ لأنه العهد الذي يمكن أن يتغير فيه الحكم؛ إذ من الجائز بعد مضي هذا الجيش أن يغير الله هذا الحكم، وإذا كان كذلك فلا تنزلهم على حكم الله؛ لأنك لا تدري أتصيب الحكم الجديد أو لا تصيبه؟ أما بعد انقطاع الوحي فينزلون على حكم الله، واجتهادنا في إصابة حكم الله يعتبر صوابا إذا لم يتبين خطؤه؛ لأن الله لا يكلف نفسا إلا وسعها، وقد قال تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾، وهذا أصح؛ لأنه يحكم للمجتهد بإصابته الحكم ظاهرا شرعا وإن كان قد يخطئ.

## باب ما جاء في الإقسام على الله

الإقسام: مصدر أقسم يقسم إذا حلف.

والقسم على الله ينقسم إلى أقسام:

الأول: أن يقسم بما أخبر الله به ورسوله من نفي أو إثبات؛ فهذا لا بأس به، وهذا دليل على يقينه بما أخبر

الله به ورسوله، مثل: والله ليشفعن الله نبيه في الخلق يوم القيامة، ومثل: والله لا يغفر الله لمن أشرك به.

الثاني: أن يقسم على ربه لقوة رجائه وحسن الظن بربه؛ فهذا جائز لإقرار النبي ﷺ ذلك في قصة الربيع

بنت النضر عمة أنس بن مالك رضي الله عنهما، حينما كسرت ثنية جارية من الأنصار، فاحتكموا إلى النبي

ﷺ، فأمر النبي ﷺ بالقصاص، فعرضوا عليهم الصلح فأبوا، فقام أنس بن النضر فقال: أتكسر ثنية الربيع؟ والله

يا رسول الله لا تكسر ثنية الربيع! وهو لا يريد به رد الحكم الشرعي. فقال الرسول ﷺ: «يا أنس! كتاب الله

القصاص» قال: والله لا تكسر ثنية الربيع! فألقى الله في قلوب القوم العفو فعفوا، فقال النبي ﷺ: «إن من عباد

الله من لو أقسم على الله لأبره»، ويدل أيضا لهذا القسم قوله ﷺ «رب أشعث مدفوع بالأبواب لو أقسم على

الله لأبره».

القسم الثالث: أن يكون الحامل له هو الإعجاب بالنفس، وتحجر فضل الله عز وجل، وسوء الظن به تعالى؛

فهذا محرم، وهو وشيك بأن يحبط الله عمل هذا المقسم، وهذا القسم هو الذي ساق المؤلف الحديث من أجله.

مناسبة الترجمة لكتاب التوحيد أن من تألَّى على الله عز وجل فقد أساء الأدب معه وتحجر فضله وأساء

الظن به، وكل هذا ينافي كمال التوحيد، وربما ينافي أصل التوحيد.

عن جندب بن عبد الله رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «قال رجل: والله لا يغفر الله لفلان!

فقال الله عز وجل: من ذا الذي يتألَّى علي أن لا أغفر لفلان؟! إني قد غفرت له وأحببت عملك» رواه

مسلم<sup>(١)</sup>.

قوله: (قال رجل) يحتمل أن يكون الرجل الذي ذكر في حديث أبي هريرة الآتي أو غيره.

(١) أخرجه مسلم في البر والصلة، باب النهي عن تقنيط الإنسان من رحمة الله (٤/٢٠٢٣).

قوله: (والله لا يغفر الله لفلان): هذا يدل على اليأس من روح الله، واحتقار عباد الله عند هذا القائل، وإعجابه بنفسه.

قوله: (من ذا الذي يتألى علي أن لا أغفر لفلان): (يتألى): يحلف؛ أي: من ذا الذي يتحجر فضلي ونعمتي أن لا أغفر لمن أساء من عبادي، والاستفهام للإنكار. والحديث ورد مبسوطا في حديث أبي هريرة أن هذا الرجل كان عابدا وله صاحب مسرف على نفسه، وكان يراه على المعصية، فيقول: أقصر. فوجده يوما على ذنب، فقال: أقصر. فقال: خلني وربّي. أبعثت علي رقيبا؟ فقال: والله لا يغفر الله لك.

وهذا يدل على أن المسرف عنده حسن ظن بالله ورجاء له، ولعله كان يفعل الذنب ويتوب فيما بينه وبين ربه؛ لأنه قال: خلني وربّي، والإنسان إذا فعل الذنب ثم تاب توبة نصوحا ثم غلبته عليه نفسه مرة أخرى؛ فإن توبته الأولى صحيحة؛ لأن من شروط التوبة أن يعزم أن لا يعود، وليس من شروط التوبة أن لا يعود.

قوله: (وأحببت عملك): ظاهر الإضافة في الحديث: أن الله أحبط عمله كله؛ لأن المفرد المضاف الأصل فيه أن يكون عاما. ووجه إحباط الله عمله على سبيل العموم -حسب فهمنا والعلم عند الله-: أن هذا الرجل كان يتعبد لله وفي نفسه إعجاب بعمله، وإدلال على الله كأنه يمن على الله بعمله، وحينئذ يفتقد ركنا عظيما من أركان العبادة؛ لأن العبادة مبنية على الذل والخضوع.

ويحتمل معنى (أحببت عملك) أي: عملك الذي كنت تفتخر به على هذا الرجل، وهذا أهون؛ لأن العمل إذا حصلت فيه إساءة بطل وحده دون غيره، لكن ظاهر حديث أبي هريرة يمنع هذا الاحتمال، حيث جاء فيه أن الله تعالى قال: اذهبوا به إلى النار.

وفي حديث أبي هريرة أن القائل رجل عابد. قال أبو هريرة: تكلم بكلمة أوبقت دنياه وآخرته<sup>(١)</sup>.

قوله: (تكلم بكلمة): يعني قوله: والله لا يغفر الله لك.

قوله: (أوبقت): أي: أهلكت، ومنه حديث «اجتنبوا السبع الموبقات» أي: المهلكات.

قوله: (دنياه وآخرته): لأن من حبط عمله؛ فقد خسر الدنيا والآخرة.

(١) أخرجه ابن المبارك في الزهد (٩٠٠)، وأحمد (٣٢٣/٢)، وأبو داود في الأدب، باب في النهي عن البغي (٢٠٧/٥)، والبخاري في شرح السنة (٣٨٤/١٤، ٣٨٥)، وابن أبي الدنيا في حسن الظن بالله (٤٥)، وفي شرح الطحاوية (٤٣٦/٢): وإسناده حسن.

## باب لا يستشفع بالله على خلقه

استشفع بالشيء: جعله شافعاً له، والشفاعة في الأصل: جعل الفرد شفعا، وهي: التوسط للغير بجلب منفعة له أو دفع مضرة عنه.

مناسبة الباب لكتاب التوحيد:

أن الاستشفاع بالله على خلقه تنقص لله عز وجل؛ لأنه جعل مرتبة الله أدنى من مرتبة المشفوع إليه؛ إذ لو كان أعلى مرتبة ما احتاج أن يشفع عنده، بل يأمره أمراً، والله عز وجل لا يشفع لأحد من خلقه إلى أحد؛ لأنه أجل وأعظم من أن يكون شافعاً.

عن جبير بن مطعم رضي الله عنه قال: جاء أعرابي إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله! نهكت الأنفس، وجاع العيال، وهلك الأموال؛ فاستسق لنا ربك؛ فإننا نستشفع بالله عليك، وبك على الله. فقال النبي ﷺ: «سبحان الله! سبحان الله!» فما زال يسبح حتى عرف ذلك في وجوه أصحابه. ثم قال: «ويحك! أتدري ما الله؟ إن شأن الله أعظم من ذلك، إنه لا يستشفع بالله على أحد من خلقه» وذكر الحديث رواه أبو داود<sup>(١)</sup>.

قوله: (أعرابي): واحد الأعراب، وهم سكان البادية، والغالب على الأعراب الجفاء؛ لأنهم أحرى أن لا يعلموا حدود ما أنزل الله.

قوله: (نهكت الأنفس، وجاع العيال، وهلك الأموال) (نهكت): أي: ضعفت. و(جاء العيال، وهلك الأموال) أي: من قلة المطر والخصب.

(١) أخرجه البخاري في التاريخ الكبير (٢/٢٢٤)، وأبو داود في السنة، باب في الجهمية (٥/٩٤)، وعثمان الدارمي في الرد على الجهمية ص ٢٤ والنقض على المريسي ص ٨٩، ١٠٥، وابن خزيمة في التوحيد ص ١٠٣، وابن أبي عاصم في السنة (٥٧٥)، ومحمد بن أبي شيبه في العرش (١١)، والطبراني في الكبير (١٥٤٧)، والدارقطني في الضعفاء (٣٨، ٣٩)، والبيهقي في الأسماء (٤١٧، ٤١٨)، والبغوي في شرح السنة (١٧٥/١، ١٧٦)، والمزي في تهذيب الكمال (١/١٨٤، ١٨٥)، والذهبي في العلو ص ٣٧-٣٩. والحديث استغربه ابن كثير في تفسيره (١/٣١٠). وفي الحديث عن ابن إسحاق، وجهالة جبير بن محمد؛ فإنه لم يوثقه غير ابن حبان، وللحافظ ابن عساكر جزء سماه: بيان وجوه التخليط في حديث الأبيط.

قوله: (فاستسق لنا ربك): أي: اطلب من الله أن يسقينا، وهذا لا بأس به؛ لأن طلب الدعاء ممن ترجى إجابته من وسائل إجابة الدعاء.

قوله: (نستشفع بالله عليك): أي: نجعله واسطة بيننا وبينك لتدعو الله لنا، وهذا يقتضي أنه جعل مرتبة الله في مرتبة أدنى من مرتبة الرسول ﷺ.

قوله: (ونستشفع بك على الله): أي: نطلب منك أن تكون شافعا لنا عند الله، فتدعو الله لنا، وهذا صحيح.

قوله: (سبحان الله! سبحان الله): قاله ﷺ استعظاما لهذا القول، وإنكارا له، وتنزيها لله عز وجل عما لا يليق به من جعله شافعا بين الخلق وبين الرسول ﷺ.

و(سبحان): اسم مصدر منصوب على أنه مفعول مطلق من سبح يسبح تسيحا، وهو لازم النصب وحذف العامل، فلا يأتي مع الفعل، فلا تقول: سبحت الله سبحانا. والتسيح: تنزيه الله عما لا يليق به من نقص أو عيب.

قوله: (حتى عرف ذلك في وجوه أصحابه)؛ لأنهم عرفوا أنه ﷺ لا يسبح في مثل هذا الموضع ولا يكرره إلا لأمر عظيم، ووجه التسيح هنا أن الرجل ذكر جملة فيها تنقص لله تعالى؛ فسبح النبي ﷺ ربه تنزيها له عما توهمه هذه الكلمة.

قوله: (ويحك): ويح: منصوب بعامل محذوف، تقديره: ألزمك الله ويحك. وهي وويل وويس كلها متقاربة في المعنى. ولكن بعض علماء اللغة قال: إن ويح كلمة ترحم، وويل كلمة وعيد. فمعنى ويحك: إني أترحم لك وأحن عليك. ومنهم من قال: كل هذه الكلمات تدل على التحذير.

قوله: (أتدري ما الله): المراد بالاستفهام التعظيم؛ أي: شأن الله عظيم، ويحتمل أن المعنى: لا تدري ما الله، بل أنت جاهل به؛ فيكون المراد بالاستفهام النفي.

قوله: (إنه لا يستشفع بالله على أحد): أي: لا يطلب منه أن يكون شفيعا إلى أحد، وذلك لكمال عظمته وكبريائه.

وهذا الحديث فيه ضعف، ولكن معناه صحيح، وأنه لا يجوز لأحد أن يقول: نستشفع بالله عليك.

## باب ما جاء في حماية النبي ﷺ حمى التوحيد وسده طرق الشرك

مناسبة الباب للتوحيد:

لما تكلم المؤلف رحمه الله فيما مضى من كتابه على إثبات التوحيد، وعلى ذكر ما ينافيه أو يناهضه كماله؛ ذكر ما يحمي هذا التوحيد، وأن الواجب سد طرق الشرك من كل وجه حتى في الألفاظ ليكون خالصا من كل شائبة.

عن عبد الله بن الشخير رضي الله عنه قال: انطلقت في وفد بني عامر إلى رسول الله ﷺ فقلنا: أنت سيدنا. فقال: «السيد الله تبارك وتعالى». قلنا: وأفضلنا فضلا، وأعظمنا طولا. فقال: «قولوا بقولكم أو بعض قولكم، ولا يستجرينكم الشيطان» رواه أبو داود بسند جيد<sup>(١)</sup>.

قوله: (تبارك): قال العلماء: معنى تبارك؛ أي: كثرت خيراته، ولهذا يقولون: إن هذا الفعل لا يوصف به إلا الله؛ فلا يقال: تبارك فلان؛ لأن هذا الوصف خاص بالله. وقول العامة: (أنت تباركت علينا) لا يريدون بهذا ما يريدونه بالنسبة إلى الله عز وجل وإنما يريدون: أصابنا بركة من مجيئك. والبركة يصح إضافتها إلى الإنسان إذا كان أهلا لذلك، قال أسيد بن حضير حين نزلت آية التيمم بسبب عقد عائشة الذي ضاع منها: ما هذه بأول بركتكم يا آل أبي بكر.

قوله: (وأعظمنا طولا): أي: أعظمنا شرفا وغنى.

قوله: (قولوا بقولكم أو بعض قولكم): الأمر للإباحة والإذن كما سبق.

وقوله: (قولوا بقولكم): يعني: قولهم: أنت سيدنا أو أنت أفضلنا، وما أشبه ذلك.

وقوله: (أو بعض قولكم): يحتمل أن يكون شكا من الراوي، وأن يكون من لفظ الحديث؛ أي: اقتصروا

على بعضه.

(١) أخرجه أحمد (٤/٢٤، ٣٥)، والبخاري في الأدب المفرد (٢١١)، وأبو داود في (الأدب، باب في كراهة التمداح ١٥٤/٥)، والنسائي في عمل اليوم والليلة، كما في تحفة الأشراف (٤/٣٦٠)، وابن السني (٣٨٩)، والبيهقي في الأسماء والصفات (ص ٢٢) من حديث عبد الله بن الشخير رضي الله عنه. وقال ابن مفلح في الآداب (٣/٤٦٤): إسناده جيد. وقال الحافظ في الفتح (٥/١٧٩): رجاله ثقات. وقد صححه غير واحد، وصححه صاحب عون المعبود (٤/٤٠٢).

قوله: (ولا يستجربنكم الشيطان): استجراه بمعنى: جذبته وجعله يجري معه؛ أي: لا يستميلنكم الشيطان ويجذبنكم إلى أن تقولوا قولاً منكراً؛ ومراد النبي ﷺ من هذا التحذير: حماية التوحيد وسد كل طريق يوصل إلى الشرك.

وقد جرى شرح هذا الحديث على أن النبي ﷺ نهاهم عن قول سيدنا؛ فحاولوا الجمع بين هذا الحديث وبين قوله ﷺ «أنا سيد ولد آدم» وقوله: «قوموا إلى سيدكم» وقوله في الرقيق: «وليقبل سيدي ومولاي» بواحد من ثلاثة أوجه:

الأول: أن النهي على سبيل الكراهة والأدب، والإباحة على سبيل الجواز.

الثاني: أن النهي حيث يخشى منه المفسدة، وهي التدرج إلى الغلو والإباحة إذا لم يكن هناك محذور.

الثالث: أن النهي بالخطاب؛ أي: أن تخاطب الغير بقولك: أنت سيدي أو سيدنا، بخلاف الغائب؛ لأن المخاطب ربما يكون في نفسه عجب وغلو وترفع، ثم إن فيه شيئاً آخر، وهو خضوع هذا المتسبب له وإذلال نفسه له، بخلاف ما إذا جاء من الغير، مثل: (قوموا إلى سيدكم)، أو على سبيل الغيبة؛ كقول العبد: قال سيدي ونحو ذلك، لكن هذا يرد عليه إباحته ﷺ للرقيق أن يقول لمالكه: سيدي.

والذي يظهر لي أن لا تعارض أصلاً؛ لأن النبي ﷺ أذن لهم أن يقولوا بقولهم، لكن نهاهم أن يستجربهم الشيطان بالغلو، مثل (السيد)؛ لأن السيد المطلق هو الله تعالى، وعلى هذا فيجوز أن يقال: سيدنا وسيد بني فلان ونحوه، ولكن بشرط أن يكون الموجه إليه السيادة أهلاً لذلك، أما إذا لم يكن أهلاً كما لو كان فاسقاً أو زنديقاً؛ فلا يقال له ذلك ولو كان أعلى مرتبة وجاهاً، وقد جاء في الحديث: «لا تقولوا للمنافق سيدي؛ فإنكم إذا قلتم ذلك أغضبتم الله»؛ فإذا كان أهلاً لذلك وليس هناك محذور فلا بأس به، وأما إن خشي المحذور أو كان غير أهل فلا يجوز. والمحذور: هو الخشية من الغلو فيه.

وعن أنس رضي الله عنه أن ناساً قالوا: يا رسول الله! يا خيرنا وابن خيرنا! وسيدنا وابن سيدنا! فقال: «يا أيها الناس! قولوا بقولكم، ولا يستهوينكم الشيطان، أنا محمد عبد الله ورسوله، ما أحب أن ترفعوني فوق منزلي التي أنزلي الله عز وجل» رواه النسائي بسند جيد<sup>(١)</sup>.

قوله: (يا خيرنا): هذا صحيح؛ فهو خيرهم نسباً ومقاماً وحالاً.

(١) أخرجه أحمد (٣/ ٢٤١)، والنسائي في عمل اليوم والليلة (٢٤٩، ٢٥٠)، وابن حبان (٦٧٠٧)، وأبو نعيم في الحلية (٦/ ٢٥٢) عن أنس رضي الله عنه. وقال ابن عبد الهادي في الصارم المنكي ص ٢٤٦: إسناده صحيح على شرط مسلم.

قوله: (وابن خيرنا): أي: في النسب لا في المقام والحال. وكذلك يقال في قوله: (وابن سيدنا).  
قوله: (قولوا بقولكم): سبق القول فيه.

قوله: (ولا يستهوينكم الشيطان): أي: لا يستميلنكم الشيطان فتهووه وتتبعوا طرقة حتى تبلغوا الغلو.

قوله: (أنا محمد عبد الله ورسوله): محمد اسمه العلم، وعبد الله ورسوله وصفان له، وهذان الوصفان أحسن وأبلغ وصف يتصف به الرسول ﷺ؛ ولذلك وصفه الله تعالى بالعبودية في أعظم المقامات، فوصفه بها في مقام إنزال القرآن عليه، قال تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ﴾ ووصفه بها في مقام الإسراء، قال تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا﴾ ووصفه بها في مقام المعراج، قال تعالى: ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ﴾ ووصفه بها في مقام الدفاع عنه والتحدي، قال تعالى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾؛ فالعبودية لله من أجل أوصاف الإنسان؛ لأن الإنسان إما أن يعبد الله أو الشيطان، قال تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ وَأَنْ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ قال ابن القيم:

هربوا من الرق الذي خلقوا له فبُلو برق النفس والشيطان

## باب ما جاء في قول الله تعالى ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ الآية

قوله: (وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ): الضمير يعود على المشركين، أي: ما عظموا الله حق تعظيمه حيث أشركوا به ما كان من مخلوقاته.

قوله: ﴿وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ الواو للاستئناف، والقبضة: ما يقبض باليد.

قوله: ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ تنزيه له عن كل نقص وعيب، ومما يبرزه عنه هذه الأنداد، ولهذا قال: (وتعالى)؛ أي: ترفع.

﴿عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أي: عن كل شرك يشركونه به، سواء جعلوا الخالق كالمخلوق أو العكس.

عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: جاء خبر من الأحرار إلى رسول الله ﷺ فقال: يا محمد! إنا نجد أن الله يجعل السماوات على إصبع، والأرضين على إصبع، والشجر على إصبع، والثرى على إصبع، وسائر الخلق على إصبع، فيقول: أنا الملك. فضحك النبي ﷺ حتى بدت نواجذه تصديقا لقول الخبر ثم قرأ: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ الآية.

وفي رواية لمسلم: والجبال والشجر على إصبع، ثم يهزهن فيقول: أنا الملك، أنا الله.

وفي رواية للبخاري: يجعل السماوات على إصبع، والماء والثرى على إصبع، وسائر الخلق على إصبع. أخرجاه<sup>(١)</sup>.

قوله: (حبر): الحبر: هو العالم الكثير العلم.

قوله: (إنا نجد): أي: في التوراة.

قوله: (فضحك النبي ﷺ): لولا ما بعدها لاحتملت أن يكون الضحك إنكارا؛ لأن من حدثك بحديث لا تطمئن إليه فقد تضحك منه، لكن لما قال عبدالله بن مسعود —وهو الرواي—: (تصديقا لقول الخبر)، وقرأ النبي

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة الزمر، باب قول الله تعالى ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ (٢٨٥/٣)، وفي التوحيد، (٧٤١٤، ٧٤١٥، ٧٤٥١، ٧٥١٣)، ومسلم في صفات المنافقين، باب صفة القيامة (٢١٤٧/٤).

ﷺ: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ الآية، دل هذا على أنه ﷺ أقره واستشهد لقوله بآية من كتاب الله، وسبب الضحك هو سروره، حيث جاء في القرآن ما يصدق ما وجده هذا الخبر في كتبه، وإن كان الرسول ﷺ يعلم علم اليقين أن القرآن من عند الله، لكن تضافر البينات مما يقوي الشيء.

قوله: (أنا الملك): هذه الجملة تفيد الحصر، لأنها اسمية معرفة الجزئين؛ ففي ذلك اليوم لا ملك لأحد، قال تعالى: ﴿يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ لَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ ففي ذلك اليوم يظهر ملكوت الله عز وجل ظهوراً بيناً.

قوله: (حتى بدت نواجذه): جمع ناجذ، وهو أقصى الأضراس.

قوله: ثم قرأ: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ﴾ الآية: هذا معنى الآية التي لا تحتل غيره، وأن السماوات مطويات كطي السجل للكتب بيمينه؛ أي: يده تبارك وتعالى؛ لأن ذلك تفسيره ﷺ، وتفسيره في الدرجة الثانية من حيث الترتيب، لكنه كالقرآن في الدرجة الأولى من حيث القبول والحجة.

ومن فوائد الحديث: إثبات الأصابع لله - عز وجل - لإقراره ﷺ هذا الخبر على ما قال. والإصبع إصبع حقيقي يليق بالله عز وجل كاليد، وليس المراد بقوله: (على إصبع) سهولة التصرف في السماوات والأرض، كما يقوله أهل التحريف، بل هذا خطأ مخالف لظاهر اللفظ والتقسيم، ولأنه ﷺ أثبت ذلك بإقراره، ولقوله ﷺ «إن قلوب بني آدم بين أصبعين من أصابع الرحمن» وقوله: (بين أصبعين) لا يلزم من البينية المماسية، ألا ترى قوله تعالى: ﴿وَالسَّحَابِ الْمُسَحَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ والسحاب لا يمس الأرض ولا السماء وهو بينهما.

إذا موقفنا من هذا الحديث الذي فيه إثبات الأصابع لله عز وجل أن نقر به ونقبله، وأن لا نفتصر على مجرد إمراره بدون معنى فنكون بمنزلة الأميين الذين لا يعلمون الكتاب إلا أماني، بل نقرؤه ونقول: المراد به أصبع حقيقي يجعل الله عليه هذه الأشياء الكبيرة، ولكن لا يجوز أبداً أن نتخيل بأفهامنا أو أن نقول بألسنتنا: إنه مثل أصابعنا، بل نقول: الله أعلم بكيفية هذه الأصابع، فكما أننا لا نعلم ذاته المقدسة. فكذلك لا نعلم كيفية صفاته، بل نكل علمها إلى الله - سبحانه وتعالى -.

قوله: (ثم يهزن): أي: هزا حقيقياً، ليبين للعباد في ذلك الموقف العظيم عظمته وقدرته، وكان الرسول ﷺ يقرأ هذه الآية ويقبض أصابعه ويبسطها، فصار المنبر يتحرك ويهتز؛ لأنه ﷺ كان يتكلم بهذا الكلام وقلبه مملوء بتعظيم الله تعالى.

فإن قلت: هل نفعنا بأيدينا كما فعل النبي ﷺ؟

فالجواب: إن هذا يختلف بحسب ما يترتب عليه؛ فليس كل من شاهد أو سمع يتقبل ذهنه ذلك بغير أن يشعر بالتمثيل؛ فينبغي أن نكف؛ لأن هذا ليس بواجب حتى نقول: يجب علينا أن نبلغ كما بلغ الرسول ﷺ

بالقول والفعل، أما إذا كنا نتكلم مع طلبة علم أو مع إنسان مكابر ينفي هذا ويريد أن يحول المعنى إلى غير الحقيقة؛ فحينئذ نعمل كما فعل الرسول ﷺ.

فلو قال قائل: إن الله سميع بصير، لكن قال: سميع بلا سمع وبصير بلا بصر، مع أن الرسول عليه الصلاة والسلام حين قرأ قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ وضع إبهامه على أذنه والتي تليها على عينه وأبو هريرة حين حدث به كذلك. فهذا الإنسان الذي يقول: إن الله سميع بلا سمع وبصير بلا بصر نقول له هكذا. وكذلك الذي ينكر حقيقة اليد ويقول: إن الله لا يقبض السماوات بيمينه، وأن معنى قبضته، أي: في تصرفه، فهذا نقول له كما فعل الرسول ﷺ. فالمقام ليس بالأمر بالسهل، بل هو أمر صعب ودقيق للغاية، فإنه يخشى من أن يقع أحد في محذور كان بإمكانك أن تمسك عنه، وهذا هو فعل الرسول ﷺ في جميع تصرفاته إذا تأملتها، حتى الأمور العملية قد يؤجلها إذا خاف من فتنة أو من شيء أشد ضررا، كما أصر بناء الكعبة على قواعد إبراهيم خوفا من أن يكون فتنة لقریش الذين أسلموا حديثا.

قوله: (والماء والثرى على إصبع): هذا لا ينافي قوله: (الأرضين على أصبع)؛ لأنه يقال: (الماء والثرى على إصبع)؛ أي: الأرض كلها على إصبع، ويراد بالإصبع الجنس، وإلا لتناقض مع معنى الحديث الذي قبله (الشجر على إصبع والماء على إصبع والثرى على إصبع)، إذ النكرة إذا كررت بلفظ النكرة فالثاني غير الأول غالبا، وإذا كررت بلفظ المعرفة فالثاني هو الأول غالبا، فيقال: الماء والثرى كناية عن الأرض كلها، أو إن الماء والثرى على إصبع وسكت عن الباقي، إما اختصارا أو اقتصارا.

ومسلم عن ابن عمر مرفوعا: «يطوي الله السماوات يوم القيامة ثم يأخذهن بيده اليمنى ثم يقول: أنا الملك، أين الجبارون؟! أين المتكبرون؟! ثم يطوي الأرضين السبع، ثم يأخذهن بشماله، ثم يقول: أنا الملك، أين الجبارون؟! أين المتكبرون؟!»<sup>(١)</sup>.

قوله: (يطوي الله السماوات): سبق معنى هذا الحديث، وأن المراد بالطي الطي الحقيقي.  
قوله: (ثم يقول: أنا الملك): يقول ذلك ثناء على نفسه - سبحانه -، وتبنيها على عظمتها الكاملة وعلى ملكه الكامل.

قوله: (أين الجبارون؟): الاستفهام للتحدي.

(١) أخرجه مسلم في صفات المنافقين، باب صفة القيامة (٤/٢١٤٨).

قوله: (ثم يأخذهن بشماله): كلمة (شمال) اختلف فيها الرواة، فمنهم من أثبتها، ومنهم من أسقطها، وقد حكموا على من أثبتها بالشذوذ؛ لأنه خالف ثقتين في روايتها عن ابن عمر. وأصل هذه التخطئة هو ما ثبت في صحيح مسلم: أن الرسول ﷺ قال: «المقسطون على منابر من نور على يمين الرحمن، وكلتا يديه يمين» وهذا يقتضي أنه ليس هناك يد يمين ويد شمال.

ولكن إذا كانت لفظة (شمال) محفوظة، فهي عندي لا تنافي (كلتا يديه يمين)، لأن المعنى أن اليد الأخرى ليست كيد الشمال بالنسبة للمخلوق ناقصة عن اليد اليمنى. وعلى كل، فإن يديه - سبحانه - اثنتان بلا شك، وكل واحدة غير الأخرى، والواجب علينا أن نقول: إن ثبتت عن رسول الله ﷺ فنحن نؤمن بها ولا منافاة بينها وبين قوله: (كلتا يديه يمين) كما سبق، وإن لم تثبت، فلا نقول بها.

وروي عن ابن عباس قال: «ما السماوات السبع والأرضون السبع في كف الرحمن إلا كخردلة في يد أحدكم»<sup>(١)</sup>.

قوله: (في كف الرحمن): هكذا ساقه المؤلف والذي في ابن جرير: (في يد الله) ففيما ساقه المؤلف إثبات الكف لله تعالى إن كان السياق محفوظا وإلا ففيه إثبات اليد، أما الكف فقد ثبت في أحاديث أخرى صحيحة. قوله: (إلا كخردلة): هي حبة صغيرة جدا يضرب بها المثل في الصغر والقلة، وهذا يدل على عظمتها - سبحانه -، وأنه لا يحيط به شيء، والأمر أعظم من هذا التمثيل التقريبي، لأنه تعالى لا تدركه الأبصار، ولا تحيط به الأفهام.

وقال ابن جرير: حدثني يونس، أخبرنا ابن وهب، قال: قال ابن زيد: حدثني أبي، قال: قال رسول الله ﷺ: «ما السماوات السبع في الكرسي إلا كدراهم سبعة ألقيت في ترس».

(١) أخرجه ابن جرير (١٧/٢٤)، وفي إسناده عمرو بن مالك النكري، قال ابن حجر في تهذيب التهذيب (٩٦/٨): ذكره ابن حبان في الثقات، وقال: مات سنة تسع وعشرين ومائة، وقال: يعتبر حديثه من غير رواية ابنه عنه، يخطئ ويغرب. وقال الشيخ سليمان بن عبد الله كما في إبطال التنديد ص ١٧٠: هذا الإسناد في نقدي صحيح.

قال: وقال أبو ذر رضي الله عنه: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما الكرسي في العرش إلا كحلقة من حديد ألقيت بين ظهري فلاة من الأرض»<sup>(١)</sup>.

الكرسي: موضع قدمي الله تعالى، هكذا قال ابن عباس رضي الله عنهما.  
والترس: شيء من جلد أو خشب يحمل عند القتال يتقى به السيف والرمح ونحوهما.  
زقوله: (ما الكرسي في العرش): أي: بالنسبة إليه، والعرش هو المخلوق العظيم الذي استوى عليه الرحمن، ولا يقدر قدره إلا الله عز وجل، والمراد بالحلقة حلقة الدرع، وهي صغيرة وليست بشيء بالنسبة إلى فلاة الأرض.  
وهذا الحديث يدل على عظمته عز وجل فيكون مناسباً لتفسير الآية التي جعلها المؤلف ترجمة للباب.

وعن ابن مسعود، قال: (بين السماء الدنيا والتي تليها خمسمائة عام، وبين كل سماء وسماء خمسمائة عام، وبين السماء السابعة والكرسي خمسمائة عام، وبين الكرسي والماء خمسمائة عام، والعرش فوق الماء، والله فوق العرش، لا يخفى عليه شيء من أعمالكم» أخرجه ابن مهدي عن حماد بن سلمة عن عاصم عن زر عن عبدالله، ورواه بنحوه المسعودي عن عاصم عن أبي وائل عن عبد الله. قاله الحافظ الذهبي رحمه الله تعالى، قال: وله طرق<sup>(٢)</sup>.

قوله: (وعن ابن مسعود...): هذا الحديث موقوف على ابن مسعود، لكنه مما لا مجال للرأي فيها، فيكون له حكم الرفع، لأن ابن مسعود رضي الله عنه لم يعرف بالأخذ عن الإسرائيليات.

(١) أخرجه ابن جرير (٧/٣، ٨). وقال الشيخ سليمان بن عبد الله كما في إبطال التنديد ص ١٧٠: رواه أصبغ بن الفرغ بهذا الطريق واللفظ، وهو مرسل، وعبد الرحمن بن زيد ضعيف. وأخرجه: محمد بن أبي شيبه في العرش (٥٨). وفي إسناده إسماعيل بن مسلم المكي؛ كما في السلسلة (١٠٩)، وهو متروك. وفيه أيضاً: المختار بن غسان، مجهول لا يعرف بجرح ولا تعديل. انظر: التهذيب (١٠/٦٨). وأخرجه البيهقي في الأسماء والصفات ص ٤٠٤ - ٤٠٥). وفيه يحيى بن سعيد: قال ابن حبان في المجروحين (٣١/١٢٩): يروي المقلوبات والملزقات، لا يجوز الاحتجاج به إذا انفرد. وفيه أيضاً ابن جريج، وهو مدلس، وقد عنعنه. وأخرجه أيضاً من طريق آخر، وفيه: إبراهيم بن هشام بن يحيى الغساني، كذبه أبو حاتم وأبو زرعة؛ كما في الميزان (١/٧٢ - ٧٣). وأخرجه: ابن مردويه كما في تفسير ابن كثير (١/٣٠٩، ٣١٠). وفيه مجهول، وضعيفان.

(٢) أخرجه الدارمي في الرد على الجهمية ص ٢٦ وفي النقض على المريسي ص ٧٣، ٩٠، ١٠٥، وابن خزيمة في التوحيد ص ١٠٥١، ١٠٦، (٣٧٦، ٣٧٧)، والطبراني في الكبير (٨٩٨٧)، والبيهقي في الأسماء ص ٤٠١، والخطيب في الموضح (٤٧/٢) وقد صححه ابن القيم في اجتماع الجيوش الإسلامية ص ١٠٠، والذهبي في العلو ص ٦٤. وقال الهيثمي (٦٨/١) بعدما عزاه للطبراني: رجاله رجال الصحيح.

قوله: (بين السماء الدنيا والتي تليها خمسمائة عام) وعلى هذا تكون المسافة بين السماء الدنيا والماء أربعة آلاف سنة، وفي حديث آخر: (إن كثف كل سماء خمسمائة عام)، وعلى هذا يكون بين السماء الدنيا والماء سبعة آلاف وخمسمائة عام، وإن صح الحديث، فمعناه أن علو الله - عز وجل - بعيد جدا.

فإن قيل: يرد على هذا ما ذكره المعاصرون اليوم من أن بيننا وبين بعض النجوم والمجرات مسافات عظيمة أبعد من هذا؟! يقال في الجواب: إنه إذا صحت الأحاديث عن رسول الله ﷺ فإننا نضرب بما عارضها عرض الحائط، لكن إذا قدر أننا رأينا الشيء بأعيننا، وأدركنا بأبصارنا وحواسنا، ففي هذه الحال يجب أن نسلك أحد أمرين:

الأول: محاولة الجمع بين النص والواقع إن أمكن الجمع بينهما بأي طريق من طرق الجمع.

الثاني: إن لم يمكن الجمع تبين ضعف الحديث؛ لأنه لا يمكن للأحاديث الصحيحة أن تخالف شيئا حسيا واقعا أبدا، فلا يمكن للدليلين القطعيين أن يتعارضا أبدا؛ لأن تعارضهما يقتضي إما رفع النقيضين أو جمع النقيضين، وهذا مستحيل، فإن ظن التعارض بينهما، فإما أن لا يكون تعارض ويكون الخطأ من الفهم، وإما أن يكون أحدهما ظنيا والآخر قطعيا.

فإذا جاء الأمر الواقع الذي لا إشكال فيه مخالفا لظاهر شيء من الكتاب أو السنة، فإن ظاهر الكتاب يؤول حتى يكون مطابقا للواقع.

قوله: (والله فوق العرش): هذا نص صريح بإثبات علو الله تعالى علوا ذاتيا، وعلو الله ينقسم إلى قسمين: أ- علو الصفة، وهذا لا ينكره أحد ينتسب للإسلام، والمراد به كمال صفات الله، كما قال تعالى: ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.

ب- علو الذات، وهذا أنكره بعض المنتسبين للإسلام، فيقولون: كل العلو الوارد المضاف إلى الله المراد به علو الصفة، فيقولون في قوله ﷺ (والله فوق العرش) أي في القوة والسيطرة والسلطان، وليس فوقه بذاته. ولا شك أن هذا تحريف في النصوص وتعطيل في الصفات.

قوله: (لا يخفى عليه شيء من أعمالكم) يشمل أعمال القلوب وأعمال الجوارح المرئي منها والمسموع، وذلك لعموم علمه وسعته، وإنما أتى بذلك بعد ذكر علوه ليبين أن علوه لا يمنع علمه بأعمالنا.

وعن العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «هل تدرون كم بين السماء والأرض؟» قلنا: الله ورسوله أعلم. قال: «بينهما مسيرة خمسمائة سنة، ومن كل سماء إلى سماء مسيرة خمسمائة سنة، وكثف كل سماء مسيرة خمسمائة سنة، وبين السماء السابعة والعرش بحر بين أسفله وأعله»

كما بين السماء والأرض، والله تعالى فوق ذلك، وليس يخفى عليه شيء من أعمال بني آدم» أخرجه أبو داود وغيره<sup>(١)</sup>.

قوله: (قلنا: الله ورسوله أعلم): في المسائل الشرعية يقال: الله ورسوله أعلم، لأنه ﷺ أعلم الخلق بشرع الله، وعلمه به من علم الله، وليست هذا كقول (ما شاء الله وشئت)، لأن هذا في باب القدر والمشية، ولا يمكن أن يجعل الرسول ﷺ مشاركا لله في ذلك، ومن هنا نعرف خطأ وجهل من يكتب على بعض الأعمال: ﴿وَقُلْ اَعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ﴾ بعد موت الرسول ﷺ وتعذر رؤيته، فالله يرى، ولكن رسوله بعد موته لا يرى.

قوله: (والله تعالى فوق ذلك): هذا دليل على العلو العظيم لله عز وجل، وأنه - سبحانه - فوق كل شيء ولا يحيط به شيء من مخلوقاته، لا السماوات ولا غيرها.

والله أعلم، والحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وأسأل الله أن يختم لنا ولكم بالتوحيد، آمين.

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ٢٠٦، ٢٠٧)، وأبو داود في السنة، باب في الجهمية (٥/ ٩٣)، والترمذي في تفسير القرآن، سورة الحاقة (٩/ ٦٠) وقال: حسن غريب. وابن ماجه في المقدمة، باب فيما أنكرت الجهمية (١/ ٩٦)، وعثمان الدارمي في الرد على الجهمية ص ٢٤: وفي النقض على المريسي ص ٩٠، وابن أبي عاصم في السنة (٥٧٧)، وابن خزيمة في التوحيد (١٠١، ١٠٢)، والآجري في الشريعة (٢٩٢)، وغيرهم، من طريق عبد الله بن عميرة، عن الأحنف بن قيس، عن العباس. وقال الذهبي في الميزان (٢/ ٤٦٩): عبد الله فيه جهالة. قال البخاري: لا يعرف له سماع من الأحنف بن قيس. وهذا الحديث يعرف بحديث الأوعال. وانظر: تهذيب السنن لابن القيم (٧/ ٩٢، ٩٣).